محمد المجذوب

علماء ومفكرون عرفتهم

الجزء الثاني

الطبعة الرابعة

دار الشواف

• أصدرته عام ١٩٩٢ دار الشواف للنشر والتوزيع
رقم الإيداع بجمهورية مصر العربية ٥٥ ٧٨/ ٩٢
طبع بالمطبعة الفنية ــ عابدين ــ القاهرة ــ ت ٣٩١١٨٦٢

الناشر: دار الشواف للنشر والتوزيع
السعودية ــ الرياض ــ العليا ــ شارع الثلاثين ــ شرق بندة
ت/ ٤٦٢٢٦٣٠ ــ ٤٦٢٢٦٦٧ ــ فاكس/ ٤٦٢٢٨٦٦

دار الشــواف للنشر والتوزيع

الريـاض - العليـا - شـارع الثلاثين - شـرق بنـده ت : ٤٦٢٢٦٣٠ - ٤٦٢٢٦٦٧ فاكس : ٤٦٢٢٨٦٦
Riyad - Olaiya, Thalatheen St., (East to Panda) Tel.: 4622630 - 4622667 - Fax.: 4622866

هذا الكتـــاب

منذ صدور الطبعة الأولى من (علماء ومفكرون عرفتهم) كانت النية متجهة إلى العمل فى تحضير الجزء الثانى من هذه التراجم ، ولكن الأعباء الكثيرة فى الجامعة الإسلامية ، وفى الاعمال الاخرى من كتابه البحوث وإعداد بعض المؤلفات للنشر ، قد حالت دون إخراج المواد إلى حيز الواقع ، حتى شاء الله إنهاء سِنِىّ العشرين فى خدمة الجامعة بنهاية العام ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ فكانت فرصة أتاحت لى التفرغ لذلك العمل وما يتصل به ..

وها هو ذا الكتاب المنشود ينتهى بمعونة الله إلى مرحلة الطبع بعد جهود متصلة لم تكد تنقطع طوال عام كامل ، وهو لا يختلف عن توأمه السابق من حيث الموضوع ، إذ ليس هؤلاء الفضلاء سوى نماذج أخرى من أولئك العلماء والمفكرين الذين قدمتهم إلى القارىء فى المجلد الأول ..

بعض هذه التراجم كان من حقها أن تأخذ مكانها فى الكتاب الأول ، لكن تأخر أجوبة المترجمين نقلها إلى الكتاب الثانى ، وهناك تراجم أخرى كان من حقها إن تظهر فى هذا الجزء إلا أن تأخر أجوبتها حتى اليوم أخل بالخطة المرسومة فخلا ممن كنا نحب ألا يخلو من ترجمتهم ..

أما ترتيب التراجم فقد استقر على سبيله فى الكتاب الاول ، من حيث الحروف الأولى من أسماء المترجمين ، دون اعتبار لتاريخ كتابتها . .

وكذلك الأمر فى منهج العرض لم نفارق به خطة سابقة ، فهو تعريف واستطلاع وتحليل ، وحوار يتسع للمناقشة فى كل ما نراه قابلا للمراجعة . لأن الغرض من كلا الكتابين هو تسجيل واقع عمل فى نسجه وتأليفه علماء ومفكرون أسهموا فى إنارة الطريق لمن عاصرهم ولمن يعقبهم من أجيال المسلمين ، وقد نختلف مع بعضهم فى بعض أفكاره فلا نكتم موقفنا منه فنراجعه بالصراحة القائمة على التقدير الواجب الذى يرضى المنصفين ، وإن أسخط بعض المتعجلين ، الذين لم يروضوا أنفسهم

على احترام حرية الآخرين .

وكلمة أخيرة أسرُّ بها إلى القارىء الكريم ، وهى أنى لم أرد بكتابىَ مدحاً ولا قدحاً ، ولم أبتغ من وراء ذلك ربحاً ، وأى مردود مادى يكافىء ما استهلكاه من عمرى ، وإنما هى رغبة خالصة فى رصد المسيرة الفكرية ، التى يسهم فى قيادتها جمهور من أولي الفضل المعاصرين ، فإن وُفقْتُ إلي ما أريد من الخير فبنعمة الله ، وإن أخطأته فى بعض ما كتبت فرجائى أن يشمله بعفوه ورحمته التى وسعت كل شىء .

والحمد لله رب العالمين . .

المدينه المنورة ـ ساحة مسجد قباء

محمد المجذوب

أبو الأعلى المودودي

لو جرت الأمور فى طريقها الصحيح لاحتلت ترجمة الأستاذ أبى الأعلى المودودى ، تغمده الله برحمته ، مكانها فى المجلد الأول من (علماء ومفكرون عرفتهم) ولاتخذت هذه الترجمة صورة الحوار الذى انتظم ذلك الجزء جميعاً ، ولكن حالت دون ذلك حوائل ، أهمها مسئوليات المعمعة الطويلة التى شغلت الأستاذ وإخوانه حتى عن أنفسهم فى مواجهة أعداء الإسلام ، فلم يجد متسعاً للإجابة على الاستطلاع الذى وجهناه إليه ، ولم يفرغ مرافقه الأستاذ خليل أحمد الحامدى لتحقيق مواعيده المتلاحقة لنا بالحصول على أمليات الشيخ التى انتظرناها حتى قبيل تقديم الكتاب الأول إلى المطبعة . . .

ومن هنا كان اتجاهنا فى كتابة ترجمته إلى استخلاص عناصرها من أوثق المصادر التى تحدثت عنه ، وفى مقدمتها أحاديث الأستاذ الحامدى نفسه ، الذى هو من أعلم الناس بالراحل العزيز ، وأكثرهم اطلاعاً على دقائق تلك الحياة الحافلة بالجهاد لإعلاء كلمة الله . . وهكذا استحال الاستطلاع نوعاً من العرض التاريخى الموثق ، ممزوجاً بالدراسة التحليلية التى سلكنا سبيلها فى الكتاب الأول ، كلما وجدنا للرأى الخاص مجالاً فى أثناء ذلك العرض .

وأقف لحظة لأنفى عن عملى الادعاء باستيفاء الصورة الكاملة عن تلك الحياة الباهرة ، وعذرى فى كل قصور يؤخذ علي أن الكلام عن مثل المودودى يقتضى الإحاطة أولاً بأبعاد ثقافته العالمية ، التى تناولت أهم مشكلات الإنسان على ضوء التطورات التى حققتها البشرية فى مختلف جوانب الحياة ، ثم الإحاطة كذلك بمسلسل الوقائع التى واجهها وعالجها على مدى عشرات السنين ، وفى مختلف الميادين ، وكل من الأمرين يتطلب ما تضيق عنه المجلدات فكيف بالصفحات ! . .

ثم وقفة أخرى أستعيد فيها بعض الذكريات عن لقائى الأول والأخير لهذا العلامة ، الذى جدد به الله شباب الإسلام ، وملأ عالمنا الإسلامى المعاصر ألواناً من المعرفة النيرة المستقيمة . .

حدث هذا اللقاء قبل خمس عشرة سنة فى رحاب الجامعة الإسلامية ، ولم أكن قد رأيته قط ، ومع ذلك شعرت كأنى قديم المعرفة به ، إذ كانت صورته قد انطبعت فى خيالى عن طريق كتبه . فلما واجهته لم أستغرب هيئته ، التى لم تختلف كثيراً عن صورته المكنونة فى نفسى ، فهو إلى هيكله الوسيط الممتلىء ، وبلحيته التى تملأ ترقوته ، يُطل على الناظر فى جِدِّية وقور ، يحس من خلالها أنه تلقاء واحد من الأئمة الذين طالما قرأنا أوصافهم فى كتب التراجم . ولعلى لا أجانب الواقع إذا قلت إن أبرز سماته ذلك الوقار الذى يجلله كله ، حتى مشيته ونظراته ولهجته ، فيذكرك بقول عبد الله بن المبارك فى إمام المدينة :

يأبى الجواب فما يراجع هيبةً والسائلون نواكس الأذقان
عز الوقار ومجد سلطان النهى فهو المهيب وليس ذا سلطان

ولم يطل لقاؤنا يومئذ ومضيت ، ثم لم أره بعد ذلك ، بيد أنى لم أفارق أفكاره التى تغنينى عن الاجتماع بشخصه وظللت أتتبع أخبار النضال الذى ما ينفك يخوضه فى سبيل تثبيت الطابع الإسلامى على الدولة ، التى ما كان لها أن تكون لولا الإسلام . . إلى أن توفاه الله يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٧٩ .

وبعد ، فهذه لمحة رأيت تقديمها قبل الدخول فى غمار تلك الحياة الحافلة بجلائل الأعمال ، والله المستعان .

البيئة الصالحة :

كان مولد الأستاذ المودودى عام ١٩٠٣ فى إحدى مدن ولاية حيدر أباد الدكن من شبه القارة الهندية ، ويرجع بنسبه البعيد إلى الشيخ قطب الدين مودود صاحب الطريقة الجشتية المعروفة منذ القرن السادس الهجرى فى منطقة (هرات) من ديار الأفغان ، وقد اختير لهذا المولود اسم أحد أجداده من شيوخ هذه الطريقة ، الذى كان اسمه أبا الأعلى المودودى ، وهو اختيار لا بد أن يكون فيه نزعة الأسرة إلى التصوف الذى تحدر إليها بطريق الوراثة ، فطبعها

بمشخصاته المميزة ، التي برزت جلية فى سلوك والده السيد أحمد حسن . الذى على الرغم من ثقافته الإنجليزية التى تلقى مبادئها من جامعة عليكرة ، وعمله مدة فى المحاماة التى حاول أن يتخذها مهنة لتأمين المعيشة ، لم يلبث أن انصرف عن التفكير بالدنيا كى يتفرغ للعبادة والأذكار ورياضة النفس مكتفياً من الحياة بالمتيسر من القوت . .

وبدأ أبو الأعلى مرحلة التعليم على يد والده الذى تلقى منه دروسه الأولية فى العربية والقرآن والحديث والفقه واللغة الفارسية ، وبلغ من نباهته واجتهاده فى هذه المرحلة أن استظهر موطأ مالك عن ظهر قلب . .

وقد عنى السيد أحمد حسن بتربية ولده على أفضل ما يتصور من الأخلاق . ويتحدث الأستاذ عن عناية ذلك الوالد قائلاً : إنه كان يأخذه بالتوجيه الشامل ، حتى ليمنعه من استعمال الألفاظ الدارجة ، ويدرب لسانه على أفضل الأساليب ، وفى الليالى يقص عليه من أخبار الأنبياء ، وتاريخ الإسلام ، والأحداث الشهيرة من أيام الهند ، ويكشف له عما وراءها من الدروس والعبر .

ويقول الأستاذ أيضاً : لقد ضربت ذات يوم طفلاً لأحد الخدم فى حارتنا ، ولما انتهى الخبر إلى والدى دعانى وجاء بذلك الطفل وأمره بأن يقتص منى . .

وهكذا أحيط أبو الأعلى منذ نعومة أظفاره بالكريم من التربية العملية ، التى طبعت حياته بالأكرم من الخلال . .

أما من حيث نباهته فإلى جانب حفظه للموطأ فى سنه المبكرة كان تقدمه فى العربية التى — يقول — إنه بلغ من إلمامه بهاخلال بضعة شهور ما مكنه من ترجمة كتاب (المرأة الجديدة) تأليف الكاتب المصرى الشهير قاسم أمين ، إلى اللغة الأردية بطريقة نالت الإعجاب .

ومن تلك المرحلة انتقل إلى المدرسة الثانوية فأُلحق بالسنة الثامنة ولما يتجاوز الحادية عشرة من العمر واستحصل على شهادتها وهو فى الرابعة عشرة بتفوق بالغ . .

ولقد أدى زهد والده إلى ضيق فى معيشتهم شديد ، اضطر الوالد للنزوح إلى مدينة بهوبال ،تاركاً ابنه يتابع دراسته فى (أورنك أباد) . ويصف الأستاذ المودودى هذه الفترة من حياته قائلاً : كان مسكنه على مبعدة خمسة عشر كيلاً من مدرسته ، وعليه أن يجتازها على قدميه ذهاباً وإياباً كل يوم . . وربما فعل ذلك وهو طاوى البطن لا يجد ما يأكله(١) . . وبعد نصف سنة جاءته الأخبار عن شلل أصاب والده ، فلم يتمالك أن يترك المدرسة ليعود مع والدته إلى بهوبال حيث قاما برعاية والده الصالح حتى وافته المنية عام ١٩١٧ .

من البؤس إلى الصحافة :

ويصف الأستاذ الحامدى أيام المودودى(٢) بعد وفاة أبيه بأنها فترة قاتمة ، إذ لم يبق له سند من الناس وبات عليه أن يضرب فى الأرض طلباً للرزق ، فهو مشتت الفكر ، دائب الرحلة من بلد إلى بلد آخر ، إلى أن ألقى عصا التسيار فى مدينة (بجنور) وهناك ألفى بعض الاستقرار إذ وجد عملاً فى إحدى الصحف إلا أنه لم يستمر فيها سوى قليل حتى تركها إلى مجلة أسبوعية فى المدينة نفسها . والظاهر أن الدافع له إلى إيثار هذه المجلة هو التزامها (حركة المحافظة على الخلافة الإسلامية) وقد انتفع بموهبته الإنشائية فجعل يكتب لها الافتتاحيات اللاهبة فى موضوع الخلافة ، الذى كان مشغلة نفوس مسلمى الهند فى ذلك العهد ، ولم يكتف بنصرة الحركة عن طريق الكتابة فقط بل جعل يقتطع من أجوره ما يتبرع به لصندوقها .

وفى هذا الجو المتأجج بالحماسة الإسلامية ألّف اثنين من أوائل كتبه ، أحدهما (النشاطات التبشيرية فى تركية) والثانى بعنوان (مجازر اليونانيين فى

---

١ ــ فى خطاب من أمير الجماعة الإسلامية إلى المؤلف يقر كل ما كتبناه عن الفقيد إلا أنه يتوقف عند هذه الفقرة عن دراسته الابتدائية وحفظه موطأ مالك ، وقد نقلنا الخبرين من كتاب الأستاذ الحامدى ص ٦ .

٢ ــ المرجع نفسه ص ٧ .

سمرنا) وفى هذين العنوانين ما يكفى لتصوير قلق مسلمى الهند على إخوانهم فى تركية ، التى كانت ترزح أثناء ئِذٍ تحت كابوس الاحتلال الصليبى ، وتعانى من عدوان اليونانيين على مناطقها التى أغرقوها بدماء الأبرياء . .

وفى العنوانين إلى ذلك دلالة أخرى على ما فى قلب هذا الفتى ، الذى لم يتجاوز السابعة عشرة بعد من تفاعل مع أحداث العالم الإسلامى ، وبخاصة فى دولة الخلافة ، التى كانت ، على ضعفها الذى أطمع بها أعداء الإسلام ، مطمح أنظار المسلمين على تباعد أقطارهمْ ، والمركز الذى يستقطب مشاعرهم الروحية ، فيؤلف قلوبهم حول الخليفة الذى يعتبر الرمز المقدس لوحدة العالم الإسلامى . .

الطريق إلى القمة :

ولقد كان لاتصال المودودى بحركة الخلافة ، ولمقالاته البليغة فى نصرتها ، أثر شد أبصار الشخصيات السياسية إليه ودفعهم إلى تقديرِ مواهبه . وفى رحلة إلى دهلى اجتمع باثنين من أكابر جمعية علماء الهند المتعاونين مع غاندى فى نطاق النضال ضد الاستعمار البريطانى ، وكانا من المعجبين بكتاباته المثيرة ، وأسلوبه الأخّاذ ، وعن طريق هذين العالمين الكبيرين توثقت صلته بجمعية العلماء ، حتى أسندت إليه رئاسة التحرير لأول صحيفة أصدرتها باسم (المسلم) عام ١٩٢١ وفى عام ١٩٢٤ أصدرت صحيفة أخرى باسم (الجمعية) وأسندت إليه كذلك أمر تحريرها ، وقد استمر فى عمله ذاك إلى عام ١٩٢٨ .

وكفى بهذا دليلاً على ما بلغه المودودى الشاب من مكانة فى أوساط أهل العلم والعاملين فى ميدان القضية الإسلامية وحركة التحرير الوطنية جميعاً . جعلته موضع الثقة من أفاضل العلماء وكبار الساسة . . وهى ثقة من شأنها أن تفسح السبيل لمستقبل أبعد وأعمق .

ثم لا ننسى أن عمله فى الصحافة قد أتاح له الإطلاع على خفايا الأحداث وأنواع النفوس ، وفى ذلك زادٌ لا غنى عنه للرجل الذى يعده القدر للإسهام فى قيادة الفكر الإسلامى على المستوى العالمى . . .

مزيـد من الثقافـة :

ودهلى فى الهند كالبصرة فى دولة بنى العباس ، ملتقى الثقافتين الغربية والإسلامية ، فلا معدى للرجل الطُّلَعَةِ ، ذى النهم الذى لا يخمد إلى المعرفة ، من الانتفاع بهذه البيئة إلى أقصى الحدود ، وكذلك فعل صاحبنا ، فأقبل على تكثيف معرفته العربية بدراسته علوم البلاغة والأدب على أحد المختصين فى ذلك البلد ، وقرأ أمهات من كتب الحديث على آخر من المشهورين بهذا الفن ، واغترف ماأمكنه من التفسير والفقه والمنطق من أحد كبار علماء ذلك البلد..

ولم يغفل أمر العلوم العصرية فتعلم الإنجليزية على أحد أساتذتها فى أربعة أشهر ، وعن طريق الإنجليزية أطل على الكثير من علوم الغرب كالتاريخ والفلسفة والعلوم الاجتماعية ، وبذلك أتيح له أن يعلم من مواضع التلاقى والافتراق بين الثقافتين ، ما لم يكن ليحيط به لولا هذا التضلع الذى وفقه الله إليه .

وفى هذا الغمار من الكتابة فى شئون المسلمين ، والدراسة المتصلة لمختلف الفنون والعلوم ، تمكن المودودى من إخراج كتابين آخرين أحرزا الكثير من الإعجاب والرواج ، وهما (مصدر قوة المسلم) و (الجهاد فى الإسلام) . . وقد نشرهما أولاً حلقات متسلسلة فى جريدة الجمعية ثم أخرجهما فى طبعتين مستقلتين .

وكان لهذا التوسع الثقافى أثره العميق فى نفس الأستاذ المودودى ، اذ تحصل لديه من العلم ما أتاح له أن يُكَوِّنَ تصوراً متكاملاً عن الإسلام ، يختلف عن المفهوم الذى جمد عليه المشايخ التقليديون . وكان لكل من الكتابين على وجه الخصوص أثره الفعال فى عقل مؤلفه ، إذ كان عليه أن يراجع الكثير ن المصادر ، ليستمد منها الركائز الأساسية للموضوع الذى يزمع كتابته ، فيستكشف أثناءئذ من الحقائق ما لم يقع عليه من قبل ، وبذلك تتسع مساحة أفكاره ، وتمتد أشواطه خلالها ، حتى بلغ كل من الكتابين الحجم الذى لم يتصوره ..وتولى طبع كتاب الجهاد للمرة الأولى العلامة الإسلامى السيد سليمان الندوى فى خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، وبلغ من إعجاب شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال بهذا الكتاب أن جعل ينصح للشباب المسلم باقتنائه

والانتفاع به . . بل إن الأستاذ المودودى نفسه يرحمه الله يقول عنه : (إن كتاب الجهاد نفعنى أكثر من أى قارىء له ، فقد بدأت تأليفه وأنا على حمية القومية ، وفرغت منه وأنا على حمية الإسلام . . حتى لقد آليت ألّا أعود إلى ممارسة الصحافة فى المستقبل إلا على أساس أن أجعلها وسيلة لخدمة الإسلام[1] . .) .

فى طريق الدعوة :

وتحت هذا التأثير الفكرى قرر الأستاذ أجزل الله أجره أن يقف حياته على الدعوة إلى الله ، ولكنه كان على أتم القناعة بأن الإقدام على هذه المهمة يقتضى استعداداً خاصاً من الزاد العلمى يتناسب مع مستوى العصر . . هذا العصر الملىء بالأفكار والتيارات المذهبية مما لم يسبق له مثيل حتى فى العصور العباسية .

وهكذا انقطع الفتى إلى المطالعة الواسعة العميقة ، مكتفياً من العمل الدنيوى بالقليل الذى يكفه عن الحاجة ، لينصرف بكل طاقته إلى الدعوة عن طريق مجلته (ترجمان القرآن) وقد صور لنا مدى تصميمه بالكلمة التالية التى افتتح بها العدد الأول منها :

«إن هذه المجلة تضع قدمها اليوم فى طريق محفوف بالمصاعب والمحن ، ويتولى عبئها رجل يعترف بأنه ضعيف فاقد القيمة صفر اليدين . ولكنه على الرغم من وعورة الطريق استعد لحمل هذا العبء يقيناً منه بأن الله الذى نور قلبه بالإسلام ، وخلق فى نفسه حب الدعوة إليه ، هو الذى سوف يؤازره بنصر من عنده ، ويمنحه الرسوخ فى العلم ، والصحة فى الفكر ، والسلامة فى القلب ، والطهارة فى النفس، والسمو فى الروح[2] . . » .

وبهذه العزيمة الفذة يمضى الشاب الفقير الأعزل ، إلا من سلاح الإيمان والرؤية الواضحة والتصميم الحاسم ، فى طريق الدعوة التى وهب لها نفسه ، ووقف

---

١ ــ بتصرف عن كتاب الحامدى ص ١٨ .

٢ ــ المرجع نفسه ص ١٩ .

عليها مجلته التى لم يكن لها مؤنس سواه ، فهو مديرها ومحررها ، ومصحح طبعاتها والساعى الذى يحملها إلى البريد . . والمجيب على كل استفسار يتعلق بها . . فمن أجلها يسهر الليالى يطالع ويكتب إلى صلاة الفجر ، ومن أجلها يتحمل شظف العيش حتى لتأتى عليه أيام لا يتاح له من الطعام إلا العدس والماء[1] . . .

وعلى غلاف المجلة كتب عهده للقراء بأن « غايتها إعلاء كلمة الله والدعوة إلى الجهاد فى سبيله ، ووسيلتها إلى ذلك نقد الأفكار المنحرفة ومبادىء الحضارة الغربية بمحك القرآن ، ثم عرض المبادىء التى جاء بها كتاب الله وسنة رسوله فى كل مجال من الفلسفة والعلوم والسياسة والاقتصاد والاجتماع . . . إن هذه المجلة تدعو الأمة المسلمة إلى حياة جديدة ، وخلاصة دعوتها : أيها الناس . اجعلوا قلوبكم وأذهانكم مسلمة خاضعة لله ، وتخلوا عن نظم الجاهلية واسلكوا صراط الله المستقيم ، وخذوا كتاب الله بالقوة لتكونوا سادة العالم وأئمة الحضارات » .

وسرعان ما انتشرت هذه الأفكار فى مواطن المسلمين على مدى القارة ، كما ينتشر شعاع الفجر فى ليل كثيف الظلمات . . وأخذت كلماته سبيلها إلى القلوب والعقول تتداولها وتتأملها وتتفاعل معها . . .

المودودى وإقبال :

والأحداث التى شاء الله أن تنضج على نارها شخصية المودودى وأفكاره ، هى نفسها التى مازجت عقل إقبال وقلبه ، فتشابهت الشخصيتان إلى حد بعيد ، وتلاقت أفكارهما فى إطار يكاد يكون واحداً . . ولعل أبرز نقاط التلاقى بين العملاقين هى إيمان كل منهما بعظمة الإنسان المسلم ، واحتقارهما للضعف الذى مسخ ذاتيته فى أتُون النوائب ، التى أطبقت عليه فى كل مكان من وطن الإسلام ، فكان من الأهداف الفكرية لكل منهما إيقاظ تلك الذوات المخدَّرة ، وإعادة الثقة بالنفس إليها ، وبعث وعيها لحقائق هذا

---

١ ــ المرجع نفسه ص ٢٠

الدين ، التى غيرت مسيرة الإنسانية من قبل ، وهى على أتم الاستعداد لتغييرها من بعد . .

وأحس شاعر الإسلام إقبال من خلال مقالات المودودى فى « ترجمان القرآن » قوة الوشائج التى تجمع بينهما ، فكتب إلى صديق له فى حيدر أباد ليبلغه رغبته فى مقابلته ، فلم يتلبث حتى شخص لزيارته فى لاهور . . وكان لقاء ضاعف من قوة تلك الوشائج ، إذ وجد كل منهما أفكاره فى صدر صاحبه وتم الاتفاق بينهما على أن ثمة ركيزتين أساسيتين لا نجاح بدونهما : إحسان العرض لعظمة النظام الإسلامى بالأسلوب العلمى المقنع ، وإعداد الرجال الذين يصلحون لقيادة المسلمين فكراً وعملاً . .

واستجاب الأستاذ لاقتراح إقبال بالهجرة إلى البنجاب ، التى تعتبر مهد الحركات والدعوات والتيارات الفكرية ، واتخذ فيها موطنه منذ ذلك العهد ، بيد أن الأجل سرعان ما وافى الشاعر العظيم ، فحرمه القدر الحكيم فرصة التعاون مع ذلك القلب الموَّار بنور الإيمان وهدايته .. وسجل المودودى مشاعره بإزاء هذه المصيبة فى قوله : « فقدت أكبر سند فى الدنيا بموت هذا الرجل العظيم . . » .

وكان على المودودى أن يستفيد من جو لاهور العلمى فاستجاب لدعوة كلية « حماية الإسلام » وشرع فى العمل بها محاضراً دون أجر لمدة عام . . ومن ثم اتجه إلى العديد من المدن يلقى فيها المحاضرات على الطبقات المثقفة ، فكان منها واحدة فى قاعة بلدية لاهور بعنوان « الجهاد فى سبيل الله »وأخرى فى « مجلس الأخوة الإسلامية للطلبة الجامعيين » بلاهور أيضاً ، ثم محاضرتان بعنوان « منهاج الانقلاب الإسلامى » و « معضلات الإنسان الاقتصادية وحلها فى الإسلام » ألقاهما فى جامعة عليكره عام ٤٠ و ٤١ ثم أخرى فى « دار العلوم لندوة العلماء » بعنوان « منهج جديد للتربية والتعليم » وواحدة بعنوان « الإسلام والجاهلية » فى « مجلس الدراسات الإسلامية » بالكلية الإسلامية فى بشاور .

الجماعــة الإســلامية.:

والمتحدث عن الإمام المودودى ملتزم بأمرين اثنين أحدهما أفكاره التى انعكست فى مقالاته ومؤلفاته الموسوعية والثانى هو الجماعة التى أراد أن يجعل منها مجالاً حياً لتطبيق مخططه فى تكوين الرجال المؤهلين لحمل رسالة الإسلام ، وقد شاء الله أن يخلّد أعمال هذا الرجل ، فحفظ أفكاره وجعل منها منارة تستمد من أنوار الوحيين ، كما يستمد القمر من ضوء الشمس فينقل عطاءها للناظرين . .

لقد آمن المودودى بطريقة إمامه وقائده المصطفى ، صلوات الله عليه وسلامه ، القائمة على الجمع بين التربية والتعليم جميعاً ، كما وصفها كل من عثمان وابن مسعود وابن عمر ، عليهم رضوان الله ، بما مؤداه : « كنا نتعلم الآى من كتاب الله فلا ننتقل منها إلى غيرها حتى نتعلم العمل بها » فكان من ثمرات ذلك الإيمان أنه لم يكتف بالعلم يبثه فى الكتب والصحف ، فأقام لترجمته ذواتاً تحمل طابعه ، وتمثل معالمه فى سلوكها وسائر تصرفاتها . . . وهكذا نشأت الجماعة الإسلامية ، التى على الرغم من انقسام القارة إلى دولتين ، وتجزئها أخيراً إلى ثلاث جماعات ، فقد احتفظ كل منها بطابعه الإسلامى الراسخ الرصين .

وقد تم أول اجتماع لتأسيس هذه الجماعة عام ١٩٤١ وبعد الاتفاق على نظامها الأساسى أعطى كل من أعضائه الخمسة والسبعين عهده بتنفيذ ذلك الميثاق ذى الفقرات الثمانى عشرة ، الشاملة المحددة لهويتها الإسلامية . . مجدداًولاءه لكتاب الله وسنة رسوله ومؤدياً شهادة التوحيد فى خشوع المتأمل فى أبعادها المدرك لعظيم تبعاتها . . . وكان من أوائل التزاماتهم لمبادىء الجماعة انسحاب كل موظف بينهم من خدمة الحكومة البريطانية والوقوف فى سائر تصرفاتهم عند حدود الشريعة المطهرة ، ورفض محاميهم المرافعة أمام المحاكم التى تقضى بغير ما أنزل الله[١] .

والمتتبع لأعمال هذه الجماعة يتبين أنها تنظيم غير مسبوق يتناول بأنشطته سائر جوانب الحياة ، من تعليم وتعاون واقتصاد ، وتنمية وسياسة ، وطاقات

١ــ من دراسة مكثفة فى مجلة « الأمان » عدد ٣٥ / ٧ ذى القعدة ١٣٩٩ ص ٨ .

بشرية تشمل الأستاذ والطبيب والتاجر والطالب والفلاح والنساء والرجال على السواء . . .

وقد يقف المتأمل فى هذا التنظيم وهو يتذكر نظيره الذى قام بمصر على يد الإمام حسن البنا وإخوانه ، فى نفس الفترة من حياة العالم الإسلامى ، فيتساءل : أيهما الذى اقتبس من الآخر ؟ ! . كما يقف مشدوهاً أمام التلاقى الماثل بين أفكار المودودى والشهيد سيد قطب ، دون أن يستطيع فصلاً تاماً بين المؤثر والمتأثر . ولقد أكرمنا الله بلقاء العديد من هذه الجماعة سواء فى المدينة الحبيبة ملتقى المؤمنين ، الوافدين من أربعة أقطار الدنيا ، أو حواضر الهند وباكستان حيث قمنا بزيارات لبعض مؤسساتها ،فلمسنا عن كثب ثمرات الجهود التى بذلها رائدها فى تربية الرجال ، الذين لا نبالغ إذا قلنا إن بينهم من ينطبق عليه وصف الفضلاء الذين يقال فى الواحد منهم:إنه قرآن يمشى على الأرض .

وفى مقر هذه الجماعة بدهلى ــ حاضرة الهند ــ التقينا بأميرها ومعاونيه على وضع يذكرنا بحياة السلف من أمراء رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ، قبل أن يتحول الحكم النبوى إلى الملك العضوض ومما ضاعف سرورنا بهذا اللقاء ما وقفنا عليه من استمرار المسيرة التى بايعوا عليها الإمام الرائد ، إذ **﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾** فهم مواصلون خطة الجماعة فى التبليغ والتذكير والتعليم ، فى معزل تام عن كل عون مشبوه ولا سيما من ناحية الدولة ، وقد بلغت معاهدهم التعليمية المئات للذكور والإناث ، وتتابعت منشوراتهم ومؤلفاتهم وصحفهم على مستوى الهند كلها وبمختلف اللغات . . ولا يزالون على أسلوبهم المعهود ، يضيئون طريق الناس بنور الله ، ويدفعون هجمات المغرضين والشاتمين ، بالكلمة الطيبة والدعاء لهم بالهداية والتسديد ، لأنهم ينوؤن بأعباء الواجب فلا متسع لديهم للغو والمِراء . . .

ولا شك أن لهذا التميز الخلقى أثره السلمى فى نفوس مخاصميهم ، الذين عجزوا عن استدراج الجماعة إلى الدخول فى معاركهم المثارة ، فراحوا يؤلبون عليها بسطاء المشايخ ، فيصدرون الفتاوى بتسفيه أفكارها وتشويه دعوتها ، وتحريم

المطالعة لمنشوراتها ، ويحرضون الحكام على الإيقاع بها ، ولم يضنوا على مؤسسها حتى بالتكفير أو ما يشبه التكفير . .

مرحلـة الصـراع :

كانت المسيرة حتى الآن فى حدود الفكر والعلم ، تتوسل إلى تحقيق أهدافها العليا بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن . . أما بعد تقسيم الهند وقيام الباكستان باسم الإسلام . فقد تعددت الحلقات ، وتكاثفت المشكلات ، وتحركت الأهواء يريد كلٌ منها أن يفرض نفسه على المجتمع الجديد . .

وأخطر هذه المشكلات هو فى اضطراب الرؤية عند الساسة الذين قادوا حركة الانفصال ، فهم يتكلمون عن دولة إسلامية ، ويتحدثون عن مميزاتها القومية ، ولكنهم لا يملكون أى فهم لمضمون الإسلام ، من حيث كونه نظاماً مستقلاً بذاته عن كل نظام آخر عرفه الإنسان الحديث فى شرق أو غرب . .

ومن هنا تدفق سيل البلاء على دعاة الحق ، إذ أصبحوا يشكلون الجبهة الوحيدة المقاومة لتلك الشواذ الخطيرة ، والمتصدية لتصحيح الأفهام ، ولنشر التوعية بحقائق الإسلام ، والمعارضة لكل انحراف عن جادَّتِه فى أوساط الحكام .

ومن البديهيات المألوفة فى عالم السياسة الميكافيلية أن أصحاب الحكم المطلق لا يقرون معارضة تَحُدُّ من سلطانهم ، فكل محاولة لتغيير وجهتهم من قبل الآخرين إنما هى بنظرهم تطاول على كرامتهم ، واستهانة بشأنهم ، لا مندوحة من القضاء عليها بكل الوسائل الممكنة .

وهكذا وجدت الجماعة الإسلامية وقائدها الملهم أنفسهم فى أتُّونٍ من المحن المتلاحقة لا يفرغون من الواحدة حتى تتلقفهم الأخرى . . .

إنهم يرون اتجاه الدولة فى الطريق نفسه الذى طالما عانوا من شروره فى ظل الاستعمار الإنجليزى بل إنهم ليرون هؤلاء الحكام المحسوبين على الإسلام أشدَّ عداءً له من الإنجليز أنفسهم ، وأشد منهم اندفاعاً فى تأييد قوانينهم المنافية

لدين الأمة ، فعلام إذن حدث هذا الانفصال ، وفى سبيل أى شىء تحمل المسلمون تكاليفه التى ذهبت بعشرات الآلاف من إخوانهم وبآلاف الملايين من ممتلكاتهم ؟ ! . .

كلا . . إن الله لن يعذر مسلماً يرضى بهذه الخيانة التى ستقرر مصير المسلمين إلى أحقاب طويلة وإذا كانت التبعة على قدر الإدراك فعلى عاتق الجماعة الإسلامية يقع العبء الأكبر منها .

فى معركة الدستور :

وهكذا أخذ المودودى زمام المبادرة لمواجهة كل تدبير يضاد الخط الإسلامى ، وكان سلاحه فى هذه المعركة ذلك القلم الذى استطاع بتوفيق الله أن يوقظ النائمين ، ويُقِض مضاجع الظالمين ثم تلك الجماعة التى احتضنت أفكاره ، من خلال إيمانها بكتاب الله وسنة رسوله ،وشاركته التصميم على تحمل كل مسئولية فى سبيل الله .

ومن الطبيعى أن يقع ثقل المعركة بين الطغيان الجديد ، والجماعة الإسلامية ، بين علمانية المتسلطين وإسلامية المودودى وإخوانه العاملين .

وحشد كل من الفريقين أعوانه فى التحام غير متكافىء من حيث الإمكانات ، فبينما يقود رجال السلطة مرتزقة الغوغاء من السياسيين والعسكريين وأتباعهم ، من عميان العامة والحاقدين على الإسلام ، ليضربوا بهم جنود الحق العزل بكل ضروب الإرهاب ، كان هؤلاء يدفعون الشر بالخير والحماقة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد وطَّنوا أنفسهم على التضحية بكل شىء من أجل الإسلام ، الذى باسمه ولأجله قامت باكستان .

وتفاقم الصراع بين الطغيان والجماعة الإسلامية ، على تفاوت ما بين وسائل كلٍّ من الفريقين ، وقد تجلى ذلك أكثر ما يكون فى معركة الدستور ، التى حفزت كلا منهما لتعبئة أقصى ما يملك من الطاقات . ولا غرو ، فالدستور هو المنطلق الذى سيحدد الخط النهائى لنظام الحكم . . وهو الفيصل الحاسم فى حياة المجتمع الباكستانى وفى مسيرته العامة ، فإما أن يكون إسلامياً

ينسجم مع طبيعة السواد الاعظم من الأمة ، التى دفعت فداء إسلامها عشرات الألوف من الشهداء والمشوهين ، فازدادت به تشبثاً ، يقيناً منها بأنه لها بمنزلة الروح من الجسد ، والمأمن الذى ليس وراءه إلا العار والدمار . .

وإمَّا مخطط شيطانى تُمليه أهواء الأقليات الضالةمن متسلطين نشئوا فى محاضن الاستعمار فلا يستسيغون سوى طريقته فى الحياة ، ووثنيين خُلِّفوا فى باكستان ليكونوا « الطابور الخامس » لأعدائها المتربصين بها الدوائر . . . ماركسيين فقاديانيين يدّعون الإسلام وهم ألد أعدائه ، الذين أعطوا ولاءهم لبريطانية التى حطمت كيان الدولة الإسلامية فى الهند ، وملأت شوارعها بجثث العشرات من آلافهم . . .

وكان على الجماعة العزلاء إلا من سلاح الإيمان أن تثبت للمتسلطين تأييد السواد الأعظم من الأمة لدعوتها إلى الدستور الإسلامى ، فراحت تعقد الاجتماعات الشعبية هنا وهناك ، فتتهافت الجموع المؤمنة لتأييدها فى تصميم لا يعتريه خوف الموت . .

وصدرت الأوامر إلى مرتزقة السلطة وجنودها بمهاجمة هذه الاجتماعات بكل وسائل الإرهاب ، وثبتت الجماعة بوجه المجرمين ، معتصمة بالصبر والهدوء والرد بالتى هى أحسن . .

وهكذا يمضى الفريقان كل فى الطريق الذى ارتضاه أو سِيق إليه . . . وكان أشد الجميع إيذاء للجماعة الإسلامية جمهور القاديانيين من أنصار وزير خارجية باكستان ، التى يقول أول رئيس لوزرائها لياقات على خان : « إنها هبة الإسلام » ومع ذلك لا يتورع حكامها أن يشهروا الحرب على الإسلام وأن يسلطوا عليه أشرس أعدائه . .

وعلى الرغم من المنهج السلمى الذى أخذ به الإمام المودودى جماعته لم يجد بدا من مواجهة القوى الشريرة بالتظاهرات السلمية المصممة تملأ شوارع البنجاب هاتفة بسقوط القاديانية . وغرّ القاديانيين سلطانهم فى قوى الأمن فانهالوا على المؤمنين بالنار التى حصدت من المتظاهرين عدة مئات . . . ولكن الإيمان كان كشأنه دائماً أقوى من الموت ، فلم يقف الزحف السلمى حتى

سقط قائد القاديانية ظفر الله خان ، وتضاءلت قواته حتى كادت تنحصر فى حوك الدسائس من وراء الستور . .

أكبر من المـوت :

فى هذه الظروف ألف الأستاذ المودودى رسالته فى موضوع القاديانية ففضح عقائدها ومؤامراتها الرهيبة على المسلمين ، ولكن حاكم باكستان غلام محمد ما لبث أن اتخذ منها مسوّغاً لإعلان الحكم العرفى ولإلغاء الجمعية التأسيسية ، ولوقف البحث فى الدستور الجديد ، الذى يوشك أن يأخذ طابعه الإسلامى تحت ضغط الشارع ، الذى يقوده المودودى وأنصار فكرته . . وتلا ذلك اعتقال الكثيرين من رجال الإسلام ، وعلى رأسهم المودودى بتهمة تأليف كتيِّب وُصِف بأنه ضاعف من أسباب الاضطرابات والقلاقل . . وهى مناسبة تتيح لأولئك المتسلطين فرصة التخلص من الرجل الذى يشكل بنظرهم العقبة الكبرى فى طريق الدولة العلمانية ، التى تطلق أيديهم فى رقاب الشعب ، وتمكنهم من العبث بكل قيمه الإسلامية . .

وأصدرت محكمة العسكر قرارها بإعدام المودودى ، فى محاكمة صورية كالتى يساق، إليها الإسلاميون فى مصر وتركية وإندونيسية ، والعديد من أقطار المسلمين الرازحة تحت كابوس العسكريين .

ويصف مرافقه خليل أحمد الحامدى موقفه وهو يتلقى ذلك الحكم الظالم فيقول : لقد استمع إلى هذا القرار بوجه باسم وقلب مطمئن ، ولم يزد على قوله « الحمد لله على كل حال . . » .

وجاء الضابط ليسلمه نص القرار وهو يقول : يمكنك أن تقدم الاسترحام خلال أسبوع . ولعل هذا الضابط كان يظن أنه يقدم بذلك بشرى سارة إلى ذلك المحكوم بالموت ، وهو يجهل أنه تلقاء نوع من الرجال لم يسمع بمثله قط ، لذلك لا بد أنه فوجىء بقول الشيخ فى الرد على عرضه : « لن أسترحم أحداً لأن أحكام الموت والحياة لا تصدر من الأرض ، بل من السماء ، فإذا قدر الله لى موتى فلن يستطيع أحد إنقاذى ، وإذا قدر الله الحياة فليس بمقدور أحد أن يضرنى قيد شعرة » ثم توجه الأستاذ إلى إخوانه الحاضرين تلك المحاكمة بقوله :

« لا يقدم أحدٌ منكم أى استرحام بشأنى ، وأؤكد بذلك على والدتى وأخى وزوجتى وأولادى جميعاً . . » .

ولكن . . وعلى الرغم من استنكاف الأستاذ عن طلب الرحمة فقد أعادت المحكمة العسكرية نفسها النظر فى قرارها واستبدلت به حكماً بالسجن لمدة إحدى وعشرين سنة . . ولعلها قد فعلت ذلك بإيعاز من السلطة التى تدرك مدى الخطر فى إعدام الإمام المودودى ، الذى استحوذ بشخصيته المثالية على حب المسلمين ، وعرف الطريق إلى قلوبهم فهو يؤلبهم لتوكيد انتمائهم الإسلامى ، فأقدمت على ذلك التغيير تفادياً للعواقب التى لن تستطيع دفعها . .

إلى المحكمـة العليـا :

وقد قضى الأستاذ خمسة وعشرين شهراً فقط من تلك السنين فى السجن . . إذ انتهز إخوانه فرصة قيام وزارة جديدة فرفعوا إلى المحكمة العليا بلاهور اعتراضاً على ذلك الحكم بالباطل متذرعين بالبراهين القانونية التى لا تُدفع . . .

يقول الأستاذ الحامدى(١) : « لما دخل الإمام المودودى قاعة المحكمة العليا وقف قضاتها احتراماً له . . وهو موقف لم يعرف له مثيل فى تاريخ القضاء . . » .

فى هذا المشهد الرائع سمع الإمام المظلوم قرار المحكمة العليا بالإفراج عنه ، مصحوباً بالتكريم الأسمى من أعلى هيئة قضائية وثقافية فى باكستان ، فكان ذلك إدانة دامغةً لعهد خان قضية الإسلام ، الذى لولاه لما كان لباكستان من حق فى الوجود . .

وإن كل ذى ضمير حى فى العالم الإسلامى ليشعر بالتوقير البالغ لأولئك القضاة الذين أثبتوا أنهم فوق الأهواء ، وأنهم مع الحق الذى لم يوجد القضاء إلا لحمايته من عسف البغاة والمستبدين . .

---

١ ــ ص ٦٤ من كتابه « الإمام أبو الأعلى المودودى » ط المكتبة العلمية بلاهور .

ولقد كان لهذه الظاهرة أثرها العميق فى ارتفاع معنويات المسلمين ، فإذا بالمسيرات والمواكب والحفلات تعم أرجاء لا هور بمظاهر الفرح والاستبشار ، وأقيمت الاحتفالات العديدة لاستقبال البطل الظافر ، وفى أحد هذه التجمعات رد على كلمة الترحيب بقوله :

لقد ذكرتم ما قدر الله علينا من محن الحكم بالإعدام إلى امتحان السجن ، وأحب أن أقول لكم إن هذه الأحداث لم تفاجئنا قط ، بل إنى كنت أتوقع أمثالها منذ أن وضعت أول خطاى فى هذا الطريق قبل اثنين وعشرين عاماً . . إذ من خصائص العقيدة التى نؤمن بها أن تواجه بالمحن ، وقد علمنا التاريخ أن الدعوة امتُحِنت فى الماضى ، ولا بد أن يتكرر الامتحان فى الحاضر والمستقبل ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا . .

المفاجأة الرهيبـــة :

وكانت هدنة تحرر المسلمون أثناءها من كابوس الإرهاب العسكرى ، وبخاصة بعد أن عادت الجمعية التأسيسية الجديدة إلى أعمالها ، وصدَّقَتْ على الدستور الإسلامى ، الذى أجمعت عليه الأمة بلسان علمائها وجماعاتها وجماهيرها الشعبية ،واعتبر يوم صدوره من عام ١٩٥٦ منطلق حياة سعيدة للمسلمين جميعاً ، لم يشذَّ عنهم إلا قلة من المستغربين والشيوعيين والقاديانيين والنفعيين ، الذين ألقوا بأقدامهم إلى مزلقة الإثم ، فلم يعودوا بقادرين على التوقف قبل أسفل الهاوية . . .

وعبر الإمام المودودى أيامئذ عن فرحة المسلمين بذلك التصريح الذى يصور مدى أمل المسلمين فى مستقبلهم المنشود :

« نبدأ اليوم حياة جديدة ، حياة شعب حر قرر بلسان ممثليه أن الحاكمية فى باكستان لله عز وجل ، وأن السلطة أمانة فى عنق الأمة لا تزاولها إلا فى نطاق ما حدد الله ورسوله . . فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . . . . » .

ولكن . . شاء الله ألا تقف محنة باكستان عند هذه النهاية البهيجة ، لأن أعداء العدالة والخير قد صمموا على ألّا يُلقوا سلاحهم وفيهم عرق ينبض ، وهكذا فوجئت باكستان ذات صباح بمثل الحال التى أشار إليها قول الشاعر :

قد سالمتك الليالى فاغتررت بها　　وعند صفو الليالى يحدث الكدر

ففي الثامن من أكتوبر عام ١٩٥٨ أغار الجنرال محمد أيوب ، وكان رئيساً لأركان الجيش الباكستانى ، على أمنها فى انقلاب عسكرى ألغى البرلمان ونقض الدستور ، وأدخل البلاد فى تيار المحن والمتاعب المتلاحقة طوال إحدى عشرة سنة ، لم تعرف لها باكستان نظيراً فى كثافة البلاء وجرأة الحكام على دينها وشريعتها . .

لقد صمم محمد أيوب على اجتثاث المعارضة لحكمه بكل الوسائل الممكنة ، وبدا له أن يجرب أسلوب المكر مع الإمام المودودى ، وكان ذلك عام ١٩٦٠ حين جاء مدينة لاهور ، وهناك بعث إليه يدعوه لمقابلته فى قصر الحكم ، وبعد تردد بين الإجابة والرفض قرر مقابلته رجاء أن تكون المقابلة فى صالح الدعوة ، واستقبل أيوب الشيخ بترحيب حار وأحاطه بحفاوة جميلة ، وراح يطرى جهود الشيخ ويكثر الثناء على خدماته للإسلام ، وقدرته البارعة فى اكتساب العقول والقلوب . . . حتى إذا انتهى إلى ما يريد قال :

أيها الشيخ الفاضل . أقترح عليك التفرغ للدعوة والتبليغ بعيداً عن التورط فى السياسة والانغماس فى أوحالها . . . وبذلك تكون أكثر نفعاً لقومك ووطنك . . . ولكن الشيخ سرعان ما أبطل مكره حين أجاب : « حقاً إن السياسة قد استحالت أوحالاً ، ولذلك دخلتها لأطهرها من الأوساخ ، وأجعلها نظيفة سديدة لا تدنس الأذيال بل تعود رحمة على الوطن وأهله . . . » .

مؤامرة على الإسلام :

وكان هذا الجواب بمثابة النذير بمعركة جديدة بين الطغيان والإيمان . . وقد امتازت هذه المعركة بضروب من العنف والهول أكبر من كل التجارب

السابقة ، ذلك أن محمد أيوب قد دخلها فى برنامج صريح يستهدف حرباً للإسلام لا هوادة فيها . . فقد قرب إليه منكرى السنة من أتباع المدعو أبرويز ، وما أدرى أذلك اسم له أو لقب ، ولكن المعروف أنه اسم لآخر أكاسرة الفرس ، ذلك الأحمق الذى مزّق كتاب رسول الله فمزق الله ملكه وقتله بيد ولده ، ولعل هذا الخائب قد اختار لنفسه ذلك اللقب إعلاناً لنيته بتمزيق الكيان الإسلامى فى باكستان . .

لقد راح هؤلاء الخائبون يثيرونها حرباً شعواء على السنة النبوية فيصدرون الكتب والمجلات المشحونة بالطعن عليها ، وتتولى أجهزة الإعلام الحكومية توزيعها وإشاعتها ، وأقبلت على وضع تفسيرات مضللة لمعانى الكتاب الحكيم ، تصرفها عن مقاصدها الإلهية إلى توجيهات هدامة ، كتفسيرها القطع للسارق بتأديبه فى السجن والغرامة ، وتفسيرها للصلاة بالحركة والنشاط والتزام الدوام الرسمى فى موعده المحدد ، وقولها فى الزكاة إنه استثمار المال فى المشروعات الإنمائية . وأتموا مؤامرتهم باعتبار رئيس الدولة بمثابة الرسول فى امتلاك السلطة المطلقة فى التشريع والتقنين وتفسير الأحكام القرآنية بما يراه مصلحة لعصره دون مراجعة لسنته ﷺ . .

وبهذه القحة أصدر محمد أيوب عدداً من القوانين المضادة للشريعة المطهرة ، وبخاصة فى نطاق الأحوال الشخصية ، التى يعتبر الإخلال بها سلخاً للمسلم من صبغته الإسلامية ، ومن ذلك حظر الزواج على الفتى الذى لم يبلغ السادسة عشرة مع إباحة الزنى والمخالَّة له مع أىٍّ شاء من النساء . . .

وفى هذا الجو الخانق أُغْلِقَتْ أفواه العلماء ، وحيل بينهم وبين إبداء مرئياتهم فى هذه التصرفات الخرقاء ، ولم يبق فى الساحة من يرجى للتنفيس عن صدور المسلمين سوى الرجل الذى وهب حياته للإسلام ، فلا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه . .

لقد انبرى المودودى لعدو السنة أبرويز وجعل يفند أضاليله الواحدة بعد الأخرى فى مجلته « ترجمان القرآن » حتى أتى عليها جميعاً ، فكشفه للناس عدواً مبيناً لدين الله ، وهو يعلم يقيناً أنه لا يهاجم أباطيله وحدها ، بل يهاجم من ورائه السلطة التى تمده بكل أسباب القوة . . ويهاجم كذلك كل من أخذ

بترّهاته من أعداء السنة . وهذا كتابه « مكانة السنة فى التشريع » يجعل من هؤلاء فى كل زمان ومكان أضحوكة العقلاء ، بما يُعَرّى من جهلهم لحقائق الإسلام ، القائمة على الكتاب والسنة دون أى انفصام .

وتصدى لقوانين أيوب المنافية لشريعة الله بالنقد العلمى الذى قطع ألسنة كل المدافعين عنها . . مما أثار حنق الطاغية فأمر باعتقال بعض قادة الجماعة الإسلامية ، وزج بالسجن صاحب المطبعة التى أقدمت على نشر ذلك النقد . . . ولكنه لم يتعرض لشخص المودودى ، ولعله توهم أن تجريده من إخوانه فى ذلك الجو الرهيب كاف للحد من نشاطه ، ومُلْقٍ فى قلبه الرعب فيمسك عن مهاجمة دستوره الهدام ، ولكن خاب فأله ، حين رأى البطل المؤمن يتناوله بالتشريح الفاضح ، فيبرز بوائقه ، ويبين أخطاره على الحرية ، وما يستهدفه من توطيد النظام الاستبدادى وعلى الرغم من إحجام الصحف الباكستانية عن نشر ذلك النقد الفاضح ، فقد حملته الألسن إلى كل مكان فتردد صداه على مستوى الدولة كلها .

تصميم أعظم من الإرهاب :

وبذلك تهيأت الأذهان لحضور الاحتفال الذى أعدته الجماعة الإسلامية لإعلان قرارها الحاسم فى ذلك الدستور البغيض . . واستحصلت على إذن من النيابة بعقد ذلك الاجتماع الذى ضم ما يزيد على عشرة آلاف مندوب وعزّ على السلطة الاستبدادية أن تمر تلك المناسبة الهامة بسلام ، فدفعت أدواتها من رجال المباحث لإحداث البلبلة ، فاندسوا خلال المجتمعين ، وجعلوا يثيرون الشغب ويطلقون الشعارات المعادية للجماعة ولقائدها . . وهو قائم يلقى خطابه فى الجمهور ، وعمدوا إلى أسلاك المكبر فقطعوها لكى يمنعوا صوته من الوصول إلى الأسماع . . إلا أن الجماعة سرعان ما تداركت هذا الحال بالعودة إلى طريقة المبلّغين ، الذين نهضوا فى جوانب الحفل ، وجعلوا يستقبلون كلمات الأستاذ ليوصلوها إلى الحضور كاملة مفصلة . . وساء المشاغبين إخفاقهم فى إفساد الاجتماع فعمدوا إلى السلاح يطلقون النار لمجرد الإرهاب أولاً ، ثم وجه أحدهم طلقته إلى الإمام نفسه ، ولكن شاء الله أن تصيب رجلاً

اخر من الجماعة فيسقط شهيدا فى الحال ، ويظل الأستاذ منتصب القامة يترقب الفرصة لاستئناف خطبته ، وأحاط به بعض إخوانه يدعونه للجلوس حفاظاً على سلامته ، ولكنه أبى وأجاب « لو جلست فمن سيبقى واقفاً ؟ ! » ولم يُذهِل حرج الموقف عزيمته ، وأخذ يوجه تنبيهاته لأفراد الجماعة بالتزام الهدوء ، والاكتفاء بإخراج المشاغبين دون أذى . . . وما هى إلا دقائق حتى عاد الوضع إلى طبيعته ، وهنا أرسل المودودى الحكيم كلمته التى ذهبت مثلاً : « إن مثَلَ الحركة الإسلامية كمثل الماء المتدفق ، إذا واجه صخرة فى طريقه لا يضيع جهده فى تحطيمها ، بل ينعطف يميناً ويساراً حتى يترك الصخرة وراءه تعض أناملها من الغيظ . . » .

قضـــاء فوق الأهـــواء :

ولقد سعَّر أحقاد محمد أيوب إخفاق أدواته التخريبية فى إفساد ذلك الاجتماع ،الذى حقق واحداً من أكبر الانتصارات الإسلامية فى معركة الدستور ، إذ شحن صدور المسلمين وغيرهم من ذوى الضمائر المنصفة ، بالنقمة من عهده وأساليبه ووحشية أتباعه ، حتى لم يجد مندوحة من محاولة القضاء على الجماعة بأجمعها ، فصدرت الأوامر بحلها ومصادرة أموالها واعتقال زعمائها وعلى رأسهم الإمام المودودى . . ولكن ذلك التدبير الآفن لم يستمر سوى ثمانية أشهر حتى نقضته المحكمة العليا فى لاهور بقرار يبرئهم من جميع التهم الموجهة إليهم ، ويرد إلى الجماعة حرية العمل كاملة . .

وهذه المرة الثانية التى يثبت القضاء العالى فى باكستان أنه فوق أهواء المتسلطين ، وأن فى رجاله من قوة الشخصية والإيمان بشرف المهنة ما يجعلهم ضماناً للعدالة فى بلد استولى الطغيان فيه على كل شيء . . وهو الضمان الذى فقدته معظم الشعوب الإسلامية فى جحيم الديكتاتوريات ، التى جعلت من القضاء ، الذى طال صموده من قبل فى وجه الاستعمار الأجنبى ، مجرد تابع لأهواء السلطة الباغية ، لا عمل له إلا تنفيذ الأحكام التى تصدرها مراكز القوى من مباحث ومخابرات وما يسمونه بأمن الدولة .

على أن من الإنصاف للحق أن نتذكر هنا موقف بعض رجال القضاء

المصرى ، الذين لم يقصروا عن مستوى إخوانهم من قضاة تلك المحكمة العليا فى لاهور ، حين أطلقوا صيحتهم المُدَوِّية فى وجه الظلم ، بقرارهم الذى فضحوا بهِ طغمة السجن الحربى فى عهد جمال عبد الناصر ، اذ اعتبروه وصمة عار فى جبين مصر ، توجب على خلفاء الطاغوت إزالة معالمه . . .

ويستتبع ذلك موقف محامى مصر الأشاوس بجانب جماعة الجهاد ، ومرافعاتهم النبيلة فى الدفاع عن فدائييها ، الذين أنقذوا كرامة وطنهم من عبث صاحب كامب ديفيد ، فأثبت هؤلاء الشرفاء من حماة العدالة قضاة ومحامين ، أن فى مصر رصيداً من العزة يمكن أن يحجبه الطغيان بالمرتزقة والمنافقين وفنون الإرهاب إلى حين ، ولكنه لا يلبث أن ينتفض ليعلن أن الحق أقوى من جبروت الظالمين . . .

وهكذا القول فى إخوان لهؤلاء وأولئك فى أقطار عربية أخرى هالهم أن تغرق أوطانهم فى غياهب الذل والرعب والقمع ، فوقفوا يعلنون بإضرابهم ومقرراتهم استنكارهم لأنظمة الطوارىء ، التى يتخذها المتسلطون ستاراً لإمرار المؤامرات على مصالح شعوبهم وحرياتهم . . ثم لم يتوقفوا عن كفاحهم العظيم حتى رجهم الطغيان فى ظلمات السجون فقطع ما بينهم وبين العالم منذ سنين . .

الكفر ملة واحـــدة :

ولعل من غرائب الاتفاق أن تتكرر الصورة الواحدة من عدوان الطغاة فى أكثر من دولة إسلامية ، فهذا التحرش الذى أحدثه عملاء محمد أيوب باندساسهم فى صفوف الجماعة الإسلامية ، ومحاولاتهم إفساد الحفل بالمشاغبات الشريرة حتى إطلاق النار على الأبرياء . . . هو نفسه الذى قام به عملاء العهد الناصرى بتسللهم داخل تجمع الإسلاميين فى أحد الاجتماعات المعارضة ، حيث راحوا يتحرشون ويهددون ويشوشون على الخطباء ، حتى اضطر الإسلاميون إلى إخراجهم بالقوة ، وإتلاف شحناتهم من السياط التى أعدوها للعدوان عليهم . . .

ويذكرنا هذا وذاك بمشهد آخر من العينة نفسها ، واجهه مصلو الجمعة فى دولة عربية أخرى بلغ التعسف العسكرى فيها حد تهديم المساجد على روادها ، واقتحامها بالآليات المعدة لحرب إسرائيل . .

لقد علم أولئك الانقلابيون عن طريق عملائهم أن ثمة خطيباً عرف بالجرأة فى الحق ، قد يتعرض لبعض تصرفاتهم الحمقاء ، فَقَذَفُوا بهؤلاء العملاء لتخريب الجمعة على المصلين ، واندفع هؤلاء إلى قلب المسجد يهتفون بالشعارات المثيرة ، ويتحدون الخطيب والناس ، يريدون بذلك استفزازهم لمواجهتهم بالرصاص . . ولكن حكمة الخطيب قد فوّتت عليهم الفرصة .

ولولا ذلك لغرق المسجد بدماء المصلين ، كما فعل ظاهر شاه يوم سلط القتلة على علماء الأفغان المعتصمين فى مسجد « بل خشتى » احتجاجاً على تحكيمه الشيوعيين برقاب المسلمين . . فقطع العملاء الكهرباء عن المسجد ، فأضاءه المسلمون بالمصابيح ، ومنعوا العلماء من الماء ، ولكن الناس ادركوهم به فى الدِّلاء . . ولما نفدت حيلة هؤلاء فى إكراه المشايخ عمدوا إلى رشاشاتهم فحصدوا بها الأنفس ، حتى استحال المسجد بركة من دماء العلماء ، ولم ينج منهم إلا من توهموا موته . . .

اللعبــة الماكــرة :

بإزاء هذه الوقائع لم يجد محمد أيوب بُدّاً من تعديل أسلوبه الاستبدادى ، فاعتزم سلوك الطريق الأقرب إلى إرادة الجماهير ، وذلك بترشيح نفسه للرئاسة ، وليكن ما يكون موقف الناخبين منه ، ففى يديه الوسائل التى تفرض نجاحه على الأمة ولو لم ينل سوى أصوات من حوله من المرتزقة ، وكفى بهذا تدبيراً يسبغ ستار الشرعية على سائر تصرفاته الدموية ! . ولم يتردد فى قراره فأعلن عن ترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة .

وكان على الأستاذ المودودى وإخوانه وأنصار فكرته من أهل العلم والرأى أن يقرروا موقفهم من هذه المناسبة دون تأخير ، فاتفقت الآراء على اتخاذ كل الأسباب لإسقاط الطاغية فى هذه المعركة ، إذ إن خروجه منها بالنجاح المزوّر

سيمكنه من القضاء على أمل الأمة بإقامة المجتمع الطاهر الصالح لتمثيل الإسلام . . ولكن هذا يتطلب منهم أن يقدموا للجمهور شخصية تملك من الشهرة ما يساعدها على التفاف الناخبين حولها . . ومن هنا كان إجماعهم على ترشيح فاطمة جناح ، أخت محمد على جناح ، الذى اقترن استقلال باكستان باسمه حتى صار لقبه الغالب على كل لسان هو « القائد الأعظم » . .

ولتوكيد المصلحة الإسلامية أخذوا على فاطمة جناح الميثاق الغليظ بأنها ستدع الحكم لأهل الإسلام يقيمون على ضوئه كيان البلاد المقبل . . .

وكان لا بد لأشياع الطاغية من استغلال هذه الظاهرة الاضطرارية المتمثلة فى ترشيح امرأة لرئاسة الدولة ، فراحوا يثيرون الخواطر ، ويستحصلون على الفتاوى البريئة لتشويه عمل أهل الإسلام ، إذ يطرحون أسئلتهم الملغومة على ثقات العلماء بمثل هذه الصيغة : ما حكم الإسلام فى إمارة المرأة ؟ فيأتى الجواب الطبيعى بأن ظاهر الحديث الصحيح يعارضها . . . وهو جواب سليم لأنه بمقدار السؤال . وكان الوجه الحق أن يقال : طاغية يحول دون إقامة حكم الله فى الأرض ، ويشجع الملاحدة على الطعن بصلاحيته ، ولا سبيل لكفّ بغيه إلا بتأمير امرأة مسلمة عاهدت الله على أن تسلم الحكم إلى أهل الإيمان بمجرد انتخابها للرئاسة . . أفيصح تأميرها صيانة لمصلحة المسلمين ، أم يترك المجال لإنجاح الطاغية ، وَتَمَكُّنِه من رقاب الأمة ، وحرمانها من تحكيم شريعة الله ؟ ! !

ولو عرضت هذه الصيغة المعللة على أهل العلم لكانت الفتوى فى غير مصلحة العملاء بلا شك . . .

ولقد تسللت دعاية الطاغية إلى جامعتنا يومئذ عن طريق بعض هؤلاء ، والمؤسف أنها لقيت استجابة من بعض المدرسين المؤيدين لذلك الجانب ، فانطلقوا يرفعون عقائرهم بالطعن على المودودى وإخوانه ، ويشنعون على موقفهم من ترشيح تلك المرأة حتى ضيقوا الخناق على أنصاره فى الجامعة وهم كثرة الطلبة الباكستانيين وخيرتهم . .

وكنت أشهد هذه المعركة بكثير من الأسى المكظوم ، ولا أملك لأنصار الإسلام فى باكستان سوى الدعاء ، وهو فى مثل تلك الحالة أضعف الإيمان .

بين الخرافة والغرور :

وبلغ الغرور بمحمد أيوب بعد فوزه الصورى فى ذلك الانتخاب حدّه الأقصى . . وكان ذلك فى آخر رمضان من عام ١٩٥٧ إذ حلّ عيد الفطر فى يوم الجمعة ، فكبر على الرئيس أن يجتمع على المسلمين خطبتا الجمعة والعيد فى يوم واحد ، وذلك بنظر الخرافيين فى باكستان نذير بانتهاء الحكم القائم ، لذلك بادر بمحاولة تغيير موعد العيد فأصدر الأوامر بوجوب إفطار المسلمين يوم الخميس ، مع التهديد بالاعتقال لكل من يخالف ذلك الأمر . ولم يكن للميدان غير فارسه المُعْلَم ، فأعلن الأستاذ رحمه الله استنكاره لتلك الخرافة ، وأكد للمسلمين بأن موعد العيد موقوف على ثبوت الرؤية ، وليس لأحد أيّاً كان مركزه أن يقدم فى ذلك الموعد أو يؤخره بعد الرؤية الثابتة بالشرع . . واعتبر محمد أيوب هذا التصريح من المودودى تحدياً لمقامه وإلغاء لكلامه ، فأمر بإعادة اعتقاله ، حيث لبث فى السجن شهرين ، غادره بعدهما ليشهد عقيب أشهر قليلة سقوط الطاغية وزوال عهده الأسود . . ولكن لم ينته إلى هذا المصير إلا بعد أن مهد السبيل لخليفته ذى الفقار بهوتو ، ومجيب الرحمن ، اللذين قضيا على وحدة باكستان .

نظرة فى مؤلفات الإمام :

وطبيعى أن القارىء الذى يريد الإحاطة بشخصية الإمام المودودى ، لن يكفيه الاطلاع على ما كتبه عنه وعن جهاده الكاتبون ، حتى يرجع إلى مؤلفاته نفسها فيُنْعِم فيها الفكر والتأمل ، ويتغلغل من خلالها فى أعماق تلك الشخصية الفذة ، التى أعدها القدر إعداداً خاصاً لإيضاح معالم الإسلام ، ولإيقاظ الوعى لحقائقه الجامعة المانعة على ضوء العصر ، فكان بها أحد المجددين لهذا الدين . .

ولننظر الآن فى عنوانات بعض هذه المؤلفات التى تتجاوز المئة عدداً ، والتى تُرجم بعضها إلى أكثر من أربعين لغة :

١ ــ الحضارة الإسلامية : أصولها ومبادئها .
٢ ــ نحن والحضارة الغربية .
٣ ــ الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة .
٤ ــ مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة .
٥ ــ فى محكمة العقل .
٦ ــ الرسـول والرسـالة .
٧ ــ حقـوق الزوجين .
٨ ــ تحديد النسـل .
٩ ــ مبـادىء الإسـلام .
١٠ ــ أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة .
١١ ــ الحجـاب .
١٢ ــ الإسـلام كما جاء به الرسول .
١٣ ــ نظرة الإسلام السياسية .
١٤ ــ نظرة فاحصة على العبادات الإسلامية .
١٥ ــ موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه .
١٦ ــ منهاج الانقلاب الإسلامى .
١٧ ــ اسـتفسار ذو بال .
١٨ ــ المصطلحات الأربعة فى القرآن .
١٩ ــ الإسـلام والجاهليـة .
٢٠ ــ منهج جديد للتعليم والتربية .
٢١ ــ معضلات الإنسان الاقتصادية وحلها فى الإسلام .

وفى هذه العنوانات الرامزة لمضموناتها تصوير جامع لطاقة فكرية تناولت أسس الحياة الإنسانية فى ضوء الإسلام . فالحديث عن الحضارة الإسلامية ــ فى الكتاب الأول ــ يتطلب علماً يتسع لأبعاد الحياة البشرية وموقف الإسلام من كل جزء فيها ، ولا يقل عن ذلك أهمية تحديد موقف الإسلام من حضارة الغرب ، التى يراد فرضها على المجتمعات الإسلامية ، ثم عناصر الصمود الإسلامى فى وجه التحديات العصرية . . وهكذا نلاحظ من مجموع

هذه الأسماء التى اختارها المؤلف لكتبه طابع الشمول الذى يتصف به ذلك العقل الجبار ، الذى ترك بصماته عميقة فى ثقافة العالم الإسلامى المعاصر . ولا عجب فقد رأينا من حديث الأستاذ عن مصادره الثقافية ما أقنعنا بأن لديه من نعمة الله وتوفيقه القدرة على معالجة مختلف المشكلات التى تشغل الفكر البشرى فى هذا الزمن ، ومواجهتها بالحلول الشافية المستمدة من كتاب الله الخالد وسنة رسوله الذى علمه ما لم يكن يعلم ، وزوده من الحكمة بكل المؤهلات التى تؤكد أنه الرحمة المهداة . .

خلوات مباركات وكرامات :

ومع أن الميزة الأولى لهذه المؤلفات سواء الصغير منها أو الكبير ، هى الجدّة والعمق والنسق المنطقى ، الذى يخاطب عقل القارىء وقلبه جميعاً ، فقد لفت انتباهى منها حديث الأستاذ الحامدى عن كتاب « مبادىء الإسلام » الذى يقول إنه ترجم إلى ثلاثين لغة ، وصدرت منه ملايين النسخ ، وكان من المهتدين به شاب أسبانى كتب إلى الأستاذ عقيب قراءته إياه فى ترجمته الأسبانية يقول : إنه كان قد اختار حياة الترهب فما إن اطلع على كتابه هذا حتى أُخِذَ بِهِ وانتقل من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . . لا إيمان الوادع بل إيمان من لا يخلد إلى الراحة حتى يُخْضِعَ الصليب فى أسبانية لله الواحد الأحد الصمد[1] .

ولئن صح ما يقوله الأستاذ الحامدى رواية عن الإمام المودودى بأنه قد أتم تأليف هذا الكتاب لإدارة التربية والتعليم فى حيدر أباد ، خلال أسبوع واحد فقط ، فلا أشك أنها كرامة قد قيضها له الله ، من نوع تلك الكرامات التى كانت توافى شيخ الإسلام بن تيمية فينتج من الأعمال العلمية فى اليوم الواحد ما يعجز الآحاد من العلماء فى الأسابيع والأشهر . .

ولم يلتق المودودى وابن تيمية على هذا فحسب بل كان بينهما أكثر من جانب مشترك واحد . فقد كان السجن لشيخ الإسلام خلوة تساعده على

---

١ ــ كتاب الحامدى ص ٢٦ .

المزيد من التأمل والإنتاج العلمى ، وكذلك المودودى إذ بارك الله عليه فى سجنه ، فقدر له إخراج العديد من الكتب الصالحة ، منها كتابه المشهور عن « الربا » و « مسألة ملكية الأرض فى الإسلام » كما أتم المجلد الأول من تفسيره الذى يسميه « تفهيم القرآن » فى غياهب السجن أيضاً . . وقد شاء الله أن يشاركهما فى هذه الفضيلة الشهيد سيد قطب ، إذ أتاحت له خلوة السجن أن يكتب أروع مؤلفاته فى ظلماته . . وصدق الله القائل فى كتابه الكريم ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا**[1] ﴾ .

دسـائس وأحقاد

كثيرون الذين قبلوا أفكار المودودى كلها عن قناعة لا يعتريها الشك ، وفريق آخر رفضها كلها لغير سبب سوى أنها تخالف ما ألفه من تهاويم لا يريد تغييرها ، وآخرون تجاوزوا فى رفضها حدود الأخلاق ، فلم يكتفوا باستنكارها ، بل راحوا يؤلفون المفتريات حول صاحبها ، ويصدرون الفتاوى بتكفيره ، ولا يتورعون أن يقوِّلوه ما لم يقل . . وكان بين هؤلاء مشايخ لهم ألقاب علمية ، ولهم مؤلفات . . ولكنهم استهوتهم الدنيا فأعلنوا انحيازهم إلى بعض مراكز القوى ، التى تشن غارات القتل على دعاة الإسلام ، وتعمل ليل نهار لمحاربة شريعته . .

وفى مقال ضاف، كتبه السيد زهير الشاويش عن أبى الأعلى المودودى فى جريدة اللواء الأردنية يتحدث عن بعض هؤلاء الذين يدينون بكراهية المودودى ، ممن ينتسبون إلى العلم فى الهند ، فينسب إلى أحدهم قوله : إن المودودى يتكلم فى أمور الدين ويفتى الناس وهو لم يتخرج فى مدرسة شرعية . . ويتكلم فى أمور الدعوة ولم ينتسب إلى طريقة صوفية ! . .

ويذكر لقاء آخر مع عالم هندى كبير كان أكثر اعتدالاً من ذاك فى كراهية المودودى ، وقد صرح له بأن المستقبل فى الهند وباكستان هو للجماعة

---

١ ـــ سورة النساء الآية ١٩

الإسلامية بشرط أن تُعَدِّل موقفها من السادة العلماء . . وليس له على المودودى من مأخذ سوى عدم التعاون مع العلماء ويعتبر ذلك منه غروراً يحسن أن يقلع عنه ويقدم الاحترام اللازم لهم ! . .

ثم يقول : والظاهر أن المودودى لم يُعَدِّل موقفه من هذا الشيخ وأضرابه فقام بتأليف رسالة يكفره بها .[1]

وأنا أيضاً لقد لقيت شيوخاً من هؤلاء يحسنون الكلام فى الكثير من محتويات كتب الفقه والحديث ، ويعتبرون كل كلام خارج حدودها نوعاً من التجديف ، لأن مؤلفى تلك الكتب قد استوفوا بنظرهم الكلام عن كل شيء . . فإذا ذكر لديهم المودودى لم يحسنوا البيان المقنع ، فعمدوا إلى مثل هذا الطعن الذى قرأته فى جواب الشيخ الأول ، وقد يخشى بعضهم أن تُرَدَّ مطاعنه بما يفضح جهله ، فإذا هو يكشف عن حسده للمودودى ، لانتشار آثاره ، ويعبر عن نقمته الشخصية لإعراض المودودى عن أمثاله .

وقد قرأت رسالة هذا الشيخ فلم تزدنى به علماً لأنى عرفته من قبل واحداً من أعوان الطواغيت الذين يبيعون دينهم بدنيا غيرهم . . بيد أن الذى هالنى منها جرأته على تحريف الكلم عن مواضعه ، وإقدامه ومن معه على إصدار الفتاوى التى تصل إلى حد التكفير . . بحق الرجل الذى أضاء الله به الظلمات . .

وشد ما أضحكتنى دسائسه على المودودى وتهوين أمره لدى علماء المملكة ورابطة العالم الإسلامى ، ظناً منه أنه يحط من مكانته لديهم . . وقد فاته أن مكانة المودودى إنما بناها إخلاصه للحق ، وما فتح الله عليه من العلم الذى قدم به الحلول لمشكلات الإنسان فى هذا العصر . وما أحكم قدر الله الذى ألهم مقدرى فضله فى المملكة السعودية أن يمنحوه جائزة الملك فيصل ، وما أروع استقبال المودودى لذلك التكريم حين حوّل الجائزة بأسرها إلى حساب الجماعة الإسلامية ، لتنفقها فى خدمة الدعوة إلى حقائق الإسلام ! ! .

---

١ ـــ انظر المقال فى جريدة اللواء الأردنية ت ٢٤ / ١٠ / ٧٩ ص ٣ .

الحـوار البنـاء :

بقى أن نحدث القارىء عن ذلك الفريق الآخر الذى حفظه الله من نزغات الشيطان ، فوقف من الإمام المودودى وأفكاره موقف المؤمن الذى يراقب الله فى حكمه على الأحداث والأشخاص ، فكان نظره إلى أعمال المودودى موزوناً بقسطاس العدل والإنصاف .

لقد وقف هؤلاء على أفكار هذا الرائد المجدد ، فاقتنعوا بأكثرها ، وأعطوه حقه من التقدير والثناء ، ووقفوا من قليلها موقف الغيور الناصح ، الذى يرى فى هذا القليل بعض الشطط عن الأصول التى التزم بها الإمام فى بحوثه الأخرى ، فكأن عملهم نوعاً من التعاون على تأييد الحقيقة التى هى رائد الجميع ، ولا جرم أنه اجتهاد مأجور أخطأ أو أصاب .

من هؤلاء الفضلاء المنصفين سماحة الأخ الشيخ أبى الحسن الندوى ، صاحب التآليف ، التى قلت وأقول إنها مع مؤلفات المودودى ، المركّب الذى باركه الله ليكون دليل الجيل المسلم المعاصر فى مسيرته الجديدة الهادية إن شاء الله .

فى كتاب « التفسير السياسى للإسلام » الصادر فى رمضان ١٣٩٨ هـ يناقش الأستاذ أبو الحسن الندوى بعض أفكار أخيه المودودى ، فيترجم إعجابه الكبير « بمقالاته القيمة التى كان يكتبها فى مجلته الغراء « ترجمان القرآن » فى نقد الحضارة الغربية ونظام الحياة الغربى ، التى تتميز بأسلوبها الهجومى ونقدها اللاذع لحركة التقدمية والتجدد وفكرة القومية المتطرفة ، التى نجمت وباضت وفرخت فى حضن الثقافة الغربية ، وكذلك موضوعات وقضايا فى صميم الشريعة الإسلامية . . . وسطر قلمه مقالات قوية مؤثرة معضدة بالدلائل أمثال « الربا » و « الحجاب » و « الجهاد » و « الأضحية » و « الرق » و « حجية الكتاب والسنة » و « الأحوال الشخصية » وما إليها من المسائل الهامة . . » حتى ينتهى إلى القول بأنه « سيكون من الإجحاف الكبير إذا لم نوف حقه من الاعتراف بما لعبته مقالاته هذه . . . ومؤلفاته ووسائله المستقلة من دور رائع فى إعادة الثقة إلى الطبقة الذكية المثقفة ثقافة غربية بالإسلام ،

وبقيمه وتصوراته وفى تخليصها من مركب النقص ونفسية الهزيمة الداخلية حيال الإسلام وتعاليمه ، مما جعل بعض الكتاب يدعونه « متكلم الإسلام » .

النقــد البــرىء :

ومن ثم يقف على بعض النقاط التى يرى شذوذها عن الخط الذى يطريه فى كتابات المودودى ، فيقول : إن الأستاذ المودودى من خلالها « يمارس عملاً آخر نستطيع أن نسميه « الصياغة الجديدة للفكر الإسلامى » أو « الصياغة الجديدة للالٓهيات الإسلامية » .

ويشرح ذلك بأنه يعنى كتابه « المصطلحات الأربعة فى القرآن » الذى فسر فيه تلك المصطلحات تفسيراً خاصاً يتميز بالطابع السياسى ، ويدور حول « حاكمية الإلٓه » و « سلطان الرب » يحدد علاقة العبد بربه فى حدود . . . « تأسيس « الحكم الإسلامى » و « إقامة الحكومة الإلهية » فحسب . .

والمصطلحات الأربعة التى يدور حولها كتاب الإمام المودودى هى : الإلٓه والربّ والدين والعبادة ، وخلاصة ما ذهب إليه بشأنها هى أنها المحور الذى عليه يدور الكيان الإسلامى كله ، وأن مفهومها الصريح الواضح فى الحِقَب الأولى قد تغير فى تصور المسلمين اللاحقين تغيراً أفقدها روحها وفاعليتها . . حتى باتت العقيدة فى الألوهية والربوبية محدودة الأثر فى حياة جماهير الأمة ، بل أقرب إلى الموات ، لا تحرك ساكناً لتنفيذ شريعة الله ، وبذلك استحالت العبادة حركات لا مردود لها فى نطاق الطاعة الواجبة لأوامر الله ونواهيه . .

فالمسلم فى عبادته الخالية من روح الوعى لحقائق الإسلام والعمل بها شأنه كشأن الخادم الذى يكتفى من تعظيم مخدومه بترديد اسمه والقيام بين يديه دون أن يقوم بتنفيذ أى من تعليماته الحاسمة . . وفى تمثيل آخر يشبهه بالمريض الذى كتب له الطبيب الحاذق وصفة شافية ، لكنه بدلاً من استعماله الدواء الموصوف اكتفى بقراءة الوصفة وترديد كلماتها . . .

ولكى يتم القيام بمضمون المصطلحات الأربعة بنظر المودودى لا بد من الجمع بين التلبس بالعقيدة السليمة فى الألوهية والربوبية والتزام العبادة الحقة مع النهوض بواجب التنفيذ لأوامر الله ، التى فى رأسها السعى لإقامة حكم الله فى الأرض ، وإزالة ظلمات الشرك عن عباده . . حتى ليجعل أركان الإسلام الأربعة بعد الشهادتين . . مقررات تدريبية لتحقيق ذلك الهدف .

ومأخذ سماحة الشيخ أبى الحسن الندوى على هذه الأفكار المتحدة عند المودودى وسيد قطب ، أنها تفرغ العبادة من صفتى الذل والحب التى يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أنها ــ العبادة ــ « تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، إذ تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له . . » وهو مأخذ لا مندوحة من النظر إليه ، لأن تجربة المؤمن الذاتية ، بل اليومية ، تؤكد له أن علاقته بربه قائمة على الرهبة والرغبة ، وأن ثمة لحظات من التجلى تمر به فتغمره بحبه ، حتى ليكاد يذهل فى غمار نشوتها عن كل معانى الرهبوت والجبروت . . .

ولكن . .كيف فاتت عقل المودودى البعيد الغور هذه الحقيقة ؟ . . ألم يحسها فى ذاته قط ؟ ! . . أولم يلاحظها فى والده الذى آثرها على متاع الدنيا كله ؟ ! ! . .

والكلام عن الحب متصل حتماً بموضوع التصوف السليم الذى لا يزال بصاحبه حتى تصفو روحه من كدورات الأرض فتتألق بوهج الحب الأعلى . .

التصوف بين الخير والشر :

والحق أن للأستاذ المودودى رأياً جميلاً فى هذا النوع من التصوف ، الذى لا يتجاوز سبيل المجاهدة لنوازع النفوس ، ورياضتها على حب الله وطاعته ، للتحقق بالتزكية التى قرن الله بها فلاح المؤمن فى سورة الشمس . فإذا تعرض للتصوف بالنقد فإنما يريد به ذلك الذى يشاهده فى بعض مدّعيه من الذين يتولون تخدير الاتباع يقطعهم عن الاهتمام بشئون الدنيا ، حتى يصبح التصوف بهذا الضرب من السلوك عبارة عن مدرسة مهمتها تخريج الكسالى وأحلاس البطالة .

حتى والده . . ذلك الرجل الطيب النظيف . . ألم يدع الدراسة العصرية خوفاً من تلويث عقله بثقافة الإنجليز ؟ ! . ثم ألم يرفض عمله فى المحاماة حفاظاً على دينه من الانحراف إلى غير طريق العدالة ؟ ! . .

وماذا نتج عن هذه السلبية سوى البؤس والحرمان وتعريض الأسرة كلها للتعاسة والشقاء ! ! . . .

إن الثقافة العصرية ضرورة لا بد منها لحماية الإسلام من طغيان أهلها ، وقد كان على والد الإمام أن يُحَصِّنَ قلبه بما ثَقِفَه من العلوم الإسلامية إلى جانب تلك الروافد الأجنبية ، فتكون له قوة لخدمة دينه وأمته كما فعل ولده النابغة ! . .

وكذلك المحاماة ، فإذا كانت مشبوهة السلوك لدى المستهترين من معظم أهلها ، فلِمَ لَا يرفعها عن حضيضهم ، فلا يدافع إلا عن حق ، ولا يجابه إلا الباطل ، وبذلك يخدم الإسلام من خلال المحاماة ، إذ تكون استقامته فى مهنته بمثابة الدعوة إلى ملته ! ! .

ومهما نختلف فى موضوع التصوف فالاتفاق واقع على أنه ليس لوناً واحداً ، وليس أصحابه على سواء . . وأى منا لا يعلم أن كثيرين من رجال التصوف المستقيم قد نهضوا بالعظيم من إحياء الجهاد فى سبيل الله ، كما نعلم أن كثيرين من مدعى التصوف قد سخَّروا ويسخِّرون طاقاتهم وأتباعهم لخدمة الطواغيت ، فيعطون بذلك الحجة المريبة لأعداء الإسلام .

وأى مؤمن سليم الرؤية ينكر على الأستاذ المودودى قوله عن غلاة الطرقيين فى كتابه « واجب الشباب المسلم » : « وإن تعجب فعجب حال الصوفية فلا تجد بينهم من عمل بالإسلام الحقيقى وعلَّمَه إلا عدداً يسيراً ، وأما معظمهم فكانوا يدعون إلى تصوف مزاجه الفلسفات الإشراقية والمانوية والرواقية ، التى اختلطت بالتصوف حتى لم تبق له علاقة مع عقائد الإسلام وأعماله الخالصة إلا قليلا . . . » .

وهل نحن بحاجة إلى التذكير برواسب هذا المزيج الهندى والفارسى واليونانى ، فى مذاهب أولئك الطرقيين ، الذين شحنوا أذهان مريديهم بأفكار

الحلاج وابن عربى والتجانى والجيلى ، والعشرات من أمثالهم ، الذين أصبحوا قادة السواد الأعظم من عامة المسلمين . . . وأصبحت أضاليلهم أعمق أثراً فى قلوبهم من كلام الله ورسوله والأئمة من علماء الإسلام ! ! .

أما ذلك العدد اليسير من أهل الرياضة النفسية الزكية المستقيمة على طريق الوحى . فقد رأى سماحة الشيخ أبى الحسن مدى تقدير أخيه لهم فيما نقله من كلامه عنهم[1] . . فهم موضع احترامه وتكريمه ، ولكن هذا لم يمنعه من التوكيد على أن الإقبال حتى على هذا الضرب من التصوف النقى لا يتفق مع مصلحة الإسلام فى الظروف الراهنة ، فهو بنظره كالماء الذى استيقن المريض ضرره ، فيجب عليه تركه على الرغم من إباحته الأصليه[1] وقديماً قال الحكماء « الحكم فى الشيء فرع عن تصوره » ولا جرم : أن لقسوة الإمام على بعض المتصوفة صلة وثيقة بواقعهم الذى نشهده فى كل مكان من بلاد العرب والإسلام ، إلا ما رحم الله وقليل ما هم . . .

تعاون لا تشاحن :

وهكذا القول فى تركيز الإمامين المودودى وسيد قطب على الجانب السياسى من موضوع المصطلحات الأربعة ، لا يكفى النظر إليه فى معزل عن الواقع الرهيب ، الذى يعانيه الإسلام تحت سلطان الحكومات الجاهلية ، التى لا تدخر وسعاً فى تحطيم الطاقات الإسلامية بالقتل والتعذيب ، واختراع التهم الباطلة لتشويه سمعةرجال الدعوة . . فذلك هوالذى استقطب تفكيرهما إلى موضوع الحكم حتى أغفلهما عن ناحيتى الحب والذل ، اللتين لا كمال لعبادة المسلم بدونهما . وأحسب سماحة الشيخ أبى الحسن ، حفظه الله وأمتع بحياته ، لو راجع ذاكرته لوجد فى معلوماته عن مؤلفاتهما — خارج المعالم والمصطلحات — ما يؤكد أنهما على رأيه فى موضوع الحب والذل . .

وعلى ضوء هذا التصور يغدو موضوع الخلاف بين أبى الحسن الندوى وأخويه لا يزيد عن كونه خلافاً لفظياً ، واختلاف الرأى . . لا يفسد للود قضية .

---

١ — انظر ص ١١٧ من « التفسير السياسى للإسلام » .

كما يقول شوقي ....

ونحن على أتم الثقة بأن نقد أبي الحسن للمودودي وقطب لا يعدو أن يكون كما أسلفنا نوعاً من التعاون على البر والتقوى ، فالأجر مضمون على كل حال إن شاء الله .

وقد رأينا الإمام أبا الأعلى ــ أعلى الله مكانه في الجنة ــ يولي نقد أخيه أبي الحسن كل التقدير ، ويوجه إليه أطيب الثناء . وذلك من منطلق إيمانه بالشورى التي تجعله رحب الصدر لكل نقد بناء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

كلمــة أخيــرة :

بقيت نقطتان من موضوع هذا الخلاف أرى من الخير إيضاح غامضهما .

إحدى النقطتين تفسير الشيخ أبي الحسن لكلام المودودي بشأن مفهوم الأمة لمعاني المصطلحات القرآنية الأربعة عقيب الصدر الأول .

فالشيخ يرى في كلام أخيه عن هذه المصطلحات تعميماً يتّهم بجهلها طبقات الأمة كلها . . والذي نراه أن الأستاذ المودودي إنما أراد بوصفه ذاك سواد الأمة دون أئمة العلم فيها ، وهي قولة حق ، لأن كثرة المسلمين شُغِلت عن تلك المعاني العلوية بالزلازل التي خضّت بها الأرض ، وبالتطورات الاجتماعية والثقافية التي غزتها من كل جانب ، فعزلتها عن حقائق دينها ، حتى كان أكبر همّ العلماء الأعلام ضبط مسيرة الشعوب الإسلامية في نطاق الأصول التي تحفظ عليهم انتماءهم العام . . .

وقد رأينا سماحة الشيخ كذلك يكاد يجزم باستمرار توافر العلم الجامع المانع لآيات الكتاب المبين ، مع أنه يعلم أن بين كبار علماء الإسلام من تعذر عليه أن ينفذ إلى أبعاد الكثير منها ، فاضطربت رؤيته حتى أنكر ما يعتبر اليوم من بديهيات الأمور . فهو مصر مثلاً على أن الأرض ساكنة لا تدور ، مع أنه يقرأ في كتاب الله ذكر الأرض قبل كل آية أخبر بها الله سبحانه عن حركة

الشمس والقمر بقوله الحق : ﴿ **وكل فى فلك يسبحون** ﴾(سورة الأنبياء وسورة ياسين)،وهو كذلك متشبث بالظن أن الكواكب من متعلقات السماء الدنيا ، حتى بعد أن هبط الكفار على سطح القمر ، وأرسلوا مكتشفاتهم الصناعية باتجاه المريخ والزهرة وزحل ! . .

ويفهم كذلك من كلام سماحته ــ ص ٤٠ــ أن القول بخفاء معانى بعض الآيات ينافى إخباره تعالى بحفظه القرآن لأن « الوعد بالحفظ فى موضع الامتنان وتذكير الفضل والإحسان يستوجب الفهم والشرح » وعندى أن هذا التقرير خارج حدود المحكمات من آيات الأحكام يتنافى مع قوله تعالى آخر سورة « فصلت » ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ وهو إخبار صريح بأن فى القرآن أسراراً يعجز العقل عن الإحاطة بها إلا على ضوء الكشوف العلمية ، التى تبرز كل يوم جديداً من كنوز هذا الكتاب الذى لا تنفد عجائبه . .

وما أحكم قول القائل :

وكل العلم فى القرآن لكن تقاصر عنه أفهام الرجال

أما النقطة الثانية فحول رأى الشيخين المودودى وقطب عن مفهوم العبادة والحكم فى المصطلحات الأربعة . وقد رأيت أن أعرض لرؤيتى فى الموضوع فإن كان صواباً فمن توفيق الله ، وإلا فمن نفسى وأستغفر الله .

١ ــ يقرر ربنا تبارك اسمه أن الغاية من خلقه الثقلين إنما هى عبادته وحده ، فيفهم من ذلك أن كل حركة وسكنة من وجودهماداخلة فى نطاق العبادة ، ولكى تكون العبادة مقبولة وموافقة للحكمة التى تحدد غاية الخلق يجب أن تكون خالصة لله ومنسجمة مع الوحى الإلهى . أى كما يقول الفضيل بن عياض يجب أن تجمع بين الإخلاص والصواب .

وإذن فلن تكون العبادة قاصرة على أركان الإسلام الخمسة ، ولا على أركان الإيمان الستة ، بل شاملة لكل عمل يأتيه المؤمن وحسبنا أن نتذكر هنا قوله ﷺ عن الإيمان أنه « بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة ألَّا إله إلَّا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . . . » فاماطتك

الأذى عن الطريق رغبة فى مرضاة الله من فروع الإيمان ولا عبادة بغير الإيمان .

٢ ـــ ويزيد ذلك إيضاحاً قول ربنا تبارك اسمه لنبيه : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين** ﴾(الأنعام) وهو خطاب يعم الرسول ﷺ والأمة كلها من ورائه ، فيعلمهم أن وجودهم كله ينبغى أن يكون فى الاتجاه الذى يحبه الله ، يستوى فى ذلك أنواع العبادات المحضة ، والأعمال العامة ، التى تتحول بنية الطاعة إلى عبادة .

٣ ـــ أن الله جل ثناؤه يقرن نصره لعباده بطاعتهم إياه فيقول : ﴿ **وَلَيَنْصُرَنَّ الله من ينصره . . . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾(الحج) ونصر العبد لربه إنما هو استغراقه فى طاعته ، حتى يكون ذلك الربانى الذى ينسجم وجوده كله مع مرضاة ربه ، كما ورد وصفه فى صحيح البخارى ، بقوله ﷺ عن ربه « . . وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها . وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه[١] . . » .

فهذا العبد السعيد لم يكتف بالفرائض حتى ضم إليها النوافل ، فهو يتتبع فى عمله كل ما يقربه إلى الله . وفى فتح البارى نقولٌ كثيرة فى شرح هذا الحديث ، ومن أجمعها قول بعضهم : « لا تتحرك له جارحة إلا فى الله ولله ، فهى كلها تعمل بالحق وللحق » ومن هنا كان استحقاقه للإجابة والإعاذة ، وهما مفتاح النصر الذى وعد الله به ناصريه . .

ونظرة أخيرة إلى عاقبة هذا النوع من الطاعات تؤكد لنا أن إقامة حكم الله فى الأرض لقيادة الإنسانية إلى السبيل الأقوم ، ولحمايتها من الانحراف السالب للأمن والعدالة والكرامة ، حقيقة بأن تكون هى غاية

---

١ ـــ من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه انظر كتاب « الرقائق » ص ٣٤٤ ط السلفية ج ١١ .

العبادة بمعناه الشامل لكل تصرفات المؤمن . . أو على الأقل لا يعتبر القائل بذلك مجانباً لسبيل المؤمنين .

ونحن لا نستطيع استيعاب هذه القضية على الوجه الصحيح ما لم نستحضر واقع الإسلام فى ظل الجاهليات القديمة والحديثة ، والخطر الهائل الذى يهدد الإسلام والمسلمين بالزوال ، إذا لم يكن لهم الكيان الذى تحكمه شريعة القرآن ، على النحو الذى تصوره الآية الكريمة التى نحن بصددها . . فأنا إذن مع الإمامين المودودى وسيد فى تركيزهما على موضوع الحكم ، ولكنى لا أعتبر حديثى هذا رداً ولا نقاشاً للشيخين الأعزين الهضيبى تغمده الله برحمته ، وأبى الحسن أمد الله بحياته . . ولكنه حوار أخوى أرجو عليه من الله العذر والأجر .

والحمد لله رب العالمين ، الذى جعل كتابه المبين حجته العظمى إلى يوم الدين . . وإياه نسأل أن ينفعنا بجهود المودودى وسيد وأبى الحسن وإخوانهم أجمعين ، وأن يجزيهم عن الإسلام والمسلمين خير ما يستحقه من فضله المصلحون المخلصون . . .

* * *

Grams : MARKAZ

بسم الله الرحمن الرحيم

جماعت اسلامی ہند

Jamaat-e-Islami Hind जमाअत इस्लामी हिन्द

BAZAR MUFTI KIFAYATULLAH, DELHI-110006

Ref. No. Dated

فضيلة الاخ فى الله الشيخ محمد المجذوب الموقــــر : حفظه الله

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته .

ارجو لكم اتم الصحة و العافيــة فى الدنيا و حسن المآب فى الاخرة ،و بعد.

فقد سررت كثيرا بلقاءكم و الحوار معكم فى سفرى هذا. و اعتبـــــــر هذا اللقاء الاخوى و الزيارة الودية نعمة كبيرة انعم الله بها على فى سفرى هذا و كنت على ذكر من اللقاء السابق ، اذ اسعدنى الله بهذا اللقاء ،و اتمنى منه تعالى ان يسعدنى بــه مرارا.

و انا مؤسف جدا لاننى لم اجد فرصة خلال سفرى لقرآة المقالة القيمة ـ و بعــد العودة أخرت كثيرا من الاعمال الضرورية الفورية ،و قرأت المقالة و بعد نهاية القرآة خرجت كلمة دعائية من قلبى" اثابكم الله ثوابا جزيلا"و انا ما قرأت حتى الان مقالة جامعة لكاتب عربى حول شخصية المودودى رحمه الله مثل هذه المقالة و انها لتمتاز بايجازها وشمولها .وتحتوى على معلومات صحيحة وفق علمى الا فى امــــــر او امرين،فانى لا اعلم ان المغفور له الاستاذ المودودى قرأ العلوم الابتدائية من القرآن و الحديث و الفقه على ابيه ،كذلك لا اعلم انه كان حافظا للموطا بكاملـــــه . فالتمس من الاخ الكريم اعادة النظر فى مأخذ هذه الامور.*

و كل من يقرأ انطباعاتكم خلال هذه المقالة يقدر تقديرا جيدا لحبكم العميق للاسلام و اهله.

و سرنى كثيرا ماكتبتم فى شرح كلمة العبادة ،و انه لتعليق خالص عادل حــر على البحث الذى قدمه صديقنا و صديقكم فضيلة الاستاذ ابوالحسن على الندوى فـــى كتاب له. و انا اتوقع نظرا الى مؤهلاته و حبه للحق انه لايجد اى غضاضة بعــد قرآة هذه المقالة ، ان شاء الله.

و هنا يجدر بالذكر ان الاستاذ سيد احمد القادرى رئيس التحرير لمجلة "زندگی" الشهرية كتب تعليقا على كتابه هذا. و قد تم نشره من قبل بكثير. و الان ارفق مع هذا الخطاب نسخة من ترجمته باللغة العربية ،و نرجو من فضيلة الاخ الـــافادتنا بوصول الكتاب .

و اخيرا اود لكم مايود اخ لاخيه من خير الدنيا و الاخرة.

و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.

اخـــوكم فى الله

ابو الليث

ابو الليث الاصلاحى الندوى

امير الجماعة الاسلامية الهند

٦/١/١٤٠٤هـ

١٤/١٠/١٩٨٣م

* انظر تذييلاً في الصفحة الثانية من ترجمة الإمام المجدد

الأستاذ أنور الجندي

قبل ثلاثين سنة ، وكنا مجموعة من أساتذة العربية ، قد حضرنا للمشاركة فى تدقيق الامتحانات بثانوية جودة الهاشمى فى دمشق . . وفى إحدى فترات الراحة دار الحديث حول مختلف الشئون وكانت لى هناك كلمة عابرة ، ولكننى لا أزال على يقين من صحتها ، إذ قلت:من غرائب الأشياء أن معظم الذين نؤثرهم بمحبتنا هم الذين لم نرهم قط . . .

وكانت هناك مُدَرِّسَة من المأخوذات بكل جديد من أسباب التطور ، فلم يعجبها ما قلته وقالت فيما قالت : وكيف يكون ذلك ؟ . . فقلت : أعلم ذلك من خلال تعاملى مع الذين أحبهم ، فأحب هؤلاء إلىَّ إطلاقاً هم الذين عرفتهم عن طريق مآثرهم المتفوقة ، وعلى رأسهم محمد رسول الله والراشدون من بعده حكاماً وعلماء وأبطالاً فى مختلف ميادين الحياة . . .

ولم تستطع المدرسةالصبر على مواصلة الحديث فتركتنا وانصرفت ..

وفى ظل هذه القاعدة الواقعية أتحدث عن الصديق الفاضل الأستاذ أنور الجندى ، فقد عرفت الرجل من خلال مقالاته الطريفة التى يعالج بها الحسَّاس من مشكلات الجيل المسلم . . وحفزنى ذلك على قراءة بعض كتبه فازددت له تقديراً وبه إعجاباً . . . ثم لقيته لأول مرة أثناء زيارتى « دار الاعتصام » فى القاهرة ، فلم أجد فى هيئته وحديثه ما يخالف الصورة التى كونتها عنه ، ثم شاء الله أن نتلاقى فى مؤتمر السيرة والسنة ، الذى عقدته مصلحة الشئون الإسلامية فى دوحة قطر عام ١٤٠٠ هـ وأتيح لنا أثناء هذا اللقاء أن نتناول من الأحاديث ما لم يتسع له لقاؤنا العابر فى القاهرة . . ، فكان ذلك مدعاة لعمق المعرفة ، واكتشاف ما بيننا من توافق فى الخط الإسلامى الذى اتخذه كل منا .

أول ما يلفت نظرك من الأستاذ أنور الجندى بساطة مظهره ، وصفاء نظره ، الذى يصور لك ما وراءه من صفاء النفس . وخلال لحظات قصيرة تشعر بأنك تلقاء إنسان سلمت طبيعته من التعقيد والالتواء ، فلا تلبث أن تنساق إلى مودته والثقة به .

ودفعت إليه بورقة الأسئلة التى أعددتها له . .

فلم يلبث أن وافانى فى اليوم التالى بالأجوبة على نحو من الإيجاز لا يكاد يفى بالمنشود ، فكان على أن أقرأ كلماته وما وراءها مما اكتفى بالإشارة إليه دون أن يقول فيه شيئاً .

م : لو تفضلت بتقديم نفسك إلى القارىء : الاسم والمولد والنشأة الأولى .

جـ إسمى أحمد أنور سيد احمد الجندى . . ولدت فى الخامس من ربيع الأول من العام خمسة وثلاثين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة ، فى مدينة ديروط من مديرية أسيوط بمصر ، ولقد نشأت فى بيت علم ودين ، وتفتحت عيناى منه على كتب التراث الجميلة مكتوبة بالمداد الشينى الأسود ، وقد مُيِّزَتْ عنواناتها باللون الأحمر ، مما ترك فى نفسى هوى خاصاً لهذا النوع من كتب التراث .

وكان والدى رحمه الله إلى جانب عنايته بتلك الأسفار متابعاً للحديث من مقالات المعاصرين التى تنشرها الصحف والكتب الجديدة .

فكان من إيحاء ذلك الجو أن بدأت اتصالى بالكتب عن طريق مقدمة ابن خلدون ودائرة معارف فريد وجدى وما إليهما من مؤلفات بعضها فى مكتبة الوالد ، وأستعير بعضها من الآخرين . . فكنت أقرأ ما يتيسر من هذه الكتب دون الإحاطة الكاملة بما تحتويه ، وكان لذلك أثره البعيد فى تكوينى الإنشائى والفكرى ، حتى لقد أقدمت على إلقاء محاضرة عن الأدب العربى الحديث أثناء دراستى الابتدائية ، كان لها ردود فعل غريبة ، إذ تعذر على مستمعيها أن تكون من عملى ، ولذلك عمد بعضهم إلى إجراء البحث عن مصادر هذه المحاضرة ، وقد علمت ذلك من أوضاع الغرفة التى أسكنها ، إذ عدت ذات يوم فوجدت آثارهم على

درجى وأوراق . فقد قدروا أن المحاضرة منقولة لا محاله ، لأن أسلوبها الأدبى فوق طاقة تلميذ من تلك المرحلة ، فأرادوا التيقن من ذلك . . » .

ويُذكِّرنى حديث الصديق عن محاضرته تلك بالوضع الذى بلغه التعليم الابتدائى والإعدادى أثناء الأربعينات فى مصر وسورية ، وفى خريجى الأزهر فى تلك العهود أمثلةٌ حية لارتفاع مستوى تلاميذه فى المرحلة الابتدائية ، إذ كان من شروط القبول فيه أن يكون التلميذ من حَفَظَة القرآن ، ولا يتصور أن يتم هذا الحفظ دون أن يصاحبه زاد مناسب من القراءة والكتابة والفقه فى الكُتَّابِ الذى أهّله لتلك المرحلة .

ولا أزال أذكر جيداً أن بعض تلميذاتى فى المرحلة الإعدادية بسورية قبل أربعين سنة قد بلغن فى الإنشاء الأدبى مستوى أهَّلهن لتقدير بعض الأدباء ، الذين تحدثوا عن إنتاجهن ضمن مُذاعاتهم عن الأدب الحديث فى إذاعة الشرق الأوسط . .

فالجو المدرسى الذى عايشه الأستاذ أنور الجندى أيامئذ كان مهيئاً لترقية المواهب ومشجعاً للأذكياء من التلاميذ على المحاولات الأدبية . . .

فلا يستغرب أن يوجد بين أفراده الناشئين من يحسن الكلام عن الأدب العربى الحديث . . . ذلك لأنهم لا يجدون ما يشغلهم عن التحصيل الجدى ، بشىء من العوامل الصارفة التى تواجههم هذه الأيام فى المسلسلات التلفازية ، ومشاهدة الكرة ، ورسوم الرقعاء على أغلفة المجلات وصدور الصحف . . . فتستهلك أوقاتهم دون فائدة ، وتقطعهم عن روافد العلم الذى لا سبيل إليه إلا عن طريق الكتاب الجادّ .

ويتابع الأستاذ الجندى حديثه عن نشأته وعوامل تكونه الفكرى قائلاً :

كانت صلتى وثيقة بأئمة المساجد فى بلدنا ، وهى التى ساعدت على اتجاهى فى اختيار نوعية الأصدقاء الذين تركوا آثارهم عميقة فى سلوكى الشخصى . . ففى ذاكرتى صور لا تنسى عن ذلك الوسط الطيب يتمثل فى

أجواء المساجد وهيئات المصلين ومواسم العبادات . . . وما زلت أتذكر مجلساً للعلم فى مسجد ديروط الكبير بين العصر والمغرب من كل يوم ، وألمح من وراء السنين ذلك الشيخ الوقور الذى يمس بإشراق وجهه وملامحه أعمق المشاعر . . ، وأستعيد ذكرى والدى وأنا أصاحبه إلى حلق الذكر ، وأستشف تلك النشوة الروحية التى كانت تغمرنا نحن الصغار إذ نتنادى للخروج إلى المسجد ، قبيل الفجر ، فنرافق المؤذنين إلى المنائر ، وندير السواقى القائمة على البئر لنستخرج المياه للمتوضئين .

ولا أتمالك وأنا أراجع كلمات الأستاذ الصديق عن ذلك الجو الآمن الآسر ، الذى لم يكن ليفقده بلد إسلامى فى هاتيك الأيام ، فأجدنى مسوقاً إلى التساؤل : كم بقى لأبنائنا وأحفادنا من جمال ذلك الماضى حتى الآن ؟ ! . .

لقد تغير كل شىء ، ويا ليته تغير للأفضل ، فإن التغير سنة الحياة ، ولكنه تغير موشك أن يقطع صلتنا بكل ذلك الماضى ، حتى لنستشعر الغربة الكالحة تضرب بسدودها بيننا وبين أبنائنا بله أحفادَنا .. فلا يكادون يفهمون عنا شيئاً ، ولا يتصورون أن لدينا ما يستحق أن يُستَمع إليه . . ولا غرو فقد بدأنا أول الحروف التى تعلمناها من كتاب الله فى كتاتيب تُؤدِّيها صباح مساء بألحان القرآن ، وترعرعنا فى أحياء يكثر فيها الآمرون بالمعروف ويقل فيها الراغبون فى المنكر . . ثم انتقلنا إلى مدارس كان معظم مدرسيها من شيوخ الكتاب أنفسهم ومن زملاء لهم لا يختلفون عنهم من حيث الالتزام بأخلاق الإسلام ، ثم تدفقت علينا أمواج الشواذِّ من أخلاق لا عهد لنا بها ، وتصرفات لا مسوِّغ لها فى مواريثنا ، وتولى تربية أبنائنا أناس من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ، ولكنهم آمنوا بغير أفكارنا ونشئوا على غير سبيلنا ، فإذا نحن تلقاء هذه الأجيال التى غلب عليها الاستهتار بتراث الآباء والأجداد ، إلا من رحم الله وقليل ما هم ، وكثير بلاؤهم فى سبيل الحق الذى هداهم الله إليه . .

ويتابع الصديق سرده لمؤثرات النشأة فيذكر اتصاله بمصادر الفكر الحديث عن طريق الصحف والمجلات ، التى كانت معرض التطورات الثقافية ، التى يمثلها أفراد من كبار كتاب تلك السنين ، وكان لهذا الاتصال أثره العميق فى إثارة التفاعل بين قراءاته السابقة والحديثة . .

ويقول الأستاذ : لقد بدأت هذه الخيوط تتجمع لتشكل نوعاً من التركيز الفكرى حتى هدى الله قلبه إلى المفهوم الإسلامى الجامع ، ومن ثم تفتحت له آفاق السنة والسيرة النبوية بعد القرآن ، وفى ضوء هذه المصادر العليا جاءت مؤلفات الإمام الغزالى لتثبت له المؤشر الحاسم بأن الإسلام منهج حياة ونظام اجتماعى عالمى متكامل . . .

وهنا لا بد من وقفة قصيرة نقارن خلالها بين اتجاهه الفكرى هذا ، وبين دراسته وعمله . . فقد كانت دراسة الأستاذ كما يفهم من الاستطلاع ، مقصورة على التجارة والاقتصاد ، فساقه التخصص إلى العمل فى « مصرف مصر » وهو مسلك لا يكاد يتصل بالاتجاه الذى صار إليه ، ولا ندرى كيف استطاع التخلص من التناقض بينه وبين عمل فى مصرف يقوم على أساس الربا ، الذى يلعن الإسلام آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه . . . وهى نقطة لا تزال غامضة المفهوم بالنسبة إلينا ، على الرغم من قوله فى ذلك الاستطلاع إن دراسته وعمله لم يكونا سوى مرحلة من مراحل التكوين والتشكيل ، ولعلنا نجد فرصة لاستيضاحه عن هذا الإشكال قبل تقديم هذه الترجمة إلى النشر . .

وسألنا الصديق عن أكثر الشخصيات تأثيراً فى تكوينه الفكرى ، وعن أهم الأحداث التى ساعدت على هذا التكوين . . فأجاب بما خلاصته :

لقد قابلت عشرات من أعلام الفكر والكفاح أثناء رحلاتى فى البلاد العربية ، وتابعت دراسة الكثيرين من أعلام الإسلام المعاصرين ، أمثال شيخ العروبة أحمد زكى باشا ، واحمد تيمور ، وشكيب أرسلان ، ومصطفى صادق الرافعى ، وحسن البنا ، وعبد العزيز الثعالبى ، وعبد العزيز جاويش ، وأمين الرافعى ، ومحمد فريد وجدى ، ومن لا أحصى من طبقتهم ، فكان لرحلاتى ومقابلاتى ودراساتى لأعمال هؤلاء الأفذاذ آثارها العميقة فى كيانى كله . .

ويتابع : فى مرحلة تكونى عرفت رجلاً جليلاً هو الشيخ فخر الدين ، وكانت معرفتى إياه عاملاً أساسياً فى إعطائى الاتجاه الفكرى لونه الأصيل ومنهجه الصحيح ، وبخاصة فى الإنتاج الذى كنت أنشره فى الصحافة العامة ، ثم فى الصحافة الإسلامية التى أواصل الكتابة فيها . .

أما من هو الشيخ فخر الدين . . فما نعلم عنه إلا اسمه هذا . .

وعن مجالات هذا الاتجاه الأصيل يقول الأستاذ الجندى :

لقد تعددت أنحاء هذا الاتجاه ولكن الإطار الذى يضمها جميعاً هو الأدب والصحافة ثم الدراسات الإسلامية .

ويحدد أهم منتجاته فى الموسوعات التالية :

١ ــ معالم الأدب المعاصر ، وقد بلغت حتى الآن سبعة عشر مجلداً .
٢ ــ تراجم الأعلام فى ثلاثة مجلدات .
٣ ــ مقدمات العلوم والمناهج فى أربعين جزءاً يقدر لها عشرة مجلدات .
٤ــ مَعْلَمَة الإسلام ، وقد ظهر منها حتى تاريخ هذا الاستطلاع خمسون جزءاً .

ويقول الصديق معقباً على ما تقدم : إن هذا العطاء ، عطاء القلم الذى أقسم الله تبارك اسمه به ، قد بدأت بواكيره منذ السنوات الأولى من حياتى الفكرية ، ثم أخذ سمته نحو التكامل والعمق ، ثم شاء الله أن يخلصه لوجهه الكريم ودعوته المنقذة . . .

وأهم التحديات التى واجهتُها خلال هذه المراحل هى قضية الغزو الفكرى الهادف إلى تغريب التصورات والمناهج والصبغة الاجتماعية ، بالتشويش عليها أولاً ، ثم باستبعادها عن المرتكزات الإسلامية فى النهاية وقد استخرت الله ، فوهبت نفسى لمقارعة هذا الغزو بالحجة والمناقشة وتعرية الأهداف المبيتة من خلفه وهكذا يكاد ينحصر جهدى فى معالجة قضايا الاستشراق والتبشير ، والتهجمات الموجهة إلى الإسلام فى نطاق الشريعة والاقتصاد والسياسة والتربية جميعاً .

ويقول أبو غسان ــ المسجل لهذا الاستطلاع ــ إن القارىء المتتبع لإنتاج الأستاذ أنور الجندى لا تفوته رؤية هذه الملامح فى سائر ما يطالعه من آثاره سواء فى مقالاته المتلاحقة بمختلف الصحف الإسلامية ، أو كتبه على اختلاف أحجامها ، بل إنه ليشعر أن أجوبته على أسئلتنا كانت مسرفة فى

الإيجاز ، وكان بمقدوره أن يتوسع فى بسط بعض النقاط أكثر مما فعل ، ولعله آثر هذا الإيجاز استحياء من إطالة الحديث عن نفسه أو اكتفاءً بما يحمله إنتاجه القلمى من موضوعات تغنى عن المزيد من التفصيل .

والحق أن قارىء الأستاذ الجندى ليشعر بقوة أنه تلقاء كاتب شديد الإحساس بمسئوليته تجاه الأصالة الإسلامية فى كل ما يتناوله من بحوث . . وكأنه حارس على ثغرة لا يلمح شبحاً ولا حركة إلا تناولها بالتحليل والتصوير والاستنباط والتحذير . . .

وهذه العناية الدقيقة بمتابعة الوافدات الدخيلة قد أفرغت على الأستاذ الجندى طابعه المميز ، الذى يصلك بملامحه الشخصية من خلال أى مقال يكتبه ، أو رأى يعرضه فى أى مشكلة . .

إن فى طبيعة هذا الكاتب الإسلامى خصائص المحلل الكيميائى ، الذى لا يكتفى بالنظر إلى ظواهر المادة ، حتى يتغلغل إلى أعماقها ، فيفصل بين جزئياتها ، فيعين لكل منها نسبتها ووظيفتها وأثرها . . وبهذه الخاصة التحليلية تنفرد بحوثه بطابع الطرافة والجدة ، وتنفرد شخصيته بالملامح التى تميزها فلا يختلط بغيره من حَمَلةِ الأقلام .

وقَدَّرَ الله لى زيارة القاهرة ، وسعدت بلقاء الأستاذ الجندى فى دار الاعتصام ، فقدمت إليه صورة من ترجمته ليرى إذا كان لديه ما يزيده فيها ، فلما كان ضحى الغد جاءنى بالتعقيب التالى :

فى أواسط الصفحة الثالثة ألفيتكم تقفون عند عملى فى مصرف مصر . . وحق لكم أن تجدوا فى ذلك إشكالاً يقتضى الاستيضاح . . وقد فتح موقفكم هذا فى ذاكرتى صفحات مطوية رأيت أن ألخصها فى ما يلى :

الحقيقة أننى مررت بمحنتين لا محنة واحدة ، الأولى هى « المصرف الربوى » والثانية هى « الصحافة » وهى أشد خطراً من ذلك .

أما المصرف فقد حرصت أن يكون عملى بعيداً عن حسابات الربا ويكون قاصراً على الأعمال التجارية وحدها ، مع خوفى وحذرى من الخطر الذى يلحق بى . وكنت حريصاً على نظافة اليد وطهارة التعامل ، وبث روح

الإيمان فيمن حولنا ، وكنا فى هذا أشبه بالمضطر الذى لا يغفل عن مصدر الخطر ، ويدعو الله أن يحرره منه ، فلما جاء العمل الصحفى كان أول أمره إسلامياً خالصاً ثم تحول إلى الصحافة الحزبية والسياسية ، وقد كنت حريصاً على أن لا تأكلنى الصحافة فى خضمها الخطير فاقتصرت على صفحات الأدب أول الأمر ثم الصفحات الإسلامية .

وقد امتحنت فى العمل الصحفى بمحنة العمل مع الماركسيين ، واستطعت بعون الله أن أتجاوز إغراءاتهم ، وأن أحصر نفسى فى حيز قليل مضحياً بكل أسباب الكسب والترقى ، حتى أنى أمضيت عشر سنوات كاملة دون أن أحصل على مكافأة واحدة ، وكان عزائى فى ذلك عملى الفكرى الذى كنت أعده وأتفرغ له .

لقد ولدت فى خضم الأحداث فعام مولدى ١٩١٧ كان عام وعد بلفور ، وفى مطالع الشباب ١٩٢٤ سقطت الخلافة الإسلامية ، ثم كان وصول الماركسيين فى مصر إلى السيطرة على الإعلام عام ١٩٦٢ ثم كانت نكسة ١٩٦٧ التى ضاعت بها القدس عاملاً خطيراً فى ظهور دعوة العودة إلى الله وبوادر الصحوة الإسلامية التى تحتاج إلى الترشيد والتوجيه فى الانتقال بالأجيال المسلمة الجديدة إلى الأصالة والرشد الفكرى ، وكان هذا من أهم مشاغلى . . ولا ريب كانت أخطر الأزمات النفسية التى أصبت بها هى أزمة سيطرة الماركسيين على الصحافة والإعلام والمسرح والثقافة فى مصر . . فقد أحدثت لدي حالة من أشد الحالات خطورة ، غير أن الله تبارك وتعالى وجهنى إلى العمل لإعادة بعث التاريخ الإسلامى على نحو جديد ، وتجديد الثقافة الإسلامية ومواجهة التحديات .

ولقد كنت فى الحقيقة قد اكتشفت نفسى منذ الثلاثينات عندما رفع الغطاء عن خطة « التغريب» التى يجرى العمل بها فى البلاد الإسلامية بترجمة كتاب « وجهة الإسلام » للمستشرق جيب ، والهدف منه دراسة ما وصل إليه « تغريب البلاد الإسلامية » والخطط التى سيتم العمل بها حتى يتم هذا التغريب وواضح أن هذه الخطة كان قد رسمها لويس التاسع بعد هزيمته واعتقاله فى المنصورة ، فقد دعا إلى ما سماه « حرب الكلمة » بعد هزيمة حرب السيف

فى الحروب الصليبية ، وكان ذلك مبدأ العمل الخطير الذى تم تحت أسماء التبشير والاستشراق والغزو الفكرى ومحاولة إثارة الشبهات والسموم حول الإسلام عقيدته وقرآنه ونبيّه وتاريخه ولغته ، ومنذ ذلك الوقت الباكر توجه قلمى إلى هذا العمل ، ومعنى هذا أننى بعون الله قد أمضيت الآن أكثر من أربعين عاماً فى الكشف عن هذه الخطط والرد عليها فى عديد من الدراسات ، التى نشرتها فى الصحف أو قدمتها فى مؤلفات أو ألقيتها فى مؤتمرات عالمية امتدت من إندونيسية إلى الجزائر . .

كانت خطة التغريب التى هى بمثابة التحدى الفكرى لشاب فى السابعة عشرة هى مفتاح حياتى الفكرية الحقيقى غير أننى لم أصل إلى الفهم الحقيقى لذلك إلا عندما استوعبت مفهوم الإسلام الجامع بكونه ديناً ودولة وعبادة ومنهج حياة ، ومن هنا اكتشفت خطورة المؤامرة التى قادها التغريب عن طريق « التبشير والاستشراق الغربى والصهيونى والماركسى » التى ترمى إلى تفريغ الإسلام من محتواه كدعوة عالمية ، ومن منهجه لبناء المجتمع ، ومن أصالته وذاتيته القادرة على حفظ بيضته ، وبناء أجياله على مفهوم الجهاد والمرابطةوالإعداد فى مواجهة الخطر الخارجى المتربص الذى واجهته القارة الإسلامية منذ فجر الإسلام ، والممتد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذه الحقائق لا بد أن نربى عليها أبناءنا وأجيالنا الجديدة ، حتى لا تستسلم للتحلل والخضوع لأى قوة مهما كانت .. » .

وشكر الله للأخ الفاضل إضافته النفيسة هذه إذ أمدتنا بما لا ينبغى أن تغفله ترجمة من حياة صاحبها تأثيراً وتأثراً ، فليس بالشيء اليسير تلك الفترة المزعجة التى قضاها فى جو الصحافة يسيطر على توجيهها عناصر مدخولة لا تقيم للقيم الإسلامية التى نشأ عليها وزناً ، وهو جو من الحدة والشدة بحيث لا يتوقع أن يسلم من فاعليته معايش له ، ولو تصورنا أن ذلك المعايش أقل حصانة روحية من فتانا ــ الجندى ــ لابتلعه التيار المركّز دون أن يجد فرصة للنجاة من قبضته ، ولكن شاء الله أن يكون موقفه كموقف الجسم المنيع من هجوم الوباء يتلقاه ميكروباً فيحيله عذاءً . . وشيء آخر لا ينفصل من حيث الأثر عن ذلك الجو وهو ما أتاحه له من فرص الاطلاع على خفايا العوامل المؤثرة فى

كيان المجتمع المصرى ، ما كان له أن يعلم عنها الكثير لولا وجوده هناك . . ومن هنا برزت اهتماماته بتتبع تلك المؤثرات وبخاصة فى تضاعيف المؤلفات التى جعلت تغزو رؤوس الجيل العربى عن طريق مؤلفيها من مدرسى الجامعات ودعايات أشياعهم لها ولهم . .

وحسبك من ذلك عنايته بآثار أبى كلود ــ الدكتور طه حسين ــ حتى ليكاد يحيط بها جميعاً كتباً ومقالات وخطباً ومحاورات ومحاضرات ، وخصائص ومميزات وما إليها . . ولسنا بحاجة إلى تذكير القارىء بأهمية هذا التتبع لآثار رجل لم يُقَدَّر لواحد من معاصريه أن يبلغ ما بلغه فى تفكير ذلك الجيل ، ولم يبلغ كاتب من الغموض ما بلغه من تقديره ، حتى أصبح ركيزة المولعين بالتجديد يطوفون حولها ، ويقدسون موحياتها ، ويذودون عن سمعتها بكل ما أوتوا من بلاغة وقوة ، على الرغم من كل البينات الشاهدة عليه . .

فى كتاب « طه حسين : حياته وفكره فى ميزان الإسلام » يحشد الأستاذ الجندى خلاصة مركزة عن نشأة ذلك « العميد » الساحر واعترافاته وأفكاره وتناقضاته وأقوال خصومه وأنصاره ، وخلفيات كل هؤلاء وأولئك . . وقد وفق إلى إزالة الستور التى طالما خدعت ولا تزال تخدع الكثيرين من « الدكاترة » والمأخوذين برقى ذلك الساحر الساخر ، تلك الستور التى غلف بها كتبه ذات الطابع الإسلامى حتى حجب أغراضه الحقة عن الأعين الكليلة ، فاتخذها المخدوعون والمعجبون دليلاً لا يرد على إسلامية كاتبها ، فاذا هى ــ كما قدرها العارفون فى وقتها ــ سموم مغشاة بالعسل ، تريد الإجهاز على مصداقية السيرة النبوية وإثارة الشك فى براءة الرعيل الأول من خير أمة أخرجت للناس ، وإذا مؤلفها لا يزيد على كونه حرباً دُسَّتْ على جماع الإسلام قرآناً ونبياً وسيرة وتاريخاً ، لغرض واحد هو بعث الريبة وتكثيفها فى كل هذه الحقائق . . وبدافع واحد هو تنفيذ المخطط الذى وضعته اليهودية والصليبية ، وقامت على تعهده عن طريق المبشرين والمستشرقين وأذناب هؤلاء وأولئك من أبناء المسلمين . . ويا لها من حرباء لا أقدرَ منها على تغيير صبغتها وفق تغير الأحوال ، حتى لم تدع حزباً سياسياً دون أن تنضوى إليه فتملأ الصحف بمدحه ثم تتسلل منه إلى خصومه فتدبج الروائع فى إطرائه وتعظيمه . .

وليس فى صدرها ذرة حب أو إخلاص لهؤلاء أو أولئك ، وإنما هو الاحتيال للوصول إلى طريقة أنجح لتنفيذ ما هى مكلفة به من قبل أعداء الإسلام . .

وأنا حين أشير إلى مضمون هذا الكتاب القيم ، الذى جمع فى صفحاته المئتين والخمسين ما لا غنى لباحث عن معرفته من حياة طه حسين ، فقدم له بذلك خدمة تغنيه عن مراجعة العشرات بل المئات من الكتب والصحف ، ولا أنسى أن أضم إليه كتابه الآخر الذى لا يزال تحت الطبع بعنوان « محاكمات طه حسين » وبهذا أو ذاك تنقطع حجة كل من يتصدى للدفاع عن أبى كلود من أصحاب النوايا الصالحة . . أما أولئك المواطئون له فى أهدافه بل أهداف مصطنعيه الهدامة فليس لهم عندنا وعند الأستاذ الجندى سوى أن ندعو لهم بالهداية إلى التى هى أقوم . . .

والآن ونحن فى صدد التقييم لمميزات هذا المفكر الإسلامى يحسن بنا أن نختم هذه الصفحات ببعض النماذج من إنتاجه لنرى إلى أى مدى تتراءى خصائصه الأسلوبية والفكرية والمنهجية من خلاله وليكن هذا الأنموذج مما تقع عليه اليد دون بحث ولا استقصاء ولا انتقاء .

يقول الأستاذ الجندى فى مقالة له نشرتها مجلة الدعوة الصادرة بالرياض فى العدد ٨٨٩ تحت عنوان « خطران » :

« عملان خطيران قذف بهما التغريب فى وجه الأمة الإسلامية فأفقدها قوة التماسك بإزاء ذاتيتها الخاصة المتميزة : القانون الوضعى فى وجه الشريعة الإسلامية ، ومبدأ القوميات فى وجه الوحدة الإسلامية ، وقد ولدت القومية فى أحضان الإرساليات التبشيرية ، واتخذت وسيلة لهدم الخلافة ، وليس كذلك العروبة التى لجأ إليها العرب بعد سقوط الخلافة ، وكانت فى تقديرهم حلقة تالية للوحدة الإسلامية بعد الوطنية والإقليمية التى فرضها تمزيق العالم الإسلامى ، وصولاً إلى الوحدة الإسلامية مرة أخرى ، ولكن العروبة بمفهومها الإسلامى وانتمائها الأصيل كان مكروهاً عند التغريب الذى حاول أن يطرح مفهوم القومية بالمفهوم الغربى ، وهو يعنى الانسلاخ عن الإسلام تحت شعارات ومسميات شتى ، وبأساليب وأفكار ترمى إلى هدم التراث والأصول التى قام

عليها البناء الاجتماعى ، وتهدف إلى الفصل بين العرب والمسلمين وبين العروبة والإسلام ، وإقامة حاجز من الحقد والكراهية بدلاً من بناء جسر للأخوة الإسلامية بين العرب والأمم التى تقول لا إله إلا الله ، ولقد تساءل كثير من الباحثين المخلصين ، لماذا ركز الفكر الغربى على مفهوم القوميات والإقليميات فى البلاد الإسلامية ؟ . وكانت الإجابة واضحة : إنها من أجل إسقاط الجامعة الإسلامية ، ومن أجل إقامة القومية اليهودية ، وفى نفس الوقت للدعوة إلى إنشاء دولة علمانية للقضاء على الذاتية الإسلامية الخاصة التى شكلها الإسلام ، ومن أجل صهر وحدة المسلمين الفكرية فى أتون الأممية العالمية .

وقد أدّى ذلك التركيز الخطير على الإقليمية والقومية إلى بعثرة وحدة الأمة الإسلامية إلى سبعين جنسية معزولة عن الأخرى ومحبوسة وراء أسوار ، وعروبة مقطوعة عن الإسلام فكراً وعن المسلمين جغرافياً . . وحاولت الدعوة إلى القومية أن تصبغ كل شيء بلونها كأنها أيديولوجية مستقلة حتى بالنسبة للقيم العامة ، التربية العربية ، القانون العربى ، المجتمع العربى . .

حتى فى دراسات التاريخ . . فهناك الفقه المصرى والفقه الشامى والفقه العراقى ، وهناك فى التراث إقليمية وقومية ، دور مصر فى النحو ودور الشام فى فى الصرف ودور العراق فى البلاغة ، وتراوحت القضايا بين الإقليمية والعروبة ، وأخذ كل قطر يفخر بنفسه ، وكلها دعوات حول الأجناس والدماء والعناصر ، وفصل اللغة عن الإسلام كفصل التاريخ عن الإسلام ، والهدف هو إخفات صوت الإسلام بالادعاء أن التاريخ عربى ، والحضارة عربية ، والثقافة عربية ، والجامعة عربية ، باستهداف التركيز على القوميات الضيقة ، وإعلاء التاريخ القديم الذى أهدره الإسلام ، وقال المؤرخون : بأن هناك انقطاعاً حضارياً بين الإسلام وما قبله ، فظهرت دعوات الفرعونية والفينيقية والقول بأن العربية لغة العرب وحدهم ، وتمصير القانون والأدب واللغة ، أو مغربته والإشادة بالمؤرخين الوطنيين وحدهم فى كل قطر على حدة ، وإعادة تفسير التاريخ الإسلامى على أنه تاريخ مناطق وأقاليم وأنه تاريخ قومى ، والبحث عن سبيل لوضع صيغة القومية العازلة فيه منذ أولى عصوره ، وقبل أن تعرف كلمة القومية أو مدلولها ، قال أحدهم : العروبة دين عبر القوميين ، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية فى هذه الحياة الدنيا ، وإن

كان لكل نبوته المقدسة فإن القومية العربية هى نبوة هذا العصر فى محفلها العربى ، وأن الوحدة العربية تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله من قلوب قوم مؤمنين)وهذا الكلام يعنى إقامة القومية كدين ينافس الإسلام ، وقد تعالت هذه الصيحات ثم انهارت وليس لها إلا بقايا قليلة لا بد أن تنهار .

لقد تعالت صيحة القومية بين اليهود لتفسح مجالاً للصهيونية ولتحقيق البقاء لإسرائيل ، وقد أقيمت جهود سنوات طويلة لبناء القومية العربية الوافدة ، ولكنها فشلت لأنها عارضت الفطرة والعقل والعلم وتراث أربعة عشر قرناً من الإيمان بالله . نعم إن العالم الإسلامى المركب من أجناس شتى يقدر للعرب دورهم الرائد فى حمل رسالة الإسلام إلى العالمين ، ويقدس لغتهم لأنه بها نزل القرآن ، ويعلم أن العرب دماغ الإسلام وقلبه ما دام القرآن عربياً والنبى عربياً ، ولكن هذا لا يعطى العرب امتيازاً خاصاً يجعلهم جنساً فوق الأجناس .

والمعتقد أن مرحلة القومية العربية التى جاءت بعد الحرب العالمية الثانية قد انطوت ، وأن المسلمين والعرب اليوم يواجهون مرحلة أخرى تختلف عن المراحل السابقة ، وهى مرحلة التماس مفهوم إسلامى لإقامة المجتمع الربانى ، وآية ذلك ما قاله المستشرقون الغربيون أنفسهم وفى مقدمتهم « ويلفرد كايتول شميث » حيث قال إن تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء ، وما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه لن تثمر الجهود البتة ، وفى هذا المعنى ما قاله « جارودى » من أن كل حركات الجهاد الوطنية والقومية التى قامت من أجل تحرير البلاد الإسلامية ، كانت فى الأصل إسلامية الجذور . ولقد استخدمت كل الوسائل السياسية لإعلاء شأن القومية ولكن المجتمع الإسلامى لم يقبلها على هذه الصورة الوافدة التى دعا إليها « ساطع الحصرى » وغيره ، والتى استمدها من مفهوم القومية التركية فى البلقان وغيره ، وسيظل المسلمون قادرين على الأصالة وعلى رفض كل المذاهب والأيدلوجيات الوافدة ، وسيجعلون مفهومهم فى العروبة الأصل المستمد من الإسلام والقائم على الوحدة والإخاء الإنسانى وعلى التجميع دون التفريق ، وعلى الالتقاء الجامع لكل المسلمين ، هو

الأساس الحقيقى . ومن هنا كانت قضية القومية إحدى التحديات التى حاولت تحطيم الكيان الإسلامى » .

فمن خلال المقالة الصغيرة التى نقلناها لك كاملة ، دون تنقيب ولا مفاضلة ولا سابق علم بها ، تتضح لعينيك ملامح هذا المفكر الإسلامى مميزة بارزة بكل خصائصها . . فهو يحدثنا عن جانب من الغزو الفكرى والنفسى يمثل فى الواقع اثنين من أهم الأخطار التى تثيرها حركة التغريب .

فالقوانين الوضعية التى فرضها الاستعمار لتكون البديل لشريعة الله ، قد أحدثت ثغرة هائلة فى حصن المجتمع الإسلامى ، إذ جرته بالقسر إلى الاحتكام لغير المبادىء التى ميز الله بها أمة القرآن ، وما هى سوى خطوة بعد خطوة حتى ألفت هذا الانحراف ، وجاء حكامها الجدد من تلاميذ ذلك الاستعمار ، فكانوا به أشد تشبثاً من الذين فرضوه ، وكان لذلك التحول آثاره البعيدة فى تغيير الصبغة الربانية الخاصة بأهل الإسلام . والويل لكل من يتصدى للمطالبة بالتحرر من تلك القوانين الهدامة ، لأن أمامه ألوان البلاء التى بعضها ولعل أهونها الموت . .

وليس من باب الصدَف أن يرافق قوانين الجاهلية ذيوع الدعوة إلى الاتحاد القومى ، الذى بدأ على أساس الجنسية العربية ، ثم ما لبث أن تحول إلى أنواع من الروابط الفرعية ، فرعونية وفينيقية وإقليمية فقُطْرية ، ومن ثم إلى فرق محلية تبعث موات العصبيات البلدية والقبلية فى تقاليع من « الفولكلور » والعادات التى عفّى عليها الإسلام . . .

وهكذا تلاقى الخطران القانونى والعصبى على تفكيك وحدة العالم الإسلامى ، ليسهل القضاء على طاقاته كلاًّ على حدة ، ولينفسح المجال أمام القومية اليهودية ، التى ما كان لها أن تقوم لو بقى للعالم الإسلامى ، — وفى قلبه الشعوب العربية — تماسكه الذى فرضه الإسلام منذ حدد الله هويته بقوله الحكيم فى القرآن العظيم ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ . .

ومن هنا انطلقت سيول الأفكار الهدامة على ديار الإسلام ، وزاد طغيانها إلقاء المسلمين أفلاذ أكبادهم إلى أيدى الصليبية والصهيونية والماركسية تصنع

منها الركائز التى تدعم حضورها فى صميم وجودهم .

وسرعان ما تفجرت هذه الألغام مولدة ما لا حصر له من الشعارات المعمِّقة للفرقة ، والمتناولة لكل شيء من حياة المسلمين ، حتى لتضع لكل إقليم من عالم الإسلام ، بل من الأقطار العربية نفسها ، مصطلحاتها الخاصة المتمايزة ، فى التعليم والقانون والتاريخ والتربية ، وما إلى ذلك من شئون لا غاية لها فى النهايات البعيدة سوى القضاء التام على وشائج القربى فى عالم الإسلام . . .

ويلاحظ القارىء أن الأستاذ الجندى لا يلقى الكلام على عواهنه ، بل يقدم أفكاره واستنباطاته فى إطار من الوقائع المنظورة ، ومؤيدة بشهادات المنصفين من المستشرقين الذين هُدوا إلى الحقيقة المحررة . . فنشعر أنه موضوعى الرؤية ، وأنه على اتصال بحركة الفكر العالمى . .

وما أشك أن هذه الخاصة الواعية الواسعة هى التى دعت المفكر الإسلامى المغربى الأستاذ عبد الله كنون الى ترشيح الأستاذ أنور الجندى لجائزة الملك فيصل الإسلامية .

ولعمرى إنه لحقيق بهذه الجائزة التى وضعت لتكريم الفكر الإسلامى المجاهد لإعلاء كلمة الله .

* * *

الشيخ أحمد عبد العزيز المبارك

لقيته لأول مرة عام ١٣٩٧ هـ وكان ذلك فى مجلس شيخنا الجليل عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، أثناء مؤتمر الدعوة والدعاة الذى عقد فى الجامعة الإسلامية ، وقد استرعى انتباهي من حديثه ذلك العمق الذى يعالج به ما يتناوله من بحث ، فيشعرك بأنك تلقاء رجل يختلف عن الكثيرين من الشيوخ ، الذين حجبوا أعينهم عن كل منظور خارج حدود الكتب التى ألفها السابقون من أهل العلم ، إذ رأوا فيها كل شيء ولا حاجة بهم لتجاوزها ، ولا جديد وراءها يستحق أن يسأل عنه أو يلتفت إليه . ثم قدر الله أن أطلع على كتابه « حول الإسلام والمسلمين » فازددت له تقديراً إذ لمحت من خلال فصوله ــ التى هى مقالات ومذاعات كتبت فى مختلف المناسبات ــ عقلاً حياً يطل على طائفة من مشكلات العالم الإسلامى ، فيستبطن وقائعها ويستكشف أسرارها ، ثم يقدم لها العلاج الحاسم من صيدلية الإسلام .

ولست بصدد دراسة هذه الفصول لأرصد قيمتها فى ميزان العلم ، ولكنى لا أرى مانعاً من عرض بعض عنواناتها التى تدل على مضمونها الحى .

من سيرته « ﷺ » .

الحاكمية لله تعالى .

فى ميدان التربيـــة .

من شئون الأســـرة .

الصهيونيـــة .

التراث الإســـلامى والواقع الاجتماعى .

الإســـلام هو المنهاج الأمثل .

لماذا ضعف شأن المسلمين ؟ . .

والقارىء بمجرد النظر إلى هذه العنوانات وأخواتها يتصل ذهنه مباشرة بالأفكار التى تشغل بال المؤلف ، لأنها تمس أشد المشكلات التى يعانيها المسلمون حساسية فى مرحلتهم الراهنة ، وهكذا يثبت الشيخ أنه من النوع الذى يعيش أحداث عصره ومآسى أمته ، فلا يكتفى بالشكو المهموس ، والآهة المخنوقة ، ولكنه يفكر ويقدر فيتحرك فى حدود ما يملك من جهد للتنبيه والتذكير والتوجيه ، منطلقاً فى كل ذلك من رؤية إسلامية تحدد مزالق الخطأ وترشد بمنطق الوحى إلى معالم الحق . .

من هنا انبثقت رغبتى فى الترجمة لهذا الفاضل وهـأنذا أقدمه إلى قارىء هذا الكتاب على صورته الطبيعية ، التى عرفتها من خلال لقاءين ، أحدهما ذلك الذى جمعنا فى الجامعة الإسلامية عام ١٣٩٧ والآخر فى دوحة قطر أثناء مؤتمر السنة والسيرة عام ١٤٠٠ ، ثم من خلال المعلومات التى تلقيتها منه ، أو وقفت عليها فى بعض مؤلفاته .

إنه الشيخ أحمد عبد العزيز بن حمد عبد اللطيف من أسرة آل المبارك التميمية المعروفة منذ القديم فى مدينة الاحساء بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية .

وفى الاحساء كان مولده عام ١٩٣٠ ، والاحساء من الهفوف المعروفة فى التاريخ الإسلامى باسم « هجـر » التى اشتهرت بنخيلها حتى ضرب بها المثل فقيل « كجالب التمر إلى هجر . . » .

وقد عرفت أسرته آل المبارك بإقبالها على خدمة العلم والعمل على نشره ، عن طريق مدارسهم المنسوبة إليهم ، وظهر منهم العديد من الشعراء ، وكثر ذكرهم على ألسنة الشعراء الذين صاغوا القصائد فى مدائحهم وفى كتاب « شعراء هجر » للأستاذ عبد الفتاح الحلو المطبوع عام ١٣٩٧ هـ الكثير من تلك القصائد ، وفى إحداها يرثى الشيخ عبد الله آل عبد القادر أحد رجال هذه الأسرة وهو الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل مبارك ، فيقول فى بعضها موجهاً خطابه إلى الأسرة .

آل المبارك حاز السبق أولكم   فهل لكم بعد فى الغابات تشمار

بنوا لكم بيت مجد لا يطاوله | بيت بناه لنعمان سنمار
فشيدوا بيتكم لله دركمو | لا تهملوه ففى إهماله عار
أقول هذا وعندى أنكم خَلَف | فيكم على السلف الماضين إبرار
وكلكم فى طلاب المجد منبعث | وكلكم لذيول الفضل جرار
والخير ما زال خيراً فى معادِنِهِ | توارثته عن الأخيار أخيار
فأفرغوا فى بناء العلم وسعكم | فإنه لمريد السبق مضمار
هذى السعادة لا زلتم بساحتها | بهديكم يهتدى الأهلون والجار

ومن هذه الإشارات يتبين للقارىء فضائل البيئة التى درج فيها مترجمنا ، فهي من أوساط العلم والوجاهة والفضل ، التى لا بد أن تترك أثرها عميقاً فى نشأته وبناء شخصيته .

يقول فضيلة الشيخ : لقد بدأ تعلمه من السابعة إذ أسلمه والده إلى معلمة فاضلة هى الشيخة كلثم بنت الشيخ شبيب ، فقرأ عليها بعض كتاب الله ، ومن ثم انتقل إلى دُبَىّ التى كان والده كثير التردد عليها لنشر العلم ، فتعلم الكتابة على أحد شيوخها عبد الله بن موسى ، ولما أتقن الكتابة ، أعاده والده إلى الاحساء حيث لازم الشيخ عبد الله بن سلطان القحطانى ، الذى أتم على يديه حفظ القرآن الكريم ، ومن هناك انتقل مرة ثانية إلى دُبَىّ ليلتحق بالمدرسة الأحمدية فيها ، وهى التى أنشأها بعض الفضلاء لوالده ليتخذ منها معهداً يُدَرّس فيه علوم العربية والدراسات الإسلامية ، وخلال هذه الفترة كان يتابع تحصيله فى هده المواد على والده وعمه الشيخ ابراهيم عبد اللطيف ، وقد استمر على ذلك حتى العام ١٣٥٠ حيث بدأت المرحلة الثانية من حياته فاستكمل شطر دينه بالزواج ، وانقطع عن الدراسة ليتولى التدريس فجعل يستقبل فى داره طلاب العلم الذين هرعوا إليه ليتلقوا على يديه مختلف العلوم التى زُوِد بها .

وفى العام ١٣٥٥ أسندت إليه مهمة الخطابة فى مسجد المديرية بمدينة الهفوف ، حتى إذا كان العام ١٣٧٢ هـ عُين قاضياً بالقطيف ، وعُهد إليه بالخطابة فى مسجد الظهران ، واستمر على ذلك حتى العام ١٣٨٤ هـ حيث نقل قاضياً إلى محكمة الظهران . . وظل فى عمله هذا حتى العام ١٣٨٩ ، حين طلبه سمو الشيخ زايد بن سلطان من المغفور له الملك فيصل

بن عبد العزيز ، فانتدبه للعمل فى محاكم « أبو ظبى » وكان ذلك بناء على صلاته القديمة مع الشيخ زايد ، أيام كان يتردد مع والده على تلك المناطق . ومنذ ذلك العهد حتى ساعة تحرير هذه الأسطر لا يزال قائماً فى خدمة دولة الإمارات ، فهو رئيس القضاء الشرعى ، ومستشار دينى لصاحب السمو ، وإمام للجمعة بمسجد أبو ظبى الكبير ، وذلك بالإضافة إلى إمامة العيدين فى مُصَلَّى الدولة الرئيسى .

وقد عرف فضيلته بالنشاط الجم فى خدمة الإسلام ، فإلى جانب مهامه الرسمية فى القضاء وديوان الإمارة ، وفى الوعظ والإرشاد عن طريق المنابر المسجدية والإعلامية المختلفة ، ما انفك يشارك فى المؤتمرات الإسلامية ممثلاً لدولة الإمارات ، وقد حضر من هذه المؤتمرات خمسة خلال عام ١٣٩٦ هـ ، أحدها فى لكنو بالهند ، والثانى فى بغداد ، ثم مؤتمر رسالة المسجد الذى عقد بمكة المكرمة ، ثم مؤتمر الحوار الإسلامى المسيحى المنعقد فى طرابلس ليبية ، وكان خامسها مؤتمر القمة الإسلامى الذى عقد بالرياض ، وفى العام التالى ٩٧ حضر مؤتمر الدعوة وإعداد الدعاة بالمدينة المنورة ، الذى قدم فيه بحثه النفيس « أجهزة الإعلام ودورها فى توجيه المجتمع » وكان ذلك المؤتمر هو المناسبة الأولى التى أتاحت لنا الاجتماع بفضيلته كما أسلفنا ، وبقى أن نذكر كونه أحد الأعضاء الدائمين فى مؤتمر البحوث الإسلامية بالقاهرة .

على أن نشاط الشيخ لم يقف عند حدود المشاركات الشفهية فى خدمة الفكر والمجتمع الإسلاميين ، بل امتد إلى نطاق التأليف والنشر فكان من ثمراته عدد من الكتب نذكر منها :

١ ــ حول تعليم المرأة المسلمة .

٢ ــ حول الإسلام والمسلمين « جزآن » .

٣ ــ الخطب المنبرية ــ صدر منها أحد عشر جزءاً فى عامى ١٣٧٢ و ١٣٧٤ .

٤ ــ نظام القضاء فى الإسلام .

٥ ــ العلاقة الزوجية فى ضوء الإسلام .

٦ ــ رسالة المسجد .

٧ ــ الأساس الإسلامى لمناهج التربية والتعليم .

٨ ــ الطريق إلى الله .

٩ ــ مراحل تدوين السنة .

١٠ ــ الفتاوى الفقهيــة .

هذا إلى العديد من البحوث والمقالات التى اقتصر نشرها على بعض الصحف والمجلات .

وأحب أن أقف بالقارىء قليلاً على الإشارات الفكرية التى ترسلها العنوانات التى اختارها لكتبه ، من حيث صلتها بواقعه وممارساته العملية .

فموضوع تعليم المرأة يعتبر صورة جديدة من التطور الذى تشهده منطقة الخليج فى هذه السنين ، لا من حيث المقدار بل من جهة النوع ، فالمرأة المسلمة أياً كانت لا يمكن تصنيفها مع الجاهلات اللواتى حُرِمْنَ ضياء المعرفة ، ما دامت ملتزمة قِيَم دينها وممارساته اليومية ، حتى ولو حيل بينها وبين الكتابة والقراءة ، لأن هذين العنصرين ليسا كل شىء فى دنيا العلم ، فكثير من الأكفاء الذين لا يملكون القدرة على فك الحرف ، قد تسنموا المقام الأعلى بين أولى العلم ، وقد أشرنا إلى أول تلقيه لكتاب الله على يد امرأة ، وروينا عن شيخنا محمد الأمين الشنقيطى ، تغمده الله برحمته ، أن بين شيوخه العديد من فضليات العالمات ، فالتطور الذى نشير إليه هنا هو الذى يشد المرأة فى الخليج إلى المناهج الحديثة ، التى ربطت ذهن الدارس بمقومات الثقافة الغربية البحتة ، التى أخرجت لنا حتى الآن أفواجاً من حاملات الشهادات العليا لا يكدن يتصلن بتراث أمتهن إلا بخيوط ضئيلة لا تغير من طابعه الاستغرابى ، حتى فى العبارة الإنشائية التى لا تتصل من قريب أو بعيد بأساليب البيان القرآنى ، إلا من رحمهن الله وهُدين إلى الحقيقة ، فهن يبذلن قصارى الجهد للعودة إلى المنبع الأصيل .

فليس المقصود إذن بقضية « تعليم المرأة المسلمة » مجرد الخروج من ظلام

الجهالة إلى نور المعرفة ، بل إيضاح رأى الإسلام فى نوعية المعرفة التى يجب أن تتميز بها لمرأة المسلمة لتوكيد ذاتها فى بناء المجتمع الإسلامى المتميز . وهو موضوع جدير بأن تعتمل فيه الأقلام المؤمنة حتى يتضح الطريق للتفريق بين الحق والباطل والأصيل والدخيل .

وليس موضوع « الإسلام والمسلمين » ببعيد عن هذا الاتجاه ، فقد عظم خطب الغزو الفكرى والاجتماعى فى حياة العامة ، حتى اختلطت عليهم المفهومات والمعايير ، فلا يدرون ما يأخذون وما يدَعون ، فهم أحوج ما يكونون إلى الرواد الذين يضيئون لهم السبيل إلى الحقائق ، التى توشك أن تنطمس فى غمرة الضباب الذى ينشره ذلك الغزو .

أما الخطب المنبرية فهى إحدى أهم وسائل الإعلام الإسلامى، الذى من شأنه إيقاظ العقول والقلوب لضبط مسيرة المجتمع فى الطريق السوى ، وقد كادت هذه الخطب تفقد تأثيرها الفعال فى جماهير المسلمين ، منذ صارت المنابر إلى من لا يحسن قيادتها ، فلا بد إذن من تزويد هؤلاء بنماذج تنقذهم من العمى وتأخذ بأيديهم إلى المنهج الصحيح فى حوار المصلين .

وبحث يكتبه الشيخ عن « نظام القضاء فى الإسلام » لا بد أن يكون انعكاساً حيًّاً لتجاربه فى هذا الجانب الهام من حياة المجتمع الإسلامى ، وبخاصة فى مثل هذه الديار التى لا يزال قضاؤها ملتزماً منهج الشريعة السمحة فى أصوله الراسخة ، ولن يستطيع القاضى المسلم تحقيق مهمته الدقيقة ما لم يلم بخصائص القضاء الإسلامى وبحياة رجاله الأفذاذ ، الذين كانوا مضرب المثل بين قضاة العالم فى العلم والنزاهة والفطنة النافذة .

وطبيعى أن العلائق الزوجية أول ما يواجهه الحاكم الشرعى من المشكلات اليومية فى حياة المسلمين ، فلتجاربه فى معالجتها أثر كبير فى تكوين أفكاره عنها ووسائل إصلاحها . .

وكذلك الأمر فى موضوع المسجد فهو مجال الشيخ الأسبوعى الذى يلتقى فيه بأصناف المستمعين ، فهو من أحق الناس بالحديث عنه وعن آثاره وموجباته وتعميق فاعليته فى حياة الناس ، ولا جرم أن لذلك كله علاقته

الوثيقة بمناهج التربية والتعليم ، التى يجب أن تكون أحد أهم الأسس التى عليها تنهض صياغة الأجيال المسلمة .

ومن هذا وذاك يتضح لنا طابع الواقعية التى تربط بين أفكار الشيخ وحياته ، فهو لم يعالج بأىٍّ من كتبه تلك قضية نظرية تقبل الإبرام والنقض ، ولكنه يعالج كياناً متكاملاً يعيش أحداثه ويلاحظ مجاريه ويرصد نتائجه فيصدر عليها أحكامه فى اطمئنان المجرب الحكيم الواثق مما يقول .

وكان لنا مع فضيلة الشيخ حوار نوجزه فى ما يلى :

م : لو تفضلتم برأيكم فى مستقبل الأجيال المسلمة على ضوء الأحداث التى يواجهونها فى مختلف جوانب الحياة .

أ ـــ أقول دائماً إنه لا فلاح ولا نجاح ولا صلاح للأمة الإسلامية إلا إذا استمسكت بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فبذلك تقوم نهضة الشعوب الإسلامية على هدى وبصيرة ، وينشأ الجيل المسلم البصير بواجباته ، الواعى لمتطلبات الفترة التى تمر بها الأمة ، حيث يواجه الإسلام حرباً ضروساً من قبل أعدائه فى الشرق والغرب ، وبأسلحة فتاكة ليست مقصورة على العتاد الحربى وحده ، ولكن إلى جانب ذلك تلك الحرب الحضارية الموجهة إلى العالم الإسلامى بالكلمة المصورة والمسموعة ، وبوسائل الصناعة الحديثة الضرورى منها وغير الضرورى . وإنها لحرب لن يصمد بوجهها سوى إحياء الحضارة الإسلامية نبعثها من جديد ، متمثلة فى الحكم بكتاب ربنا وسنة نبينا ، نتحاكم إليهما فيما جل وقل من شئوننا حتى تعود الحاكمية لله رب العالمين ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ونعود بحق خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

م ـــ وعن مسئولية علماء المسلمين بالنسبة إلى مسيرة الجيل .

أ ـــ من واجب العلماء فى المقام الأول نشر العلم النافع بكل الوسائل المتاحة لهم ، حتى يكون العلم فى متناول جميع الراغبين فيه والمحتاجين إليه ، وذلك بالأسلوب السهل المتناسب مع روح العصر ، عملاً بقوله تعالى :

﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . . ﴾ .

وكذلك على العلماء تقديم النصح والمشورة للملوك والرؤساء حتى يتقوا الله فى شعوبهم ، فلا يُبخس ضعيف لضعفه ، ولا يُعظم قوىّ لقوته ، فتسود الفضائل ، وتختفى الرذائل من العالم الإسلامى بحول الله وقوته وبطاعة المسلمين لربهم ونبيهم .. » .

وأخيراً .. لقد شاء الله أن أفرغ من هذه الصفحات ولمَّا تَزُلْ من نفسى بعدُ صدمةُ ذلك النبأ الموجع الذى ينعى كبير وَلَدَىْ هذا الشيخ الوقور الأستاذ خليفة المبارك ، سفير دولة الإمارات العربية المتحدة فى رومة ، إذ صرعته رصاصة غادر من أولئك القتلة الذين ما برحوا يفسدون فى الأرض ويروِّعون أمن المسلمين فى مختلف أنحاء العالم .

فإلى الوالد المفجوع وآله الحزانى أرفع تعزيتى القلبية فى هذه النكبة التى يهدد بمثلها كل برىء من العاملين فى خدمة الإسلام والمسلمين .

وللشيخ الوقور ما قاله المتنبى لسيف الدولة معزياً :

أنت يا فوقَ أن تُعَزّى عن الأحـ ... بابِ فوقَ الذى يعزّيك عقلا
وبألفاظك اهتدى فإذا عَزْ ... زَاكَ قال الذى له قلت قبلا

وإنا لله وإنا إليه راجعون . .

* * *

أحمد عبد الغفور عطار

من خلال بعض آثاره

أول ما عرفت الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار يوم وقعت على كتاب « آداب المتعلمين . . » الذى قام بتحقيقه وتجميع متفرقاته ، وقرأت مقدمته فأحسست من خلال ذلك أن ثمة قرابة تشدنى إليه وتؤلف بينى وبينه على نسب من الأدب والفكر . . فليس بالجهد اليسير أن يقوم بجمع هذه الآثار القيمة من « رسائل أئمة الفكر الإسلامى » ليقدمها مأدبة شهية دسمة للمشتغلين أمثالى بشئون التعليم والأدب ، وبخاصة فى هذه الظروف التى تكاثفت فيها ظلمات الضياع ، فكاد الناس يجهلون كل شيء من أوليات سلفهم فى أصول التربية والتعليم ، ليقفوا إيمانهم على كل ما يقوله الغربيون فى هذا الميدان .

ومنذ ذلك اليوم وجدتنى شديد التوق إلى الاطلاع على كل ما يكتب ويؤلف ويحقق . . ومما ضاعف احتفالى بآثاره تلك البحوث الرصينة التى ينشرها تباعاً فى مجلة « التضامن الإسلامى » بعنوان « الأناجيل المختارة » فلا أرضى أن تفوتنى حلقة منها ، وطبيعى أن تشدد من شعورى بتلك القرابة بينى وبينه ، لأننى أحد المعنيين بهذا الجانب من الدراسات الدينية ، إذ كان أول كتاب نشر لى قبل نصف قرن هو « فضائح المبشرين » الذى رددت به مفتريات أحد المتنصرة من المبشرين ، الذين احتموا بالاحتلال الفرنسى للشام ، فراحوا يشنون غاراتهم على الإسلام قرآناً وسنة وتاريخاً . . . ثم كان من عملى فى هذا المضمار ما انطوى عليه كتاباى « مشكلات الجيل فى ضوء الإسلام » ثم « أفكار إسلامية » ثم « أضواء على حقائق » .

وقد شاقنى من بحوثه فى الأناجيل ذلك الجهد الجبار الذى يبذله الأستاذ فى تقصى الدلائل ، وتفلية النصوص ، والرجوع إلى العديد من المصادر والوثائق . . وإنه لجهد لا يصبر عليه إلا محقق وهب نفسه للعلم ، ووقف

قلمه على تجلية الحقائق . .

والحق أن سمة التحقيق والصبر هذه هى الميزة البارزة فى نتاج الأستاذ العطار ، سواء كان هذا النتاج كلاماً فى الأدب ، أو آراء فى اللغة ، أو بحثاً فى التاريخ ، أو حديثاً فى النقد ، أو حجاجاً بالفقه مستنبطاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأنها لسمة تنبىء المتتبع لآثاره أنه بإزاء طراز لا يكاد يشتبه بسواه من كتاب جيله ، بله الناشئين على أعقاب ذلك الجيل . . ولا غرابة فى ذلك ، فالأستاذ العطار من بقايا الرجال الذين رضعوا أفاويق الثقافة الإسلامية من ينابيعها الأصيلة ، حتى إذا تزود منها بالعميق الدقيق مضى يضرب فى آفاق الفكر الإنسانى على بصيرة ، لا يخدعه البهرج عن الجوهر ، ولا يصرفه الهوى عن الحق ، بل إنه ليقع على الباطل المزوق ، فيعمل فيه عمل الجسم السليم بالميكروب العقيم ، إذ يحيله غذاء نافعاً ، بعد أن كان سماً ناقعاً .

أجل إن تلك الخاصة بارزة فى كتب الأستاذ ومقالاته ، يلمسها القارىء الحصيف فى كل أثر خطه قلمه ، وتطل عليه من خلال الجدول الطويل لعنوانات مؤلفاته وتحقيقاته فى كتب التراث فهى غنية بنفسها عن التدليل عليها ، حتى إذا قرأ وصفه لثقافته أو وصف غيره ممن عرفه لهذه الثقافة لم يزدد بأمرها علما .

يقول الأستاذ فى كتابه « الزحف على لغة القرآن » : « لست خصماً للآداب العالمية ، ولعلى من أكثر القراء فى العالم العربى تفرغاً وقراءة لها ، وما لِيَ عمل غير الدراسة والقراءة والتحصيل والكتابة » ص ٢٨١ وفى نهاية ص ٣٩ يعلن أنه يقرأ أربع عشرة ساعة فى اليوم ، ولا جرم أن مثل هذا الإقبال الكبير على روافد الفكر هو بقية الإرث العقلى الذى قبسناه عن سلفنا الصالح ، الذين سئل أحدهم من أين جئت بهذه العلوم الكثيرة العميقة فأجاب ، وهو يشير إلى زاوية فى المسجد : « من جلوسى تحت هذه القنطرة ثلاثين عاماً » وإنها لإجابة حقة لا يرتفع إلى مستوى فهمها إلا من عرف قيمة العلم ، وتذوق لذائذ الصحبة للصفوة المختارة من عمالقة الفكر والبيان خلال آثارهم العبقرية .

ومن إضاعة الجهد أن يحاول الدارس مقارنة ما بين هذا الطراز المميز من ذوى الأدب العربى الأصيل ، والآخرين الذين غزت قلوبهم بوارق الغرب ،

وهم خلو من الحصانة العقلية والذوق ، اللذين يعصمهم من الذوبان فى بوتقة غيرهم ...

ولقد أشار إلى هذه الحقيقة أديبنا الكبير حين تحدث عن مصادر ثقافته الأولى بقوله عن أدباء جيله : « فالأدباء الذين سبقوا هذا الجيل الجديد عاشروا القرآن الكريم طويلاً ، وعكفوا على قراءته ليل نهار ، وهذه المعاشرة الطويلة أكسبت أساليبهم لوناً رائعاً أصيلاً ، وجعلتها أساليب وثيقة التركيب سليمة البنيان » وقد سئل عن الكتاب الذى ترك أعمق الأثر فى نفسه وعقله فكان جوابه « إنه كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم الحديث الشريف ، فهما وحدهما اللذان ينفردان فى إيجاد آثار لا أجدها فى أى من الكتب التى قرأتها[1] .

وطبيعى أن السالك فى ظلمات الحياة ، وهو يستضىء بنور الله ليس كالضارب وراء كل ناعق ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾ .

من هنا كانت سبيل الأستاذ العطار واضحة هادية ، منذ خطواته الأولى حتى انتهى إلى موقعه المرموق من منازل المفكرين .

إنك لتقرأ كلامه فتحس نفحات الوحى تهب عليك فى ألفاظه المنتقاة ، وتراكيبه المختارة ، ومعانيه المتزنة المؤثرة . . لا تكاد تخطئها فى أى من ألوان نتاجه الكثير المتشعب . . وبديهى أنه الطابع الفطرى الذى لا يملك تلميذ القرآن عنه انفصاماً . . كما أن المستغربين ، من جيل الضياع ، لا يستطيعون الانسلاخ من صبغتهم التى استحوذ بها الفكر الغربى على كيانهم كله ، فلا يبصرون إلا من خلال نظاراته ولا يفكرون إلا بمقاييسه . .

ويذكرنى هذا بذلك الحوار الذى جرى ذات يوم بيني وبين أحد هؤلاء ، إذ قال لى : ألا تستطيع التخلى عن الاستشهاد بالقرآن وبالحديث ؟ . . فقلت : إن الإنسان ابن بيئته ، وإنهما لبيئتى التى لاأملك عنها انفكاكاً ، كما أن بيئتك هى « روزاليوسف » فلا تملك حجة خارج منطقها ! . .

---

١ ــ كلام فى الأدب ص ٩٨ .

والإنسان المتلمذ للقرآن والحديث هو الذى يدرك أهمية اللغة التى اصطفاها الله لخاتمة رسالاته ، وأنزل بها الكتاب الخالد ، الذى به نقل العرب من رعاية الإبل والغنم إلى قيادة الشعوب والأمم ، وأخرج به البشرية من عبودية الظَّلَمَة والفجار ، ومن عبادة الأشجار والأحجار ، إلى آفاق الحرية الكريمة التى هى سبيلها إلى سواء السبيل . . ومن هنا كانت عناية الأستاذ العطار بلغة العرب وبيانها الأصيل .

فى حراســة العربيــة :

بين الكتب السبعة والأربعين التى يقدمها فهرس مؤلفاته فى آخر كتابه « آراء فى اللغة » المطبوع عام ٨٤ هـ ، أسماء أحد عشر كتاباً تتصل بموضوعات اللغة والأدب بين مؤلف ومحقق . . وهى ظاهرة ذات دلالة كافية على وثيق صلته بلغة القرآن وغيرته عليها . . ومثل هذه الغيرة لا يتوقع من صاحبها أن يقف مكتوف اليدين أمام أى محاولة تستهدف[1] الإساءة إلى قداسة هذه اللغة ، ولا سيما فى مثل هذه الظروف الشاذة ، التى كثر فيها الخابطون فى ميدان الهجوم عليها ، حتى كنا معهم كشأن القائل :

تكاثرت الظباء على خــراش فما يدرى خــراش ما يصيــد

وإنك لتنظر إلى العطار فى هذه الحلبة فتراه الفارس المجلى ، المحسن استخدام أنواع الأسلحة فلا يغفل شانئاً ولا يرحم عادياً . . ويتناول كل مدعٍ بما يكشف عواره ، ويهتك أستاره . .

إنه ليسمع أصوات « النشاز » الخادعة تهتف بقصور العربية عن النهوض بحاجة العصر ، فيصرخ بوجوههم : « . . وكيف تتهم ــ العربية ــ بهذا ــ الضيق والعجز ــ وقد وسعت كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ ووسعت آداب العرب وعلومهم وفلسفاتهم وفنونهم وحضاراتهم . . . ووسعت مطالب الإنسان كلها عندما كان هذا الإنسان سيد الأرض . . »[2] .

---

١ ــ العرب لم تستعمل هذا الفعل لما يراد به الآن ، ولكن مقاييس اللغة العربية تؤيد سلامة هذا الاستعمال إذا لوحظ أن حــروف الزيادة فيه لقصد الطلب .

٢ ــ الزحف على لغة القرآن .

وهو فى تقريره لهذه الحقائق لا يصدر عن تعصب أو هوى ، بل عن إدراك دقيق عميق لعوامل التقدم والتأخر فى نطاق الحضارة وصلتها باللغة « فاللغة العربية ليست جامدة فى حقيقتها بل الذى جمدها هم أهلوها وحدهم ، الذين حبسوها فى قالب لا تستطيع الخروج عنه . . »(١) وذلك لأن « اللغة ظاهرة اجتماعية . . تابعة للمجتمع ، والمجتمع المتقدم المتطور يستطيع أن يحملها معه فى تقدمه ووثبه وطفره . »(٢) وإذن فكل جمود أو عجز يزعمه الزاعمون فى لغة القرآن فهو صورة عن جهلهم أو عن تخلف العرب أنفسهم ، الذين تخلوا عن الحضارة ، فاتهموا لغتهم ، وكان عليهم — لو أدركوا الواقع — أن يتهموا أنفسهم . .

والأستاذ فى دفاعه عن العربية وآدابها على أتم اليقين أن هدف الزارين عليها من أغربة الشؤم ليس هو الإصلاح ، لأنهم لو أرادوا ذلك لوجهوا اهتمامهم إلى دراسة هذه اللغة ، والدعوة إلى الإحاطة بأسرارها ، وحفز الناس للسمو بمواقعهم إلى المستوى الذى تؤهلهم له ، ولكنهم « إذا هزئوا برفعة البيان ورقى الأسلوب ، وحاربوا أصحابهما ، فإنما يحاربون أو يقصدون النفاذ إلى القرآن . . »(٣) « والدعاة الحاقدون على الإسلام يريدون إلغاء الأدب العربى وإلغاء القرآن وإلغاء الشعر العربى وإلغاء الحرف العربى . . ومتى تم لهم ذلك لم يبق للإسلام والعروبة ما يدل عليهما . »(٤) وأسمح لنفسى أن أضيف إلى تقرير الأستاذ العطار هذا أن تجريد المسلمين والعرب من قداسة هذه المقومات الروحية والعقلية ، إنما يراد به تجريدهم من أسلحة الدفاع عن البقاء ، وتفريغ حياتهم من القيم العليا ، لتكون صالحة للاستجابة إلى كل ناعق . . إنها ضرب من عملية الغسل للأدمغة يؤهلها لقبول أى دعوة يتقيؤها أعداء الحق . .

العطـار والتغريب :

وانطلاقاً من هذا الإدراك الواعى لأبعاد المؤامرة ينظر الأستاذ العطار إلى دعوة المتآمرين والمخدوعين باسم الفن ، فيذكر بما آلت إليه هذه الضلالة فى جوانب أخرى من هذا الوطن الإسلامى المهدد فينذر « بأن طريق الفن الذى

---

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ — الزحف على لغة القرآن .

نسلكه سيفضى إلى مثل ما أفضى إليه فى البلدان الغربية . وليس ببعيد عنا ما أحدثه من تمزق فى الأعراض وتلويث فى الأعراق ، وفساد فى الأخلاق و (بوظان) فى المجتمع ، بل انتهى إلى الأبرياء والبريئات فى المدارس والكليات فأفسد البراءة ودنس الطهر . »[1] .

وينفذ بفراسته المستضيئة بنور الإيمان إلى ما وراء المهزلة الجديدة التى يسمونها « الفولكلور » فيشرح بواعثها، ويعرى باطلها ، ويسفه أحلام المغرورين بزيفها إذ يقول لهم : « إن فى المأثورات الشعبية ما بعث الإسلام لمحاربته والقضاء عليه ، كالأساطير والخرافات والوثنيات والشركيات وما إليها ، فكيف يطلب فى مجتمعنا إحياء ما قضى عليه الإسلام ؟ !»[2] ويعلن الحرب على هذه التفاهات ، ويطلب إلى الدولة أن تحاربها . .

وحق للأستاذ العطار أن يحذر قومه مخاطر الدعوة الخبيثة إلى مهازل الفنون الهابطة التى تجعل من حثالات المخلوقات أبطالاً ونجوماً ، ومن الردة إلى مستنقعات الجاهليات مجادة وسمواً . . . وما هى لعمر الله إلا دسيسة نسجت خيوطها فى ليل ، ولا هدف لها سوى سلخ هذا الجيل المنسوب إلى الإسلام من كل مقوماته ، التى حفظت له هويته إلى هذه الأيام . . وهذا ما لمسناه فى اعترافات المسئولين عن حماية هذا الهبوط فى بعض الأقطار العربية ، إذ أكدوا لنا أنه السبيل التى لا مندوحة من سلوكها لدعم القيم الجديدة التى على أساسها سيرفعون قواعد المجتمع الجديد . .

فالقضية إذن ليست قضية تقليد وعبث فقط ، بل هى قضية الإسلام الذى يراد استئصال فاعليته من حياة المسلمين وتفكيك بنيتهم الاجتماعية القائمة على أسسه ، ليعيد المتآمرون إنشاءه على قواعد من تلك الحضارة الغربية ، التى لا سبيل إلى التوفيق بينها وبين الإسلام بأى حال . . .

إن هؤلاء المضللين والمضللين جميعاً ليستغلون أوسع مساحة من الطاقات الإعلامية لعرض النماذج الساقطة من صعاليك الغرب وأشياعهم لأنهم يعلمون ــ أو لا يعلمون ــ أن الاستمرار فى مشاهدة المنكرات تسوق إلى إلفها ثم

---

١ ، ٢ ــ الزحف على لغة القرآن .

إلى استساغتها ، ثم إلى ممارستها . . . فإذا كان من ثمرات الحضارة الغربية مثلاً إطلاق حرية الجنس حتى لتتصيد الفتاة رفيقها ، فتقدم به إلى مقر أهلها لتفرض عليهم قبوله ، « فالإسلام سبيله القويم الذى يغاير سبيل الغربيين . فهما على غير وفاق فى الزواج ، وما يسبقه من خطبة ، وما يقوم عليه من عشرة(١) وعلى هذا فلا ينبغى لمثل هذه الأفكار الخبيثة الدخيلة أن تجد مستقرها فى الوسط الذى يجب أن يظل أبداً منطلق الإسلام .

فالأستاذ العطار إذن يرفض هذه المنكرات ، لأنها تتنافى مع الخلق الكريم ، وبوجه أخص لأنها تصادم المقومات الأساسية لدينه ، الذى له حضارته الممتازة ، التى لا تقبل التجزئة ، ولأنه بالتالى حريص على أن يبقى لهذه البقعة المقدسة طابعها الربانى المشرق . .

الثقافة والحرية :

وقد يتوهم قارىء لأول وهلة أن هذا الكاتب الفحل يدعو إلى إغلاق المنافذ بوجه الفكر الإنسانى . . على حين أن الواقع على الضد من ذلك ، فهو من العلم بحقائق الإسلام بحيث لا يخشى عليه أى لون من الفكر القائم على المنطق ، وعلى أسس من السنة الكونية الصحيحة ، بيد أنه يريد من الصحف التى تعنى بأدب الغرب والشرق وثقافتهما ألا تغفل العناية بأدب الإسلام ومفهوماته الحضارية ، وأن تهب للفكر الإسلامى مثل المساحة التى تعطيها الأفكار الأخرى على الأقل .

يقول الأستاذ : « اقرأ فى صحفنا حكماً وأمثالاً مستوردة من الشرق والغرب ، وأنا لا أخاصم فى نقل الثقافات ، فذلك ضرورة لا غنى عنها فى هذا العصر وفى غيره ، ولكن الذى لا أرضى به أن نغفل الحكم والأمثال العربية والإسلامية إغفالاً شديداً ، بحيث نغير معالم مجتمعنا العربى الإسلامى ، ونصبغه صبغة غربية نفتقد معها طبيعتنا وسماتنا الخاصة التى تميزنا عن غيرنا . . . »(٢) .

---

١ ، ٢ ــ الزحف على لغة القرآن .

وموقفه هذا من الثقافة الدخيلة يتصل بمفهومه للحرية ، التى يريدها الضائعون منطلق شهوات وغرائز ، على طريقة الحُمُر التى تنهق حيث تشاء ويريدها هو نظاماً يضبط الغرائز والشهوات فى نطاق الكرامة الإنسانية والمصلحة الاجتماعية ، فيقول : « أنا لا أدعو إلى (إعدام) الحرية ، بل أجاهد من أجلها ، لأنها هبة الله للإنسان ، ولكنى أطلب أن تكون الحرية تحت قوامة الإسلام الذى يصونها من الزلل ، والحرية التى تملى لصاحبها أن يعبث بحريات الآخرين هى حرية حيوان وليست بحرية إنسان[1] .

ولا ريب أن مجرد كون الحرية تحت « قوامة الإسلام » هو الضمان الوحيد لحماية الفضيلة ولردع المتآمرين عليها . . وإنه لمذهب فكرى لا طاقة لكثير من حكام المسلمين بقبوله ، وهم الذين — فى ظل التحرر الذى أحرزته بلادهم — مَكَّنوا — على رأى الأستاذ — لمذاهب الشر والتخريب أن تفعل بها ما عجزت عن تحقيقه قوى المستعمرين جميعاً . . ذلك « لأن الذين بيدهم مصائر شعوب الأمة العربية والأمم الإسلامية ومقاليد حكمها هم من الجهلة بالإسلام .)[2] ولو شاء التحديد لقال إنهم أشد أعداء الإسلام ضراوة لأنهم أشد أعدائه جهلاً له . .

العطـار فقيهـا :

والناظر فى أدب الأستاذ العطار لا يسعه تجاهل الملكة الفقهية التى كونتها ثقافته الإسلامية الشاملة ، فهو بهذا الروح الذى يستولى على قلمه يعالج المشكلات المتصلة بحياة الناس على ضوء الكتاب والسنة ، فلا يملك التغاضى عن أى انحراف عن سبيلها ، كائنة ما كانت المشكلات .

لقد تورط أحد الكتاب فى الاستخفاف بتعبير نبوى عن المرأة ، إذ رفض تشبيه رسول الله ﷺ إياها بالقارورة ، وراح يداور ويحاور ليوهم قارئه بأنها ليست كذلك ، ويستشهد لرأيه ببعض الأجنبيات اللواتى شذذن عن بنات جنسهن ، ليتخذ من ذلك الشذوذ قاعدة تغير وضع المرأة كلياً . . وتثور ثائرة

---

(١) الزحف على لغة القرآن .

(٢) المسلمون أمة لا أمم والأستاذ يوافقنا على ذلك .

الكاتب الإسلامي الفقيه فيصرخ بهذا الكاتب وبالصحيفة التي سمحت لنفسها بنشر خطئه : « أليس هذا نقضاً صريحاً وشديداً لكلام محمد ﷺ ؟ . إن محمداً ﷺ يسمى المرأة قارورة ، ومقال ـــ هذا الكاتب ـــ يرد على الرسول الأعظم هذه التسمية ويفندها ، ويسخر بكلمة خير الخلق سخرية بالغة قذرة متحديا شعور كل مسلم ، في وقاحة بالغة وأسلوب مقيت جاهلاً معناها . . »(١) .

ولم يقف الأستاذ عند حد الرد الشرعي على تلك المغالطة ، بل راح يهتك ماوراءها من تهجم على آداب الإسلام ونظامه الاجتماعي ، الذي يقضي بتنزيه المرأة عن مظان السوء ، حتى لا يخاطبها أجنبي إلا من وراء حجاب . . فيقول لذلك الكاتب : « إن الرسول ﷺ أدرك قبل علوم العصر الحاضر أن المرأة مع شدة احتمالها الآلام قارورة في اللطف والرقة والشف والحس . . وأن الحجاب ـــ الذي ميزها به الإسلام ـــ تكريم للمرأة . . إنه شارة تكريم وليس سجناً ـــ كما يزعم ـــ مثله في ذلك كمثل الرداء الجامعي(٢) .

ويقرأ في إحدى الصحف ضرباً آخر من اللغو يدور حول اللقطاء في بريطانيا ، وقد عنون للخبر بآية من كتاب الله ، فينبرى للتعقيب عليه بتوجيه الأذهان إلى البون الشاسع بين واقع هؤلاء اللقطاء ومدلول الآية قائلاً : « والآية الكريمة لا وجه لذكرها هنا ، وأسباب نزولها معروفة ، والاستشهاد بها في هذا الخبر في غير موضعه لاختلاف الدين على الأقل ، والآية لا تبيح النسبة إلى غير الأب الحقيقي ، وإن في الاستشهاد بها في هذا السياق مخالفة لأسباب النزول وللمعنى . . »(٣) .

ونشر أحدهم رثاء لفقيد عزيز على الأستاذ العطار . . ولكن الراثي يأبى الوقوف عند معالم الشرع فيحكم للفقيد بالمغفرة والاطمئنان والجنة . . فما كان من الأستاذ العطار إلا أن يعقب على ذلك بالرأى الصحيح ، مبيناً حكم الإسلام الذي لا يضمن لأحد من خلق الله جنة أو ناراً إلا بخبر من الوحي وثيق « إن لنا أن ندعو الله للفقيد بأن يجعله صاحب نفس مطمئنة ، أما أن ندّعي له ذلك فهو الباطل(٤) . ولعل في مثل هذا التعقيب ما يسوء بعض

---

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ـــ الزحف على لغة القرآن .

الناس ، ولكن الكاتب المؤمن لا يرضيه أن يتعرض للفتوى فى أمور شرعية من لم يتزود لها بالعلم العاصم ، وبخاصة فى هذه الديار التى يتطلع إليها مسلمو العالم ليقبسوا من فضائلها ، ولينسجوا على منوالها ، ومن أجل ذلك يؤلمه ويشقيه « أن يكون ببلادنا المقدسة ، التى أكرمها الله وفضلها على كل بلدان الدنيا ، ما لا يتفق مع قدسيتها وشرفها وجلالها ، ولا يتفق مع القرآن الذى نزل بها ، والرسول الذى بعثه الله منها رحمة للعالمين . . » .

وبهذا الحافز الإيمانى يتابع الكاتب الإسلامى الكبير سقطات الكتاب والصحف ويحاول بكل طاقاته تذكيرهم وتحريك غيرتهم على دينهم وواجبهم « يعلم الله أننى اتصلت بكل جريدة من جرائدنا ناصحاً وراجياً أن تنصر الإسلام وتعزه ، وتعلى كلمة الله ، وتشغل نفسها بما يعود عليها وعلى وطننا وعلى أمتنا وعلى المسلمين بالخير . . فبعضها يتظاهر بالرضا ، وبعضها تأخذه العزة بالإثم . . »[1] .

ومثل هذه الغيرة اللاهبة على حرمات الإسلام لا تستطيع الجمود بإزاء التصرفات الشاذة التى تنطلق من بعض مراكز الإعلام . فهو يرى أن « وسائل النشر والإعلام كلها تستخدم لهدم الإسلام وإفساد الأخلاق وما انتشرت الفواحش والإلحاد إلا عن طريقها ، فإذا كان بيت المسلم حصناً فإن الراديو يدك أشد الحصون مناعة ، ويصل الحرائر ، وكذلك التليفزيون ، بل هو أشد وأفظع . . وما أكثر شكاوى المصلحين فى بلدان العربية منهما ! . . فهما ينشران الفاحشة ، ويحببان الرذيلة ، ويخدعان الشاب والشابة باسم الحرية والحق الطبيعى وبنظرية ــ اليهودى ــ فرويد وغيره ليندفعا إلى الرذيلة ويزهيا بممارستها . . »[2] .

ولا شك أن فى عبارة الأستاذ هذه بعض الشدة يثيره الألم على أمته وبلاده ، وإلا فإن الموبقات قديمة معروفة قبل وسائل الإعلام الحديثة ، فهى لم تنشرها ابتداءً ، ولكنها ساعدت على فشوّها بمغرياتها . . وكذلك الشأن فى حصر آثارها ضمن نطاق المفاسد ، مع أن فى الإذاعة والتلفاز خيراً كثيراً إلى

---

١ ، ٢ ــ الزحف على لغة القرآن .

جانب ذلك الشر الكثير . . وإنها فى يقينى لمن النعم التى بدلها المفسدون كفراً ، ولو عهد بها إلى أولى النهى والدين لأحدثت من الخير ما لا يحصى ولا يقدر . .

العطــار أدبياً :

وقد آن لنا أن نقف عند الجانب الأدبى من ميادين هذا الكاتب الفحل .

إن الأستاذ العطار أديب مطبوع ، تغلب عليه صفته هذه فى كل ما يكتب ، وقد لاحظنا ظواهر هذه الحقيقة فى كل ما أوردنا له من نماذج . . فلننعم النظر الآن فى بعض نماذجه الأدبية .

سئل الأستاذ عن الفرق بين الكاتب والأديب فأجاب « . . كل أديب كاتب ، وليس كل كاتب أديباً ، ودرجة الأديب أعلى من الكاتب . . أما الأديب فهو الذى يوسع لك نطاق الحياة ، ويعمل على إرباء إحساسك بالوجود . وندر بين العباقرة وأصحاب المواهب من يوصف بهذا اللقب العظيم[1] » .

وهو تعريف يذكرنا بقول غوت ــ الشاعر الألمانى « إننى أقرأ بعض شعر هوميروس فيخيل إلى أنى أذهب بعيداً فى الفضاء . .

حقاً إن الأدب الحق ليوسع آفاق الحياة ، ويمد نطاق المشاعر ، فيغير من أوضاع النفس المتفتحة له ، لأنه يمازج طاقاتها الروحية فيضاعفها ويرفعها إلى ما فوق الواقع . .

وإذا كان الشرط الأساسى لنجاح الأديب فى أى عمل أدبى من النثر أو الشعر بعد التضلع من ملكة اللغة ، هو صدق الشعور الصادر عن الانفعال العميق بالأحداث الخارجية ، أو للتصورات الذاتية ، فلا جرم أن الصديق العطار من أحق الناس بهذا اللقب .. فأنا لم أقرأ له بحثاً أو خاطرة أو مقالاً إلا شعرت بدفء العاطفة يتدفق من خلالها ، وبالفكر النافذ يشع فى

---

١ ــ كلام فى الأدب .

جوانبها . . وربما كان ذلك عائداً بالدرجة الأولى إلى سلطان الإيمان المالىء جوانحه ، فهو أديب إسلامى له فراسة المؤمن الذى ينظر بنور الله ، ومن كان هذا شأنه ، لن يستطع تفريغ نتاجه من حرارة الصدق فى أى موضوع تناوله . .

ولاستيفاء الحديث عن أدب الأستاذ العطار ينبغى الإحاطة أولاً بكل ما كتب ونظم وألف وحقق وهو عمل متعذر ، لأنه يقتضى استنفاد الزمن الطويل ، ولهذا لا بد من الاجتزاء بالقليل عن الكثير ، والنفحة من الورد تنبىء بفضل الحديقة . . .

إن حس الأستاذ بجمال البيان الأصيل يؤجج فى قلبه الغضب على الأدعياء الذين حرموا ذلك الحس ، فراحوا يخبطون فى الدعوة إلى ما يسمونه « الأدب الجديد » ذلك الذى لا يعدو أن يكون رصفاً من الألفاظ الخاوية الشاحبة ، كالخرز الذى يزعم صاحبه أنه لؤلؤ . . وهم قد لصقوا به لأنهم لم يملكوا الشعور الذى ينفخ فى اللفظ من روحه ، فيجعله حياً يموج بالألوان والظلال والجمال . . ومع ذلك يهزؤون بكل طراز من البيان يخالف خرزهم هذا . .

والأستاذ العطار يرى أن هذا الضرب من اللغو قد وفد على العربية مع لفحات المادية الحمراء ، التى تريد أن تطفىء فى الإنسان أشواقه الروحية ، لتحصر همومه فى الكلام عن الخبز ، لذلك يعلن خشيته على مستقبل الأدب العربى لأنه « بدأ يفقد استقلاله وشخصيته ، وأخذ يمثل الروح اليسارية حتى فى كارهيها . . وما أشك أن هذا جعل حياتنا الفكرية فى قلق ، وآدابنا الحديثة فى ضعة وانحدار ، حتى صار الجمال نقيصة يؤخذ بها الإنسان ، وصار النقص مزية تحسب فى عداد الحسنات . . . وكما قيل فى الاقتصاد : إن العملة الزائفة تطرد العملة الصحيحة ، فقد أصبحت السوق الأدبية لهؤلاء الذين لا يحسنون التفكير والتعبير . . وأكاد أشم فى أكثر من هذا الإنتاج رائحة الشيوعية التى تريد هدم الأدب العربى الصحيح ، ليسهل عليها بعده الانقضاض على الشعوب »(١) .

---

١ ــ كلام فى الأدب .

والمادية الكافرة لا تستطيع أن ترضى عن الأدب الرفيع ، الذى تسميه سخرية بأدب البرج العاجى ، لأنها لا تحس الجمال ، ولا تملك أن تتطلع إليه . إنها مشدودة البصر إلى التراب فليس بوسعها النظر إلى الأعلى . ولذلك تريد حبس الأدب فى نطاق الضرورات العضوية ، لأن العصر بنظر دعاتها عصر العلم والعمال ، فلا مكان فيه للحديث عن الزهور والقمر وخدور النجوم ، وقد نسى هؤلاء ، أو أريد لهم أن ينسوا أن « الحيوان والإنسان فى عالم المعدة سواء . . نحن نطلب ما يملأ المعدة ، والحيوان كذلك . وميزتنا على الحيوان الشعور الإنسانى والتفكير فى الغد . . »[1] ولكن هؤلاء المسوخ يرمون إلى أبعد مما يقولون ، إنهم يريدون التسلل إلى مقومات الحياة الروحية ليتمكنوا من إفسادها ، ذلك « أن الإزراء بالأدب خطوة إلى إنكار جميع المثل والقيم ، وقضاء على الحرية والكرامة ، وخنق لصوت الدين »[2] .

إن وراء هذا التفكير لا اعتزازاً بروح الإيمان فحسب ، ولكن فيه كذلك توكيداً على مفهومه الدقيق لمنزلة الأدب الأصيل ، وأثره فى تصعيد الطاقات الإنسانية نحو الكمال الذى هو مطلب الفطرة الأعلى . .

العطار ناقداً :

والنقد ــ فى حسبانى ــ روح الأدب الأصيل ، لأنه الرقيب الذى يأخذ بيد صاحبه فى طريق الأفضل ، فيحاسب نفسه على اللفظة والعبارة والصورة ، حتى يبلغ بهن الشأو الذى يرتضيه . . وبقدر الزاد الذى يملكه الأديب ، من الثقافة والملاحظة والتذوق ، يكون حظ نقده من القوة أو الضعف ، والسداد أو الفساد . . والأديب الذى لا يحسن نقد عمله الأدبى أعجز من أن يحسن تقويم عمل سواه .

والمتتبع لأسلوب الأستاذ فى النقد الأدبى يدرك أنه يملك الذوق والأداة إلى حد بعيد . . ولا أزعم أنى ألممت بكل ما كتب فى هذا الجانب ، ولكن الذى اطلعت عليه من آثاره كاف لإعطائى الأنموذج الذى يمكننى من الحكم عليه .

---

١ ، ٢ ــ الزحف : ١٣٥

لقد تسرب وطيس المعركة حول شوقى إلى صحف هذه البلاد الغالية ، فإذا أصحاب الأقلام فريقان مغال فى تعديله ، وغال فى تجريحه . . ذاك ينكر عليه كل فضل وكل عطاء جديد ، وهذا يرفعه إلى أعلى المنازل بين شعراء العرب . .

وفى هذا المأزق المتلاحم يتقدم العطار الناقد لينهنه من غرب المتصاولين ، وليناقش رأى كل من الفريقين ، فى أناة تثير الإعجاب والرضى فى آن .

يقول للقادحين والمادحين : « إن شوقى يعد من فحول شعراء العربية ، وممن نقلوا الشعر العربى بعد جموده إلى شعر يتدفق قوة وحيوية وجمالاً ، ولكنى لاأستطيع أن أضعه فى مكان واحد مع المتنبى والمعرى وابن الرومى والشريف الرضى ، لأن هؤلاء أعلى منه وأصدق . . » .

ويرد على أحد هؤلاء تحامله على شوقى بالمنطق الذى لا يخرج عن الحق « . . فقد اتهم شوقى بالقذارة وبأنه شركسى دخيل . . وما كان شوقى إلا نظيفاً وعظيماً وعربياً مسلماً ، وأحد مفاخر العربية » وهو يعلم أن المتنكرين لشوقى إنما يستندون إلى تجريح العقاد وزملائه إياه ، فيقول فى هذا : « إن ما أخذه العقاد على شوقى حق ، وإن كان العقاد مؤاخذاً فى أسلوبه الذى ينم عن السخط والغضب »(١) .

فهو يدخل المعركة مسلحاً بأدواتها الصحيحة : ذوقاً ناضجاً واطلاعاً واسعاً ، وحكماً منصفاً . .

وفى دفاعه عن أدب الأستاذ عبد القدوس الانصارى يقول لخصمه « إن كلمتك حوت قذائف ومن استهدفته يملك مثلها . . » فهو يذكّر ناسياً بأول حقوق النقد الصحيح ، وهو أن يكون الناقد موضوعياً كالقاضى لا يصلح للحكم إلا إذا كان ضابطاً لأعصابه متحكماً فى أهوائه . .

وينكر ذلك الخصم على الأستاذ الأنصارى صلاحية قصة قديمة له ، فيقول الأستاذ العطار له .

« إن التوأمان ــ اسم القصة ــ لا تقرأ على أنها قصة اليوم ، ولكن

---

١ ــ كلام فى الأدب .

عندما ألفها عبد القدوس كان كل زملائه الأدباء لا يحسنون صنعه ، ولا يسعهم تأليف قصة مثله . . إن طالباً فى الابتدائية الآن يعرف أكثر من فيثاغورس فى الحساب . وطريقته أصبحت مضحكة بالنسبة لقواعد هذا العصر ، ولكن هذا لا يقذف به خلف الطالب الابتدائى ، بل يضعه فى أعلى القمم التى ينزلها العباقرة . . »[1] .

وأقل ما يلحظ على هذا التنبيه أنه« كلام سليم »كما يقول المذيعون . . لأنه يرشد محاولى النقد إلى الطريق المستقيم . .

مقالان لا ينسيان :

على أن أفضل ما قرأته للصديق العطار فى مضمار النقد الأدبى مقالان ، أحدهما على الصفحات الأخيرة من كتابه « كلام فى الأدب » ويتناول به مجموعة قصصيه من عمل الأستاذ توفيق الحكيم بعنوان « أرنى الله » . . ففى هذه الصفحات يعالج الأستاذ عدداً من تلك القصص بأسلوب الخبير ، الذى اجتمعت له أدوات النقد من الثقافة وسعة الاطلاع ودقة الملاحظة ، والإحاطة بعناصر القصة الناجحة . . وموطن الضعف والقوة فى بنائها . وعلى دأبه فى التحقيق الواعى لم يحف فيما أنكر ، ولم يسرف فى ما استحسن ، بل أعطى كل جانب حقه من الإنصاف . . ومن ذلك تحليله لإحدى هذه القصص فيقرر أنها « ليست طبيعية ، بل تقوم على حوار مفتعل أفقد القصة نهايتها الطبيعية ، فتشبث المرأة بالوفاء للشيطان بعد تطهرها الروحى والجسدى وتوبتها الصادقة النصوح ، أمر لا يتفق مع عمل أهل الجنة الذى وفقها الله له . . »[2] .

ثم طفق يحاكم عمل المؤلف قائلاً : « هنا خالف الأستاذ ـــ الحكيم ـــ الطبيعة وند عن طريقها القويم ، وأسره سحر المنطق والفكرة فأخذ يفتعل الحوار ، ظناً منه أنه يقدم البطلة فى صورة رائعة المثال عندما يحملها على الإصرار على الوفاء ـــ للشيطان ـــ وهى أمام أبواب الجحيم ، وملائكة الرحمة

---

١ ، ٢ ـــ كلام فى الأدب .

تمسك بها لتأخذها إلى الجنة . . »[1] .

فالنقاش بارع ، والنقد محكم . . وليست المرة الأولى ولا الأخيرة التي يخالف فيها الأستاذ الحكيم قوانين القصة الفنية . . وبخاصة فى المسرحيات التى يعترف هو بأنه لم يكتبها للتمثيل ، لأن فى حوارها من الشذوذ والجمود ما يفسد الجو المسرحى : ولو انتبه الأستاذ العطار إلى عنوان القصة فلم يبق فيها الكاتب بالإخفاق دون تريث ، لأن العنوان كشف غاية القصة فلم يبق فيها ما يستحق أن يقرأ . بيد أن على خاتمة القصة هذه ملاحظة لا أدرى رأى الصديق العطار فيها . فهى تدور على الصراع بين الزيغ والاستقامة ، ومصير كل منهما بالنسبة إلى مبدأ العقاب والثواب على ضوء الأحكام الدينية . . وهو أمر لا يوفق إلى الصواب فيه سوى المتمكن من علم الشريعة ، وهو العلم الذى تفتقده مدرسة الحكيم وزملائه . . فما إن يواجهوا هذه المواقف حتى تضطرب بهم السبل فيهرفون . . ولعل الأستاذ يتذكر بدعة الأستاذ محمود تيمور المضحكة يوم دعا إلى تصوير أحداث القصص القرآنية على جدران المساجد ، كما صنع الفاتيكان بتصوير أحداث القصص الإسرائيلية على جدران بيَعِه بريشة أساطين الفن . . ويوم أقدم بعض المسئولين فى مصر على « إخراج » النصوص القرآنية مصحوبة بالموسيقى ، كما تصنع الجوقات الكنسية بالنصوص الإنجيلية . . إنهم جميعهم يرفعون عقائرهم بهذه الدعوات وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ويخدمون رسالة القرآن ! . . وما كانوا ليقدموا على مثل هذا اللغو ، لو أعطوا بعض وقتهم لدراسة القرآن والسنة على الأسلوب النبوى ، كما أعطوا أعمارهم كلها لدراسة الفنون على الأسلوب الأجنبى . ومن هنا يكون موضع الخلاف بين الحكيم والعطار هو انطلاق كل منهما عن مدرسته الفكرية ، فالحكيم آثر خاتمته لأنها ترجمة لاتجاهه ، على حين أن العطار يحكم عليها من خلال موازينه الإسلامية . . وشتان بين الفريقين والطريقين .

أما ثانى المقالين فموضوعه عدد رمضان لعام ١٣٩٢ من « قافلة الزيت » وظاهر من عنوانه « تعقيب على تعقيب » أنه حلقة تابعة لسابقة لها ، أنشأها

---

١ ــ كلام فى الأدب .

ليرد عل ما كتبه عبد الرحمن صدقى فى التعقيب على ما سبق أن علق به هو على بعض أفكار صديقه هذا . .

ففى هذا المقال تبرز ميزات العطار التى تمرست بألوان التحقيق العلمى . . كما تطل عليك شخصيته من مختلف جوانب البحث ، حاملة طوابعها المعروفة من العمق والدقة والشمول . . ولا جرم إن مقالاً كهذا ليتكىء على مطالعات لا يستطيعها مجموعة من حملة الأقلام « التقدمية » الذين تسميهم المؤتمرات المشبوهة « أدباء » ! . . ولولا ضيق المقام لعرضت نماذج من تلك الصفحات الأربع ، التى تستحق أن تكتب بماء الذهب .

العطـار محققـاً :

لم يتح لى أن أطلع على تحقيقات الأستاذ كلها ، ولكن مجرد النظر إلى عنواناتها كاف لتحديد ميوله وتقييم[1] مجهوده :

١ ـــ تهذيب الصحاح للزنجانى « ثلاثة أجزاء » .

٢ ـــ الصحاح للجوهرى « سبعة أجزاء » .

٣ ـــ « ليس » فى كلام العرب لابن خالويه .

٤ ـــ مقدمة « تهذيب اللغة » للأزهرى .

٥ ـــ كشـف الظنون .

٦ ـــ شرح مقصورة ابن دريد لابن هشام .

٧ ـــ الأزمنة لقطرب .

٨ ـــ ما اتفق لفظه واختلف معناه لأبى العُمَيْثل .

٩ ـــ مجموعـة المعانى .

---

١ ـــ ينكر بعض المعنيين بالعربية هذا الاستعمال فيعدلون عنه إلى الأصل « التقويم » والذى نراه قبول الصيغة الجديدة أسوة بـ « التعييد » التى لا اعتراض عليها ، فكما أن ياء « التقييم » مقلوبة عن واو كذلك ياء « التعييد » .

١٠ ــ آداب المتعلمين ورسائل أخرى فى التربية الإسلامية .

وينسلك فى نظام هذه المحققات كتاب « الصحاح ومدارس المعجمات » وقد علمت أن لدى الصديق كتابين ضخمين يمكن اعتبارهما من هذه البابة ، أحدهما « المسيحية والمسيح » والآخر « الديانات والعقائد فى مختلف العصور » إذ لا بد فى مثل هذه البحوث من اعتماد الأسلوب الوثائقى ، القائم على ضروب عميقة وواسعة من التحقيق ، كما هو الملاحظ فى مقالاته عن « الأناجيل . . » التى ينشرها تباعاً فى مجلة التضامن الإسلامى » وهى أجزاء من الكتاب الأول.

ويضطرنى ضيق المجال ، والبعد عن المراجع ، إلى الوقوف عند عاشر هذه المؤلفات لنتبين مبلغ الجهود التى بذلها هذا العلامة الغيور على تراث الإسلام ولغة القرآن .

يقول الأستاذ فى مقدمته لهذا الكتاب النفيس : « فهذه رسائل فى التربية الإسلامية ، وكل منها تبين ناحية فيها وطريقة من طرقها ، وتصور كل جوانبها وأراء العلماء فيها ومدارسها . . وبعض هذه الرسائل قد نشر ، وبعضها لم ينشر من قبل ، وقد جمعناها لوحدة الموضوع ووحدة الغاية ، وليرى القارىء مختلف وجهات التفكير الإسلامى فى التربية ومدارسها فى مكان واحد(١) .

ثم يعقب على ذلك بقوله : « . . والرسائل ــ هذه ــ تثبت سبق المسلمين والعرب ، وأن أئمة المسلمين هدتهم تجاربهم وثقافتهم وعلومهم وخبرتهم إلى طرق التربية والتدريس قبل الغرب بمئات السنين . . وأن مناهج التربية الحديثة ليست غربية كما يظن من لا علم عنده ، بل هى فى جملتها وصميمها مناهج عرفتها التربية الإسلامية ، التى أجحف بها الظالمون المنتقصون لأقدار العرب والمسلمين(٢) . .

فالهدف من تجميع هذه الرسائل إذن هو خدمة الفكر الإسلامى ، وإنه لعمل مشكور أن يؤلف بين هذه المتفرقات ، فيوفر بذلك ، للمعنيين بشئون التربية والتعليم والتاريخ الإسلامى ، فرصة صالحة للإلمام بجانب غير يسير من

---

١ ، ٢ ــ ص ٣٠ .

تراثنا ، الذى كادت الصلة تنبت بيننا وبينه .

والمقدمة التى دبجتها يراعة المحقق ، وهى تقارب الثلاثين من الصفحات ، جديرة بأن تقرأ من ألفها إلى يائها ، لأنها دراسة دقيقة لطبيعة الإنسان ، وقابليته الفطرية للتعلم والتطور ، وأصول النظم التربوية فى المجتمعات البشرية . . وأثر الإسلام فى دفع هذه النظم إلى قمة التكامل.ونظرة إلى المراجع الكثيرة التى ذيلت بها هذه المقدمة توضح لنا مدى إخلاص كاتبها للعلم ، وحجم الدأب الذى اقتضته إياه . .

فغرض التعليم عند الكاتب « إعداد الفرد إعداداً صالحاً للحياة ، بحيث يكون قوة من قوى المجتمع وقواعده وأسسه ، وبحيث يستطيع أن يواجه الحياة وكل ما فيها من حالات وأحداث ونظم وآراء وثقافات . . . و . . . حتى يوجه السلوك الإنسانى توجيهاً صالحاً حسناً وتنمو الشخصيات وتزكو المواهب ، وتقوم موازين الخير والفضيلة والحق والجمال فى المجتمع[1] .

ولا خلاف فى أنه تحديد إسلامى قد يلتقى مع بعض الدراسات الغربية إلى حد ، ولكنه يفارق معظمها ، لأن تحقيق قيم الخير والفضائل آخر ما يخطر فى بال رجال التربية الغربية . . ولا غرابة « فالتربية عند المسلمين هى غيرها عند النصارى واليهود و . . المجوس،وفى الأجواء الباردة تختلف عنها فى الأجواء الحارة أو المعتدلة ، والتربية فى المجتمع الفاضل المتدين غيرها فى المجتمع الذى لا يعترف بدين وعقيدة وفضيلة[2] » .

ذلك هو التعليل الطبيعى لاختلاف أساليب التعليم فى المجتمعات المختلفة ، ولكن هذه الفوارق سرعان ما تمحي فى ظل الحضارة الإسلامية ، التى قامت على « تقوية الأساس الدينى ، والاستغناء به عن العصبية القبلية . وقد نتج عن تأثر التربية بالنظم والتقاليد الإسلامية فقدان الاختلاف فى نظم التربية فى الأمصار الإسلامية . . وساعد على ذلك تماسك الامبراطورية الإسلامية سياسياً وعقلياً . . ثم استمرار الوحدة الروحية والعقلية ، وقد ساند ذلك الانتعاش الفكرى ، ونمو حركة النشاط العقلى، حين صارت العربية لغة الثقافة

١ ــ ص ٥ .
٢ ــ ص ٩ .

والتخاطب . .(١) » وسواء كانت هذه التقريرات من قلم الكاتب ، أو نقلاً عن المصادر الأخرى(٢) فهى دلالة قاطعة على أنها انعكاسات لأفكاره نفسه . . واتجاه عقلى منه إلى الإيمان بتفوق الفكر الإسلامى الذى سجل أعظم نجاح فى إزالة الحواجز العنصرية بين أصناف البشر وأعراقهم . .

والمهم فى هذه المقدمة وفى ما قدمت له — من الرسائل الست — أنها تعيد إلى نفس الدارس المسلم ثقته بحيوية التراث الإسلامى واستعلائه ، ووجوب العودة إليه لتنظيمه وتنسيقه ، وإخراجه فى أسلوب علمى جديد وفى اعتقادى أن عملاً كهذا جدير بتحرير الفكر العربى والإسلامى — الحديث — من هذه التبعية الخبيثة ، التى تسيطر على مناهج التعليم فى معظم أقطار المسلمين . .

العطـار صحفيـاً :

فى رسالة تلقاها الأستاذ العطار من قارىء شامى لجريدته « عكاظ » يعاتبه بل يقرعه فيها على انحرافها بعدما عهده بها من الاستقامة فيقول : « وكنت كتبت فى (عكاظ) ورددت فى صفحاتها أنها قلعة من قلاع الإسلام ، ومنبر من منابر محمد عليه الصلاة والسلام . وكان ذلك صحيحاً وحقاً فقد كانت عكاظ كذلك . فماذا حدث لك الآن . . إن الأمر مختلف جداً ، فالحاضر ينكر الماضى ...

وكان رد الأستاذ على تلك الرسالة المطولة « أننى لست مالكاً لعكاظ الآن ولا دخل لى فيها . . فلست صاحب امتيازها ولا رئيس تحريرها ، ولا علاقة لى بها » « وبعثت إليه قصاصات من الصحف الكويتية التى كنت أنشر فيها كلماتى ليعلم أنى كما يعهد ، بل يزيدنى مرور الأيام اعتصاماً بربى وتمسكاً برسولى الأعظم محمد عليه صلوات الله وسلامه»

فها هنا صورة واضحة وكاملة لعمل الأستاذ العطار فى الصحافة ، إنه يقتحم ميدانها أديباً إسلامياً ومفكراً مؤمناً ، ليتخذ منها وسيلة لخدمة الإسلام

---

١ ، ٢ — ص ١٢

وإعلاء كلمة الله . وهو واقع يشهد به أهل الفضل من قراء صحيفته ، وإنى لأتصور بناء على ذلك أن قارىء صحيفة العطار لن يجد فيها إلا ما يجده زائر القلعة الإسلامية ، من الاستعدادات اليقظة لحماية الأمانة الربانية من كل عبث ومحاولة للإفساد . .

وأكاد أقطع بأنها لن تفتح أعمدتها لأية صورة فاجرة ، أو إعلان مسيء للأخلاق ، أومناقض لأدب الإسلام . . وقلم كهذا لا ريب سيكون ربحاً كبيراً للدعوة الإسلامية ، ورفيقاً كريماً للثلة المؤمنة المجاهدة فى سبيل تثبيت القيم ، التى تريد التبعية الغربية أن تقضى عليها . . ومع ذلك فإن الأستاذ العطار غير راض عن انتسابه إلى هذه الحرفة القلمية « نعم . . جنت الصحافة علي ! إذ أجبرتنى أن أترك الأدب الحق فلا أنظم الشعر الذى كنت أنظمه ، ولا القصة التى زاولت ، ولا الدراسات التى اتجهت إليها ، ولا التحقيق العلمى الذى أخذت به ولا البحوث الدقيقة فى الأدب والتاريخ[1] ».

وتذمر الأستاذ من العمل الصحفى معقول للأسباب التى أشار إليها ، ولسبب لم يذكره وهو كون الصحافة التى لجأ إليها ــ ابتغاء العيش كما يصرح ــ هى من اللون الإخبارى ، الذى يفرض على الكاتب توزيع طاقاته على عشرات الجبهات . . ولو هو قد لاذ بالصحافة العلمية أو الأدبية ــ كشأن الأستاذين الأنصارى فى « المنهل » والجاسر فى « العرب » ــ لما اختلف عليه الجو النفسى والعقلى كثيراً ، بل لوجد كل شيء هناك مساعداً له على تحقيق هوايته الأصلية . .

ولعل أسوأ ما تركته الصحافة الإخبارية من أثر فى واقع الأستاذ هو طابع السرعة الذى شرع يلوح على أسلوبه ، فجعل يصرفه عن الأناقة الأدبية المتخيرة إلى « الدفع » العجلان ، الذى لا مندوحة عن الاصطباغ به لكل قلم عمل فى هذا الضرب من الميادين الصحفية . . وقد أشار هو إلى هذه الحقيقة بصراحة مؤثرة حين أعلن « أن العمل الصحفى يأكل وقت صاحبه أكلاً لما ،

---

١ ــ كلام فى الأدب ص ٤١ ، ٤٢ .

وتلتهمه الصحافة ، وتجبره المطبعة ، التي لا تشبع بل تطلب المزيد ، على أن يبتعد عن الأدب الحق والدراسات . . لأن كل جوهر نفيس لا يأتى بسهولة ، بل لا بد له من التفرغ والدؤوب والدراسة والاطلاع . والصحافة — الإخبارية — لا تنتظر ، بل تريد كل يوم غذاء جديداً[1] . . » على أن لهذه المهنة — مع حيفها على أصالة الأدب — فضلاً على المفكر إذ تطل به على ضروب من الأحداث اليومية ما كان ليتفقهها لو اعتزلها . . وقديماً قيل : رُبَّ ضارة نافعة .

أجل . . إن « صحفية » الأستاذ العطار أفرغت على أساليبه بعض التباين . . فهو من ناحية أقرب إلى البساطة ، على طريقة جرير الذى لم يكن يتسع وقته ومعاركه لإعادة النظر فى أسلوبه ، ومن ناحية أخرى كما وصف المنفلوطى أسلوب شوقى إذ شبهه بسبحة الزاهد فى صومعته . . وهذا الضرب من كتابته ممتاز أبداً بالفخامة والكثافة والاستهواء . .

ويحسن بنا ونحن فى أواخر البحث أن نحلى هذه الخاتمة ببعض تعابير العطار المتألقة :

تعابيــر مشعة :

يقول الأستاذ فى نقده لخبر صحفى مسموم :

واليد التى تمتد إلى الكأس الأولى تتعودها ، والعادة قهارة ظلوم ، وإلف المنكر يفقد صاحبه الضمير والوازع ، ويصم أذنيه عن سماع كلمة الحق . . فإذا وهنت قوة الوازع النفسى أو ضعف تأثير الكلمة لم تبق إلا قوة السلطة ، فإذا وهنت مع وهن الوازع النفسى وأثر الكلمة سوغ المرء لنفسه المنكر ، وأتاه فى غير حياء وخجل . . وعندئذ تسود الحيوانية علاقة الرجل والمرأة . . فأعداء الإسلام لا يتركون مثل هذا الخبر الصغير ، بل يبحثون له عن مكان بالصحيفة ، فإذا لم يجدوه أوجدوه وبذلوا كثيراً ، لأنهم يدركون أن القطرة التى تنزل على الصخرة تجرحه إذا توالى سقوطها عليه . والذى يسير

---

١ — كلام فى الأدب ص ٤١ ، ٤٢ .

ألف ميل يبدأ بخطوة واحدة .

ويجب ألا نستهين بما صغر ، فالنار من مستصغر الشرر ، ومن الحمق أن نترك الشرر على الدياج . .

ووسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزة وغيرهن قُوى فعالة ، فيجب أن نضعها فى أيد أمينة ، وإلا فتكت بنا شر فتك . والتساهل يفضى إلى ما لا خير فيه ، والحرية من غير قوامين يحفظونها تمكن المنحرفين من السيطرة[1] .

ففى هذه التعابير المشعة صور حية من أدب العطار الذى لم تلينه الصحافة الإخبارية . . إنها أفكار بعيدة الغور ، تعكس عمق التجربة وقوة الملاحظة وسعة االدراسة لأبعاد النفس . . وإنها لصيغ جامعة تؤدى مضمونها فى لمح ساحر ، تكفى إشارته فتغنى عن طويل الخطب . .

وفى كلمات قليلة من هذا الضرب يصف الأستاذ محصول الكدح اليسارى لتخريب العقل الإسلامى ، وإفساد موازينه البلاغية « . . واشتد نشاط الشيوعيين فى العالم العربى والإسلامى ، وانتصروا فى ميادين الثقافة والفكر والأدب ، حيث استطاعوا أن يجعلوا لعملائهم أسماء لامعة يخدع بها الجيل العربى[2] ».

ويسمع دعاوى هؤلاء المتآمرين على دين العرب وقيم العرب ولغة العرب ، ويقرأ سخرياتهم بأساليب البيان الرفيع ، ودعوتهم الجهنمية إلى هلهلة الأدبِ فيهتك أسرارهم ويكرر الحكم عليهم قائلاً : « إذا هزئوا برفعة البيان ورقى الأسلوب ، وحاربوا أصحابهما فإنما يحاربون أو يقصدون من هذه المحاربة النفاذ إلى القرآن[3] ».

* * * *

---

١ ، ٢ ، ٣ ــ الزحف ص ٢٧٠ ــ ٢٩٥ .

وأخيراً . . هذه بعض الجوانب التى أتيح لى التحدث عنها من شخصية العالم الأديب المصلح المؤمن أحمد عبد الغفور العطار . . . ولو اتسع لى الوقت ، وتوافرت المراجع ، لكان مجال الكلام أوسع وأعمق . . .

ولقد أغنانا جلالة الفيصل ــ تغمده الله برحمته ــ عن التفصيل الطويل فى شأن هذا النابغة بما أوجزه فى قوله له : إنى والله أعزك لأنك أديبنا الكبير ...

والله إنه فى يقينى لأديبنا الإسلامى الكبير[1] . . . .

وألف تحية لأولى الفضل ، الذين قدروه فكرموه « وإنما يعرف الفضل ذووه » .

استدراك :

يلاحظ القارىء فى هذا الموضوع أسلوباً غير الذى سلكناه فى التراجم الأخرى ، ذلك أنه كُتب فى الأصل ليكون فصلاً فى كتاب يشارك فى تأليفه عدد من مقدرى فضل الأستاذ العطار ، فهو إذن بحث فى فكر الأستاذ وأدبه أكثر منه ترجمة له .. وقد ختمنا ذلك البحث يومئذ بالأبيات التالية موجّهة إلى اللجنة التى تولّت الدعوة إلى تكريمه :

يا عصبة الأدب الأصيل، وإخوة ... الضادِ الأثير.. تحية الإكبار
أكرمتم القلم الذى قد طالما ... سحر النهى بروائع الأفكار
وبذلتمو حسن الثناء لِمحسن ... ماانفك يبدع خالد الآثار
أبلى سنيه على الكفاح ولا يزا ... ل يصارع الغمرات دون قرار
ذوداً عن الذكر الحكيم ونصرة ... للحق تصفع أوجه الأغرار
أو غضبة لله تدفع عادياً ... ركب الهوى عن سنة المختار
فجزاكم الرحمن عن تكريمه ... ما تستحق صنائع الأبرار
لا غرو أن يجد البيان بظلكم ... أهلَ الوفاء وصفوةَ الأنصار
فأولو الحجى والذوق دون سواهم ... أدرى الورى بنفائس العطار

ثم شاء الله أن تأتى الخطوة الثانية فى تكريمه من قبل الهيئة المشرفة على

---

١ ــ ٤٣ ، ٤٤ « كلام فى الأدب »

« جائزة الدولة التقديرية » إذ اختارته أحد مستحقيها الثلاثة للعام ١٤٠٤ هـ وهم صاحب السمو الملكى الشاعر الأمير عبد الله الفيصل ، والأديب الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار والشاعر الأستاذ طاهر عبد الرحمن الزمخشرى .. وكفى بجائزة الدولة تكريماً وتقديراً .

واستدراك آخر :

هو أننا حتى الآن قد اكتفينا بتقديم الأستاذ من خلال آثاره الفكرية والأدبية ، ولا بد فى الترجمة من إلمامة أخرى تعرف القارىء بشخصه وبيئته ونشأته ، ولئن حالَتْ طبيعة الموضوع دون إثباته فى المقدمة لقد بات علينا أن نستدركه فى خاتمته . وها نحن أولاء نستخلص هذه المعلومات مما نشرته مجلة « القافلة » بهذه المناسبة فى عدد ذى الحجة ١٤٠٤ هـ .

« وُلد الأستاذ فى مكة المكرمة عام ١٣٣٥هـ وبدأ تعلمه فى المدارس النظامية حتى حصل على الشهادة الثانوية من المعهد السعودى فى العاصمة المقدسة ، ومن ثم أوفدته الحكومة السعودية إلى القاهرة لاستكمال دراسته فى كلية دار العلوم ، فكان يجمع بين الانتظام فيها والاستماع بكلية الآداب فى جامعة فؤاد الأول .. ولكن ظروف عائلية اضطرته إلى العودة .

بيد أن هذا لم يقطعه عن متابعة التحصيل العلمى ، إذ اندفع مع هوايته من القراءة فى الأدب والدين واللغة ومختلف المعارف . وقد عمل فى نطاق الوظيفة ثلاث سنوات تحول بعدها إلى العمل فى الصحافة والتأليف ، ومن الصحف التى أنشأها « عكاظ » ثم مجلة « كلمة الحق » ثم لم يتوقف عن التأليف والترجمة والكتابة فى مختلف الصحف والمجلات حتى اليوم ..

ولا حاجة لإعادة الحديث عن رحلته الفكرية والأدبية خلال هذه العقود ، فلقد أسلفنا من ذلك ما يكفى لبيان أثرها فى إثراء الأدب السعودى والعربى ، وفى النفاح عن حرمة العربية وحقائق الإسلام .

والله المسئول أن يجزيه عن ذلك ما يستحقه العاملون المخلصون .

الشيخ أحمد عيسى عاشور

تبدأ معرفتى به قبل أربع سنوات ، إذ كنت نزيلاً على فضيلة اللواء محمود شيت خطاب فى منزله بالقاهرة ، وما كان لى مندوحة عن الاتصال بالأخ العزيز الأستاذ حسن عاشور للاستفسار عما وصلت إليه كتبى ، التى سبق الاتفاق معه على نشرها او إعادة طبعها فى دار الاعتصام ، فما إن علم بوجودى هناك حتى أقبل لزيارتى ثم أصر على اصطحابى إلى دارتهم فى حى المعادى . . وهناك لقيت والده الذى أقدمه الآن إلى قراء هذا الكتاب . .

والزائر لمنزل آل عاشور هذا ليس بحاجة إلى طويل وقت حتى يشعر بأنه واحد من أهله فالسمات البارزة هناك هى الأنس الذى ينسيك غربتك ، والكرم الفطرى الذى يستقبلك فى كل شىء وأكمل صور الأنس والكرم هو ما يطالعك به مُحَيًّا ذلك الشيخ الوقور الذى لا أعرف وصفاً أحق به من أنه بقية من السلف ، الذين من حياتهم نستمد القدوة الحسنة ، ونتعلم ما يميز المسلم من فضائل الأخلاق .

استمر لقائى هذا الشيخ الصالح طوال الأيام التى أقمتها فى القاهرة ضمن ذلك المنزل ، وفى قاعته الحافلة بمئات المجلدات ، فما أذكر أنى رأيته فى دار الاعتصام أو مكتبتها قط ، وما أدرى أهو دأبه أبداً فى لزوم البيت أم كان ذلك عارضاً بسبب انشغاله فى العبادات والمطالعة . .

وأشهد لقد فارقت القاهرة حين فارقتها وفى نفسى العميق الحار من مشاعر الود والتقدير لكل من لقيته فى ذلك البيت المصرى العريق فى مواريثه الأخلاقية المفضلة ، ولكن صفوة هذا الود وذلك التقدير كانت موقوفة على ذلك الشيخ الجليل الذى لا أشك بأنه كان المنبع الأصيل لكل تلك المميزات الكريمة ، وما أدرى كيف وثبت إلى ذاكرتى الآن تلك الأبيات التى بعثت بها إلى أهل

ذلك البيت عَقيب مغادرتى القاهرة ، مسجلاً فيها بعض ما جاش فى صدرى من هاتيك المشاعر :

يا آل عاشور أثقلتم عواتقنا ... بما بذلتم من المعروف والكرم
وكيف نشكر أو نجزى صنيعكم ... وقد عدا كل مختار من الكلم
سجيةٌ تلك فيكم غيـر محدثة ... لو رمتمو كفها أعيت ولم ترِم
دامت عليكم ولا زالت مؤيدة ... من الإله بموصـول من النعم
فإن أمثالكم فى الأرض زينتها ... إذا خبا ضوؤها أفضت إلى الظلم

ولكم كان سرورى كبيراً يوم قدَّر الله لقاءنا الثانى فى مدينة المصطفى ، صلوات الله عليه وسلامه بعد أكثر من سنتين فكانت مناسبة سعيدة شددنا فيها حبل المودة التى بدأت فى القاهرة ، وستستمر بفضل الله ومَنِّهِ حتى نلقى الأحبة محمداً وصحبه حيث ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ وكل ما أتمناه الآن هو أن أحسن تقديم هذاالشيخ إلى قراء كتابى على الصورة التى رأيتها والانطباعات التى أحملها عنه .

يقول فضيلته إن اسمه الكامل أحمد عيسى عاشور وقد ولد فى بلدة « الشنباب » من أعمال محافظة الجيزة يوم التاسع من شهر إبريل عام تسعة وتسعين وثمانمائة وألف . . وفى كُتَّاب تلك البلدة تلقى الكتابة والقراءة على عادة الناس بمصر ذلك العهد ، وبعد أن أتم هذه المرحلة اتجه إلى حرفة والده الذى كان يعمل فى الزراعة والتجارة ، فكان له بعض النشاط فيهما حتى أتم السابعة عشرة ، إلى أن شاء الله أن تكون بدء اتجاهه الجديد فى مواصلة طلب العلم وقد حدث ذلك بعد تعرفه أحد فضلاء المشايخ الذين زاروا بلدته تلك الفترة ، وأنس منه تشجيعاً على استعادة ما أنسته المشاغل من محفوظاته القرآنية ، فأقبل على تجديدها وواصل سبيله فى حفظ الكتاب الكريم . . ولقى من والده تشجيعاً آخر ضاعف من رغبته فى الالتحاق بالأزهر ، وقد تم له ما أراد من ذلك الخير بعد أن ناهزت سنه الثامنة عشرة ، وصبر نفسه على الدراسة حتى تخرج عام ١٩٣١ وأحرز شهادة العالمية النظامية .

يقول الشيخ : أثناء دراستى بالأزهر وفى العام ١٩٢٧ أُسندت إلىَّ وظيفة

المأذونية فى بلدتى وما زلت أمارسها حتى السنة الخمسين ، حيث عينت إمام مسجد من قبل وزارة الأوقاف .. وأثناء دراستى كذلك التقيت مع رئيس تحرير مجلة « الفضيلة » الإسلامية وتم بيننا التعاون على المشاركة فى تحريرها ، ووجدت فى العمل الصحفى مجالاً للدعوة إلى الخير والحق ، فأقبلت عليه برغبة ، وأسهمت إلى جانب مجلة الفضيلة فى تحرير صحيفة أخرى هى « المجلة الشرعية » التى استمر عملى فيها لمدة سنة ثم حدث خلاف فى وجهات النظر بينى وبين صاحبها ، فصح عزمى على إصدار مجلة خاصة أؤدى من خلالها واجبى بحرية واستقلال . . وهكذا تم فضل الله فأصدرت العدد الأول من مجلة « الاعتصام » الأسبوعية فى ١٥ / ٧ /١٩٣٨ ولما تزل حتى الساعة تتابع سبيلها فى خدمة الإسلام والمسلمين ، لم تتوقف إلا فترات محدودة لظروف ، معلومة خارج طاقتنا . . وقد كانت الاعتصام وما تزال ولله الحمد مجالاً صالحاً لتعاون ذوى الأقلام النظيفة من أهل العلم والعمل ، الذين لا يخافون فى الحق لومة لائم ، فكان لهم عميق الأثر فى توجيه الشباب المسلم إلى التى هى أقوم ، وفى مقدمة هؤلاء الشيخ الجليل أمين محمود خطاب السبكى رئيس الجمعية الشرعية رحمه الله ، والشيخ أبو القاسم إبراهيم أحد علماء الأزهر الأفذاذ ، الذين نبغوا فى علوم التفسير والحديث والتاريخ الإسلامى ، وكذلك الشيخ محمود عبد الوهاب فايد من علماء الأزهر ، الذين لهم فى تارخ الدعوة مواقف مشرفة فى الدفاع عن منهج الله ، وتنفيذ أحكامه وهيمنة شريعته ، والتصدى بشجاعة وحزم وفهم لكل المؤامرات التى تحاك فى ليل للتوهين من مبادىء الإسلام وتعاليمه السمحة . .

ويقول أبو غسان : لا شك أن وجود الاعتصام ربح كبير للصحافة الإسلامية الملتزمة ، وهى مأثرة تذكر بالتقدير لفضيلة المترجم ، وفى إقبال أولئك المفكرين المشهود لهم بالفضل والنزاهة على تغذية مضمونها الإسلامى نوع من الجهاد الذى لا يوفيه إلا رضوان الله ومثوبته . . ولكن الذين يمارسون هذا الضرب من الصحافة النقية يعلمون ثقل الأزمات التى تنوء بأعبائها ، فنحن الذين نتقاضى مكافآت كل كلمة نكتبها فى الصحف العلمية والأدبية والإخبارية ــ تقريباً ــ ترانا ملزمين بأن نقدم ما نستطيع صياغته من أعمالنا الفكرية والأدبية إلى تلك الصحف الإسلامية دون أى مقابل ، بل ربما

عرضنا عليها ما نستطيع من إسهام مادىّ لتأمين استمرارها فى خدمة الإسلام . . والشيخ مؤسس الاعتصام من أحفل الناس إحساساً بهذا الواقع ، لذلك وجد من موجبات هذا الجهاد الصحفى أن يؤمن لمجلته المدد النظيف الذى يضمن استمرارها وحريتها . .

ومن هنا جاء قول الشيخ : لقد رأيت لكى أضمن حرية الحركة لمسيرة المجلة أن نعمل على تأمين مطالبها المادية ، وهذا ما دعانى لإنشاء « دار الاعتصام » الخاصة بالطبع والنشر . . وأحاطها الله بعنايته وتوفيقه فأسهمت ولا تنفك تسهم فى نشر التراث والفكر الإسلامى المستنير ، واستطاعت بحمد الله أن تمد معظم الديار الإسلامية بهذا الإنتاج العلمى ، الذى نرجو من الله جلت قدرته أن يكون خالصاً لوجهه الكريم .

وهكذا أتيح لمجلة الاعتصام أن تواصل سبيلها فى خدمة الدعوة صادعة بالحق فاسحة صدرها لكل قلم حر مخلص أمين من الكتاب الإسلاميين ، حتى جاءت مقررات سبتمبر ١٩٨١ فحجبتها عن الصدور . . والأمل بفضل الله كبير فى أن تسترد حريتها قريباً ، فتستأنف سبيلها فى الدعوة إلى الله وإلى شريعته السمحة التى عليها يتوقف استقرار الحياة وصلاحها فى الدنيا والآخرة(١)

وعن الرجال الذين أثروا فى حياته يقول فضيلة الشيخ :

لقد تعرفت خلال سِنِىَّ شخصيات إسلامية جليلة ممن كان لهم عميق الأثر فى نشر الدعوة الإسلامية وإصلاح المجتمع الإسلامى وتنبيهه للأخطار التى تحيق به من كل جانب . . ولا ريب أن فى مقدمة هؤلاء الأجلة الإمام الشهيد حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين تغمده الله بواسع رحمته مع الصديقين والشهداء والصالحين . التقيته فى القاهرة وحضرت الكثير من محاضراته التى كان يلقيها فى دار الإخوان المسلمين بالحلمية الجديدة مساء كل ثلاثاء ، حتى عرفت فيما بعد بحديث الثلاثاء أو عاطفة الثلاثاء كما كان يحب هو أن يسميها . . وكان هذا اليوم مشهوداً يحتشد فيه الآلاف من أنحاء البلاد ليستمعوا إلى ذلك الصوت ، الذى تتمثل فيه قوة العاطفة وسحر البيان ، ويعتمد الحقائق وحدها فيستجيش المشاعر ويلهب الأرواح ، ويتغلغل إلى

---

(١) استأنفت المجلة بحمد الله سبيل الدعوة فى شهر رمضان ١٤٠٤ هـ

أعماق القلوب . . حتى إن المستمع إلى محاضرته مرة واحدة لا يملك أن يتخلف عن محاضرته التالية ، فيواظب عليها فى حرص يشغله عن كل المشاغل .

ويتابع فضيلته : لقد كنت أحد هؤلاء الحراص على حضور تلك الأحاديث حتى جعلت أسجلها بقلمى ، إذ لم يكن الناس قد عرفوا بعد أجهزة التسجيل الصوتى ، وكان تسجيلى لها صحيحاً وميسراً بحيث لا يمكن حصوله إلا بتوفيق الله . . وكنت أنشر هذه الأحاديث عقب تسجيلها فى العدد التالى من الاعتصام ، وظللت على ذلك طوال حياة الإمام حتى قبيل استشهاده رحمه الله رحمة واسعة . . وقد جمعتها وأخرجتها أخيراً فى ثلاثة أجزاء بعنوان « نظرات فى السيرة » و « نظرات فى النفس والمجتمع » .

ويمسك الشيخ قليلاً يستحضر تلك الهنيهات السعيدة ثم يقول :

كان من عادتى الحضور إلى دار الإخوان قبيل المغرب لصلاة الجماعة ، وبعد الأذان والإقامة يقدمنى الإمام للصلاة بالناس فأمتنع حياءً منه وإكباراً له ، فيقول لى « صلِّ بالأمر » فلا يسعنى إلا الامتثال .

وفى العام ١٩٤٥ وفقنى الله لأداء فريضة الحج ، وشرفتنى الجمعية الشرعية برئاسة بعثتها ، وهناك التقيت بالإمام الشهيد واستمعت إلى بعض محاضراته ، التى كان يدعو إليها رؤساء الوفود الإسلامية سواء فى مكة المكرمة أو فى المدينة المنورة . وكشأنى مع محاضراته السابقة عمدت إلى تسجيلها جميعاً ونشرتها جميعاً فى الاعتصام .

ولقد كنت أستمتع بمشاهدة وفود الحجيج تتدفق على كل مكان ينزل فيه الإمام ، وبينها وفود أندونيسية والهند ومدغشقر ونيجيرية والكامرون وأفغانستان وإيران ، تريد لقاءه واستماع أحاديثه ، فيتحدث مع كل فريق عن الأمور التى تشغله من قضايا بلاده ومشكلاتهم ، كأنه هو القادم عليهم منها وليسوا هم القادمين عليه . .

ويقول فضيلة الشيخ : هذه بعض ذكرياتى عن الرجل الذى ربى الأجيال **الإسلامية على مائدة الإسلام بأسلوب العصر ، الذى يتمثل الآن فى هذا المد العالمى المشهود للحركة الإسلامية ، التى وضع بيده ودمه بذورها الأولى ...**

وهكذا تأتى انطباعات فضيلة الشيخ عن شخصية ذلك الإمام العظيم متطابقة مع الملامح التى يحتفظ بها كل عارف له عن كثب ، وبخاصة ما كان يمتاز به من تتبع لأحوال المسلمين فى سائر مواطنهم إلى جانب عمقه البعيد الغور فى إدراك حقائق الإسلام ، والطريقة المثلى فى مخاطبة الأفراد والجماهير حتى سار ذكره وأفكاره مسير الشمس ، فليس فى العالم بلد إسلامى لم يعرف حسن البنا ولم يتأثر بدعوته التى زلزلت الأرض تحت أقدام أعداء الإسلام ، حتى اعتبروا يوم استشهاده بمثابة عيد يغمرهم بالفرح والحبور . . وحتى ليحدثنا أحد السياح المسلمين عن سيئاته فى تلك الليلة التى كان يقضيها فى أحد مصايف سويسرا فإذا هو بالضجة تدوِّى فى أنحاء المنتجع ، يعقبها حفل راقص مرتجل . . ولما راح يستوضح عن المناسبة جاءه الجواب المباغت يقول : الليلة قتل فى مصر أكبر زعيم إسلامى على مستوى العالم . . » .

أجل . . كذلك كان حسن البنا ، ولأنه كان كذلك وجب اغتياله للتخلص من خطره على أعداء الإنسانية . . وبقيت العبرة الكبيرة التى لم يتحدث عنها أحد حتى الساعة ، وهى أن مصرع هذا البرىء كان هو اللغم الذى أطاح بعرش فاروق وعصابته ، التى حسبت أن زواله كفيل ببقائهم إلى الأبد فأتاهم قدر الله من حيث لم يحتسبوا ، وإذا هم خبر بعد أثر . .

ذهبوا فى مواكب العار يحد وهم هتافُ الهوان والازدراء
وعلى مصر من طيوف مآسيـ ـهم بقايا الآلام بعد الوباء

وكما لقى قتلة البنا جزاءهم ـــ فى الدنيا قبل الآخرة ـــ واجه قَتَلَةُ تلاميذه الأبرار مصيرهم الحتم فذابوا فى أتون الأحداث كما يذوب الملح فى لجة الماء ، فلا يبقى وراءه سوى ذكراه . . وهكذا تتابع الأحداث وتتلاحق العِبر . . ولكن أين ذوو البصيرة والبصر ، الذين ينتفعون بما يشاهدون . . ﴿ **وكأيِّ من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾

ويستأنف الشيخ حديثه المؤثر قائلاً :

أما أحب الشيوخ إلىَّ خلال فترة الدراسة فعلى رأسهم مؤسس الجمعية الشرعية الشيخ محمود خطاب السبكى .. ومما شدنى إليه أنه كان يدعو إلى العمل

بكتاب الله والسنة المطهرة ، ويقف فى وجه البدع والخرافات التى كانت ذائعة فى حواضر مصر وقراها خلال تلك الفترة ، وقد لاقى فى سبيل دعوته الكثير من الشدائد والمتاعب والجم الغفير من المعوقات والعقبات رحمه الله وأجزل مثوبته . . كذلك كان نجله الشيخ أمين عميق الأثر فى تكوينى الفكرى أثناء طلب العلم ، إذ كان يدرس لنا مادة الجغرافية فى المرحلة الثانوية الأزهرية ، ثم علوم الحديث فى المرحلة الجامعية . ومن هؤلاء أيضاً العالم الجليل الشيخ على ندا الذى كان يدرسنا علوم اللغة العربية بطريقة محبَّبة إلى النفس شدت إليه انتباه الطلاب ورغَّبتهم فى مادته . وقصارى القول فى شيوخنا هؤلاء أنهم لم يكونوا حَمَلَةَ علم ينقلونه إلى طلبتهم فحسب ، بل كانوا إلى ذلك مثلاً طيباً من الأسوة الصالحة ، يؤدون عملهم فى التدريس بنية التقرب إلى الله وبهذا يجمعون بين التعليم والتربية ، كما يفعل الوالد الصالح فى تزويد بنيه بالرعاية الخالصة والتوجيه النافع السديد ، فتتوثق العلائق بينهم وبين طلبتهم كما تتوثق بين الولد البار ووالده الحكيم .. فرحمهم الله .

ولما سألناه عن أثاره العلمية أجاب بأنها كانت متواضعة ، وأهمها ما كتبه من البيانات والمقالات فى مجلة الفضيلة والمجلة الشرعية ثم فى مجلة الاعتصام ، ومن حيث الكتب فذكر منها « العمل الميسر » و « الدعاء الميسر » و « حكم تارك الصلاة » و « حكم تارك الصيام » و « الحج » و « بر الوالدين » و « المتفرقات » و « الأذان وما يدور حوله » .

ويلاحظ من عنوانات هذه الكتب أن المراد منها هو أن تقدم للمسلم زاده الميسر من العلم الحى المتصل بحياته اليومية ، مما لا بد منه لكل من يهمه أمر نفسه ومعرفة سبيله بين المؤمنين . وفى عنوان الأخير منها عن موضوع الأذان إشارة إلى الجدل القائم فى كل بلاد المسلمين حول الصورة الشرعية لألفاظ الأذان ، الذى تكاثرت أشكاله بينهم ، وتناوله المبتدعون بالزيادة والتفنن حتى زادت كلماته أحياناً على كلمات الأصل ، هذا فضلاً عن الأناشيد الدخيلة التى يترنم بها المتعطلون فى المنائر باسم التسابيح أثناء الليالى ، فلا يزالون بها حتى يختموها بأذان الفجر ، ومثلها أو أطول منها قبيل الأذان

لصلاة الجمع فى الكثير من ديار المسلمين . . فكان لزاماً على أهل العلم أن يردوا الناس إلى الحق ببيان حكم الشريعة فى هذه الشئون وأمثالها ، ودعوتهم إلى الالتزام بالأصول التى لا يجوز الزيادة عليها لأن الله الذى خلقهم لعبادته أنذرهم بأنه لا يقبل منهم عبادةً إلا وفق ما شرع لهم . .

ويتم هذه الإجابة ولده الدكتور محمد أحمد عاشور بقوله : لقد كان من نشاط الوالد التعليمى دروسه التى كان يلقيها فى الجمعية الشرعية أيام الأربعاء من كل أسبوع ، والتى لم يتغيب عنها حتى بلوغه الثمانين إلا لسفر أو لمرض .

ويقول إن لوالده رأياً فى أمور الوعظ ، لا يؤمن بصلاحية الوقوف عند حدود الإثارة العاطفية ، لأنَّ مردوده سريع الزوال ، ولذلك لا يرى مندوحة من التركيز على نقاط موضوعية تترك فاعليتها عميقة فى نفس المستمع . . وهكذا كان اعتماد الشيخ على تزويد مستمعيه بنوع من المعرفة الفقهية مستمدة من الكتاب والسنة ، يعرفون بها مايجب وما يحرم وما يستحب . . وما إلى ذلك من الشئون التى تشد المسلم إلى دينه بصورة مطمئنة وعملية . .

وأسمح أنا لنفسى أن أضيف إلى مآثر هذا الشيخ فى الوعظ والتعليم والتوجيه ما لمست فى ذلك البيت الكريم من فضائل تتمثل فى تلك التربية الإسلامية البارزة الطابع فى كل من عرفته من أبنائه ، فتذكرنا بذلك الماضى السعيد الذى بدأنا نفقده حتى فى بيوت العلماء والدعاة ، الذين يحرقون أنفسهم لإضاءة طريق الآخرين ، على حين غفلة من أبنائهم الذين تجتالهم الشياطين ، حتى لا تكاد تدع وشيجة تربط بينهم وبين أبنائهم إلا من رحم الله وقليل ما هم . .

فليرع الله بلطفه شيخوخة ذلك الفاضل الذى أحببته فى الله ، وأقدمه لقرائى على أنه واحد من بقايا الجيل الذى حفظ الله به للمسلمين صبغتهم المميزة فى نطاق التربية الفاضلة والدأب المبرور فى خدمة الإسلام والدعوة إلى صراط الله القويم .

الأستاذ أمين مدني

ليس فى وسع أحد من المنتسبين إلى العلم والأدب ، ويعيش فى طيبة المباركة ، أن يجهل بيت المدنى ، وقد كان أول عهدى بهذا البيت ما كنت أقرأه بين الحين والآخر فى بعض الصحف من كلام بليغ جميل يحمل اسم عبيد مدنى أو أمين مدنى . . ثم شاء الله أن أقع مع ولدى حسّان ذات يوم على كتاب ضخم يتوِّجه عنوان « العرب فى أحقاب التاريخ » برقم ٢ وقد خصص هذا الجزء للبحث فى « التاريخ العربى ومصادره » ويحمل اسم الأستاذ أمين مدنى . . ولم يكن لدىّ من السعة فى الوقت ما يمكننى من قراءة ستمئة صفحة ، وأنا الذى أنوء بأعباء العمل فى الجامعة الإسلامية من التدريس وغيره ، فاكتفيت إذ ذاك بنظرات سريعة أمر بها على مضامين الكتاب وفهارسه ، فأشعر بجواذب تشدنى إلى التفرغ له ولمتابعة الجزء الأول — على الأقل — من هذاالجهد الذى ينم عنوانه العميق على أبعاده التى لا يصلح لخوضها إلا أولو المواهب الضخمة والصبر المعجز . . ثم اطلعت فى مكتبة الصديق فضيلة الشيخ عطية محمد سالم على كتاب آخر للمؤلف بعنوان « الاستثمار المصرفى وشركات المساهمة فى التشريع الإسلامى » فاستتمت به الصورة التى تمثلتها له قبل أن ألقاه خارج نتاجه الفكرى ، إذ اتضح لى امتداد الأفق الذى يستوعبه ذلك العقل الحى ، الذى لا يقف عند حدود التاريخ حتى يضم إليه الفقه الذى يعالج به واحدة من أدق وأخفى قضايا الساعة فى موضوع النظام الإسلامى .

وكان من حق هذا وذاك أن يشيع فى نفسى النشوة لأنى وجدت فيه حلقة جديدة من تراث البلد الذى أحبه فى الله ، تسجل قدرته على الاستمرار فى العطاء الذى بدأ بإشراقة الإسلام ، ولا يزال يواصل سبيله المبارك فى إثراء الفكر على مختلف المستويات ، وعلى امتداد الحياة بفضل الله ورعايته . ومن هنا كان علىّ أن أقدم إلى قراء كتابى بعض المعلومات المجملة عن هذه الشخصية

التى قدمت للمدينة المنورة ، ولمحبى الثقافة الإسلامية والبلاغة العربية ، من الجهد المشكور فى ميدان العلم والأدب والفكر ما يجعلها حَرِيَّةً بالتقدير والتكريم .

والأستاذ المترجم غنى عن التعريف سواء من حيث شخصيته المعروفة فى نطاق العلم والفكر ، أو من حيث أسرته التى تحتل المكانة المرموقة فى طيبة المباركة . فأبوه عبد الله المدنى كان من أعيان المدينة البارزين ، الذين هم موضع الاحترام . ونستطيع تبين مكانته الاجتماعية من أبيات وجهها إليه الشاعر العمرى بمناسبة إنشائه أكبر فندق فى المدينة سنة ١٣٢٤ هـ وفيها يقول مادحاً ومؤرخاً :

بنيت مجداً كآباء لكم سلفوا ... وزدت إذ شدت قصراً أفوق ما أصف
زادت به طيبة حسناً ، وما نقصت ... لكن يزين الحسان القرط والشَّنَف
فاحللْ بقصرك فى خفض وفى دعة ... أبا عبيد ، ودم للمجد تقتطف
فخاركم قال صدقاً حين أرّخ لى ... قصر عليه يلوح العز والشرف

وفى الأبيات التالية ينوه الشاعر العمرى بمآثر قدمتها أسرة المدنى إلى المدينة الحبيبة :

بنو المدنىّ سادات النوادى ... وأمطار السماح على البلاد
إذا سابقتم للمجد قوماً ... سبقتم للعلا سبق الجياد
فطيبة تشكر الإحسان منكم ... كشكر الروض سقى مسيل وادى
فكم من حادث عنها دفعتم ... بمال أو بجاه أو أيادى
ومحضركم لدى الحكام خير ... يجيء لنا بما فوق المراد

والظاهر أن باعث الشاعر لصياغته هذه القطعة فى آل المدنى خدمة جديدة قدمها بعضهم لطيبة الغالية لدى بعض الحكام ، ففاءت بالخير على سكانها ، وهكذا كان والد المترجم من المسهمين فى الحياة العامة ، وكان مجلسه حافلاً بالأفاضل من رجالات العلم والسياسة ، وكان ذا صلة بالعِلية من أمراء العرب : آل سعود وآل الرشيد وأشراف مكة .

هذا من جهة الوالد وأما من جهة الوالدة فهى من آل البرزنجى ذوى المحل المرموق كذلك فى ميدان العلم والوجاهة ، ومن أقربهم عهداً جده لأمه السيد أحمد البرزنجى مفتى الشافعية فى المدينة المنورة ، وممثلها فى مجلس المبعوثان فى

استانبول . ولكلتا الأسرتين من الجهتين ذكر مشهور فى كتب التراجم الخاصة بالقرنين الحادى عشر والثانى عشر فما بعدهما .

وفى ص ١٢٩ من كتاب « الثقافة الإسلامية وحواضرها » للمترجم يتحدث عن تهجير المدنيين عن بلدهم الحبيب حتى لم يبق منهم سوى مئات الأفراد ، وكان بينهم عمه السيد عبد الجليل مدنى ، الذى صدر الأمر باستبقائه فى المدينة شيخاً للحرم النبوى ، ويذكر من هذه الأسرة أيضاً السيد محمد أفندى مدنى الذى يصفه أحد صكوك المحكمة الشرعية بالمدينة المنورة أنه « شيخ الخطباء ونائب الشرع الشريف »[1] .

ففى هذا الجو ولد مترجمنا عام ١٣٢٩ هـ . وفى كنف عمه السيد عبد الجليل ترعرع هو وأخوه ، إذ كان والدهما توفى وتولت كفالتهما والدتهما ، ورعى نشأتهما ذلك العم الفاضل ، تلك النشأة التى زودتهما بما عرفا به من خلال الخير .

وقد بدأ السيد أمين تعليمه الأدبى فى بعض كُتَّاب المدينة حتى إذا استكمل مقرراته انصرف إلى حلقات المسجد النبوى وشيوخه فدرس عليهم القرآن الكريم والحديث الشريف ، ثم التفسير والفقه واللغة والأصول والفرائض . . وكان من شيوخه الذين أجازوه وأفاد منهم الشيخ محمد الطيب الأنصارى والشيخ أحمد الفيض أبادى ، والشيخ إبراهيم برى . . وكلهم من الطبقة التى اتصلت بها حلقات العلم جيلاً بعد جيل فى المدينة المنورة .

ولما بلغ مرحلة العمل بدأ أنواعاً من النشاط العلمى والاجتماعى ، واتخذ من الصحافة منبراً يرسل منه أفكاره ، وكتب فى ذلك مجموعة من المقالات فسحت له مجال الشهرة بين الكتاب ، مما أهله لأن يكون أول رئيس لتحرير جريدة المدينة فى بداية عهدها فى العام ١٣٥٦ هـ أيام كانت تصدر فى المدينة التى لا تزال تحمل اسمها .

وفى فترات قصيرة تولى بعض الأعمال الحكومية عقيب قيام العهد السعودى الجديد ، مع استمراره فى الكتابة والبحث ، بيد أنه ما لبث أن

---

١ ــ انظر ص ١١ من كتاب « التعليم فى مكة والمدينة » للدكتور محمد عبد الرحمن الشامخ .

استقال كي يتفرغ لميوله التى طبع عليها فى حقول العلم والبحث والتنقيبات التاريخية .

وطبيعى أن باحثاً مؤرخاً كالأستاذ المترجم لا يمكن أن يعيش فى معزل عن أحداث مجتمعه ، فقد شارك فى الكثير من الأنشطة الاجتماعية والفكرية ، وقد قدر له مؤتمر الأدباء السعوديين الذى عقد فى مكة المكرمة عام ١٣٩٤ هـ جهوده فى هذا المضمار فاعتبره واحداً من رواده الأوائل . .

وفى مواسم المحاضرات التى تقيمها رابطة العالم الإسلامى فى مكة المكرمة شارك بأكثر من محاضرة ، ونشرت له محاضرتان فى الكتاب الذى يضم محاضرات العامين ٨٥ و ١٩٨٦ هـ ، وذلك فى عهد أمينها الأول محمد سرور الصبان . رحمه الله .

وفى المؤتمر الذى عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض احتفالاً بمقدم القرن الخامس عشر رأى أن تكون مشاركته فى عمل موضوعى يبرز بعض الجوانب من عظمة النظام الإسلامى ، فكان ذلك فى كتابه « الاستثمار المصرفى وشركات المساهمة فى الإسلام » وقد ألفه استجابة لطلب الهيئة العلمية فى جامعة الإمام ، التى دعته للإسهام فى مؤتمرها بموضوع يكتبه لهذه المناسبة ، وقد طبع فى ما يقارب المئات الثلاث من الصفحات المتوسطة .

على أن أظهر ما يجسد خصائص السيد من الناحية الفكرية والعلمية حلقاته الموسوعية التى يستمدها من أعماق التاريخ العربى فى إطار « العرب فى أحقاب التاريخ » وصدر منها الأجزاء الثلاثة :

١ ــ التاريخ العربى وبدايته ، وقد طبع للمرة الثانية فى أربعمائة وعشرين صفحة .

٢ ــ التاريخ العربى ومصادره ، فى ستمئة واثنتين وأربعين صفحة ويعاد طبعه .

٣ ــ التاريخ العربى وجغرافيته ويقارب المئات الست من الصفحات .

وثمة حلقتان أخريان من هذه الموسوعة التاريخية بعنوان « التاريخ العربى

وشعوبه » ، ثم « التاريخ العربى ودوله » ويقول المؤلف إنهما فى مرحلة التنسيق .

وقد استقبلت الأوساط العلمية هذه الإصدارات بما تستحقه من عميق التقدير . وكتب المرحوم الشيخ محمد محمد المدنى ، عميد كلية الشريعة بالأزهر ، فى ثانى هذه الأجزاء يقول : « ولذلك جاء بحث الأستاذ أمين مدنى هادفاً إلى الحقيقة فى ذاتها ، لا يميل إلى التعصب لأحد على أحد ، فنراه يقف وجهاً لوجه أمام الآراء المتصارعة ، ويناقشها فى أسلوب العالم المنصف الذى لا سلطان لشيء عليه إلا الحجة والمنطق ، فإذا هو كالدليل الماهر يقود متتبعيه إلى الصراط المستقيم ، مانحاً إياهم الطمأنينة إليه بأسلوب فعلى مباشر دون طنطنة ولا ادعاء . . »[1] .

وفى الكتاب نفسه يقول المفكر السعودى الكبير : الأستاذ احمد عبد الغفور العطار : لو كان لى أن أقترح . . لأشرت أن تجعل جامعتنا الفتية بالرياض هذا الكتاب فى جزئه الأول المطبوع الأطروحة الأولى لإجازة الدكتوراه ، تمنحها صاحبه الذى رفع مكانة بلاده وأمته بكتاب يستطيع أن يأخذ مكانه بين أعظم الكتب العلمية ، التى يتوافر لها العمق والابتكار والشمول . . . إن كتاب الأستاذ أمين مدنى جدير بهذا التكريم الجامعى ، الذى يعود على جامعتنا بالتكريم نفسه ، ولها أن تفخر بأن باكورتها فى منح الدرجات العلمية كتاب يتفرد بين نظائره بالامتياز والتفوق والتبريز[2] » .

ويقول الأستاذ أمين : إن هناك حلقات تالية لهذه الثلاث قيد الإعداد . وهى سلسلة من البحوث الهامة تثير جملة من أمهات القضايا العلمية والتاريخية والأدبية مما يتصل بالفكر العربى والأدب العربى ، والثقافة العربية عموماً ، ومدى تفاعلها مع الثقافات الأخرى . .

والأستاذ المترجم ينهج فى أعماله هذه نهجاً مستقلاً يختلف به عن الكثيرين من دُرَّاس التاريخ العربى ، وبخاصة أتباع المستشرقين الذين ينظرون إلى أحداثه

---

١ ـــ الكتاب الثانى ص ١٢ .

٢ ـــ المرجع نفسه ص ١٣ .

ووقائعه من الزاوية العرقية ، محاولين قطعه عن الناحية الروحية ، على حين تمتد رؤية المؤلف إلى أبعد من ذلك ، فيربط أعماقه البعيدة بمرحلته السعيدة بعد البعثة النبوية ، وهكذا يتضح أن مفهومه للعروبة نابع من تصوره الإسلامى دون انفصام بينهما . .

وآخر ما صدر من مؤلفات هذا المفكر الرصين كتابه عن « الثقافة الإسلامية وحواضرها » فى ٣١٠ صفحات ، وبه يرصد الأستاذ مجارى الثقافة العربية المنطلقة من منابع المدينة المنورة ، فيرد إليها جماع الثقافات العربية التى نشأت بعد ذلك فى سائر الحواضر . . ولا جرم أن فى هذا الرصد لوناً من الفكر والتتبع من شأنه أن يسد فراغاً فى المكتبة العربية الحديثة ، ويؤكد طابع المدينة المنورة على مختلف الروافد الثقافية على امتداد العالم الإسلامى .

وللأستاذ أمين غير هذا الإنتاج العلمى أثر آخر يتمثل فى الندوات التى اعتاد أن يعقدها سواء فى داره بالقاهرة أو منزله فى المدينة ، ويغشى هذه الندوات معارفه من رجال الفكر والأدب . والبحث هنا وهناك ، وعن ندوته فى القاهرة ويسميها « ندوة الأصفياء » يقول المرحوم الشيخ محمد محمد المدنى أيضاً : « إنها سوق من أسواق العرب التى كانت تعقد للعلم وللشعر وللخطابة ، ولم تكن ندوة للسمر ولكن لإثارة البحوث العميقة عن كل مشكلة من مشكلات العرب والمسلمين . . » ومثلها « ندوة الإثنين » فى المدينة ، وكانت مَرادَ الفئة المثقفة من مقيمين وزائرين .

هذا إلى وجوه أخرى من النشاط الأدبى فى ميدان الشعر الذى عالج فيه عدداً من الفنون كالقصة المنظومة ، والقصائد الوجدانية والاجتماعية التى نشر بعضها فى الصحف ، وكالثلاثيات التأملية التى يقول انه لم ينشرها بعد .

ولاستكمال الصورة التى تساعد القارىء على استيعاب الملامح الذاتية لفضيلة الأستاذ أجرينا معه الحوار التالى :

م : الأحداث التى عاصرتموها ومدى تأثيرها فى تكوينكم الفكرى .

أ . م : أحداث كثيرة أهمها العهود الثلاثة : التركى العثمانى ، وقد أخلى مكانه للعهد الهاشمى ، ثم العهد السعودى الذى انتهى بالبلاد إلى الاستقرار

الذى تنعم به ولله الحمد . وقد كان لكل من هذه العهود تأثيره العميق فى اتجاهى وتفكيرى ونظرتى إلى الحياة .

ويتوقف جواب الأستاذ عند هذا الحد الذى لا يزال بحاجة إلى الكثير من التفصيل ، وفى ظنى أننا نستطيع أن نرصد ذلك التأثير الذى يشير إليه على الأقل فى خاصية العمق الذى يغمر بحوثه المختلفة ، ثم العناية بدراسة التاريخ العربى ، الذى يشاهد وقائعه المعاصرة على الأرض التى استوعبت ماضى ذلك التاريخ . .

م : وأكثر الرجال تأثيراً فى نفسكم من الماضين والمعاصرين . . .

أ . م : أنا لا يؤَثِّر فىَّ الرجل ، وإنما يؤَثِّر فىَّ الرأى والفكر الأصيل دون النظر إلى مصدره . . ولنا على هذه الإجابة البرقية تساؤل صغير هو : كيف يستطاع الفصل بين الرجل ورأيه وتفكيره من حيث أثره فى الآخرين ؟ ! ونحن دائماً نطرح مثل هذا السؤال من زاوية الشخصية التى لا معنى لها خارج حدود الإطار النفسى . . وكذلك نحن حين نستبطن ذواتنا فى تأمل عميق لا بد عاثرون بأحداث وأشخاص تركوا بصماتهم فى أعماق وجودنا وتصوراتنا . .

وقد علمنا أن للأستاذ شيوخاً من علماء المسجد النبوى تَلَقّى على أيديهم الكثير الصالح من مبادىء العلوم الإسلامية ، ومعلوم أن لهؤلاء الشيوخ آثاراً أخرى غير التلقين والتعليم فى نفوس طلابهم ورواد حلقاتهم ، فهل يمكن أن يقف أثرهم فى نفسه عند حدود القال والقيل دون الفاعلية التربوية التى امتاز بها الحَرَمان المباركان على سائر المؤسسات التعليمية العالمية ! . . ولو كانت مهمة المعلم فى الإسلام محدودة فى إطار التلقين والتعليم لتعذر علينا أن نفهم معنى قوله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ .

م : التاريخ هو المجال المنظور لعمل القدوة الآلهية فى مسيرة الحياة ، وهو منبع العِبر لأولى الألباب . وفى ثقافتكم التاريخية ما يجعل لرؤيتكم وزنها فى تقييم الوقائع وعواقبها . . فما رأيكم فى أحوال المسلمين

والعرب من خلال مرحلتهم الراهنة ، التى توشك أن تطيش فيها الأحلام ؟ .

أ . م : أحوال المسلمين اليوم أحسن بكثير من أحوالهم فى العصور الوسطى ، فالوعى الإسلامى برز واضحاً ، فعلى المسلمين شعوباً ودولاً أن يستغلوا الدعوة إلى جامعة إسلامية . .

وهنا أيضاً نجد بعض الغموض الذى يستدعى المراجعة . . فالاصطلاح الشائع عن العصور الوسطى أنها تمثل عهود التخبط فى حياة الشعوب الغربية ، على حين تمثل مرحلة الازدهار الحضارى فى حياة الشعوب الإسلامية ، وفى كلا الجانبين يظل تفضيل واقع المسلمين المعاصر على حالهم فى تلك العهود موضِعَ نظر . .

وشتان بين ماضٍ احتفظت فيه الشخصية الإسلامية بسلامتها وتماسكها على مختلف الظروف والأحداث ، وحاضرٍ تخلخلت فيه هذه الشخصية بما تسلل إليها من سموم الغرب ، حتى ليتنكر الولد لوالده ، وتتمزق الشعوب المسلمة تحت قيادات محاربة للإسلام ، انسياقاً مع أعداء الإسلام ، وتنفيذاً لخطط لا يد لها فى رسمها ولا علم لها بأهدافها .

م : يلاحظ فى موسوعتكم التاريخية أن ثمة تركيزاً كبيراً على الطابع العربى بوجه خاص ، أفليس لكم مثل هذا الاهتمام بتاريخ الشعوب الإسلامية الأخرى ! ! .

أ . م : إن التاريخ العربى يتألف من قسمين جاهلى وإسلامى ، ولكل منهما صلاته الوثيقة بالعقيدة . فتاريخ ماقبل الإسلام مرتبط بملة إبراهيم عليه السلام ، وتاريخ ما بعد الإسلام مرتبط كل الارتباط بشريعة محمد صلى الله وسلم عليه وآله ، فالمهتم بتاريخ العرب لا بد له من أن يهتم بتاريخ الإسلام . .

وفى هذه الإجابة ، على إيجازها ، توكيد لما ذهبنا إليه من رؤية فضيلته إلى وحدة التاريخ العربى قديمه وحديثه ، ومن حيث ارتباطه بالقيم النبوية الأصيلة ، على الرغم من كل النكسات التى اعترته فى

رحلته ما قبل الإسلام . . وقد زاد ذلك وضوحاً تركيزه فى الإجابة السابقة على الحل الإسلامى ، الذى لا مندوحة عنه لصيانة الوعى الجديد من الزيغ عن السبيل القويم المتمثل فى « جامعة إسلامية » .

م : كان لمكة والمدينة ، كرمهماالله ، ولا يزال أثرهما البالغ فى تثبيت الصبغة الإسلامية على شعوب الإسلام وتقوية أواصر الوحدة بينهما ، وذلك من خلال مواسم الحج والزيارة ، فكيف تنظرون إلى هذا الأثر من خلال المستقبل . . أيستمر . . أم يختلف حجمه بتأثير التطور العالمى ؟ . .

أ . م : إن أساس هذا التثبيت هو العقيدة ، فكم من داعية إسلامى لم يكتب له الحج ولا الزيارة . . . وكثيرون منهم لم تتح لهم الرحلة المباركة إلى الحرمين إلا بعد أن أبلوا فى ميدان الدعوة وتثبيت الصبغة الإسلامية أحسن البلاء . .

م : التغيير العمرانى الذى طرأ على هذه المدينة العزيزة من شأنه أن يؤثر على الكثير من معالمها التاريخية . . أليس من الخير وضع كتاب يحدد هذه المعالم والتطور العارض لها . . وأى الجهات ترشحونها لذلك العمل ؟ . . .

أ . م : يسرنى أن أخبركم أننى أغالب المرض لتبييض كتابى « صور من تاريخ المدينة فى ستين عاماً » وهو مؤلف يوضح أهم الصور فى العهدين العثمانى والهاشمى ، ويشتمل جزؤه الثانى على وثائق مصورة ، والثالث عبارة عن أطلس للمدينة من عهد النبىّ ، صلوات الله وسلامه عليه ، حتى اليوم ، ولعل الله أن يوفقنى إلى إنجازه وطبعه قريباً إن شاء الله .

م : الصحوة الإسلامية الجديدة تبرز فى كل موطن يعيش فيه المسلمون حتى فى أوروبة وأمريكة . فما رأيكم فيها ؟ . وما السبيل لضبطها فى الطريق القويم ؟ . .

أ . م : هذه الصحوة العامة هى نتيجة الضياع الروحى الذى يعيشه الغرب ، فليت المسلمين يحسنون استغلال ذلك الضياع . . إنهم لو فعلوا ذلك

لاقتلعوا النفوذ الصهيونى فى أوروبة وأمريكة جميعاً . .

وبعد فقد كان المأمول أن نخصل من فضيلة هذا المفكر الإسلامى الكبير على إجابات أكثر توسعاً ، ففى خبراته العديدة ، وعمله الغزير ما يُطمع بذلك ، ولكن المؤسف أنه يتلقى أسئلتنا وهو فى الوضع الصحى الذى لا يمكنه من الذهاب إلى أبعد مما ذهب إليه .

فالله نسأل أن يمده بالعافية ليستأنف نشاطه فى خدمة الإسلام والعرب والعربية على الوجه الذى يُتَطَلع إليه من باحث عميق مثله .

نماذج من أفكاره وأدبه

من كتابه « صور من تاريخ المدينة . . » يقول فى تحديد بعض المعالم :

ومن ضواحى المدينة « حَرَّةُ قريظة » التى نسبها عامة المؤرخين إلى رجل اسمه قريظة . . والذى يبدو لى أن القبيلة اليهودية هى التى سميت باسم الحرة التى تنبت القرظ ــ الذى تدبغ به الأدلية ــ فكثير من الأماكن سمى باسم الشجر أو الآبار أو العيون ، ومنها « العيون » التى صارت علماً على جانب من شمال المدينة . . ومنها « قباء » وهى فى الأصل بئر جاهلية .

والذين كتبوا عن اليهود من أسفارهم لم يذكروا من القبائل التى آوتها المدينة واحدة باسم قريظة ، أو النضير أو قُيْنُقاع . . واليهود عندما قدموا المدينة نزلوا فى « يثرب » مما يلى زغابة ، ثم انتقلوا إلى حرارها القِبلية والشرقية والغربية ، فلم يكن بينهم قبيلة تسمى قريظة .

ومن حديثه عن المدينة فى العهد التركى يقول تحت عنوان « ذكريات حائر » :

لقد خلت المدينة من أهلها فلم يبق من ناسها غير الذين اضطرت حكومة فخرى باشا التركية إلى استبقائهم لخدمة المسجد النبوى ، ولرعاية مزارع المدينة التى يحتاج جنوده لنتاجها ، ولا يزيد هؤلاء على الألف من مجموع سكانها المئتين من الألوف . .

فكأن لم يكن بين المناخة إلى باب السلام جماهير تملأ الأسواق والميادين ، فلا يسمع فيها حسيس غير زفير القطار ، الذى مُدَّتْ قضبانه إلى باب المسجد النبوى المعروف بباب السلام ، وإلى شمال المدينة فى أقصى جبل أحد ، لينقل أنقاض البيوت التى هدمها فخرى باشا توسعة لما حول المسجد ، وتنفيذاً لشارع واسع يمتد من المناخة إلى المسجد عرف أخيراً بشارع العينية نسبة لبستان كان هناك بهذا الاسم ، ولينقل تمور العيون إلى مستودعات الجيش التركى داخل المدينة .

وهكذا أصبحت المدينة خالية من سكانها يلف نهارها صمت الصحارى ، وباتت دورها الآهلة بالأمس أشبه بالكثبان ، فلا أنيس ولا سامر ، وأمسى ليلها مسرح أشباح تتراقص فى ظلام الليل الدامس ، فتتراءىٰ للحائر كأنها رؤوس الشياطين ! . .

ومن شعره الذى تغلب عليه طبيعة الكاتب ، يقول من قصيدة طويلة ألقاها بين يدى المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، وكان فى الوفود التى تقاطرت لزيارته من مختلف أنحاء المملكة عام ١٣٦٠ هـ :

قم حى فى العرب الأباة الصيدا ... ملكاً أعاد به الإله سعودا
ملكاً تقفَّى الراشدين مجاهدا ... لما رأى فى السابقين جمودا
فى أمة نهضت وكان شعارها ... التوحيد والتشييد والتجويدا

إلى أن يقول :

يا صاحب التاج الذى زينته ... هذا النهى ألقى عليك برودا

وفى رثائه لشقيقه الأديب المفكر السيد عبيد مدنى يقول :

قدرٌ طوى صنوى فصرت وحيدا ... وغدا الشقيق رؤى تلوح بعيدا
نزل القضاء به ففرق شملنا ... يا ليته حى وكنت فقيدا

* * *

الشيخ حافظ على أحمد سلامة

هذا الرجل من الشخصيات التى أحببتها فى الله تعالى قبل أن يقع بصرى عليه ، ولعل أول مرة تلقى سمعى اسمه إذ كنت فى زيارتى الأولى للقاهرة ، وقد مرت بنا السيارة بإزاء مسجد كبير فى حالة البناء ، فقال مضيفى : هذا مسجد النور ... وهو أحد العشرات من المساجد التى يقوم بإنشائها الشيخ حافظ سلامة . . وكان خبراً ساراً جعل اسم الرجل مقترناً فى ذهنى بهذه المشروعات المفضلة ، فما إن يذكر مرة إلا تخيلت ذلك المسجد والأخريات من أمثاله يتتابع ظهورها فى مختلف أنحاء القاهرة وغيرها من المدن المصرية . وحسبى من الرجل هذه الصورة حتى أحبه لوجه الله ، وأتطلع إلى لقائه فى أول فرصة تقدر لى ، وقد زاد من اهتمامى بأخباره ما لاحظته من تقدير عارفيه له ، وثقتهم الكبيرة بإخلاصه ونشاطه الدؤوب فى خدمة الإسلام والمسلمين ، وبخاصة ما يروونه عن مواقفه العجيبة فى مدينة السويس أثناء اقتحام شارون اليهودى لثغرة الدفرسوار فى معارك رمضان .

وشاء الله أن ألقاه أثناء زيارتى الثانية للقاهرة ، وذلك عقب صلاة الجمعة فى مسجد العزيز بالله من مصر الجديدة ، فإذا أنا تجاه إنسان يذكرنى بمنظر أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، بسيط المظهر بادى التواضع أقرب إلى القصر وبسرعة تم التعارف بيننا ، وصدق الخُبْرُ الخَبَرَ، فاتصلت تصورات الأمس بشهادة اليوم ، فلم أجد فارقاً كبيراً بين صورتيه ، إلا شيئاً واحداً لا بد منه ، وهو ما نجده عادة من الفروق بين شخصية الرجل من خلال أعماله الكبيرة ، وبين هيكله الذى نشاهده من زاوية الواقع المنظور .

وكان الوقت إذ ذاك أقصر من أن يتسع لحديث واف فافترقنا على أن نشخص لزيارته قريباً فى مكان إقامته بالسويس ، ثم حالت الظروف دون تحقيق ذلك

اللقاء ، فاكتفيت بالورقة أكتب عليها بعض الأسئلة ، ثم أسلمتها إلى بعض الإخوة الأفاضل من مساعديه فى الإشراف على استكمال مسجد النور ، وها نذا أسطر ترجمة الشيخ مستمداً خطوطها الرئيسة من أجوبته المشكورة ومن رواية بعض الثقاة من عارفيه .

ولد الشيخ حافظ سلامة فى مدينة السويس من أسرة معروفة بالصلاح ، تمتد جذورها العربية الأصيلة إلى مكة المكرمة ، وترجع بنسبها إلى قبيلة الحويطات ، ولم يذكر لنا تاريخ ولادته ، ولكن ظاهره يرجح أنه لا يزال فى الستينات من عمره المبارك .

وفى السويس تلقى دراسته التى لم تتجاوز الثانوية ، ولكن النشأةالدينية ساعدت على توجيهه نحو القراءة الحرة ، وبخاصة منها مايتصل بالسيرة النبوية وتاريخ الصدر الأول ، فهو يقول فى الإجابة على سؤالنا المتعلق بالرجال الذين كان لهم الأثر الأكبر فى تكوينه الروحى والفكرى : إن على رأسهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله ، ثم أبا بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب .. ويختم هذه السلسلة العالية بالأستاذ حسين محمد يوسف ، رئيس جمعية شباب محمد ﷺ ثم الإمام الشهيد حسن البنا ، ويليه الإمام أبو الأعلى المودودى وغيرهم من أساطين الدعوة الإسلامية .

فمن هنا نتعرف مصادر بواعثه نحو العمل الإسلامى ، وجدير بمن كانت هذه بيئته الروحية والفكرية أن يلتزم فى تصرفاته الخط الإسلامى الواضح الصحيح ، فليس إقباله على إقامة المساجد ، ونشر موجباتها فى أوساط المسلمين ، إلا نتيجة طبيعية لهذه المؤثرات الأساسية التى تؤهل العاملين فى رحابها لمرضاة الله ، الذى يشهد لهم بقوله الحكيم ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ .

ولقد كان لسلوك هذا الرجل أثره الطيب فى قلوب الناس ،فهو يجد كل عون منهم على مشروعاته التى تنوء بها العصبة أولو القوة ، وتتطلب من المال ما لاسبيل إليه إلا عن طريق التبرع الجماعى .

وبدافع من نشأته الدينية كان اهتمامه بالعمل على نشر الدعوة ،

واستقطاب الشباب حولها ، وتربيتهم على التضحية من أجلها ، وتوجيه طاقاتهم إلى الجهاد فى سبيل الله . . وقد استجابوا لتوجيهاته فكانوا له خير الأعوان على طاعة الله وجهاد أعدائه ، من الإنجليز ثم غزاة اليهود .

ويحدثنا الشيخ عن نشاطه فى إعمار بيوت الله ، فيقول إنه بدأ ذلك بالتعاون مع العاملين على إنشاء المساجد ، ثم واصل عمله فى هذه السبيل دون كلل ، فأنشأ مسجد الشهداء و المجمَّع الإسلامى الملحق به ، وهو مدرسة وفصول تقوية للطلاب وأخرى لتقوية الطالبات ، وقاعة خاصة للمحاضرات ومكتبة تتبعها للمطالعة ، ومصلى خاص بالنساء ، ومركز لجمعية شباب محمد ﷺ وساحة للنشاط الرياضى .

وهنا يحسن أن نعير هذا المشروع نظرة متأملة فنرى ما وراءه من رؤية بعيدة ، ترد المسجد إلى موضعه الذى عرف له فى تاريخ الإسلام ، حتى كان وحدة كاملة تشمل مختلف جوانب الخدمة الاجتماعية ، التى من شأنها تكوين الأجيال المؤهلة للنهوض بمسئوليتها نحو صياغة الحياة المتميزة . . فلم تشغل الصلاة من هذه الوحدة سوى جزء محدود ، لأن مفهوم العبادة يستحوذ على سائر أجزائها

ويتابع الشيخ فيحدثنا عن بعض وجوه نشاطه الأخرى فى هذا الجانب ، فيذكر مسجد أبى بكر الصديق ، ثم مسجد فاطمة الزهراء فى السويس ثم ما يسميه القلعة الإسلامية الكبرى المتمثلة فى مسجد النور والمركز الإسلامى الضخم الملحق به ، ويستوعب من المساحة خمسة آلاف متر مربع ، وتقدر تكاليفه بعشرة ملايين من الجنيهات ، يغطيها المحسنون من مسلمى مصر وغيرها من الأقطار العربية والإسلامية .

ولقد قدرت لنا زيارة هذا المشروع أكثر من مرة ، ووجدنا من سعته وفخامة تصميماته ما يبعث على الإعجاب ، مع أنه لا يزال فى مرحلته الوسطى ، وكان المتوقع أن يستكمل بنيانه ومتمماته منذ سنين ، ولكن العقبات التى وضعت فى طريقه أخرت ذلك إلى اليوم . . . ومعلوم أن للطائفية المتعصبة يدها الطولى فى عرقلة هذا المشروع الجبار ، والزائر الذى يرى وضع هذا المركز الإسلامى المتكامل ، وينظر إلى المؤسسة الطائفية

الكبرى المواجهة له لا يفوته أن يقدر الأسباب التى حالت دون إنجازه حتى الساعة . على أن عناية الله قد جمّدت كل تحرك يريد بهذا المركز شراً ، فأُفرج عنه ، وهو اليوم ماض فى طريقه بعونه تعالى إلى النهاية المرسومة .

ويتابع الشيخ حافظ قائلاً : لقد أكرمنا الله بإعادة البناء لقرابة العشرين من المساجد التى دمرها العدوان الإسرائيلى فى السويس ، وترميم المساجد الأخرى التى تعرضت لقذائفه من المدينة الباسلة ، وقد شرعنا فى إنشاء قلعة جديدة من طراز مسجد النور فى منطقة شبرا المظلات على مساحة تقارب ستة آلاف متر ، ومن أقسامه مركز إسلامى تتوافر فيه كل الخدمات التى ينتفع بها مسلمو المنطقة .

هذا إلى عدد من المساجد أحدها فى مدينة نصر بالقاهرة وأكثرها فى محافظات الصعيد .

ومعلوم أن سمعة الشيخ حافظ سلامه خارج مصر إنما قامت بالدرجة الأولى على جهاده وإخوانه فى حرب الـ ١٩٧٣ وعن مواقفهم أيامئذ يقول :

لقد خدعناأول الأمر بالبيانات المضللة التى كانت تذاع عن قوات العدو الإسرائيلى وتحركاته ، حتى فوجئنا بوصول العدو إلى مشارف مدينة السويس ، فكان علينا أن نتخذ الموقف الواجب بإزاء ذلك الخطر الداهم ، وهكذا دعوت إخوانى الذين تربوا فى جمعية الهداية الإسلامية ومسجد الشهداء مدنيين وعسكريين ، ونظمت صفوفهم خلال لحظات ، وزودناهم بالأسلحة والذخائر التى انهمرت علينا دون أن نعلم كيف ساقها الله إلىَ مسجد الشهداء من حيث لا ننتظر فى تلك الساعة العصيبة . . حتى إذا صار العدو إلى أطراف البلد ووجه بسيل من النيران لم يتوقعه ، وبمقاومة تعترض قواته لأول مرة بشراسة نادرة ، من رجال باعوا أرواحهم لله ، حتى فقد جنود العدو أعصابهم ، وتركوا معداتهم الثقيلة ، أمام هؤلاء الأبطال الذين ثبتهم الله ، وقذف الرعب فى قلوب أعدائهم فانطلقوا منهزمين ، تاركين قتلاهم فى شوارع السويس وأزقتها تنهشهم الكلاب الضالة التى حرمت الغذاء طويلا .

وهنا بدا للعدو أن يقوم بمحاولةمن نوع آخر لاحتلال المدينة ، فوجهوا

إنذاراً نهائياً إلى محافظ البلد والمسئولين معه ، من مدير الأمن والقائد العسكرى ، بوجوب تسليم المدينة وإلا عمدوا إلى تدميرها .

ولم يجد هؤلاء المسئولون أمامهم من سبيل سوى الإذعان لمطالب الأعداء « حماية للمدينة من الدمار ، وحفاظاً على أرواح سكانها العزل » ، وقد أعدوا الراية البيضاء لإعلام العدو بخضوعهم .

وجاء القائد العسكرى ليخبرنى بما تم عليه الاتفاق ، وراح يدافع عنه بمختلف الحجج لإقناعى به . ولكن عناية الله كانت فوق محاولته ، فقد رفضت الاتفاق فى تصميم قاطع ، وقلت للقائد . أنت والمحافظ ومدير الأمن كل منكم مسئول عن نفسه فقط ، أما موضوع المدينة فقد أصبح من مسئوليتنا ، وعلينا وحدنا يقع واجب الدفاع عنها .

وكان العدو قد بدأ يذيع على السكان أن المسئولين عن البلد قد وافقوا على التسليم ، فعلى الأهلين أن يتجهوا إلى المركز الرياضى لتقوم القوات الإسرائيلية بترحيلهم إلى القاهرة .

وإنما يريد العدو بذلك تدمير الأعصاب ونشر الرعب واليأس ، فلم ألبث إلا ريثما أخذت مكبر الصوت الخاص بمسجد الشهداء ، وانطلقت أعلن للناس بأننا رفضنا الإنذار الإسرائيلى ، وأننا مصممون على استمرار الجهاد إلى آخر قطرة من دمائنا . . وجعلت أهيب بشباب الإسلام أن يتقدموا على بركة الله وملؤهم اليقين بأن الله معهم ما داموا فى طاعته ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره سيجعل الله بعد عسر يسرا** . . . ﴾

ومن ثم وجهت كلامى إلى العدو قائلاً : إن أرض السويس الطاهرة متلهفة إلى دمائكم القذرة ، وإذا حاولتم دخولها مرة ثانية فمرحباً بذلك اللقاء المنتظر ، ونحن على أتم استعداد للقضاء عليكم بمشيئة الله .

واستجاب الله لضراعتنا ، فآتانا من التوفيق ما لا يتصور بالنسبة إلى ضعف عتادنا بإزاء استعدادات العدو ، وخلال ثمان وأربعين ساعة دمر الله بأيدينا اثنتين وثلاثين دبابة ومصفحة ، غير الآليات التى أصبناها بمادون التدمير ، وقد تناثرت جثث قتلاهم حتى عجزوا عن إخلائها ، وقذف الله فى

قلوبهم الرعب ، فلم تغن عنهم إمكاناتهم الكبيرة ، من طائرات ودبابات وصواريخ وما إلى ذلك من أحدث الأجهزة التى توصل إليها العلم . وصدق الله العظيم القائل فى كتابه الحكيم ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . .** ﴾ .

وقد سبق أن قرأت فى « أخبار العالم الإسلامى » طائفة من أنباء الكرامات التى أمد الله بها أولئك المجاهدين ، فأردت أن أستوثق من أمرها فسألت الشيخ أن يطرفنا ببعض الحديث عنها تقديراً لنعمة الله الذى وعد جنوده بالنصر ، إذا ما قطعوا رجاءهم من خلقه ، ولجئوا بضعفهم إلى قوته وحده .

يقول فضيلته : حقاً لقد واجهتنا هناك أحداث غريبة لا نجد لها تفسيراً إلا على ضوء الإيمان . ومن ذلك أن العدو عندما عجز عن اقتحام البلد عمد إلى تخريب المرافق الضرورية ، فقطع المياه عن المدينة ليدفع أهلها إلى التسليم ، وكان لذلك وقع رهيب إذ لم يكن ثمة مطمع بالحصول على أى ماء يصلح للشرب وكل ما حول المدينة من الماء فهو الملح ولا سبيل إلى الرى إلا بمعجزة من وراء التدبير البشرى . فأقبلنا على الله ندعوه أن يدركنا برحمته ، ثم عمدنا إلى اتخاذ الأسباب الشرعية ، فأحدثنا حفرة بجوار مسجد الشهداء ، وإذا هى تدفق بأعذب الماء ، وقدمنا إلى بئر أخرى قد هجرها الناس لسواد مائها وملوحته ، فقرأ بعضنا عليه فاتحة الكتاب ، وألقينا فيها قليلاً من السكر ، فإذا بمائها الكريه يستحيل عذباً زلالاً بفضل الله وبرحمته . وقد كفى الله عباده المجاهدين حاجتهم من هذه المياه طوال مدة الحصار الذى استمر مئة يوم ، فلما أن عادت مياه النيل إلى عطائها بعد انفضاض العدو رجعت مياه البئرين إلى أسوأ ما عرفه الناس من الملوحة والسواد !.

وإنى لأتساءل اليوم كما يتساءل إخوانى كلهم : لولا أن من الله علينا بهذه الرحمة الخارقة فأى مصير كان سيلاقيه المئة والخمسة عشر ألفاً من سكان هذه المدينة ! ! فالحمد لله ثم الحمد لله . .

ويقف الشيخ حافظ عند هذا الموقف وحده من جملة الأحداث التى يتناقلها الناس عن أيام السويس وأرانى هنا مدفوعاً إلى ذكر موقف آخر لا يقل عن ذلك من حيث الأهمية والدلالة ، وقد سمعت قصته من الصديق الأزهرى

الثقة الشيخ محمود عبد الوهاب فايد ـــ المحاضر بالجامعة الإسلامية .

كنا مجموعة من المشايخ فى زيارة لمدينة السويس فى أعقاب حرب رمضان ١٩٧٣ وهناك اجتمعنا ببعض المجاهدين ، وطلبنا إليهم أن يقصوا علينا بعض أحداث الحصار العصيب ، فأشاروا إلى فتى منهم قائلين : سلوا هذا الأخ عن قصته مع اليهود ففيها ما يسركم .

وبكثير من التردد شرع الفتى يحدثنا بقصته :

« ذات ليلة حالكة السواد كنا زمرة من المجاهدين فى أحد الكمائن نترقب تحركات العدو ، وشعرت بالحاجة للخروج إلى الخلاء ، فما إن انتهيت إلى المكان الذى أريد حتى أحسست جلبة قريبة ، فتوقفت أصيخ بسمعى لأتبين المصدر أحيوان أم بشر .

وسرعان ما اتضح لى أن ثمة مجموعة من الرجال يتحركون فى انتظام ، فأدركت أنها دورية يهودية ، ولم يكن معى سلاح ، فوجدت خير ما أصنعه هو أن أطلق صرخة الإنذار ، فيسمعها إخوانى فيأخذوا حذرهم ، وصحت بقوة : كلمةَ السر . . ولم أكد أفرغ من ندائى حتى رأيت الأيدى تمتد إلى أعلى وقد ألقت بما معها من الأسلحة إلى الأرض . . ولم أتريث فأمرتهم بالسير أمامى فلم يتلكئوا ، ومضيت وراءهم أوجههم حتى انتهيت بهم إلى موضع الرفاق ، الذين كانوا قد اتخذواوضع الاستعداد . . وهكذا وفقنا الله لأسر عشرة أفراد من العدو دون أن نضطر إلى إطلاق رصاصة واحدة . » .

وقلنا لفضيلة الشيخ . لقد كان لكم نصيب من المحنة التى نزلت بأهل الدعوة ، فلو تفضلتم ببعض التفصيل فى هذا الموضوع . . .

وأجاب الشيخ : لقد تم اعتقالى مع العديد من رجال الدعوة وشبابها قبل مصرع السادات ، وكان الغرض من ذلك هو تعطيل النشاط الإسلامى وإخفات صوت المعارضة لتعاونه مع أعداء الإسلام فى مصر العربية المسلمة ، وقد بلغ من حقد السادات على أن وصفنى بالجنون ، لأننى جنَّنته بنشاطى فى مقاومة خططه الشيطانية علي مستوى القطر ، من أقصى أسوان إلى أقصى السويس . . . ولم يكن السجن بغريب علىّ ولا جديد ، فقد ألفته منذ

العام ١٩٤٤ ، وكما شملنا الله برعايته فى ماسبق من الاعتقال ، كذلك أدركتنا رحمة الله فى معتقل السادات فوجد كل منا عزاءه بأخيه ، وألفينا فى كتاب الله خير هاد وأسعد مؤنس ، يهون علينا ما أعده أعداء الدعوة من ألوان النكال ، والحرمان من أبسط الضروريات ، التى يتمتع بها أى كائن من الأحياء . .

وكان لزاماً علينا أن نسأل الشيخ الحافظ ، وهو القائم بإنشاء المساجد والدعوة لإعمارها ، عن رأيه بشأن هذه المؤسسات الإسلامية فى ظل الضغوط الموجهة إلى روادها . .

فجاء جوابه صريحاً شافياً كما يتوقع من خبير مثله .

لقد انفضَّ كثير مَن الضعفاء عن المساجد نتيجة الحملات التى تشنها أجهزة الأمن على روادها ، وبخاصة فى الفترة الأخيرة ، وقد ألقى هذا الوضع تبعات ثقيلة على كواهل المخلصين من دعاة الإسلام تقتضيهم مضاعفة الجهود لتثبيت المسلمين ، والصبر على محاولات أعداء الدين ، حتى يرفع الله المحنة ، وهو لا محالة رافعها بفضله ومنه ، تحقيقاً لوعده الذى لا يتخلف عن موعده .

لقد أدرك أعداء الإسلام من مختلف الاتجاهات أهمية المسجد فى حياة المسلمين ، وأثره فى جمع الأمة على الحق ، حتى يستحيل أفرادها ، كما ورد فى الأثر ، رهباناً بالليل فرساناً بالنهار ، فتضافروا فيما بينهم على تخريب المسيرة المسجدية وإقصاء المسلمين عن هداتها وهدايتها ، فعلى المؤمنين العاملين أن يقابلوا ذلك بالتعاون على البر والتقوى ، ومواصلة الطريق فى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والدأب الذى لا يعرف الخمود . . حتى يقيض الله لهذا الدين من يقيم أركانه وينفذ حدوده ويرفع رايته ، ولن يكون ذلك بالبعيد حين يتوافر للإسلام علماؤه الصالحون وحكامه المصلحون ، تحقيقاً لقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله : « صنفان من أمتى إذا صلحا صلحت الأمة ، وإذا فسدا فسدت الأمة : السلطان والعلماء »(١) .

وما النصر إلا من عند الله . .

* * *

---

١ ــ رواه أبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس مرفوعاً . « جامع بيان العلم وفضله » ١ / ١٨٤ ط العلمية .

السيدة زينب الغزالي الجبيلي

قبل أن تكرمنا بزيارتها فى المدينة المنورة عام ١٣٩٩ هـ كنت على صلة وثيقة بأخبارها ، إذ كانت مع أخواتها وإخوتها من المعذبين فى سجون الطواغيت ، مطاف أرواح المؤمنين فى كل مكان من عالم الإسلام ، يتتبعون أنباءهم ويستمعون أنينهم ، الذى تموج به أقبية الظالمين ، ولا يملكون لهم من عون سوى الضراعات الحارة يرفعونها إلى الله بإنهاء المحنة ، التى لم يسبق لها مثيل حتى فى العهد الأول للبعثة ، يوم تكالب طغاة المشركين على لحوم الأبرياء يمزقونها بالسياط ويسحلونها على رمال مكة الحزينة ورمضائها اللاهبة . فهم ينظرون بأعين قلوبهم إلى هؤلاء الإخوة ، على الصورة نفسها التى كان ينظر بها صلاح الدين الأيوبى ، وجنوده المجاهدون ، إلى صليبيى عكا ، وهم يذبحون الآلاف من مسلميها دون أن يجدوا منفذاً للوصول إليهم من وراء الأسوار ، ولا يملكون لهم سوى الدعاء والبكاء .

وكانت الأخت الفاضلة فى جولة دعوية لإلقاء الأحاديث الواعظة ، فى أوساط المدرسات والطالبات والجمعيات النسوية فى هذه المملكة الإسلامية . وانتهزنا تلك المناسبة فدعوناها مع بعض أهلها لإفطار مع الأسرة فى أحد بساتين المدينة ، وآسفنا أن مخلفات التعذيب فى سجن حمزة البسيونى على ساقيها لم تدع لها قدرة على الجلوس الطبيعى ، فتناولت الطعام وهى شبه متمددة على جانبها . وكان مشهداً جدد ذكريات الآلام التى توارت إلى حين ، عقب الإفراج عنها وعن بقية الشهداء الأحياء الذين تخلفوا عن مواكب البنّا وسيد قطب ، والصفوة السابقين إلى الملأ الأعلى .

وكانت فرصة أخرى كريمة تلك التى لقينا خلالها هذه الأخت المجاهدة أثناء زيارتنا الأخيرة للقاهرة ــ محرم ١٤٠٤ــ وأبت إلا أن تكرمنا بدعوة حضرها العديد من كرام الشباب والشيوخ العاملين فى حقل الدعوة ، فزادتنا

هذه المناسبة علماً بمكانة هذه الفاضلة فى نفوس أهل الحق ، ومدى تقديرهم لجهودها التى لا تتوقف فى سبيل الإسلام ، الذى وقفت حياتها كلها على خدمته وترسيخ مبادئه وتعميق التوعية بمعانيه .

والواقع الذى لا يمارى فيه أحد من دعاة هذا الدين فى مصر وسواها هو إجماعهم على أن أختهم هذه قد بلغت من الفضل والتسامى المنزلة التى تلحقها بكبار السابقين من علية المجاهدين فى سبيل الله ، وقد شاء الله أن يمد فى أجلها لتكون أحد شهود المأساة التى فرضها الظلم والزيغ والطغيان على حَمَلة النور ، الذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فسادا ، وإنما يريدون فقط إرشاد الضالين إلى الطريق القويم لاستعادة السلام والعزة والقوة المميزات لأهل الإسلام . . . .

وكانت مناسبة صالحة لاستطلاع آراء هذه الحكيمة المجربة فى أهم القضايا التى تشغل بال مفكرى الإسلام . وقدمنا إليها الأسئلة التى أعددناها لهذه المناسبة ، وها هى ذى مع أجوبتها المفصلة .

م : من المقدمات التقليدية أن تتكرم الأخت الفاضلة بتعريف نفسها للقارىء اسماً وأسرة ونشأة وبيئة ودراسة .

السيدة : اسمى زينب الغزالى الجبيلى ولدت فى الثانى من يناير عام ١٩١٧ فى « ميت يعيش » فى مركز « ميت غمر » بمديرية الدقهلية من أعمال مصر ، ومن أسرة يميزها الطابع الإسلامى . فكان والدى من خريجى الأزهر الذين حصلوا على شهادته العالية التى تعادل الدكتوراه ، إلا أنه لم يعمل فى التدريس بل انصرف إلى التجارة ، إذ كان أبوه من كبار المزارعين ومن كبار الأعيان فى مديرية الدقهلية . . . وقد درجت فى هذا البيت المحافظ على مواريث الإسلام من فضائل السلوك والأخلاق والتربية ، وبعد وفاة والدى تركنا القرية إلى القاهرة ولمَّا أتجاوز الثانية عشرة من العمر .

وعن خصائص هذه الأسرة تقول السيدة : كنا أحد عشر أخاً ثلاثة من الأب وثمانية أشقاء ، وقد توفى أكبرنا وتبعه الثلاثة ، وكانت الخاصة الأساسية

لهذه الأسرة هى الاحترام المتبادل بين أفرادها ، حتى ليختار كل منها فى النهاية سبيله الأحب ، فكان منا المنتسب إلى جماعة الإخوان المسلمين ، ومنا الوفديون ، ومنا المستقلون ، والكل مخلص للجهة التى انتمى إليها سياسياً أو عقدياً .

أما الدراسة فتقول السيدة إنها كانت فى خطوطها الرئيسية إسلامية ، تلقت أصولها عن شيوخ الأزهر ، فكان من أثر ذلك أن أقبلت على علوم الفقه والتفسير ثم الحديث الشريف ، وقد شغفت بالفقه وتعلقت به ، وأولت العلمين الآخرين الكثير من اهتمامها . . . على أن الصورة الغالبة على دراستها هى الخاصة التى لا يقيد صاحبها سوى الميل الذاتى ، أما الدراسة المنتظمة فقد وقفت بها عند حدود الثالثة عشرة .

وتُرَكِّز على أثر والدها فى توجيهها الأدبى والفكرى فتقول : لقد كان يدربنى على الخطابة من السادسة ، ويعنى بدراستى فيذاكر معى مقررات المدرسة فيجدنى سريعة الحفظ لها ، ولا تقل درجاتى فيها عن الحدود النهائية . . . . وكثيراً ما كان يقص علىَّ أخبار الصحابيات بأسلوب مبسط ، يقرب المعانى إلى صغيرة لم تتعد الثامنة . . . ومن ذلك حديثه عن الصحابية الجليلة أم عمارة المازنية نسيبة بنت كعب إذ يصور لى مواقفها الجهادية العظيمة فى أُحد واليمامة ، ثم يقص على أخبار هدى هانم شعراوى ، ويسألنى فى النهاية أيهما تختارين أن تكونى يا زينب ؟ . . . ويكرر علىَّ السؤال ، ويعرض للمقارنة بين عمل المرأتين فى تفصيل ودقة ، فيكون جوابى له : بل نسيبة يا والدى .

وتقول السيدة الفاضلة : لقد كان خلاف بين أبوىَّ فى شأنى ، فالوالدة تريد إعدادى لعمل المنزل فتأخذ بيدى إلى طباخ الأسرة ، تأمره أن يعلمنى ما وسعه من مهنته ، ولكن الوالد لا يلبث أن يستلى من هناك ويمضى بى بعيداً وهو يقول : أنت يا زينب لم تخلقى لهذا . وينبه الطباخ ألّا يدخلنى المطبخ أبداً ، ثم يبدأ فى تحفيظى الشعر ، ويمرننى على إلقائه . . . ومن هنا كان والدى رحمه الله أول المؤثرين فى حياتى وفى توجيهى إلى النهج الذى اختاره لى الله ، ثم جاءت النقلة إلى القاهرة عقيب وفاة الوالد كما أسلفت . . .

وقد شاء الله أن تكون هذه النقلة نقطة الانطلاق لحياة جديدة استمرت حتى الآن قرابة نصف القرن . . . حياة ملأى بالعمل والأحداث ، ذات الأثر البعيد الذى عرفت حتى اليوم بعضه ، وفى علم الله سبحانه ما سيكون بعده . ففى القاهرة بدأت أنواعاً من النشاط الاجتماعى والسياسى والإسلامى ، ثم استقرت مسيرتى فى طريق العمل الذى استأثر بولائى كله أخيراً .

ذلك أنى وجدت فى هذا المنهج الربانى عناصر كل إصلاح ، وبه نصحح أوضاعنا الاجتماعية ، وعن طريقه ننظم وجودنا السياسى حتى نعود خير أمة أخرجت للناس كما كان سلفنا الصالح وهكذا اندمجت روحى فى تعاليم الإسلام ، فأعطيتها حياتى كلها . . .

م : لاشك أنّ لتلك النشأة فى كنف ذلك الوالد الصالح ذى النظر البعيد أثرها العميق فى مسيرتك الفكرية والتوجيهية ، ولكن . . . . أليس هناك من أثر آخر لبعض الشخصيات الأخرى فى هذه المسيرة . . . . ؟

السيدة : فى القاهرة التحقت أول الأمر بالاتحاد النسائى الذى كان على رأسه السيدة هدى شعراوى ، وظللت فى عضويته مدة كنت خلالها أتساءل : لم لا تتحول هذه الجمعية إلى مؤسسة إسلامية تنهض بواجبها نحو دعوة الله ؟ . . ولم يكن هذا الموضوع ممكناً أثناءئذ، على الرغم من تقدير السيدة هدى لأفكارى ، وحرصها على استمرارى فى عضوية إدارة الاتحاد وأنا أصغر أعضائه سناً ، حتى وصل إلى علمى أن ثمة دروساً دينية رتبها قسم الوعظ فى الأزهر الشريف للسيدات ، فقصدت إليها مع زميلتين أخريين من الاتحاد النسائى ، هما السيدة سيزا نبراوى والسيدة حواء إدريس ، وكان لذلك أثره فى تفكيرنا . إذ وجدنا المجال فسيحاً للمناقشة والبحث مع أولئك المدرسين ، وتوليت أنا إثارة الكثير من هذه المباحث النافعة انتهت بنا أخيراً إلى التفاهم معهم ، ومنذئذ انصرفت عن ذلك الاتحاد وفكرت فى تأسيس « المركز العام للسيدات المسلمات » وكان صاحب الفضل فى هذا الاتجاه هو الشيخ محمد سليمان النجار أحد العاملين فى قسم الوعظ والإرشاد بالأزهر ، فقد كان لهذا الأستاذ أسلوب مؤثر فى سامعيه ، وقد أوتى حلماً وعلماً وصبراً ، إذ كان يختم كل

محاضرة بفترة كافية للنقاش الهادىء ، الذى ينتهى بنا إلى القناعة التامة بأن الإسلام هو النظام القائد إلى صلاح الجنس البشرى ، وهو الملاذ الذى يجب أن يتشبث الناس عامة بتعاليمه أياً كانوا ، فكيف إذا كانوا من المؤمنين بأنه دين الحق الذى أنزله الله ، وتكفل بحفظه واستمراره ! ...

وتستأنف السيدة الفاضلة حديثها فتقول : لقد نزلت بى فى تلك الأثناء أزمة صحية نذرت فيها لله أن أمضى فى تنفيذ عزيمتى بإنشاء المركز ، على أن يكون وسيلتى لنشر الدعوة الإسلامية والإهابة بالمسلمات فى كل مكان للعودة إلى المنهج الذى كانت عليه نساء السلف الصالح .

وحقق الله نذرى فأسست هذه الجماعة التى أولتنى شرف رئاستها منذ قيامها ، واتخذنا من الأستاذ الجليل الشيخ محمد سليمان النجار ، الذى كان أول أستاذ لى فى الدعوة ، أول مستشار لها . .

يقول أبو غسان : ويخطر لى أن أتساءل هنا عن السر الذى كان يدفع هدى شعراوى للتشبث ببقاء هذه الفاضلة فى اتحادها النسائى ، وحرصها على الاهتمام بأفكارها والتظاهر بتقديرها ؟ . . والذى أراه أنها كانت على إدراك تام لنزعتها الإسلامية وحجم مواهبها العالية ، فهى تحرص على استرضائها والاحتفاظ بها خشية انصرافها إلى تحقيق ميولها الإسلامية ، التى لا تتفق مع خطتها التغريبية

م : حتى الآن لا يبدو لك ولا لجماعتك أى علاقة بالإخوان المسلمين فمتى حدثت هذه العلاقة ؟ . . وكيف ؟ . .

السيدة : عندما قمت بتأسيس المركز العام للسيدات المسلمات عام ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م لم يكن لدىّ أى علم عن الإمام حسن البنا ولا عن جماعة الإخوان ، وكنت قد أسست معهداً ملحقاً بالمركز يتولى تربية الفتيات من السادسة عشرة ، وإعدادهن لمهمة الوعظ والإرشاد فكن يدرسن فى هذا المعهد العربية والحديث والتفسير وطرق الدعوة . . . وذات يوم زارنى فى المركز فضيلة الشيخ عبد اللطيف الشعشاعى ، ولأول مرة عرفت عن طريقه أخبار الإخوان المسلمين ومرشدهم حسن البنا ، وسرَّنى ما سمعته عن أفكار هذه الجماعة ، واتفقت مع فضيلة الزائر على أن يكون أحد المدرسين فى المعهد ، ومن ثم أصبح همزة الوصل بيننا وبين

جماعة الإخوان المسلمين ، حتى إذا كان أواخر العام ١٩٣٨ تلقيت دعوة من فضيلة المرشد العام لإلقاء محاضرة على جمع من الأخوات المسلمات فى دار الإخوان بالعتبة الخضراء ، فلبيت الدعوة وحضرت إلى هناك ولما أشرفت على نهاية المحاضرة وُضِعَتْ أمامى ورقة تحمل دعوةمن الإمام البنا لمقابلته بعد صلاة المغرب . . وفى الوقت المحدد أقبل أحد الإخوان فتقدمنى إلى مكتبه ، وكان جالساً على مقعد طويل فرحب بى ودعانى للجلوس على مقربة منه . . . وبعد كلمة الترحيب جعل يحدثنى عن أهداف جماعته ، وعرض لى رغبته فى إنشاء جماعة باسم الأخوات المسلمات ، وأنه مضى فى هذه السبيل خطوات ، ويريد أن يجمع بين جماعة السيدات والأخوات المسلمات ، وبدل أن تكون ثمة جماعتان إحداهما للسيدات المسلمات والأخرى للأخوات المسلمات ، تقوم جماعة واحدة باسم الأخوات المسلمات وبرئاستك . . . . ومضى يشرح لى فكرته وضرورتها من أجل وحدة المسلمين ولمصلحة الدعوة الواحدة وأشعرنى فضيلته أنه ينتظر رأيى بصراحة ، فقلت له : أرجو من فضيلة المرشد أن يدع لى مهلة أراجع بها مجلس المركز العام للسيدات المسلمات فقال : لا بأس . . . . ولكن أحب أن أقف على رأيك الخاص فى هذا العرض ؟ فأجبت : لا أستطيع أن أبدى رأياً بهذه السرعة ، ولا بد من العودة أولاً إلى مجلس الإدارة . إلا أنه لم يكتف بما سمع بل ذهب يبسط لى من جديد ضرورة وحدة العمل الإسلامى ، ووحدة العاملين للدعوة رجالاً ونساء ، وعلق أهمية خاصة على وحدة الصف ووحدة الرأى ووحدة الكلمة . . ولكنى ظللت على كلمتى الأولى بوجوب العودة إلى المسئولات قبل البت بأى شىء .

وفعلاً عرضت الأمر على مجلس الإدارة وانتهينا من البحث إلى قرار يقضى بأن تظل السيدات المسلمات هيئة مستقلة فى عملها وإدارتها وأفكارها ، ولا مانع لدى المركز العام للسيدات المسلمات من التعاون مع الإخوان المسلمين فى نشر الدعوة ، وأن تكون هناك حركة اتصال مستمرة بين الجماعتين لتوحيد الصف والرأى والتأليف بين وجهات النظر ، على أن **يظل كل من الفريقين على استقلاليته . . . .**

ومرَّ على ذلك ما يقارب العشرين من الأيام ثم أرسل يدعونى لمقابلته ، حيث أبلغته قرار المجلس . . وكان بيننا هذا الحوار :

— أخبرينى يا زينب مع أى الجانبين كنت ؟ مع المؤيدين للاندماج أم مع المعارضين له ؟ . . .

— كنت مع المعارضين يا فضيلة المرشد . . . .

— إذن فأنت غير مقتنعة بالاندماج ؟ .

— ولقد صارحتك من قبل أن « السيدات المسلمات » هى حبة قلبى وسويداؤه . .

— ويوم تكون الأخوات المسلمات ستكون كذلك حبة قلبك وسويداءه . ومع ذلك أرجو أن لا ينتهى لقاؤنا بهذا القرار . .

ولبث فضيلته يلتقى بى على مدى عشر سنوات حتى عام ٤٨ ، إذ كانت الحكومة الملكية قد أصدرت قرارها بحل الإخوان المسلمين ، واعتقلت الكثير منهم ، وصادرت دورهم وأموالهم . . وقد أحدثت بى هذه المواقف أثراً كبيراً ، ورحت أذاكر الأمر مع نفسى . . وكانت الأخوات المسلمات قد أصبحت هيئة قائمة ، فأخذن يترددن على مركزنا ، ويقصصن علينا ما يقع لهن لدى المسئولين ، وعندما يذهبن إلى السفارات الإسلامية بشكاواهن واحتجاجاتهن على تصرفات السلطة مع الإخوان . . وأحسست بالصدمة كبيرة ، وتساءلت : لِمَ يُضطهد الإخوان المسلمون . . ولا ذنب لهم سوى الدعوة إلى الله ، والسعى لإصلاح المجتمع ؟ ! وكان الإمام الشهيد محتجزاً فى منزله لا يصرح له بمغادرته إلا إلى جمعية الشبان المسلمين فى شارع الملكة نازلى ، أو لمقابلة أحد المسئولين ، وقد أصبحت السجون تعج بالمعتقلين من أعضاء الجماعة . . وهناك استقر رأيى على أمر فبعثت إلى الإمام الشهيد بوريقة صغيرة أودعتها هذه الكلمات :

فضيلة الإمام المرشد حسن البنا . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فإن زينب الغزالى الجبيلى هى اليوم أَمَةٌ مجردةٌ من كل شيء إلا عبوديتها لله سبحانه وتعالى ، وليس لأحد أن يتصرف بها سواك . . أنت وحدك الذى يستطيع أن

يبيع هذه الأمة بالثمن الذى يرضيه لدعوة الله . بانتظار أوامرك / زينب الغزالى الجبيلى .

ولم يتأخر جواب الإمام وفيه يقول : إنه سيكون بدار الشبان المسلمين فى تمام الخامسة . وفهمت من ذلك أنه يريد لقائى هناك . وفى الموعد المضروب كنت أصعد درج جمعية الشبان المسلمين مع الإمام البنا ، وانتهينا إلى الدور الثانى وقدمت إليه بيعتى مباشرة ، ومنذ ذلك اليوم وأنا أحد الجنود المجهولين فى صفوف الإخوان المسلمين . .

وقبل الانتقال مع الاستطلاع إلى الخطوة التالية يحسن بى أن أطرح على نفسى هذه الأسئلة :

١ ــ لِمَ أخرت السيدة بيعتها للمرشد العام كل هذه السنوات إلى ذلك اليوم ؟ ! .

٢ ــ لِمَ حددت السلطة حركة الإمام الشهيد فى نطاق هذا المثلث الضيق وحده : منزله ــ جمعية الشبان المسلمين ــ مكتب المسئول الذى يريد مواجهته ؟ ! .

أما أنا فلا أرى تفسيراً للسؤال الأول إلا عمل الإيمان فى نفس هذه البطلة العجيبة . لقد كانت على أتم القناعة بسداد النهج الذى يسلكه الإمام البنا ، ولكنها كانت إلى ذلك حريصة على الاحتفاظ بمؤسستها الغالية ، التى تقول إنها كانت بالنسبة إليها كالولد الوحيد لأم لا ترى سبيلاً إلى سواه . . بيد أنها لما شاهدت نوازل المحنة تضرب الإخوان ، لغير سبب سوى ما تؤمن بأنه الواجب والحق ، كبر عليها أن تسلم من ذلك البلاء ، وأبت عليها مروءتها إلا أن تتحمل قسطها من المحنة . .

ويا لها محنة سبق إليها صاحب رسول الله عثمان بن مظعون حين شاهد الأطهار من إخوانه يفتنون ويقتلون ويعذبون ،وهو فى نجوة من البلاء بجوار الوليد بن المغيرة ، فردّ عليه جواره ، إيثاراً لجوار الله ، وليشارك المستضعفين فى آلامهم ، حتى يقضى الله بأمره ! .

أما تفسير السؤال الثانى فلا يخرج عن تقدير واحد لا ثانى له ، وهو اتخاذ

ذلك المثلث الضيق فخاً يُسَهِّل على عبيد الطواغيت مهمة اغتيال الرجل ، الذى زلزل الأرض تحت أقدامهم . . ووصلت دعوته الخالصة لله إلى كل مكان تطل عليه الشمس . .

وتستأنف السيدة المجاهدة حديثها عن أيام الشهيد الأخيرة ، فتقول : لقد استمر اتصالى بالإمام عن طريق بيت أخى ، وكانت أول رسالة منه إلىّ تكليفاً بالتوسط بين الإخوان والنحاس الذى كان خارج الحكم ، وعَيَّنَ النحاس المرحوم أمين خليل للقيام بإزالة سوء التفاهم ، وكنت أنا حلقة الاتصال . . وذات ليلة من فبراير سنة ١٩٤٩ م جاءنى أمين خليل يقول لى : يجب الإسراع بسفر الأستاذ البنا من القاهرة ، فالمجرمون يأتمرون ليقتلوه . .

ولم أجد يومئذ وسيلةً للاتصال بالإمام إذ كان أخى قد اعتقل ، فحاولت لقاءه شخصياً ، وبينما أنا فى طريقى إليه بلغنى نبأ اغتياله .

س — كان نصيبك من المحنة كبيراً وبخاصة فى أزمة ١٩٦٥ فلو تفضلت بسرد أهم هذه الوقائع ؟ .

السيدة : ابتدأ نشاطى العملى مع الإخوان المسلمين من عام ١٩٥٤ عندما كشف لهم عبد الناصر عن طويته ، وتنكر لعهوده التى قطعها لهم بتنفيذ شريعة الله وإقامة أحكامها ، وكان علىّ أن أشارك فى تحمل المقدور من البلاء الذى صبه الطاغية على الإخوان ، فقررت مع الشهيد عبد الفتاح عبده إسماعيل إعادة تنظيمهم ، بعد أن بدأ المتسلطون فى الإفراج عمن لم يصدر عليه حكم من الإخوان . . وبإذن من الإمام الهضيبى أقدمنا على إقامة تنظيم نعيد به نشاط الجماعة ، وركزنا على التربية الفردية بوجه خاص ، وعملنا فى مساعدة أسر السجناء ورعايتهم وتوفير ما أمكننا من الأسباب التى تحافظ على أبنائهم تعليماً وتنشئة على المنهج الإسلامى ، وقد وفق الله مساعينا ، حتى جاءت أحداث ١٩٦٥ وأدخلنا السجن فى قضية العصر ، ونُصرّ على تسميتها كذلك لأنها قضية الرسالة الخاتمة . . وكالمجزرة السابقة عام ٥٤ تمَّتْ مجزرة العام ١٩٦٥ فى ظلمات الإرهاب الناصرى ، وأكرم الله بالشهادة قافلة جديدة كان على رأسها سيد قطب ، وقدّر الحياة لبقية القافلة من المعذبين ، الذين شاء

الله أن يغادروا مجازر الطواغيت أعلاماً ، لم تزدهم المحن إلا صفاء وألقاً وتصميماً على مواصلة الجهاد فى سبيله ، حتى تقوم دولة الإسلام مناراً يشع على الدنيا بأنوار الخير والحب والعدالة . . وليعذرنى فضيلة الأستاذ المجذوب إذا أوجزت الكلام عن هذه المرحلة الرهيبة ، وإذا كان ثمة ضرورة لبسط الحديث عنها ففى كتابى « أيام من حياتى » ما يفي ويشفي » .

وأقول للقارىء بدورى إن فى صفحات هذا الكتاب المتين ما لا غنى عنه لمسلم يهمه الوقوف على مسيرة الدعوة الإسلامية خلال هذا القرن ، ويريد أن يعرف نوعية الطواغيت الذين يواجههم أهل الحق ، وقد أعدوا لدعاته من أنواع النكال ما لم يخطر على بال السابقين من أصحاب الأخدود . .

لقد أتيح لهذه السيدة أن ترى وتسمع وتعانى من وحشية الجلادين ما لا يخطر فى تصور ذئب ضار طاوٍ أُطلق فى قطيع من الغنم ، فهو لا يكتفى بالنهش والقضم ، ولكنه يحاول ألَّا يدع واحداً من القطيع دون تمزيق وتحطيم وتشويه . .

لقد تجددت فى تلك المجزرة مأساة آل ياسر وهم يتلقون نكال أبى الجهل ، من السياط إلى الإغراق بالماء إلى الطعن بالحراب ، فلا يرى منهم سوى الصمود الخارق الذى يتحدى عالم الكفر كله بعزة الإيمان ، بل لقد استحدث ورثاء أبى جهل فى سجون هؤلاء الطواغيت من ألوان التعذيب لدعاة الإسلام . ما لم يدر بخلد أبى جهل وأعوانه قط . . فعلاوة على الطرائق التقليدية من الجلد والحرق والصلب والإغراق فى الماء والأقذار . . كان هناك تعليق الضحايا من أقدامهم مع إلهاب سائر أعضائهم بالسياط ، التى شبهها رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، بأذناب البقر . . ثم هناك الاعتداء على أقدس كرامات الإنسان مما لم يسلم من هوله إلا من أدركه الله بمعجزة منه ، كما صنع لطفه بِأَمَتِهِ العظيمة الصابرة زينب الغزالى الجبيلى فى أحرج اللحظات ! .

ومع كل هذه الفواجع لم يجد حمزة البسيونى وشمس بدران وصفوت الروبى فى نفوس ضحاياهم البررة ما يطفىء نيران قلوبهم ، ولم يستطيعوا أن يحنوا من

تلك الرؤوس الشاخصة إلى السماء سوى واحد غلبه الخوف من عذاب المجرمين ، فنسى عذاب رب العالمين ، وراح ينفث ما يريده الجلادون من التهم للمؤمنين . . وحسبهم هذا الإخفاق خساراً ومهانة . .

وهنا يراودني تساؤلان أحدهما يتصل بهذا المسكين الذى أذله الرعب فانطلق يقذف بالباطل على الحق ، حتى كان أحد المسوِّغات لإعدام خير شباب مصر سيد قطب وإخوانه ... أترى لانهياره من مبرر فى حكم الشرع ؟ . وهل يدخل مثله فى زمرة المضطرين الذين أبيح لهم أن يقولوا ما يكرهون وقلوبهم مطمئنة بالإيمان ؟ ؟ . .

أما أنا فلا أجد له عذراً يلحقه بالمضطرين ، لأن المفتونين الأُول إنما أبيح لهم ذلك فى حقوق الله فقط حتى الكفر ، ولا نعلم سابقة واحدة أبيح فيها لأحدهم أن يوقع بالأبرياء فيرميهم بما يسوقهم إلى الموت ليحصل بذلك على السلامة من العذاب أو الموت . .

ويبقى ثانى التساؤلين خاصاً بهذه السيدة التى نكتب خلاصة عن سيرتها العجيبة . .

لقد رأينا عند الكلام عن بيئتها المنزلية تلك النشأة الناعمة التى أحاطت بها فى ذلك البيت المترف ، وفى ذلك الدلال الذى نعمت به من والدها ، حتى لا يسمح بشغلها فى عمل المنزل . . . فكيف تسنى لها ذلك التماسك الخارق أمام مخالب القتلة والمجرمين ، حتى لتعجز وسائلهم الرهيبة كلها عن إيهان عزيمتها فضلاً عن سحق مقاومتها ! ! .

الحق أننى لا أجد لذلك من تعليل سوى الإيمان ملأ وجودها بالمثل العليا التى تعلمتها من حياة سُمَية ونسيبة وزِنّيرة . . .

ألا نذكر ذلك الدرس الذى تلقته على أبيها يوم عرض عليها حياة كل من المرأتين ، الأنصارية نسيبة بنت كعب المازنية ، والمستغربة هدى شعراوى ، ثم كرر العرض وكرر السؤال : أيهما تريدين أن تكونى يا زينب ؟ . فإذا هى تجيبه بملء ما فى قلبها من القناعة : بل نسيبة يا والدى . . . وها هى ذى تؤكد لنا بصبرها على ألوان العذاب حتى الحكم بالإعدام ، أنها ملتزمة بمنهج أم

عمارة ، تلك اللبؤة التى ملأت الجراح جسدها الطاهر وهى تذود عن رسول الله ، عليه صلوات الله وسلامه ، يوم أحد . .

ولقد علمت حتى وثقت أن جراحات زينب فى سجون الطغاة لا تقل عدداً عن جراح أختها نسيبة فى ذلك الموقف ، ولا تتأخر عنها فى الدلالة على البطولة المرضية لله ولرسوله ، إن شاء الله .

وما أرانى مغالياً عندما قلت فى قصيدتى المطولة « عبر وعبرات » أيامئذ وأنا أصف محنة زينب الغزالى وحميدة قطب وعلية الهضيبى وغادة عمار وإخوتهن :

ومحتجزٍ فى غيهب السجن شوهت	معالمه المثلى يدُ المثلات
تفننَ جلادوه فى العسف والأذى	ولم يحن رأساً أو يفه بشكاة
تراه على الأغلال شلواً ممزعاً	يُخيَّل للرائين بعضَ رفات
بنفسى وجوه أطفأ الجور بشرها	وإن هى لم تبرح وجوه هداة
تنازعها لفح العذاب فأصبحت	وليس بها إلا ذَماء حياة
لئن سلبت نور الحياة فلم تزل	تنير سواد الليل بالصلوات

س ــ ما مدى تأثير هذه المحن على حياتك ، وما العبرة التى خرجت بها من تلك التجارب الرهيبة !

السيدة : خرجت من المحنة على أتم الاستعداد للجهاد فى سبيل الله حتى الموت أو قيام الحكم الإسلامى وعودة الخلافة ، وهذا عهد منى لله أن استمر على هذا الخط حتى ألقاه ، وقد سلمتُ راية الجهاد إلى واحدة من بناتى لتواصل الطريق فى سبيل الدعوة ، التى من أجلها نحيا ، وفيها نموت ، وكل عيش بدونها فموت محقق(٧) .

س : فضيلة الأخت . هل لك أن تمدينا بلمحة عن مطالع نشاطك القلمى ، والأغراض التى عُنيت بها فيما أسلفت من إنتاج ؟ .

السيدة : لقد زاولت الكتابة فى سن مبكرة ، فمنذ الرابعة عشرة بدأت أكتب

١ ــ لحكمة من الله لم ترزق الأخت بولد ، وصرف الله سبحانه عواطفها نحو دعوته وجنودها فما فيهم إلا ولدها وبنتها .

وتنشر لى الجرائد والمجلات ، أذكر منها روزا اليوسف وغيرها ، وبعد تأسيس المركز العام للسيدات المسلمات كانت الصحف تحصل منى على أحاديث وموضوعات . . ثم جعلت أنشر مقالاتى فى شبه انتظام بمجلة « نور الإسلام » التى كان يصدرها قسم الوعظ والإرشاد فى الأزهر . . وكان اللون الإسلامى هو الطابع الرئيسى فى كل ما كتبت وأكتب ولله الحمد والمنة . وذلك طبعاً غير الذى كانت تكتبه فى « مجلة السيدات المسلمات » .

س : سبق أن حدثتنا فى المدينة عن مذكرات كتبتها عن أيام النكبة ثم فقدتها ، فلو تكرمت بخلاصة عنها وعن ظروف ضياعها . وعما إذا كنت قد أعدت كتابتها من جديد ؟ .

السيدة : هذه المذكرات سرقها من منزلى بعض العملاء ، ولكن الله عوضنى عنها بكتاب « أيام من حياتى » وهناك تخطيط فكرى لكتابين : الأول فى إطار « الإسلام » والآخر بعنوان « قصة الوجود » إذا مدّ الله فى الأجل رجوت أن أوفق إلى إخراجهما قريباً إن شاء الله . . والأمر فيهما موقوف على تيسيره سبحانه .

س: تعتبر مصر أهم أكبر منائر العلم فى العالم الإسلامى ، عن طريق الأزهر ، أو عن طريق الحركة الإسلامية فيها ، وقد لمسنا ذلك فى كل قطر زرناه من وطن الإسلام . فما توقعات فضيلتك بالنسبة إلى دور مصر فى هذا الصدد ، على مستوى العالم الإسلامى قريباً وبعيداً ؟ .

السيدة : أعتقد أن مصر هى المنطلق الذى ستبزغ منه اليقظة الإسلامية إن شاء الله ، وأظنك تقصد بالحركة الإسلامية فى مصر حركة الإخوان المسلمين ، بوصفها التحرك الإسلامى العالمى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فليست الجماعات الإسلامية الأخرى إلا نباتاً انبثق من حديقة الإخوان المسلمين ، وهو عندما يستوى على سوقه ، ويعى رسالة المسلم الحقّة لا يسعه إلا أن يعود إلى أصله ومصدره . . وفى يقينى أنه من مصر سترتفع راية التوحيد من جديد ، توحيد الله فى ألوهيته وربوبيته وحاكميته ، وتوحيد المسلمين بقيادة محمد رسول الله لإقامة

نظام الإسلام المنقذ ، كما أنزله الله ديناً ودولة وحرية وسلاماً للمسلمين وللعالمين . .

س : على الرغم من كل المعوقات التى تواجه الدعوة الإسلامية فى مصر ، يلاحظ أن ثمة نهضة إسلامية تتنامى بقوة فى أوساط الجامعات وبخاصة فى الكليات العلمية منها . . فما تفسير فضيلتك لهذه الظاهرة وما توقعاتك بشأنها ! . .

السيدة : لم تأت هذه النهضة من فراغ ، فشباب مصر ينتمى إلى الفكر الإسلامى الذى أيقظ طاقاته مجدد الدعوة الإسلامية الإمام حسن البنا ، ثم خلفه الإمام الهضيبى ، الرجل الذى ينطبق عليه وصف رابع الراشدين القائل : « أنا فى حق نفسى كالعبيد وفى حق دينى وربى كالحديد » فعلى طريق هذين الإمامين انطلق شبابنا الإسلامى يبنى وجوده على أساس العقيدة السليمة والإرادة الحازمة ، فكان طبيعياً أن يصطدم بالعقبات التى يقيمها الكارهون لحقائق الإسلام ، فكانت المآسى التاريخية ، وكانت مجازر الـ ٤٨ و ٥٤ و ٦٥ ، وكان الصمود وكانت البطولات التى أعيت الظالمين ، وحرّكت طاقات الإيمان فى صدور المسلمين ، فكثرت الجماعات الإسلامية ، وكثرت التحركات الإسلامية ، ولكنها على تعددها واختلاف مناهجها منتهية أخيراً إلى الوحدة بمشيئة الله ، تحت راية الجماعة التى بايعت الله على ألا تفتر عن الجهاد المشروع حتى تتحقق أمنيتها بإقامة الدولة الربانية وعودة الخلافة الإسلامية إن شاء الله .

س : لقد أثبتت جماهير المسلمين فى مصر خلال أكثر من استفتاء أنها مع تطبيق الشريعة السمحة ، ومع ذلك لم تزل محكومة بغيرها ، وها نحن أولاء نرى أقطاراً إسلامية كموريتانيا وباكستان والسودان تسبق مصر فى هذا الميدان ، فما السبب فى ذلك ؟ . .

السيدة : طبيعى جداً أن تكون إجابة السواد الأعظم من المصريين فى جانب الشريعة المطهرة ، وهكذا جاءت نسبة الموافقين ٩٩ ٪ ولم يرفض هذا الاتجاه سوى النزر اليسير وهو من غير المسلمين طبعاً ، لأن المسلم الذى يرفض حكم شريعة الله يرتد عن دينه ويتبع غير سبيل المؤمنين ،لإنكاره

معلوما من الدين بالضرورة . . فالشعب المصرى إذن محكوم دون إرادته بالأنظمة الوضعية ، التى جرت على مصر ، وعلى الإنسانية بأسرها ، أنواع الشقاء وفنون الأرزاء .

أما سبق الأقطار الإسلامية التى ذكرتها إلى تطبيق الشريعة فهو خير نتمنى دوامه وتناميه فى الطريق السليم ، وفى يقينى أن ذلك هو الوضع الطبيعى الذى لا مندوحة عن الاتجاه إليه ، بعد أن أفلست سائر التنظيمات التى فرضها الزائغون على شعوبهم بتوجيه أعدائها ، ولئن تأخر تحقيق ذلك فى مصر حتى الآن إنما هو إلى حين ، وفى النهاية لا بد من زوال العقبات المصطنعة التى يقيمها الجاهلون والمضللون فى وجه العودة إلى فطرة الله التى فطر الناس عليها .

س : إن خبراتك الطويلة فى نطاق الحركات النسوية تدعونا لأن نستوضح رؤيتك إلى مستقبل المرأة المسلمة فى مصر خلال ما تبقى من القرن العشرين ، وما نواجهه من مطالع القرن الخامس عشر ؟ .

السيدة : منذ أسست المركز العام لجماعة السيدات المسلمات كنت ــ ولا أزال ــ أعتقد جازمة أن ليس للمرأة المسلمة قضية منفصلة عن قضية الرجل المسلم ، فالكل مسئول عن مصير الوجود الإسلامى فى مصر وحسبنا فى ذلك قول ربنا تبارك اسمه : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ التوبة ٧١ . وإنما جاءنا هذا التفريق بين مسيرتى كل من الجنسين من قبل التيارات الوافدة ، التى تستهدف صرفنا عن أهدافنا العليا إلى توافه الأمور . أما الفروق التى قررها الشرع الحكيم بينهما فى بعض الجوانب كاختلاف أنصبة الميراث ، وقوامةالرجل على النساء ، وما إلى ذلك فإجراء تنظيمى قدّر فيه تخصص كل منهما من جهة الاستعداد ، فالمرأة أم وللأمومة خصائصها ولوازمها ، وهى زوجة وللزوجية حقوقها وواجباتها ، وهى راعية فى البيت وذلك هو مركزها الطبيعى . . وهكذا القول فى الرجل فقد زوده الخالق بكل ما يساعده على قيادة الأسرة ، وتأمين مصالحها ، والذب عن سلامتها ، ولكل من هذه المهام وسائلها المناسبة . وبالتعاون المخلص بين الرفيقين

تتكامل الحياة وتتوافر السعادة للجميع . . وفيما عدا ذلك فمسئوليتهما متكافئة فى نطاق الواجب نحو المجتمع المسلم ، على أساس القاعدة النبوية « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . . » وإذن فالقضية الجامعة بين الجنسين هى ضرورة العمل الدائب لإقامة المجتمع الإسلامى المتكامل ، ويومئذ فقط يجد كل منهما طريقه الصحيح إلى سعادة الدارين . . وعندئذ تخفت هذه الأصوات الناشزة . التى تنعِقُ بما يوحى إليها شياطين الجن والإنس ، دون أن تعى ما تقول وما تعمل . . .

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . . .

الجريمــة ! !

« مع الضحى . جاء صفوت وأخرجنى من الماء . ورمانى فى زنزانة أخرى بجوار زنزانة الماء . . ابتلعتنى هذه الزنزانة . . وتكورتُ فى ركن من جوفها مستندة إلى حائط . . كان الحائط بالنسبة إلىّ وسادة ناعمة محشوة بريش النعام ! ! كانت آلامى عاتية متنوعة . . آلام الجوع تفرى أمعائى . . وآلام جروحى تمزقنى . . جروح جسدى وجروح نفسى . . لقد صرت كتلة آلام كل جزء منها يئن ويصرخ ! !

ويدخل صفوت ومعه مارد أسود ! ! أخذ يتحسس سوطه بيده اليسرى ثم يضرب الأرض والحائط . وكأنه يستحث لهيبه . أو يستنفر حميته ! !

ووقف صفوت وألقى أوامره وتعليماته إلى هذا المارد الأسود بأن يرتكب أبشع جريمة ممكن أن يقترفها بشر . . ! ! وترك له السوط وهو يقول فى صلف وغرور : إذا وجدت منها أى معارضة فالسوط معك . . .

انشغلت عن هذاالسفه بالله سبحانه وسألته متوسلة إليه « اللهم إنى أمتك ، وعلى عهدك ما استطعت أدعوك بضعفى ، وقلة حيلتى ، وانكسارى ، وهوانى على الناس . أن تدفع عنى شر الأشرار ، وتحمينى بقدرتك ، وتعيننى على ظلمهم . .

اخرجنى من إغراقتى فى مناجاة ربى صوت هذا الإنسان المأمور بإيذائى بأبشع جريمة . . ينادينى « يا خالة ! ! » ونظرت إليه . ودهشت . . فقد تغير وجهه وارتسمت عليه ملامح إنسان ! !

ثم بصوت منخفض فيه شفافية : لا تخافى يا خالة . . لن أوذيك ، ولو قطعونى . . فقلت بصعوبة بالغة : ربنا يهديك يا بنى . . ربنا يكرمك .

فتح باب الزنزانة فى عنف وانطلق صفوت الروبى يضرب الرجل بالسوط ويسبه ويقول : يا ملعون . يا ابن الكلب . . لقد أوردت نفسك مورد الهلاك ، وستقدم إلى مجلس عسكرى . هذه أوامر جمال عبد الناصر يا ابن الكلب أنت تكسرها ؟ ! أنقذ نفسك فوراً قبل أن أذهب بك إلى شمس باشا يحولك إلى مجلس عسكرى . . ثم أعاد عليه الأوامر الفاجرة والتعليمات الفاحشة بكلمات صريحة صارخة لا يمكن أن تخرج من فم إنسان . وأغلق الزنزانة وأطل من الفتحة وقال أنا سأتركك ساعة ، ثم أعود إليك لأنظر ماذا فعلت . . أنقذ نفسك ، ونفذ الأوامر ! ! .

حيا الجندى صفوت تحية عسكرية من داخل الزنزانة وقال حاضر يا أفندم ! ! .

كنت أستمع إلى هذه الجاهلية وذلك الفجور ، فأناجى ربى بتلك الكلمات ، « إنها دعوتك . ونحن جندها . وشهداؤها . . فغيرتك على جندك . وأعراضهم يا الله !. اجعلنا أقوى من ظلمهم وألوان تعذيبهم » وكنت أدعو لهذا الرجل بالهداية . ظننت أن هذا الرجل — بعد الأوامر الجديدة — سيخشى البشر ، فيسلك مسالك الوحوش . . ولكنه كان رائعاً وشجاعاً . وقال لى فى براءة الأطفال : لماذا يعذبونكم هكذا يا خالة ؟ .

فقلت : إننا — يا بنى — ندعو لله . ونريدحكم الإسلام لهذا البلد . ولا نطلب لأنفسنا سلطاناً . .

وسمعت أذان الظهر فتيممت على حائط الزنزانة وأديت الصلاة . فقال فى رجاء « ادعى لى يا خالة » فدعوت له بالهداية وقمت لصلاة السنة . فقال : ادعى لى أن يكرمنى الله بالصلاة يا خالة . . أنتم لستم بشراً . ربنا يخرب بيتك

يا عبد الناصر ! !

فقلت له : هل تعرف الوضوء ؟ .

فقال : طبعاً . أنا كنت مواظباً على الصلاة . . لكن جيش حليمة لو رأونى أصلى يسجنوننى . . .

فقلت له : صلّ ولو سجنوك . فالله معك .

فقال ونور الإيمان يملأ وجهه « سأصلى » .

وهنا ضرب أحد الجنود باب الزنزانة بعنف وقال : يا ابن الكلب ماذا تفعل ؟ ! ! .

فقال الرجل : الست لم تفرغ من الصلاة .

فقال الجندى فى صفاقة : صفوت آت إليك . وأرسلنى أنظر ماذا فعلت .

وجاء صفوت كحيوان مجنون وهجم على الرجل بوحشية شرسة . وظل ينهال بسوطه على الرجل إلى أن أفقده حتى الأنين !! وجاء مساعدو الجلاد وحملوا المسكين إلى مصيره ، وأغلقت الزنزانة على آلامى وهمومى .. آلمنى ما نال هذا الرجل بسببى . إن الله أضاء بصيرته فلم يطع الظالم !! كانت السياط التى مزقت جسده تمزق جسدى وتحفر أخاديد فى نفسى !! .

وهربت من همومى وآلامى إلى صلاة العصر[1] .

* * *

---

١ ــ مشهد من كتاب السيدة « أيام من حياتى » ص ٩٥ ــ ٩٧ .

الشيخ صلاح أبو اسماعيل

كثيرون جداً أولئك الذين يريدون أن يقرؤا سيرة هذا الرجل فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى ، وليس مرد تلك الإرادة إلى آثار علمية كثيرة قدمها إلى أمته أو كشف جديد أضافه إلى حقول المعرفة البشرية ، وليس هو واحداً من أولئك الانقلابيين الذين يستولون بالحديد والنار على أزمة شعوبهم ، ومن ثم على وسائل إعلامها ، فيملئون الدنيا صراخاً بمآثرهم وعجائب عبقرياتهم ، ويقرعون الأسماع صباح مساء بالحديث عن مواهبهم التى أحالت الصحارى جناناً ، والهزائم انتصارات ، والتخلف تقدماً وازدهاراً . .

أجل . . لا لشىء من هذا أو ذاك يريد المسلمون المعنيون بشئون دينهم وأحوال أمتهم أن يقفوا على بعض التفصيل من سيرة هذا الرجل ، ولكن لسبب آخر من حقه أن يجتذب أنظارهم وأفكارهم ، لأنه بات فى أيامهم هذه من التحف النادرة التى قلما يقعون عليها فى واقعهم ، مع أنها من الخصائص الأولى لهذه الأمة التى ميزها الله بالخيرية ، المتمثلة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله .

ولعل معظم هؤلاء الكثيرين قد فوجئوا لأول مرة باسم هذا الرجل يوم ألقى بقذيفته المدوية أمام المحكمة المنعقدة لمحاكمة من يسمونهم « جماعة الجهاد » فى القاهرة ، فانطلق صداها يتردد فى الصحف والإذاعات العالمية ، ثم لم يتوقف دويُّها حتى اليوم . . وحق لهم أن يفاجَئوا ، وحق لوسائل الإعلام العالمية أن تردد ذلك الصدى ، لأنه كان نذيراً بأنه لا يزال بين علماء الإسلام من يؤثر مرضاة الله على النفس والحياة والمنصب ، فيعلن شهادة الحق فى أحرج المواقف ، يرسلها مجلجلة ناصعة لا تخاف فى الله لومة لائم ، حفاظاً على قلبه من أن يخالطه الاثم الذى أوعد الله به كاتمى الشهادة . .

وإنها لعَمرُ الحق لبطولة تفوق سائر البطولات التى ألف الناس أن يمجدوها

ويقيموا لها الأنصاب والمعالم . . وبخاصة بعد أن خرست أصوات الصادقين وطغت ضوضاء المنافقين ، وأصبحت فنون البلاء موكلة بالألسن ، فهى تتهيب أن تهمس بكلمة الحق خشية أن تقطع أو تنزع . .

وبهذه الروح، وبهذه النظرة إلى موقف الرجل فى ذلك اليوم التاريخى ، قصدت إلى زيارته فى داره بحى الدقى من القاهرة ، وكان الحوار الذى أفضى إلى هذه الصفحات .

إنه الشيخ صلاح أبو إسماعيل من علماء الأزهر الغالى على قلوب المسلمين ، وعضو مجلس الشعب الذى عرفه من أشد المنافحين عن شريعة الله والصادعين بالكلمة التى ترضى الله وتسخط كل عدو له . .

يقول إنه ولد فى بهرمس — مركز إمبابة — محافظة الجيزة بمصر ، يوم السابع عشر من مارس عام ١٩٢٧ ، فى بيت معروف بحفاوته بالعلم والعلماء ، فجده الأعلى كان إماماً للخديوى إسماعيل ، وأنجب ولدين تخرجا فى الأزهر، ثم كانا عضوين فى مجلس النواب .

فالبيت بيئة وجاهة وعلم ويسار ، ويصفه الشيخ بأنه كان منتدى لأهل العلم ، يعمرونه بزياراتهم ويعمرون مجالسه بمحاوراتهم ونقاشهم وأسمارهم وفتاواهم ، كما كان مرتاداً لذوى الحاجات ، يمكثون فى مضافته الأيام حتى تقضى مصالحهم . وقد حفظ الناس لهذا البيت مودته أثناء الضائقة التى اجتاحته — فيما اجتاحت من مصر — خلال الثلاثينات ، فلا ينجح مرشح فى دائرته الانتخابية إلا بتأييد من أهله .

وقد توفى والد الشيخ بعد تخرجه فى جامعة القاهرة وهو فى ميعة الشباب ، وحبست الوالدة نفسها عليه وعلى أخته فحاطتهما بأحسن الرعاية والتربية ، فكان لها بهذا وغيره — يقول الشيخ — أبلغ الأثر فى حياتهما .

تلك هى البيئةالتى نشأ فيها الشيخ ، فلا بد أنها تركت أثرها عميقاً فى نفسه وخلقه وسلوكه ، فهناك الجو العلمى الذى يواجه من خلاله وجوه كبار العلماء يترددون على ذلك البيت ، وهناك « المكتبة الحافلة بنوادر المطبوعات والمخطوطات » وهناك الأفواج من الضيفان تتوافد على شيوخه تلتمس الحلول

لمشكلاتها والفصل فى خلافاتها ، ولا يستبعد أن تستشفع بهم لإنجاز مصالحها لدى الجهات الرسمية عن طريق علاقتهم بالمقام الخديوى والمجلس النيابى . . والغريب أن يمتد أثر هذا الجو فى حياة الشيخ صلاح نفسه إلى حد التكرار لهذه الصور الأخيرة ، التى شهدت مثلها فى منزله ، حيث رأيت أصحاب المصالح يحتلون بهو الاستقبال ، فيستمع من هذا إلى قضيته الجديدة ، ويراجع ذاك فى ما انتهى إليه بشأن مشكلته القديمة ، ويتصل من أجل الثالث بالمرجع الحكومى المختص بموضوعه ، ولا ينفك خلال ذلك متكلماً بالهاتفين أو مسجلاً فى مذكرته اليومية مطالب هؤلاء وأولئك ، حتى إذا حان موعد التحرك لمتابعة هذه الحاجات نهض ليقود سيارته وفيها ملؤها من هؤلاء . . . ثم لا يزال يجول بهم بين هذه الدائرة وتلك وبين هذاالرئيس وذاك ، حتى يستنفدوا إمكاناته وقد نهكه النصب . وأخذ طريقه فى زحام السيارات إلى منزله ليتنفس الصعداء ، وليستأنف بعد ذلك متاعبه فى خدمة المراجعين ، الذين لا يرى أحدهم سوى مشكلته وحدها . .

ويحدثنا فضيلته عن دراسته فيقول إنه بدأها فى مدارس التعليم العام ، إذ التحق بمدرسة محمد على الابتدائية فى ميدان السيدة زينب بالقاهرة ، ومنها نال الشهادة الأولى ، ولكن القدر الحكيم حال دون متابعته المنهج العام هذا ، لأن والده وجدّه قد اتفقا على تحويله إلى الدراسة الأزهرية ، حفاظاً على طابع البيت ، ورعاية المكتبة العلمية الكبيرة التى لا بد لها من متخصص ينتفع بها وينفع ، وهكذا عهدا به إلى مقرىء يحفظه القرآن الكريم ، ويلقنه أحكام تجويده . وبذلك أضيف إلى سنيه الدراسية ست سنوات ، فقد كان أمامه تسع سنوات أخرى للحصول على المؤهل الجامعى ، فارتفعت المدة إلى خمس عشرة سنة فى نطاق التعليم الأزهرى . .

ويصف الشيخ رحلته الدراسية بأنها كانت موفقة بفضل الله ، إذ اجتاز أقسامها الأربعة الابتدائى فالثانوى فالكلية فمعهد التربية العالى للمعلمين ، بنجاح مستمر دون توقف ، وكان قد أُفرز بنهاية امتحان الثانوية العامة إلى كلية دار العلوم ، ومع أنها الكلية المفضلة بنظر الطلاب ، لما لخريجيها من الحظوة لدى وزارة التربية والتعليم . فقد آثر عليها كلية اللغة العربية ــ شعبة

الشريعة الإسلامية بالأزهر ــ وفيها تخرج عام ١٩٥٤ وهو العام الذى واجه فيه الاعتقال للمرة الأولى عقيب الحل الذى فرضه جمال عبد الناصر على جماعة الإخوان المسلمين . . وكان لهذا الاعتقال أثره النفسى فى نتيجة امتحانه للشهادة العالية بعد ذلك ، فلم يتجاوز درجة « مقبول » وهو الذى لم ينزل عن مستوى التفوق طوال حياته الدراسية ، وبهذا حيل دون قبوله فى الدراسات العليا ، فاضطر إلى التحول لكلية التربية للمعلمين ، حيث حصل على الأولية فى دبلومها العالى للتربية وعلم النفس ومن ثم عين مدرساً للدين والعربية فى مدارس المتفوقين والمدارس النموذجية . وقد أحب علمه فلم يفكر بتغييره قط . إلا أن اشتعال الجو الإرهابى الناصرى فى منتصف الستينات على الإخوان المسلمين اضطره إلى قبول عرض بالنقلة من التدريس إلى أن يكون مديراً لمكتب شيخ الأزهر .

ويذكر الشيخ من الأحداث التى رافقت رحلته الدراسية ، أثر الأزمة التى مرت بها بلاده أثناء الثلاثينيات كما أسلفنا ، فقد كان نصيب بيتهم منها أن ذهبت بالأخضر واليابس من ممتلكاتهم ، وأبهظت كواهلهم بالديون الفادحة ، ولكن شاء الله أن يحدث له مورداً من الرزق الحلال فى هذه الغمرة من العسر ، وذلك حين اكتشف فى نفسه ، أو اكتشف فيه آخرون ، ذاك الصوت الرخيم الذى يصلح لترتيل كتاب الله ، فإذا هو واحد من مقرئى الإذاعة المشهورين . . ومن هذا الباب تدفقت عليه نعم الله بوفرة كادت تشغله عن مواصلة دراسته ، وهو المكب عليها بكل طاقته . إلا أنه استطاع أخيراً التوفيق بين الدراسة والحاجة ، فاكتفى من حصص الإذاعة بما يساعده على المضى فى سبيله .

وسألنا فضيلته عن آثاره العلمية سواء منها ما كان منشوراً أو معداً للنشر أو فى حيز المشروعات المتوقعة . . فكان جوابه :

إن العمل الذى بدأت به فى نطاق التعليم عقيب التخرج ، مضافاً إليه تبعات الدعوة فى المحافل والمساجد ووسائل الإعلام ، كل ذلك قد استأثر بوقته فلم يستطع التفرغ لسواه إلا قليلا ، ومن خلال هذاالقليل أقدرنى الله على الكتابات التالية :

١ ــ حلقات إذاعية فى تفسير القرآن العظيم لتلفاز « أبى ظبى » وقد وصلت حتى الآن إلى آخر سورة الحجر وأول سورة النحل ، وبلغ رقمها نهاية المئة الخامسة . .

٢ ــ تفسير سورة يوسف فى ثلاثين حلقة لتلفاز دولة البحرين .

٣ ــ مئات الحلقات لتلفاز قطر فى إطار البرامج الدينية .

٤ ــ عشرات المشاركات فى الحلقات الدينية لتلفاز سلطنة عمان .

٥ ــ ثلاثين حلقة فى التفسير لتلفاز المملكة العربية السعودية ، وقد أهديت إلى مؤسسات التلفزة فى دول الخليج بعنوان « المصحف المفسر » .

٦ ــ موضوعات متعددة سجلتها لإذاعة الكويت على نحو فريد ، انتظم كل منها ثلاثين حلقة ، أحدها بعنوان « أسلوب الإسلام فى بناء الإنسان » وآخر باسم « العدل فى الإسلام » ثم « الإسلام والقتال » و « اليهود فى القرآن » وقد أخبرنى معالى الشيخ يوسف جاسم الحجى أن « جمعية الشيخ عبد الله النورى » التى يرأسها قد تولت طباعة حلقات هذا الموضوع . .

هذا بالنسبة إلى وسائل الإعلام المسموعة والمرئية . أما فى ميدان الصحافة فقد أسهمت بنصيب كبير من الكتابات فى نطاق الدفاع عن الإسلام وإبراز حقائقه ، من ذلك ردودى على أحمد حسن الزيات وتوفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوى . . وشاركت طوال سنين فى مجلة « لواء الإسلام » سواء فى ندوتها الشهرية أو مقالاتها الدورية . . وكذلك المحاضرات فقد قدر الله لى فيها حظاً غير قليل ألقيت كثيراً منها فى مصر ، وبعضها فى السودان وقطر والبحرين والإمارات والكويت ، ثم فى الهند وأندونيسية وسنغافورة ، ثم فى إنجلترة وأمريكة . وقد أكرم الله كلمتى بالقبول ، وأن تكون سبباً فى هداية خلق كثير إلى نور الإسلام . .

ويقول أبو غسان : لا جرم أن قارئاً لم يطلع على آثار الشيخ التى يشير إليها سيستغرب وفرتها ، ولكنه لو اطلع على شهادته المرتجلة فى قضية الجهاد ، وقد استغرقت أكثر من إحدى عشرة ساعة على امتداد جلستين ، ثم ردوده المتلاحقة على تقرير لجنة الأزهر الذى ملأ خمسين صفحة فولسكاب حول هذه

الشهادة، على الرغم من أعبائه التى تحاصره من كل صوب ، والتى تنوء بها العصبة أولو القوة ، أقول : لو اطلع القارىء على هذا كله لزال استغرابه ، ولاستيقن أنه تلقاء رجل مُعانٍ من قبل الله ، والله يؤتى فضله من يشاء . .

وأما من حيث التأليف فيقول الشيخ : إن لدى أصولاً لخمسة عشر كتاباً تنتظر منى التفرغ الكافى لإخراجها ، وإنما يحول دون ذلك مشاغلى فى متطلبات المهمة الانتخابية ، فالدفاع عن حقوق الله فى المجلس التشريعى ، ثم العمل لمصالح الناخبين فى المكاتب الرسمية ، كل ذلك يقيدنى عن ذلك التفرغ المنشود ، ولعل الله يسهل الطريق إلى ذلك فهو الذى يخلق ما يشاء ويختار .

ويتم الشيخ حديثه فى موضوع الإذاعة والتأليف فيقول : ومما هو جدير بالذكر أن الإعلام المصرى الذى قدمت من خلاله الكثير من الأعمال الدينية فى الإذاعةوالتلفاز على مدى سنين ، قد أدار لى ظهر المجن منذ دخلت مجلس الشعب ، وارتفع صوتى بالدعوة إلى تطبيق الشريعةالإسلامية ، فقد صدرت الأوامر بمنع التعامل معى فى الإعلام المصرى منذ العام ١٩٧٨ ، بل إن التلفاز المصرى لا يسمح أن أشارك فى أى برنامج لأى دولة ترتبط معه باتفاق إعلامى . . ولكن رحمة الله لا تنتظر أوامرهم وأصبحت تلك الدول هى التى تطلبنى مباشرة ، وذلك الفضل من الله ، وما كان عطاء ربك محظورا . .

وسرعان ما ردتنى هذه الكلمات إلى حديث كتبه المغفور له الإمام محمد أبو زهرة ذات يوم ، وفيه يقول : إن بعض الفضلاء قد سأل مدير التلفاز المصرى عن السبب فى استبعاد أبى زهرة عنه ، فكان جوابه : لأنى لا أستريح إليه ! . . وما كان أبلغ رد الإمام على ذلك الجواب العجيب حين قال : . . لقد نسى هذا المدير أن تلفاز مصر ليس ملكاً له ولا هو غرفة من منزله ليستقبل فيها من يشاء ويقصي عنها من لا يشاء .

وأقول : إن فى رد الإمام أبى زهرة رحمه الله منطقاً لا يفقهه أولو الأهواء . .

وعن أهم الأحداث التى عاصرها وتأثر بها فضيلته ، وأبعد الرجال أثراً فى تكوينه الفكرى ، تأتى إجابته تصويراً للواقع المأسوى الذى عايشه ، وتحليلاً للعوامل التى ساقت إلى الأحداث المسئول عنها .

يقول : إن من أهم الأحداث تأثيراً فى نفسه وتفكيره ما يراه من شعارات إسلامية ترفعها بعض الدول فى حين ترى واقعاً حافلاً بشتى المناقضات لتلك الشعارات ، والمفكر الذى سبق أن وثق بتلك المبادىء سرعان ما يعتريه التمزق النفسي عندما تفاجئه أجهزة الدولة بالحساب العسير على التزامه إياها وبذلك يدرك الحقيقة وهي أنه يعيش فى وجود مزيف لا صلة بين مقدماته وعواقبه ، فينتهى إلى أحد الأمرين . . إما أن يتعامل مع الشعارات الجميلة على حذر فينال نصيبه الحتم من البلاء ، وإما أن يكون تعامله مع الواقع القبيح على علاّته فيتخلى عن مقتضيات إيمانه ، وأحلى الأمرين مرّ . .

ومن هذه المقدمة الفكرية ينطلق الشيخ إلى الكلام عن صلته بالإخوان المسلمين ، والأحداث التى واجهتها الجماعة على أيدى الطغيان ،الذى هوقمة ذلك التناقض .

لقد عرف الطريق إلى مركز الجماعة من أيام الدراسة الابتدائية ، إذ كان مسكن أسرته فى الحلمية بنفس الحى الذى يقوم فيه المركز ، وقد اجتذبته أحاديث المرشد العام الأستاذ حسن البنا ، فثابر على حضورها مساء كل ثلاثاء ، دون أن يسجل انتماءه إلى الجماعة ، على الرغم من وثيق ارتباطه بأفكارها وتقديره لإمامها ، وإنما منعه من ذلك — فيما يقول — نسبته الأزهرية ، التى كانت تلقى فى روعه أن الأزهر هو المرشّح أبداً لإمامة الدعوة ، فليس لمثله أن ينحاز إلى سواه من المؤسسات العاملة للإسلام . . . وهكذا ظل منقسم الرأى بين الأزهر والإخوان ، فهو فى أعماق مشاعره إخوانى ، ومن حيث الانتماء أزهرى . . وقد استمر فى هذا التنازع حتى وقع القدر باستشهاد الإمام البنا واحتجاب الجماعة رسمياً عن الساحة ، ثم جاء دور البلاء فكان النكال الرهيب الذى صُبَّ على أقطابها وشبابها ، ولاسيما أولئك الأبطال الذين خاضوا ملاحم الجهاد للدفاع عن الأرض المقدسة ويقول الشيخ : لقد رأيت من ذلك ما يثير الدهشة ويحير الألباب ، إذ كيف يلقى مستحقو التكريم مثل هذا العذاب الأليم ! . وأدركت باقتناع تام أن وراء المحن أعداء الإسلام ومخالب الاستعمار ، الذى لم يزل جاثماً على صدر الكنانة .

ويتابع الشيخ : لقد كان لتلك الأحداث الشاذة أثر بعيد فى إعداد النفوس لقبول ثورة الضباط عام ١٩٥٢ ، فلما استوت على سوقها ، وقضت على

جميع الأحزاب السياسية ، إلّا جماعة الإخوان الذين فَسَحَتْ لهم مجال العودة إلى نشاطهم ، بادرت إلى تجديد اتصالى بهم وفى صدرى أمل قوى بأن العهد الجديد سيفضى حتماً إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتحقيق المجتمع المثالى الذى يحلم به الإخوان ، وذات مساء ، وفى أعقاب الحديث الأسبوعى ، أعلن عن حديث خاص للمرحوم الدكتور عبد القادر عودة وكيل الجماعة آنذاك يلقيه يوم الخميس فى المركز العام . . وحضرت ذلك الاجتماع وكان تقديرى السابق أن الدكتور عودة كاتب ومفكر أكثر منه محدثاً ، ومع ذلك فقد استهوانى حديثه ذاك وترك فى نفسى من التأثير ما جعلنى أعتقد أن تغيير الفكر أساس لتغيير السلوك . . وكان مما قاله يومئذ : « نحن فى بلد يحكمه نظام دستورى ، أساسه سلطة الأغلبية ، فإذا استطعنا أن نحشد الأكثرية تحت شعار « لا حكم إلا بالقرآن » فذلك هو السبيل الدستورى لتطبيق الشريعة الإسلامية .. » .

بهذه الكلمات الموجزات تحققت أن الأزهر يعلم ويفقه وينشر دعاته ووعاظه وخطباءه فى كل مكان ، ولكنه لا يهتم بمبدأ تجميع الأغلبية للمناداة بالمطلب الواحد الذى هو تطبيق النظام الإسلامى الحاكم ، على حين يصبُّ الإخوان الرأى العام فى قوالب دستورية أخذاً بالأسباب الموصلة إلى ذلك الهدف ، دون التفات إلى أهواء الناس ، بل التزاماً بقول الله تعالى : ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون** ﴾ سورة النور ٥١ .

فى هذه الليلة فقط أحسست أن ما مضى من عمر اتصالى بجماعة الإخوان المسلمين لم أكن فيه إلا سلبياً أسمع ولا أرى داعياً للانتماء إلى هذه الجماعة ، على الرغم من إعجابى الكبير بروحانية الإمام الشهيد أما الآنَ فقدِ تحولت طاقتى كلها للعمل على دعوة الناس للانتظام فى سلك الجماعة . ووفقنى الله فأحدثت فى مركز إمبابة الجيزة أكثر من عشرين شعبة ، وانتخبنى إخوانى رئيساً بمركز الجهاد بهرمس ، واختارنى إخوانى فى كلية اللغة العربية بالأزهر مسئولاً عن نشاط الجماعة فيها . .

ثم يقول فضيلة الشيخ : فى هذا الجو المواتى لمسيرة الدعوة انفجرت

صاعقة جمال عبد الناصر فى صفوف الجماعة . . وكأنه قد فرغ لهم بعد أن تخلص من الأحزاب الأخرى ، فسلط عليهم ضروب الإرهاب فملأ بهم السجون والمعتقلات ، ووكل بهم عيونه وأجهزته فى كل موقع ، ثم لم يكتف بهذا فأصدر قراره بمنع المعتقلين ، منذ يوليه ١٩٥٢ إلى يوم صدور دستوره ، من ترشيح أنفسهم لعضوية السلطة التشريعية ، ثم عزل من لم يشمله الاعتقال عن طريق اللجان المكلفة فحص طلبات الترشيح . . وبذلك عزله مرتين أولاهما بالقانون والثانية بأساليب المباحث . وقد ترتب على ذلك شطب اسمى من دفاتر الناخبين فى بلدتى وعزلى سياسياً ، وكل ذنبى أنى أنادى بتطبيق شريعة الله ! . وقد زعمت مباحث الطاغية أنها لا تحارب الإخوان كدعوة بل كتنظيم ، والواقع أنها إنما تحاربهم تنظيماً ودعوة ، ولا أدل على ذلك من أن تطبيق الشريعة ظل أملاً يراود الجماهير حتى الساعة دون أن تستجيب له هذه الثورة ، التى ما زالت تتجربه وتدأب فى تقويضه ومطاردة دعاته . وحسبنا أن نتذكر أنها ضربت الإخوان عام ٥٤ وضربت القضاء الشرعى عام ٥٦ ودمرت الأزهر باسم تطويره عام ٦١ واغتصبت أوقاف الأزهر ومساجده عندما قررت التحول الاشتراكى ، ثم ضربت الإخوان أخيراً تزلفاً إلى روسية بقرار أصدره الطاغوت من موسكو عام ٦٥ يقضى باعتقال كل من سبق احتجازه من الإخوان ، ثم ضربت كل تجمع إسلامى بعد ذلك تحت مختلف العناوين والشعارات ، ومن ثم قبضت يدها فمنعت رواتب العاملين فى بعض المعاهد الأزهرية ، ولم تبن معهداً أزهرياً واحداً ، بل ولم ترع ما بناه الشعب من مئات المعاهد الدينية ، اللهم إلا على طريقة ذر الرماد فى العيون .

وتتلاحق ذكريات الشيخ دون ترتيب حتى تطل به على تجاربه النفسية فى المعتقل الأول الذى واجهه سنة ١٩٥٤ عقيب حل جماعة الإخوان . .

لقد تداولته سجون امبابة بمحافظة الجيزة والسجن الحربى وغياهب العامرية . . فأحدث كل منها فى نفسه جراحات لا تندمل ، وكان أكبرما يعانيه منها ذكر والدته وشقيقته اللتين لبثتا وحيدتين فى المنزل ، حتى أدركه الله ببعض العزاء حين قيض له أحد الحرس الطيبين ينقل إليهما بعض رسائله المختلسة ، تذكرهما بما لقيه أولو العزم من الرسل ، وما عاناه إمامهم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ، فى شعب أبى طالب وما تحمله من عدوان

السفهاء ، وما سبق ذلك من المحن التى ابتلى بها يوسف منذ قذف فى الجب ، حتى سنوات السجن السبع . . رجاء أن تسرى عنهما من وحشة الوحدة وثقل الفراق . . ومع ذلك فقد وقع ما كان يحذر ، إذ أصيبت الوالدة بمرض السكر الذى ما زال يتفاقم بها حتى لقيت وجه ربها . . على أن رحمة الله لم تتخل عنه قط ، فعلى الرغم من نعومة النشأة التى اكتنفته معظم حياته ، قد استطاع أخيراً أن يروض نفسه على قبول الواقع تأسياً بما يراه من عظيم البلاء ، الذى يواجهه إخوانه على أيدى مخلوقين ينتسبون بهويتهم إلى الإسلام وهو منهم براء ، واهتداء بمضمون الحديث النبوى القائل « أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » ثم هبت عليه وعلى إخوانه النفحات الإلهية فأحالت ظلمات السجن فى معتقل العامرية نوعاً من رياض الجنة . . إذ كان فى ذلك السجن ما يزيد على الألف من قادة الجماعة ، فما لبثوا أن نظموا للمعتقلين برامج ثقافية ملأت فراغهم ووفرت لهم زاداً كريماً من الثقافة الإسلامية ، عن طريق محاضرات يلقيها منهم متخصصون فى مختلف الفنون . . وقد استمر هذا الخير طوال المدة التى قضوها بعد مرحلة التعذيب ، التى توقفت على أثر صدور الأحكام التى أملاها الطاغوت على المحاكم الصورية . .

س : لو تفضلتم فحدثتمونا عن أعمق الرجال تأثيراً فى تكوينكم الفكرى والروحى . .

جـ : لا أعلم ـــ بعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله ـــ وخلفائه الراشدين ثم بعد شيوخ أسرتى ـــ أحداً أعمق أثراً فى تفكيرى وتصورى الإسلامى من ثلاثة رجال .

أما أحدهم فهو الإمام حسن البنا تغمده الله برحمته ، وقد سبقت الإشارة إلى بعض أثره فى رؤيتى الفكرية والروحية ، ويأتى بعده خليفته الأول الأستاذ حسن الهضيبى ذو الشخصية الصلبة الباهرة والنظرة العميقة ، والإخلاص الذى جعله خير عوض عن الفقيد الشهيد ، ثم نائبه المفكر العالم الدكتور عبد القادر عودة الذى أسلفت الإشارة إلى أثره الفكرى فى انتزاعى من التردد بين الأزهر والإخوان . .

وإذا كان الإنسان ابن بيئته حقاً فلا عجب أن تمنح هذه البيئة فضيلة

الشيخ كل الزاد الروحى والعقلى الذى جعل منه ذلك البطل المنافح الذى نهض بعبء الواجب بعد أن ناءت بحمله كواهل العلماء ، الذين أسكتهم الرعب وحب الدنيا عن الصدع بكلمة الحق . . ورحم الله شوقى لقوله .

رتب الشجاعة فى الرجال قليلة وأجلهن شـجاعة الآراء

وقد بقى من السؤال ما يتعلق بالأعمال التى وليها حتى الآن زيادة على ما سبق ذكره منها ..

قال الشيخ : لقد استغرق عملى فى التدريس ما بين العامين ١٩٥٥ ، ١٩٧٢ ، ثم نقلت كما قدمت إلى مكتب شيخ الأزهر لأكون مديراً له مدة عشرة أشهر ، أيام كان الإمام الأكبر هو الدكتور محمد محمد الفحام ، وقد أتاح لى ذلك العمل فرصة الاطلاع على العجائب . لقد كنت ألوم الأزهر وأتهمه بالسلبية والصمت إلى أن واجهت واقعه المذهل بنفسى ، وهو أن الأزهر لا يحظى شىء من عمله بالنشر إلا ما يطلب منه ، أما ما يمثل رايه الحق وما يتفاعل به داخله فلا سبيل له إلى النور . . وكذلك اكتشفت أن رجاله ليسوا سواء ، لأن منهم المجاهدين بحق ومنهم دون ذلك السلبيون الذين يعددون أياماً ليقبضوا راتباً . . .

وأنا الآن باحث فنى فى مجمع البحوث الإسلامية ، وعضو فى مجلس الشعب . . .

والحوار مع مثل الشيخ لا ينبغى أن يغفل جانب العمل السياسى بنظر الوسط الخاص بعلماء الإسلام ، فالدعاية الشيطانية التى حملها بعض أذناب الغرب فى هذا الصدد تحاول عزلهم عن ميدان الحكم ، ليخلو الجو للجهلة الكبار ، الذين لا يعرفون من غاية للسياسة إلا ترديد ما قرأوه وما سمعوه من أفكار التلموديين والصليبيين ، وما يملى عليهم من وراء الستار ، مع الغفلة المطبقة عن حقائق الإسلام .

والشيخ حين يتحدث عن السياسة فحديث المجرب الذى اكتوى بنارها ، وعارك تقلباتها ، واكتشف الخبىء من ألاعيبها ، وبخاصة فى ظل ذلك الكابوس

الساداتى الذى لم يتورع عن استخدام كل الوسائل لخنق كل صوت حر داخل المجلس وخارجه حتى فى بيوت الله ، التى أراد إخضاع منابرها لموحيات كامب ديفيد ، والزم كل تجمع يريد الاشتغال بالسياسة أن يقر اتفاقيته . . أولاً حتى كادت الساحة أن تخلو من المجاهرين بكلمة الحق . إلا بعض المغامرين من النواب ، وفى مقدمتهم هذا الشيخ الذى كان وجوده بينهم فرصة مباركة لإطلاق كلمة الإسلام المظلوم ، فى كل مناسبة صلحت للتذكير بشريعة الله ، فكان شاهد الحق على المتنكرين لها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وما أحوجنا هذه الأيام إلى استعادة ذلك الماضى الرهيب الذى كان الباب الخلفى لكل الفواجع التى أعقبت اتفاقيتى كامب ديفيد ، من غزو إسرائيل لبنان ، إلى مذابح صبرا وشاتيلا ، إلى المجزرة الكبرى التى ينزلها اليوم القتلة الأقربون فى الشمال اللبنانى ، فتكتسح بلهيبها الآلاف من أولئك المساكين الذين شاء لهم الاستعمار والخيانة أن يتيهوا فى الأرض لاجئين ومشردين .

س : ممارستكم للسياسة البرلمانية ظاهرة تكاد تكون جديدة فى مصر بالنسبة إلى علماء الإسلام فكيف وجدتم هذه التجربة . . وهل من شأنها تشجيع العلماء على اقتحام هذه الحلبة ؟ .

جـ : اشتغال العلماء بالدعوة لا بد منه لتوعية الجماهير ، ولكن أثره لا يمتد إلى صنع القوانين ، التى نرجو لها أن تكون قوالب للشريعة الإسلامية ، وهذه القوانين لا تصنع إلا فى صميم السلطة التشريعية ، وقد لا يرى معظم الناس ارتباط الرخاء بالإيمان وارتباط النعيم الأخروى بالإيمان ، بل هناك من لا يرى ارتباط الإسلام بالحياة ، ولذلك كان اعتقادى راسخاً أن على علماء الإسلام أن يقتحموا هذا الميدان . . أما كيف وجدت هذه التجربة ، فإنى أسوق ما يأتى على سبيل المثال :

أ ـــ خضت المعركة الانتخابية فى المرتين الأولى والثانية سنة ١٩٧٦ ، ١٩٧٩ تحت شعار « أعطنى صوتك لنصلح الدنيا بالدين » وقلت لجماهير الناخبين : لو أن شيوخ الإسلام بعثوا من قبورهم ، وانضموا إلى المعاصرين ، وملأوا الدنيا خطابة ومناداة بتطبيق

الشريعة الإسلامية ، ما استطاعوا غير تعبئة الرأى العام ، وللرأى العام قوته وأثره ، ولكن لا سبيل إلى تغيير القوانين الوضعية لتكون شرعية إلا عن طريق مجلس الشعب ، الذى له وحده سلطة التشريع ، واستجاب الناخبون بما يشبه الإجماع المنقطع النظير وبحماسة متدفقة على الرغم من موقف السلطات التى كانت تستهدف إسقاطى فى الانتخابات بتخطيط ظالم .

ب ــ ودخلت مجلس الشعب ، وقلت : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر » وكنت أتصوره المجتمع المسلم بعد أن نص دستوره على قداسة الإسلام ، واعترف أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع فى مصر ، فيكفى أن أتقدم بمشروعات القوانين الإسلامية ، وأدعو المجلس إلى الموافقة عليها . . فتقدمت بمشروعات قوانين تغطى النواحى الجنائية والمدنية والاجتماعية والاقتصادية وإجراءات التقاضى ، وأحيلت إلى اللجان المختصة ، وألقيت بين يديها كلمات ، قابلها المجلس بالاستحسان البالغ ، وكان قد حدِّد لكل كلمة زمن لا تتعداه ، ولكن المهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب أعلن أن وقت الكلام قد انتهى ، ففوجىء المجلس بهذا التنبيه ، وقرر الأعضاء بالإجماع منحى الوقت اللازم استثناءً من القاعدة فكان هذا قرار مجلس وهو ثابت فى المضابط ، واستبشرت خيراً ، وقلت هذه فاتحة تبشر بتحقيق الأمل ، جمعت بعدها ثلاثمائة وأربعين توقيعاً من أعضاء المجلس البالغ « ٣٦٠ » وكان هؤلاء العشرون بين غائب ومسيحى وإن كنت قد بينت فى كلمتى ، أنه لا ضمان لحقوق غير المسلمين إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً صحيحاً .

فماذا جرى بعد هذه المقدمات الرائعة ؟ .

جـ :لعبت الثورة فى مصر بأجهزتها المختلفة دوراً خطيراً ، جعل إرادة الأعضاء تابعة لإرادة القيادة الحزبية ، ولو فى هذه الأمور التى ترتبط بالإسلام ، وسرعان ما تراجع هؤلاء الأعضاء عن التأييد باسم الالتزام

الحزبى متناسين ما يجب من الالتزام الدينى ، ومع ذلك لم أيأس ومضيت فى محاولاتى حتى قرر ما يقرب من ثلاثمائة عضو القيام بعمرة وزيارة فى طريق عودتهم من الخرطوم للقاهرة فى يناير ١٩٧٩ ، بعد انتهاء أعمال المؤتمر المشترك لمجلسى الشعب المصرى والسودانى ، فانتهزت الفرصة وبايعتهم هناك وبايعونى فى الحرمين الشريفين ، على أن تكون أصواتهم لشرع الله ، لا يغلبهم على ذلك انتماء حزبى .. . وتمت البيعة قاطعة واضحة ، فما كان من الرئيس أنور السادات ، بعد أن ظفر بموافقة هذا المجلس باستثناء خمسة عشر عضواً ــ كنت أحدهم ــ على اتفاقيتى كامب ديفيد ، ما كان منه إلا أن أصدر قراراً بحل مجلس الشعب بعد استفتاء ملفق ، وأسقط معظم هؤلاء الذين تعاهدنا معهم فى الحرمين الشريفين .

د : لجأت إلى سياسة الاستجواب ، وهو اتهام لا بد فيه من حشد الأدلة الدامغة لإلجام الخصم وتعرية موقفه أمام الرأى العام ، وكان استجوابى لرئيس الوزراء عن تصريح السادات بألَّا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة . وقد حشدت فى هذا الاستجواب البينات القاطعة على كمال السياسة الإسلامية وتفوقها على كل نظام فى تأمين العدالة والوحدة والأمن لأصناف البشر على اختلاف معتقداتهم ، وبلغت صفحاته العشرين ، قدمته إلى رئيس مجلس الشعب ليدرجه فى أعمال أقرب جلسة . غير أنه جبن عن مجرد تقديمه ، فذهبت به إلى القصر الجمهورى حيث قدمته بنفسى إلى الدكتور زكريا البرى ــ وزير الأوقاف آنذاك ــ ليبلغه إلى رئيس الجمهورية ، وضمنته كذلك التنديد بقول السادات : إن قدوته مصطفى كمال أتاتورك . . ثم كان ما كان من تصادم مع الحزب الوطنى والغالبية المؤيدة للحكومة بالحق والباطل .

وهناك استجواب آخر وجهته إلى جمال الناظر وزير السياحة والطيران المدنى عن تقريره الخمر فى المدرسة الفندقية التابعة لوزارته فى بلد دينه الرسمى الإسلام ، والشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع .

وكان لى استجواب كذلك ضد عربدة الإعلام ، ومن قبل كان لى استجواب ضد الأستاذ عبد المنعم الصاوى وزير الإعلام عن تصريحه فى أمريكا بأن الشريعة الإسلامية لن تطبق فى مصر .

وكان لى استجواب موجه إلى الدكتور عبد المنعم النمر عن تفريطه كوزير للأوقاف فى استرداد نحو ثلاثة وسبعين ألف فدان ، كانت البقية الباقية من أراضى الأوقاف المغتصبة من الأزهر والمساجد عام ١٩٦١ إبان التحول الاشتراكى ، وقد قضى فيها القضاء بحكم نهائى وباتٍّ بردها لوزارة الأوقاف سنة ١٩٧٣ ، وفرط وزراء الأوقاف المتعاقبون فى المطالبة بتنفيذ هذا الحكم . وكان لى استجواب موجه إلى وزير العدل حين خالف المفتى الشيخ جاد الحق على جاد الحق آنذاك قرار مجمع البحوث الإسلامية ، الذى يقضى بأن ثبوت هلال رمضان فى بلد يوجب على جميع البلاد الإسلامية المشتركة مع بلد الرؤية فى جزء ولو يسيرا من الليل أن تصوم ، وقد ثبت الهلال عاماً من الأعوام فى العراق والكويت واليمن ، فلم يعتمد المفتى هذا الثبوت .

وكذلك شهدت قبة مجلس الشعب معاركى ضد قانون السادات للأحوال الشخصية ، وهى معارك خضتها ضد الثلاثة الكبار محمد عبد الرحمن بيصار شيخ الأزهر السابق ، وجاد الحق على جاد الحق مفتى مصر السابق ، وعبد المنعم النمر وزير الأوقاف سنة ١٩٧٩ . . هذه الاستجوابات وغيرها من المواقف البرلمانية ، كانت تحتاج إلى مستمعين يقدسون الإسلام ، وإلى أعضاء يعرفون للقرآن حرمته وللسنة حجتها ، ولا يغلبهم على انتمائهم للإسلام انتماؤهم الحزبى . . ولكننى لم أجد فى مجلس الشعب إلا أعضاء ياتمرون بأمر الحكومة ، ولا يأتمرون بأوامر الله ، ومن هنا أقرر أنه يجب على العلماء أن يرشحوا أنفسهم لعضوية مجلس الشعب باعتبار أن الهيئة التشريعية هى المجال الدستورى الوحيد لتغيير القوانين ، وإصلاح السلطة القضائية والتنفيذية ، والحكم بما أنزل الله .

ولا بد أن أشير إلى أن سلطة الرقابة التى وضعها الدستور فى يد عضو مجلس الشعب كفيلة بإصلاح الأداة الحاكمة ، لو كانت هذه السلطة فى يد عضو صالح . ولا أنسى أن استجوابى للأستاذ عبد المنعم الصاوى بسبب قولته

فى أمريكة . « لن تطبق الشريعة الإسلامية فى مصر » كان سبباً فى إخراجه من الوزارة اتقاء للحرج البالغ الذى كانت ستتعرض له الدولة لو نظر هذا الاستجواب ، ومما هو جدير بالذكر أن الاستجواب يسقط إذا أخرج من الحكم الوزير المستجوب ، كذلك أذكر أن المرحوم المستشار أحمد سميح طلعت الذى كان وزيراً للعدل ، أنذرته فى يناير ١٩٧٧ ، بأنه إذا لم يقدم ما عند وزارة العدل من تشريعات إسلامية خلال خمسة أشهر ، فإنى سأستجوبه فلما استجوبته ، أجرى تعديل وزارى لم يخرج بمقتضاه من الوزارة سوى وزير العدل ليسقط الاستجواب ، وقد لقينى رحمه الله وأخبرنى بالخلفيات التى وراء خروجه من الوزارة ، وهى تدل على اتجاهات غير إسلامية ، ولا مجال لتفصيل القول فيها الآن ، وآخر ما أذكره من أمثلة ذلك ،وقد سبقت بعض الإشارة إليه ، أن المعاهد الدينية الأزهرية كانت قد أهملت من قبل الدولة ، وبدأت الشكوى من المعاهد الموجودة فى دائرتى ، وهى ثلاثون معهداً دينياً أزهرياً ، منها خمسة تئن من الإهمال ، فلما اتصلت بإدارة المعاهد الأزهرية علمت أن الإهمال قد إنتظم مئتى معهد على مستوى الجمهورية المصرية ، فأعلنت فى جريدة « الأهالى » أننى سأقدم استجواباً لرئيس الوزراء الدكتور فؤاد محيى الدين باعتباره الوزير الذى يسأل دستورياً عن الأزهر ، إلى جانب وضعه كرئيس للوزراء ، وما إن أعلن هذا الاستجواب فى جريدة الأهالى يوم ١٩ / ١٠ / ١٩٨٣ حتى نشرت الأهرام يوم ٢٥ / ١٠ ما يفيد أن اللجنة الوزارية قد اتجهت إلى تحقيق الكثير من المطالب التى طالت مساعينا وراءها . وليس هذا التجاوب سوى الأثر الناطق بأثر الرقابة على الدولة . إذا استخدمها نائب حر لا يخشى فى الله لومة لائم .

س : كان لمواقفكم المشرفة فى قضية تحكيم الشريعة المطهرة رد فعل عميق فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، فيرجى تزويد قراء هذا الكتاب بالمعلومات التالية حول الموضوع :

ا ــ هل تجدون لصوتكم فى هذا الصدد صداه المنشود فى أوساط المسئولين ؟

ب ــ هل تأملون أن يكون لهذا المطلب الشعبى العام استجابة فى

أوساط المسئولين ؟

جـ ــ هل تعتقدون أن للسياسة الدولية علاقة بتأخير الاستجابة حتى اليوم ؟

د ــ هل تتوقعون أن يكون لخطوة السودان فى هذا المجال تأثيرها الإيجابى فى مصر ؟

جـ : ا : قبل دخولى مجلس الشعب لم يكن هناك نص دستورى على أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للقوانين ، ولم تكن هناك لجان لتقنين الشريعة الإسلامية ، وكان صوتى ينطلق فى مجلس الشعب فيجد الصدى ولا يجد القرار ، ثم تجمعت عوامل أدت إلى النص فى المادة الثانية من الدستور على أن الإسلام دين الدولة الرسمى ، وهذا ليس بجديد ، ولكن الجديد هو النص على أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع ، وجزى الله الزملاء الذين أبلوا فى هذا بلاء حسنا خير الجزاء .

ولجنة تقنين الشريعة الإسلامية فى مجلس الشعب على الرغم من كل ما صادفها من عقبات قد انجزت عملها تماماً ، بل وأتمت طباعته فى التشريعات الاقتصادية والاجتماعية والمدنية والجنائية ، وفى التقاضى ولم يبق سوى التطبيق . وهذا يؤكد علينا ضرورة المضىّ فى هذا الطريق ، ويؤكد على العلماء ضرورة الإقدام لطلب عضوية مجلس الشعب لإرغام المسئولين على الاستجابة المنشودة .

ب ــ نعم آمل أن يكون لهذا المطلب الشعبى العامَ استجابة قريبة ، ولن يموت حق وراءه مطالب والشعب كله يطالب ، وإن كبلته قوانين الطوارىء للعام الثالث على التوالى ، وإن حيل بين طلائعه والدعوة والجهاد ، وإن زج بأبطاله فى السجون والمعتقلات . . والظلام الكثيف يبدده النور الخفيف فكيف بالنور الوهاج ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

ص : جـ ــ لا شك أن عالمنا العربى والإسلامى ، وقد منى بالاستعمار الزاحف عليه من الخارج بعد أن أصيب بالتمزق الذى بعثر صفوفه .

وفرق كلمته داخل الدوائر العربية والإسلامية ، قد أصبح فى وضع دولى تبخرت منه العزة الإسلامية ، لأن الذين ينسون الله ينسيهم الله أنفسهم ، فالذين يدورون فى فلك الغرب ، والذين يدورون فى فلك الشرق ، إنما يدورون جميعاً فى أفلاك قوى عالمية لم تتفق إلا على محاربة الإسلام ، وهذا هو السر فى تأخر الاستجابة حتى اليوم للمطلب الشعبى على مستوى العالم الإسلامى المتمثل فى تطبيق الشريعة الإسلامية . . و ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ .

د ــ خطوة السودان فى مجال تطبيق الشريعة الإسلامية لها تأثيرها الإيجابى فى شعب مصر ، ومصر بلد الأزهر ، ولولا التعتيم الإعلامى الكثيف على اتجاه السودان نحو تطبيق الشريعة الإسلامية لوجدنا الأثر فعالاً ، ولكن هناك قوانين الطوارىء . والقوانين المقيدة للدعوة فى المساجد ، والمباحث والمخابرات وتثاقل المسئولين و . . ﴿ **عسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين** ﴾ .

س : يلاحظ أن بادرة السودان بالنسبة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية تكاد تكون مقصورة على السلبيات إذ تقوم على منع المخالفات لروح الإسلام ومعاقبة مقترفيها ، ولم تتعرض للنواحى الإيجابية التى من شأنها تقديم الحلول الحاسمة لمشكلات المجتمع فى نطاق الاقتصاد والتعليم والعدالة الاجتماعية وما إلى ذلك ، فما رأيكم فى هذا ؟ وما توقعاتكم بشأنه ؟ .

جـ : الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، والمبادرة السودانية بالنسبة إلى تطبيق السريعة الإسلامية لم تتضح ملامحها عندى ، ولكننى أقول إن إذعان الشعب والدولة لله يجب أن يكون متكاملاً ، وأعتقد أنه سينمو وسيتكامل ما دامت روح الإيمان والإذعان مهيمنة ، وهذا هو العنصر الذى انفصل عن التصديق ، فقد كان الكفار يعرفون صدق الرسول كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم مع التصديق القلبى كانوا يكتمون الحق ويجحدون بآيات الله ، فإذا وجد الإذعان والانقياد لرب العالمين ، فإن

المستقبل كله خير بإذن الله ، وما أروع قول الشاعر :

إن الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيصير بدراً كاملا

م : التمزق الذى ينتاب العرب هذه الأيام قد بلغ أشده بالمحن الضخمة التى زلزلت كيانهم وأطمعت بهم أعداءهم ، فما السبيل إلى إصلاح هذه الكوارث ؟ .

ص : لا بد من وضع خطة تشارك فيها جميع القوى وتتكاتف بدءاً من منبر المسجد إلى ميكروفون الإذاعة إلى شاشة التليفزيون ، إلى الكلمة المكتوبة فى الجرائد اليومية ، إلى الاتصالات النشيطة بين الحكام والدول . ولا بد أن يجرى ذلك على نهج إسلامى بأمل لا يعرف اليأس ، وهمة لا تعرف الملل ولا الكلال ، لا بد أن يعرف الناس أن الوحدة إيمان وأن الفرقة كفر ، على حد تعبير القرآن الكريم فى سورة « آل عمران » ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتواالكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين** ﴾ — **أى بعد وحدتكم متفرقين** — ﴿ **وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم** ﴾ آل عمران ١٠٠ ، ١٠١ .

م : ما الكمة التى توجهونها إلى الجيل الإسلامى الجديد ؟ .

ص : الكلام فى هذا المضمار كثير ، ولكننى أكتفى بقول ربى جل علاه ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ! قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى** ﴾ سورة طه ١٢٣، ١٢٧ .

وأطالب الجيل الإسلامى الجديد بالدراسة العميقة لدينه والاستيعاب الواعى لأحداث عصره ، والفهم الكامل للتاريخ الإسلامى ، كل ذلك سيوحى إن شاء الله بخطط الإصلاح للقلوب المؤمنة والأرواح الموقنة و ﴿ **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور** ﴾ .

الشيخ عبد الحميد عباس

أخرج الإمام أحمد ومسلم والنسائى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ما خلاصته :

أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مرّ به ذات يوم رجل من أصحابه فأخبر من حوله أنه من أهل الجنة ، وكان بينهم عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما فتاقت نفسه إلى معرفة السبب الذى من أجله استحق هذه المنزلة ، فمضى إليه وما زال به حتى نزل ضيفاً عليه وجعل يلاحظ تصرفاته علّه يعثر بجديد لا يعلمه من مزيد العبادة ، فلم ير شيئاً يسترعى انتباهه حتى إذا متع النهار جاء يحدثه قائلاً : لقد سمعت نبى الله يعلن أنك من أهل الجنة ، فأحببت أن أعلم عملك الذى أهّلك لهذاالخير فلم أر ما لم أعلم .. فبالله عليك إلاّما أخبرتنى بم استحققته ؟! . . فقال الرجل : ما هو إلا مارأيت يا ابن أخى إلا أنى لم أبت ضاغناً على مسلم(١) .

والحق أقول ما ذكرت هذا الخبر المأثور قط إلا خطرت لى صورة الشيخ عبد الحميد عباس ذلك لأن من أبرز خلال هذا الرجل ، التى تطالعك من خلال تصرفاته جميعاً ، سلامة قلبه من أسباب الكراهية ، وانفتاحه لكل وافد أو زائر على اختلاف مستوياتهم وتعدد اتجاهاتهم . .

لقدعرفت هذا الرجل مطالع وجودى فى طيبة المباركة ، وكان أول لقاء جمعنى به فى مسجد قباء ، الذى كنت أقصد إليه بين الحين والحين لأداء الركعات المحققة أجر العمرة ، كما ورد فى الحديث الشريف . . وقلما غشيت ذلك المسجد المبارك إلا وجدته سابقاً إليه مؤتماً بإمامه أو نائباً عنه . . ثم شاء الله أن يكرمنى بجوار هذا المسجد فاستأجرت إحدى الشقق الثلاث فى البناء الذى هو من أملاك الشيخ مقابل المسجد . . ويومئذ عرفت من فضائله

١ ــ انظر « الترغيب والترهيب » ج ٥ ط التجارية ١٣٨١ هـ رقم ٤١٨٤ .

العملية ما شدّ قلبى وما يزال يشدّه إليه . .

أوّل ما عرفت من هذه المآثر أن كل ما تحت الشقق من المنازل والحجرات موقوفة رباطاً على طلبة العلم ، والمساكين من المسلمين ، وكلها مجهّز بالماء والكهرباء ، ثم جاءت محنة الأفغان وتوافد لاجئوها إلى المدينة فاستحصل كثير منهم على حق الإقامة بكفالته ، ولم يكتف بذلك حتى وفّر لهم المساكن المريحة ، وأنشأ لهم مسجداً يعمرونه بالصلاة مزوداً بكلّ ما يعوز المساجد .. وهأ نذا أشهد اليوم عمارتين من أضخم ما ضمّت منطقة قباء من العمائر ، وما أجملها بناء وأغلاها مكاناً ، على مدخل طريق الهجرة الجديد ، وقد خصص الشيخ إحداهما ، وفيها اثنتان وعشرون شقة ، لسكن الفقراء .. ولكى يتصور القارىء قيمة هذا العمل نُذكّره بأن جماعة من الأطباء ساومته على استئجار المخصصة من العمارتين للاستثمار بمبلغ نصف مليون ريال .. وقد تساوى أكثر من ذلك ..

وقبل ذلك حضرنا صفقة فى مجلس الشيخ على عمارة ذات ثلاث شقق دفع ثمنها ثلاثمائة ألف ريال ، وشهدنا على عقدها فى ذلك الصك ، وأشهدنا أنها موقوفة على الفقراء . . وقد شاء الله أن يجعلها مسكناً لثلاث من أسر المنكوبين السوريين النازحين من حماة وحمص كلّما غادرتها واحدة حلّت مكانها أخرى .

وأذكر أنى سجلت فى مفكرتى ذات يوم القصة التالية : وهى أن الشيخ عبد الحميد قد قطع أحد عقاراته مربعات للبيع ، فكان ثمن الواحد ... , ٢٠٠ ريال ، فجاء إلى أحد معارفه يقول له : علمت أنك لا تملك منزلاً ولا أرضاً للبناء ، وقد حجزت لك ولفلان أحد المربعات ، فخُذَا لى موعداً لدى المحكمة أُحضُره لتسجيله لكما . وقد شاء الله أن تقترن هذه القصة بأخرى من نوعها وهى أن ذلك الرجل الذى كلفه الشيخ تعيين موعد التسجيل — وهو صديق أعرفه — جاء بعد الفراغ يقول للشيخ : أتذكر إذ أخبرتنى بشأن الأرض ؟ . . كان لدىّ يومئذ رسالة وصلتنى من صديق سورى يطلب إلىّ أن أوافيه بما أستطيع من المساعدة لمواجهة حاجة طارئة ، ولم يكن فى يدى سوى خمسة آلاف ريال فلم ألبث أن حولتها إليه ، وفى اليوم نفسه وافيتنى بعرضك الكريم .

وأنا هنا أتساءل ولا بد أن يتساءل معى القارىء : رجل يهب خمسة آلاف ، وهى كل ثروته لنجدة صديق معسر ، فلا يلبث أن يأتيه العوض الموعود عشرين ضعفاً . . فأى الهبتين أكبر . . وبأى مقياس وُزِنَتَا ؟ ! . . . من العسير بل من المستحيل أن تعثر على الجواب السديد فى تقدير حال كهذه تتجاوز معايير البشر الأرضية ، ولكنك واجد تفسيرها الحاسم فى قانون السماء . . . الذى جعل الحبة الواحدة تعطى سبعمائة ، وقد تزيد إلى ما لا يعلمه إلا خالقها.

ولا حاجة بعد ذلك إلى الموازنة بين الهبتين على أساس الحجم ، بل على أساس الأريحية المنبثقة من الثقة بما عند الله ، الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، فيعطى هذا القليل ، ويمنح ذاك الكثير ، ولكنه يوفق كلا منهما إلى استعمال ما أعطى فى مرضاته . . .

على أن العبرة التى تستحق التأمل هنا هى أن فى هذاالتسابق إلى البر علامة أصيلة لا تزال تميّز سكان هذه البقع الطاهرة من الحرمين وما حولهما ، وهى بقية من الأخلاق التى غرسها الإسلام بيد محمد ﷺ فلا تزال وستظل تؤتى أكلها بإذن ربها ، ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك . . عطاء غير مجذوذ .

وما دام الحديث عن فضائل هذا « الصّدّيقى» الحبيب فما أجد قدرة على بتره ، وأنا أرى إلى هذه الفضائل متصلة الصور والمشاهدفى سائر الأحوال . .

منذ اتخذت مسكنى فى جوار الأثيرين ، مسجد قباء ، ومجلس العباسية ، الذى أعتبره امتداداً لروح ذلك المسجد العزيز ، لم أنقطع قط عن حضور هذا المجلس كل مساء ، إلا أن يحجزنى عنه مرض أو سفر . . وهو كما يصنفه العارفون بقية من التراث العزيز الذى خلفه ماضى هذه المدينة الحبيبة . . وحسبك من مجلس يضم صفوة من أعيان طيبة لا يكاد يرى خالياً من أفواجهم ، من بعد صلاة العصر حتى صلاة المغرب ، ومنها إلى موعد العشاء

الآخرة . . ولا يقتصر على رواده الدائمين بل هناك الزوار من أنحاء المملكة ، بل من مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، وبخاصة فى أشهر الموسم ، حيث يستقبل كبراء الحجاج والزوار ، وأنواع الضيفان من مختلف البلدان . . فالمجلس أبداً معمور بهؤلاء وأولئك ، موشّى بلطائف الأخبار من طرفةٌ نادرة ، وغريبة باهرة ، وقصيدة يتلوها أحد شعراء المجلس ، إلى رأى يشارك فى مناقشته مفكروه ، ويختم ذلك بقراءات من حديث رسول الله ﷺ تحيى موات القلوب ، وتقرب من رضوان علام الغيوب . . والشيخ فى كل ذلك مرمى أبصار الجلساء ، ومحور أسماعهم ، يشارك فى الطرفة والشعر والأدب فى تواضع يضاعف من تقديره وحبه .

وإن أنس لا أنس ما شهدته لأول مرة فى جانب أحد المجالس من أكداس الأغطية معبأة فى أغلفة أنيقة من اللدائن الشفافة ، وقد علمت أثر ذلك أنها معدة للتوزيع على الفقراء لحمايتهم من برد الشتاء ، ومثل ذلك من أكياس الأرز لتوزع فى المناسبات على مستحقيها من الرجال والنساء . ثم أَلِفتُ ذلك من هذا الرجل حتى لم أعد أعيره التفاتاً .

حتى إذا أقبل شهر رمضان رأيت الجديد من وفود الناس فرادى وجماعات يسلمون ويجلسون ، فيشربون قهوتهم ويتسلمون نصيبهم من مال لا ينتهى كيس منه حتى يعقبه غيره . . وبين هذه العطايا ما يرتفع إلى المئات والآلاف . وكثيراً ما نرى رجالاً يقدمون ليعرضوا حاجتهم إلى معونة الشيخ لسبب قد يكون وربما لا يكون ، فيأخذون نصيبهم من بره ، وما هى سوى أيام حتى يقبلوا كرة ثانية ليقدموا العرض نفسه ، فلا يضيق بهم بل يزودهم بما قدره الله لهم . . .

وإنى لأكتب هذه الأسطر وفى ذاكرتى صورة أولئك الباكستانيين الذين لم أر مثلهم فى الكدية والإلحاح إلا شحاذى بومباى ، الذين كانوا يحيطون بنا كالقيد حول اليد فننفحهم بما قدر الله ونهرب منهم إلى السيارة ، فإذا هم يسابقونها حتى تتاح لها فجوة تمرق منها . .

أقبل اثنان من هؤلاء الباكستانيين إلى مجلس الشيخ ، وفى كليهما من القوة

والمتانة ما يهدم جداراً ، وشرعا يرطنان بما يصور حاجتهما إلى العون ، فدفع إلى كل منهما ثلاثين ريالاً ولكنهما بدلاً من كلمة الشكر جعلا يقلبان الهبة باستصغار منفّر . . ولما يئسا من الزيادة انسحبا غير راضيين ! . .

وفى المساء التالى أقبل آخرون من هذه الوافدة ، وجعلا يتدفقان بكلمات محفوظة ، خلاصتها : أنهم قادمون للحج مع عيالهم وقد انقطع بهم السبيل فهم ينتظرون إسعاف المحسنين.وهى قصة مألوفة تسمعها من أمثالهم أينما ذهبت أيام الحج ، وبخاصة فى عرفات ومنى . . ومع علم الشيخ بأكذوبتهم لم يلبث أن دفع إليهم بمائة ريال . . استقبلوها بالاستصغار نفسه ، وما إن جاء مساء اليوم الثالث حتى أقبلوا هم أنفسهم يكررون الطلب ويكرر لهم العطاء ولكن بمقدار دون الأول . .

وهكذا يتلاحق هؤلاء « الفتحيـون »[1] حتى ليبلغون العشرات يوماً بعد يوم . . كل ذلك والشيخ على دأبه لا يرد منهم سائلاً فارغ اليدين . . بيد أن بعض جلسائه لا يتمالكون أن يعربوا عن امتعاضهم من هذه المشاهد ، ويودون لو يمسك الشيخ عنهم كيلا يشجعهم على الابتزاز ، فلا يزيد على مثل القول إنهم يسألون فلا بد من إجابتهم ولو بالقليل .

ولا يحسبنَّ القارىء أن برَّ هذا الإنسان مقصور على قاصديه وحدهم ، بل ربما بلغه نبأ امرىء من الصالحين قد آدته حاجة ، فلا يتمالك أن يبعث إليه بما يخفف عنه ، وبين يديَّ الساعة رسالة وردت إلى الشيخ من دمشق تحمل ثناءه ، على هديته شعراً ونثراً وفيها يقول له :

وقد أرسلت لى ألفاً تماما — مع الأستاذ موسى وهو إلفى
وأرجو الله أن يعطيك عشراً — وذاك العشر مضروب بألف
وإن قصرت مكافأتى لأرجـو — لكم حسـن الجزا والأجر يكفى
فلا قصرت يمينك عن عطاء — لذى عدم تداويه بلطـف
فطب الجسم لمس من حكيم — وجودكمو جروح الفقر يشفى

---

(١) نسبة إلى « أبى الفتح الإسكندرى » بطل الاحتيال فى مقامات الحريرى .

ولعل أعجب ما فى خلق هذا الكريم تلك الابتسامة التى لا تفارق وجهه حتى مع أولئك الذين يتعذر الصبر على ثقلهم ، وأين منها تلك المضاحكة التى يصفها حاتم بقوله :

أضاحك ضيفى حين ينزل رحله ... وأوسعه البشرى ولا أتوعر

فهو يتصنع لضيفه الابتسام ليزيل وحشته ، وقد يكون عابس القلب ، أما ابتسامة الشيخ فهى أشبه بالتى يصفها زهير على وجه أحد ممدوحيه :

تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وهو قول ما زلت أشك فى صحته حتى لاحظت وجه عبد الحميد عباس وهو يواجه السائلين والمعترين بابتسامته التى لم أفقدها قط . . .

وكثيراً ما نبهت بعض إخوانى إلى هذه الابتسامة التى يشرق بها محياه وهو يقوم بخدمة المدعوين إلى مآدبه الكثيرة ، أو يوجه أبناءه وعماله لواجباتهم أثناءها ، سواء ما يكون منها لتكريم الأعزاء ، أو التى يريد بها مواساة الفقراء . . . فأقول : هل رأيتم قط وجهاً أكثر بشراً فى رعاية ضيوفه من هذا الوجه ، أو مثل هذا الوجه ؟ ! . . ولا حاجة إلى التذكير بأنّ مائدته لا تخلو من عديد الضيفان فى كل يوم ، بل فى كل وجبة طعام . .

ويعرض لى هنا قول الشاعر فى تصنيف الرجال :

ترى الرجل الضئيل فتزدريه ... وفى أثوابه أسدٌ هصورُ
ويُعجبك الطريرُ فتبتليه ... فيخلف ظنَّك الرجل الطرير

فتثب إلى ذهنى صورة هذا الرجل فى حجمه الذى يكاد يكون نسخة طبق الأصل لهيكل ابن الرومى الذى يقول فى وصف نفسه :

أنا من خف واستدقَّ فما يُثـ ... ـقل أرضاً ولا يسدّ فضاءَ

أجل . . هذا الرجل الخفيف اللحم ، يحمل فى كيانه نفساً تستطيع الصمود أمام أقسى الصدمات بما تنطوى عليه من قوى الإيمان ، وحسبك دليلاً على ذلك فى القصة التالية :

لقد وجد نفسه ذات يوم مطالباً بمائة ألف ريال لمالية الدولة ، تسديداً

لكفالة عن أحد الموظفين ، ولم يكن لديه يومئذٍ عشر هذا المبلغ ، فاحتوته حيرة لم يجد لها منفذاً ، وفى هذه الأثناء جاءه من يساومه على تأجير منزله الموروث ليكون مركزاً للتنمية الاجتماعية فى المدينة ، مقابل اثنى عشر ألف ريال لكل سنة ، وهو مبلغ يضاهى أيامئذ ثمن البناية . . ولكن على الرغم من فداحة الأزمة ، وعلى الرغم من نصائح أصدقائه بقبول العرض ، وطَّن عزمه على رفضه ، إذ كبر عليه أن يعطل مجلساً اعتاد أباً عن جد أن يستقبل الأحباب والضيفان وكبار الزوار من أهل العلم وأعيان المسلمين ، ولا يزال على ذلك السنن لا يكاد يخلو من نزيل أو نزلاء من أولئك الفضلاء ، يقيمون عنده الأيام والليالى ، وبخاصة فى مواسم الإنتاج ، الذى تتزين فيه الأرض للناظرين . . ثم لم يجد مناصاً عن أن يتخلى عن بعض أملاكه العزيزة ، فباع منها القدر الذى وفَّى ما عليه من تلك الكفالة ، وبذلك أزاح عن صدره ثقلاً غير يسير ، وخرج من الأزمة على أتم الرضى بمقدور الله ، وقد أنقذ مكفوله من البلاء ، واحتفظ هو بالمَقَرِّ الذى شاء الله أن يواصل سبيله فى الحفاظ على واحد من أكرم وأقدم مجالس المدينة الحبيبة . .

ورب قائل يعلل ذلك باليسار الذى أنعم الله به عليه ، فعلى هذا أن يتذكر أن كثيرين هم الذين يفوقونه ثروة بما لا يحصى ، ولكنهم قليلون الذين يملكون مثل طبيعته الرضية ، التى وثقت علاقتها بالله ، فهى تستقبل كل قدر منه بجزيل الشكر والحمد ، فلا يفرح بآتٍ ولا يأسى على فائت .

وما كان لأحد أن يحتمل الصدمة بمثل هذه العزيمة ، إلا أن يكون على مثل نصيبه من الإيمان بالله وحسن التوكل عليه ، وهما القوة التى تصونه من سلطان المال ، فهو ينفق سراً وعلانية دون أن يساوره خوف من فقر أو نقصان ، على حين يستعبد المالُ الأكثرين من الناس ، فيكتفون بحراسته وتعداده ، والسخى منهم هو الذى يستخدمه فى ألوان الشهوات والموبقات ! . .

فكيف بك إذا علمت أن حق الله على هذا الرجل لا يقف عند حدود المال ، بل يستحوذ على كيانه كله ، فليس لنفسه ولأهله من حظ فى وجوده إلا الأقل الذى لا بد منه ، وما فاض من طاقته فللناس . وليس من أحد فى

مدينة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله ، إلا وهو يعرف هذه الحقيقة ، ولعلى غير مبالغ إذا قلت أن يوماً واحداً لا يكاد يعبر به دون أن يعالج مشكلة أو يسعى فى إصلاح ، وقد رأيت بعض هذا الواقع فيما أسلفت وفى قصة كتبتها عنه ونشرتها « قافلة الزيت » عرضت لموقف له مع سائق دمشقى لم يسبق أن رآه قط ، إلا أنه علم أن سيارة صغيرة اقتحمت على شاحنته فى طريق جدة فتحطمت مع راكبيها الخمسة ، وقد حكم عليه القضاء بمائة وخمسة وعشرين ألفاً دية القتلى ــ فى حساب تلك الأيام ــ واحتجز فى السجن حتى يؤديها أو تؤدى عنه . فما كان من الشيخ إلا أن كفله ليسعى فى جمعها من المحسنين ، وافتتح هو التبرع له بخمسة عشر ألفاً . لم تلبث أن هزت أريحية أهل الخير من السوريين فى الرياض ، فإذا هم يضيفون إليها ما تجاوز المطلوب . . .

والآن دعنى أختم لك هذه المواقف المباركة بالخبرين التاليين أنقلهما إليك عمن لا أتّهم :

١ ــ كان الشيخ يشرف على احتفار بئر فى بستان له ، فلما استشعر العمال قرب الماء طالبوه بالفدية المعتادة فى مثل هذه المناسبة ، وهى ذبيحة يلتمسون بها زيادة النفع ودفع الأذى ، فأبى ذلك عليهم ، وأخبرهم بأنّ تلك العادة من المحدثات التى يحرمها الإسلام ، لأن مرد الأمور كلها إلى الله وحده ، ولن يقدم على تثبيت بدعة بعد أن أنذر رسول الله مقترفيها بغضب الله . .

وتهيب العمال هذه المخالفة للموروثات ، وحذروه مغبتها ، ولكن الشيخ أصر على الرفض حتى استكمل الحفر ونبط الماء . . وهناك فقط أكرم العمال بوليمة أكبر من الفدية التى يزعمون أن الخير موقوف عليها ، ويعتبرون استبعادها مجلبة للشر . . .

وشاء الله ألّا ينقضى على ذلك اليوم سوى اليسير من الزمن حتى فوجىء عدد من إبله العاملة بالموت واحداً تلو الآخر ! . . . وما كان لهذا الحدث من تفسير لدى الحفارين وأشباههم من العامة إلا أنه جزاءً وفاق لمنعه الفدية يوم البئر ! . . . وردّ على تقولاتهم بالآية الكريمة : ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** ﴾ التوبة ٥١ . وكان عزاءه فى هذ المحنة قول الحق سبحانه :

﴿ ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ،وبشر الصابرين ﴾ البقرة ١٥٥ . ولعله تذكر هنا موقف نسيبه ابن المدينة البار عروة بن الزبير ، يوم أصيب ببدنه وولده ، فقابل ذلك بالذكر والشكر ، وجعل يردد : اللهم إن كنت أخذت طرفاً لقد أبقيت أطرافاً ، وإن كنت أخذت ولداً لقد تركت أولاداً ، فلك الحمد على ما أعطيت وما أخذت(١) ولا عجب فمن فضل الله على عبده هذا أنه حفظه من لوثات البدع ، بما تلقاه على والده ، ثم على بعض الصالحين من شيوخ المدينة ، من أصول التوحيد والفقه ، فلا يستغلق فى ذهنه الحق ، ولا يلتبس عليه حلال بحرام ، ويمضى فى أموره كلها على نور من ثقته بربه ، الذى لم يتخل عنه قط . .

وما أجمل رحمة الله التى لم تتأخر طويلاً عقيب جائحة الإبل فإذا هذا الموسم الجديد من غلة أرضيه يفوق كل تقدير ، فلم يأت التعويض على قدر المصيبة ، بل ارتفع أضعافاً مضاعفة ! .

٢ ــ أما ثانى الخبرين فإليكه :

لقد تلقى أبو أحمد دعوة صديقه ، وزير الأوقاف والحج ، الشيخ محمد عمر توفيق ، للقيام بحجة مريحة فى رعاية الوزارة ، فامتطى مع صديقين له سيارته بعد أن استأجر لها سائقاً لم يعرفه من قبل ، إذ كان سائقه الموثوق محمد عويدان اليمانى فى إجازة لزيارة أهله بصنعاء .

وما كان أفجعها محنة مع ذلك السائق ، الذى لم يكد لسانه يتوقف عن السفه طوال تلك الرحلة ، حتى قيض الله له من يرد على بذائه بصفعات أخرسته إلى حين . .

وفى منى ، وفى غمار الأذى الذى أصابهم من ذلك الأحمق ، توجه الشيخ بضراعة حارة إلى ربه أن يكفيهم شره ، وأن يجمعهم بذلك اليمانى الغائب ليحل مكانه . .

وسرعان ما استجاب الله تلك الضراعة فإذا هو بربيبه وسائقه المفضَّل

---

٢ ــ أنظر « رجال من التاريخ » للأستاذ على الطنطاوى ــ مأساة عالم ــ .

يطل عليهم من مدخل الخيمة ! ! . .

ويسأل الشيخ صاحبه وهو يعتنقه دامع العينين : ما الذى جاء بك ؟ . وكيف اهتديت إلينا !

ويجيب اليمانى محمد : لقد علمت أنك حاج هذا العام فقدمت من اليمن حاجاً على نية أن ألقاك .. وذهبت أبحث عنك حتى وجدتنى أمام السيارة .

ونقف لحظة لنتساءل : كيف نفسر هاتين الواقعتين اللتين لا بد أن يكون لهما أخوات كثيرات ؟ . . ولماذا حصلتا على هذا الوجه دون سواه ؟ ! ! . .

لعل أحداً يحاول أن يردهما إلى مجرد الصدفة ؟ . . ولكن . . ليقل لنا : ما الصدفة وما تحديدها ؟ ! . .

أما أنا فلا أرى لها من تعريف سوى أن حَدَثاً عجزنا عن تفسيره فأطلقنا عليه اسم « الصدفة » . . ولهذا لا أجد للكثير من البوادر التى تلم بهذا الرجل المبارك إلا أنها نوع من الكرامات التى يختص بها الله من يشاء من عباده . .

أما بعد . . .

فيخيل إلىّ أن قارىء هذه الصفحات لا بدّ أن يتساءل عن المناسبة التى حفزتنى إلى عرض صاحب هذه الترجمة بين العلماء والمفكرين ، الذين يفترض أن الكتاب مقصور عليهم ، كما هو الشأن فى سابقه الأول ، ومن ثمّ لا بدّ أن يتساءل عن بقية الهوية التى اعتدنا رسمها لكل من شخصيات الكتابين . .

وعن الشطر الأول من التساؤلين أذكر القارىء بحقيقة لا يحسن أن يغفلها ، وهى أن الذى يدفعنا إلى تقدير أهل العلم والفكر إنما يعود بالدرجة الأولى إلى آثارهم فى نصرة الحق وإشاعة معانى الخير ، وتوسيع مساحة الحب والجمال فى حياة الإنسانية . . وهو القدر المشترك الذى يجمع بينهم وبين الأخيار من عباد الله . . فمثل الأولين كالمنَظِّرين الذين يكشفون للناس معالم الطريق إلى معالى الأمور ، على حين يمثل الآخرون بسلوكهم الفاضل بعض النماذج التطبيقية لمرئيات أولئك الهداة الدعاة . .

ولقد عرفت وشاهدت من خلائق هذا الإنسان الذاتية ، ومن مآثره الاجتماعية ، ما ندر أن أراه أو أشاهده إلا من خلال مرويّات الثقات عن كرام السلف ، وقد شدّنى إلى الحديث عنه فى هذا الكتاب ما أراه من تناقص هذه النماذج الصالحة فى مجتمعاتنا المسرعة فى التغير ، حتى لنكاد نبحث عنها فى ضوء مصباح ديوجين فلا نحسّ وجودها إلا قليلا . .

ولعمر الحق لقد كنت أجد فى الشيخ محمد نصيف ـــ عَلَم مدينة جدة ـــ نفحة من الخير تضاعف من قيمة الحياة ، فلما انطفأ ذلك السراج شعرت بالكآبة تغشى كل شيء ، ثم لم يهون من فقده فى نفسى إلا صحبة العالم الصالح الشيخ عبد العزيز باز ، ثم مخالطة هذا المترجم الذى أقدمه إلى قراء كتابى ، وقد اشتركا فى العديد من الخصائص الرفيعة وعلى رأسها كرم الخلق ، وكرم اليد ، بعد الحب الكبير لله ولرسوله ولكتابه وللمؤمنين . .

ولعل فى هذا القدر من التعليل ما يقنع القارىء العزيز بأنى كنت على حق حين ترجمت لهذا الإنسان المبارك مع كبار العلماء والمفكرين الذين عرفتهم . . .

وننتقل الآن إلى الشطر الثانى من التساؤلين لنسجل ما حصلناه من معلومات حية عن نشأته وبيئته والعوامل التى طبعت حياته وذلك من خلال الحوار الذى أجريناه مع فضيلته :

م : نود التكرم بذكر الاسم والميلاد والأسرة وما تذكرون من صور النشأة الأولى . .

ع : عبد الحميد بن أحمد عباس ، ولدت عام ١٣٢٧ هـ فى زقاق الطيار من المدينة المنورة وتنحدر أسرة والدى من بنى تيم قبيلة الصديق رضى الله عنه وترجع أسرة الوالدة إلى آل الطيار المنحدرين من جعفر بن أبى طالب المعروف بالطيار وبذى الجناحين . وقد توفى والدى ولما أتجاوز العاشرة من العمر ، فترعرعت فى كنف أخى عقيل الذى ما لبث سوى خمس سنوات حتى لحق بالوالد رحمهما الله ، فتولت الوالدة رعايتى وتوجيهى ، وقد انتفعت بها كثيراً لما كانت عليه من كرائم الأخلاق والحرص على

حسن التربية ، ومن فضائلها التي لا تنسى أنها ، وقد توفى عنها الوالد وهى فى الخامسة والثلاثين ، وقفت نفسها وحياتها بعده على أبنائها . . ومن هنا كان تعلقى بها شديداً جداً . . .

وعن التعليم يقول الشيخ : انه بدأه فى كُتَّاب الشيخ حامد بخى العنبرية وقد استمرت هذه المرحلة مدة ثلاث سنوات ما بين ١٣٣٧ و ١٣٤٠ هـ ثم انتقل من هناك إلى المدرسة الهاشمية ، وهى الوحيدة أثناءئذ فى المدينة ، وكان مديرها الشيخ عبد القادر شلبى السورى الأصل ، ومن أساتذتها السيد حسين طه ــ شقيق الصديقين أسعد وياسين ــ والشيخ محمد صقر ، والسيد أحمد صقر ، والسيد ماجد عشقى ، وجميعهم من أهل المدينة .

وقد واظب المترجم على هذه المدرسة حتى اضطر إلى تركها وهو فى السنة الأولى من المرحلة الإعدادية ، وذلك بسبب الحرب التى نشبت بين آل سعود والهاشميين . . ويحدثنا عن أكثر الرجال تأثيراً فى نفسه فيذكر منهم الشيخ صالح القاضى ويقول إنه أخذ عنه بعض الأحاديث الشريفة ، وأفاد منه خيراً كثيرا فى أعمال البيع والشراء ثم الشيخ محمد المختار ، وأفادمنه خيراً كثيراً فى أعمال البيع والشراء ثم الشيخ محمد المختار الكنتي ، وكان إمام مسجد قباء وخطيبه ، وقد درس عليه بعض العلوم الشرعية على لزوم الجماعات وفعل الخيرات والتوجه إلى الآخرة . . ثم يمضى فى تعداد أولئك الرجال فيذكر منهم : الشيخ عبد الله مسلم ــ والد الصديقين الشيخ حليت مسلم والأستاذ عبد العزيز ــ على أنه من شخصيات المدينة ذوى الاعتبار . . ثم الشيخ محمد الطيب الأنصارى شيخ علماء المدينة ، وكان بينهما زيارات متبادلة ، أثمرت الخير الكثير بما تثيره من محاورات علمية وبحوث مفيدة ، ثم الشيخ محمود شويل أحد مدرسى المسجد النبوى ، والشيخ محمد الغمرى المغربى وكان من علماء الحديث ومُدَرِّسيه ، ومن المميزين بالأدب والشعر ، ثم الشيخ على كاخى ، ويصفه بالعلم والفضل ، وبخاصة علم الفرائض ، الذى كان أحد مراجعه الثقات فى المدينة ، ثم الشيخ محمد حسن نزهة الذى كان إلى

جانب شمائله المحمودة مَعْنِيّاً بالفقه وله محاولات مقبولة فى الشعر . ويختم هؤلاء بالسيد أديب صقر ، الذى أدركناه وجاورناه فى قباء ، فكان نعم الجار ، وكان من زهرات مجلس العباسية ، فرحمهم الله ورحمنا معهم . .

ويلاحظ من صفات هؤلاء أنهم من ذوى المميزات العالية ، ولا بدّ لأمثالهم أن يتركوا آثارهم طيبة وعميقة فى عقل صديقهم الشيخ عبد الحميد عباس وفى أعماق مشاعره ، وقد قيل :

عن المرء لاتسأل، وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وإذا كان صحيحاً قول الآخر « إن الطيور على أشكالها تقع » وهو صحيح حتماً ، فلا مندوحة من القطع بأن لنشأة المترجم الكريمة ولبيته العريق ، ولمنزله المقدَّر لدى هؤلاء الصفوة من الرجال ، أثراً غير يسير فى تلك الوشائج التى جمعته بهم وألفت بينه وبينهم . . حتى إنه لا يغفل ذكرهم فى مختلف المناسبات ، ولا يفتأ يحنّ إليهم ، ويؤلف المقطوعات فى رثائهم ، والتعهد لمآثرهم وآثارهم . .

وبدافع من ذلك الحنين الوفى إلى إخوانه هؤلاء كثيراً ما يحدثنا بالجميل من أخبارهم ، حتى لكأننا نعيش معهم فنشاطره حبهم ونتفاعل مع ذكرياتهم . . . ونستشف من خلال ذلك صوراً لا ينبغى أن تنسى من ماضى الحياة فى هذا البلد الحبيب . . .

فهذا الشيخ صالح القاضى الذى بدأ به ذكريات أحبابه . . لقد حفظت من أخباره أثناء مجالسنا مع فضيلة الشيخ ما يدفعنى إلى تسجيل بعضها فى هذه المناسبة ، صيانة لها من الضياع ، ورغبة فى تعريف القارىء بنوع من الرجال الذين لا يكاد يعرف لهم نظيراً خارج نطاق كتب التراث . .

يقول الشيخ عبد الحميد : لقد كان صالح القاضى أعجوبة فى قوة الشخصية واستحكام الرجولة وعظيم الصبر فى مواجهة الأحداث ، ويضرب على ذلك الأمثال من وقائعه التى لا تكاد تصدق . فمن ذلك أن خصوماً له فاجئوه بعصيهم ذات ليلة ، فما كان منه إلا أنه انقضّ عليهم بيديه فانتزع عصيهم وأوقع بهم شرّ هزيمة . وقرر الأطباء ذات يوم إجراء جراحة له

لا تصلح مع التخدير فلم ير بأساً ، وترك لهم أن يعملوا فى جسده مشارطهم دون أن ينبس بكلمة أو يأتى بحركة . . . حتى لقد أدهش الأطبة ، وأعلنوا أنهم لم يروا مثله فى الناس وكانت قمة الرجولة يوم تواعد مع مترجمنا على التلاقى فى وقت معين ومكان محدد ، ولكن صارخاً جاء يستدعيه قبيل الموعد ، ويمضى به إلى بستان صديقه حيث رآه جالساً بانتظاره على مقربة من مضخة البئر ، وقد جعل الدم يتدفق من جسده . . ولم يدع له متسعاً لكلام ، بل استدناه وهو يقول : أكتب ما أقوله قبل أن ينتهى الأجل . . .

وراح يملى وصيته على صاحبه فى أناة عجيبة حتى استوفى ما يريد ، وقد علم أثناء ذلك أن حزام المضخة قد اختطف ذراع صاحبه وحطم صدره ، فأشرف بذلك على نهايته بعد أن استرد يده ووضعها بجانبه . ثم ما هو إلا قليل حتى أسلم روحه فى الطريق إلى المستشفى ، وهو ملازم لحمد الله ومكرر لشهادة التوحيد . .

ويا له موقفاً لا نكاد نعرف له شبيهاً إلا موقف الإمام عروة بن الزبير الذى سبق الحديث عنه . . .

ولولا خشية الشطط عن أصل الموضوع لقصصت عليك الطريف الجليل من أنباء كل أولئك الفضلاء من أحباب الشيخ بروايته الموثّقة عنهم .

وعن الأعمال التى تولاها يذكر الشيخ :

١ ــ جباية الزكوات إذ كان عاملاً عليها ما بين ٥٨ ــ ١٣٦٢ هـ .

٢ ــ عضوية الهيئة الزراعية فى منطقة المدينة .

٣ ــ رئاسة الهيئة الزراعية طوال خمسة عشر عاماً ، ورئاسة الجمعية التعاونية الزراعية بالمدينة المنورة .

٤ ــ رئاسة مؤسسة القرض الزراعى ولجنة الارتوازيات التى تبرع بشراء معداتها الملك سعود بن عبد العزيز . رحمه الله .

وقد علمت أن رئاسة المدينة قد رشح لها ذات يوم هو وصديقه المرحوم الشيخ صالح الميمان ، فآثر لها صاحبه وظل يساعده فيها محتسباً وقتاً غير قليل . . ولا ريب أن عملاً يتولى إدارته رجل كعبد الحميد عباس لا بدّ أن

يكون رحمة للناس وخدمة خالصة لوجه الله فى مصلحة الجماعة ، وهذا مايذكره كل ذى علاقة بهذه المصالح التى تولى أمرها فى مدينة الرسول ﷺ . .

وسألنا الشيخ أن يبسط لنا بعض انطباعاته عن العهود الثلاثة : العثمانى والشريفى والسعودى . . فكان جوابه :

إنه كان حديث السن فى العهد العثمانى ، فلا يكاد يذكر منه سوى أطياف غائمة ، ولكن الذين أدركهم من الجيل السابق فى المدينة يذكرون تلك الأيام بالخير ، إذ كانوا منه فى بحبوحة من الأمن والرخاء ولا سيما أهل المدينة المنورة الذين كانوا موضع تقدير العثمانيين وبرهم ، ولهم فى نظرهم منزلة ليست لسواهم بسبب جوارهم لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله ، حتى لقد كان لعامة أسر المدينة مرتبات يصرفونها لهم على مدار الشهور والسنين . والفترة العصيبة التى عاناها سكان المدينة فى ظل العهد العثمانى هى التى نشب فيها القتال بينهم وبين أتباع الشريف حسين عقيب اتفاقه مع الإنجليز ، فقد ضاقت الحال بالمدنيّين أيامئذ ، حتى اضطر قائد الحامية التركية فخرى باشا إلى ترحيل السواد الأعظم منهم إلى حيث شاءوا من البلاد ، إنقاذاً لهم من الحرمان الذى تعرضوا له ، حتى لم يبق من عشرات ألوف السكان سوى بضع مئات . . وقد بلغت بهم الفاقة إلى حد أكل القطط وما إليها من كل ما يمكن أن يدفع به الجوع . بل لقد بلغ الجوع بأحدهم إلى أن يحاول استخراج جثمان ميت لينهش منه ، وضُبط متلبساً بالجريمة ، وقد رفض السجناء قبوله بينهم خشية على أنفسهم من شره ، فأبعد عنهم إلى محبس انفرادى . .

ويذكر الشيخ بِأَسَىً عميق بعض ما شاهده من مظاهر البؤس فى تلك الأحيان ، ومنها رؤية المخدرات ينقلن على رؤوسهن أتربة الطرق الحربية ، التى يشقها الجيش العثمانى لتسهيل تحركه من أجل الدفاع عن البلد ، وذلك مقابل بعض الأقراص من خبز الشعير يقمن به أَوَدَهُنَّ ومن وراءَهن من نسوة وأطفال . .

وأما العهد الشريفى فقد عايشه وهو فى مرحلة المراهقة ، فهو على ذكر منه أكثر ، ويصفه بأنه عهد سادت فيه الفوضى ، إذكانت السلطة الفعلية به لأهل البادية ، فهم المسيطرون على أرجاء الحجاز ، يتصرفون على هواهم وعلى

قدر إدراكهم لا يستثنى من تلك الفوضى إلا مكة المكرمة ، حيث كان الحاكم هو الشريف حسين ، الذى عرف بالصرامة والأمانة والقدرة على ضبط الأمور ، فكان الناس فى ظله يتمتعون بنعمة الأمن والعدل .

ويذكر من تلك الأوضاع القلقة خارج نطاق مكة المكرمة ماعليه حال القبائل ، حيث كان لكل مجموعة منها حلفها الخاص مقابل الأحلاف المضادة . . وكانت وقائع الثأر والثأر المضادّ هى القاعدة المألوفة بينهم . فقد يظفر الموتور بالقاتل فيجهز عليه ، وقد يؤخذ بالقتيل غير قاتله من زعماء القبائل . . فيكون ذلك سبباً لاستمرار البلاء على طريقة الجاهليات الأولى . .

فإذا ما وصل الشيخ إلى ذكر العهد السعودى ، أعطاه حقه من التقدير ، ويلخص رأيه فيه بأنه عهد إنقاذ قضى على الفوضى ، ونَشَرَ الخير والبركة والطمأنينة .

ويعدّد بعض معالم هذا العهد فيذكر فى مقدمتها تحكيم الشريعة الإسلامية ، وانتشار العلم على اختلاف مستوياته وضروبه ، وما رافق ذلك من ازدهار عمّ جوانب الحياة جميعاً ، من الاقتصاد والزراعة والاجتماع وسائر مجالات العمران ، وشمل كل مكان فى المملكة من أدناها إلى أقصاها ، حتى لم يبق فرد من سكانها لم ينله حقه من الأمن والرخاء والتقدم ، ومما جعل المملكة بفضل الله ، ثم بحكمة رعاتها وإخلاصهم ، مضرب المثل للعالم بأسره .

والتمسنا من فضيلته أن يطرفنا ببعض ذكرياته الأثيرة عن المدينة العزيزة . .

وما أحبّ ذكريات المدينة إلى أبنائها ، وما أحبّ المدينة إلى قلوبهم . . . حتى لكأنّ لكل ذرة منها علاقة فى صميم أرواحهم ، وها هو ذا فضيلته يحدثنا عن بعض العادات التى بدأت فى التوارى عن أعين الناس وقد كانت إلى أمد قريب من مركبات حياتهم التى لا يستطيعون عنها فكاكاً ، ويخصّ بالذكر من تلك الذكريات مناسبات الأعياد ، حيث كان العرف السائد فى المدينة أن تقسم أيام العيد — وبخاصة عيد الفطر — أربعة أقسام ، فاليومان الأول والثانى مقصوران على تزاور الأقرباء وأولى الأرحام . . إذ يكون ذلك اليوم فرصة لتلاقى بعضهم ببعض بعد أن تكون الأحداث والمشاغل وتكاثر

الفروع قد باعدت بينهم طوال العام أو معظمه ، فيتاح لكل منهم أن ينعم بالتقارب وأن يسهم فى إحياء ما اندثر من سنة التعارف بينهم فيعرف كل منهم صلته بالآخر ، وحق كل منهم على الآخر .

ويُخَصَّص اليوم الثالث للأصدقاء يجددون فيه روابطهم ، ويأنس بعضهم ببعض . . ويبقى الرابع لعامة الناس ، حيث تمر مجموعاتهم على الأحياء واحداً فواحداً ، فلا يحرم حىّ ولا حوش ولا حارة من هذه الزيارات . . .

وكذلك الشأن فى مناسبات الأفراح والأحزان حيث يتجلى الحب والتعاون فى أجمل صورهما بين سكان المدينة .

ففى مناسبات الزواج تتدفق هدايا الجيران والأقرباء على العروسين ذبائح أو أرزاً أو سكراً أو تمراً . . أو نقوداً ، فتكون تلك فرصة تملأ البيت الجديد من الخير الذى قد يكون فى أمسّ الحاجة إليه ، وهى عادة لم تزل بعض آثارها ، ولكن التغيرات الطارئة على حياة المجتمع ذهبت بالكثير من فوائدها ورُوائها ، إذ أصبح الزواج فى ظل تقاليد اليوم يكاد يستحيل كارثة بالنسبة إلى العروس ذى الدخل المحدود ، فلا يجتمع بعروسه[1] إلا بعد أن تثقله الديون التى تسلبه لذة العيش وتعرضه لكثير من المخاطر التى تعرض سمعته للسوء . .

ويعرض لذكر المآتم . . فيقول ان الناس كانوا يتواسون فى مصيبة الموت ، فإذا نزل بأحد منهم كان حقاً على أقربائه وجيرانه أن يصنعوا لأهله الطعام عملاً بالسنة ، ويتحفظ الجميع فلا يخدشون شعورهم بأىّ ظاهرة تخالف ما هم عليه ، فلا يقيمون فرحاً على مقربة منهم ، ولا يأتون بأى عمل يمسّ مشاعرهم . . ولا يزال لهذا الخير بقية ولله الحمد .

ومن مظاهر التعاون بين أولئك الناس أن الحىّ كله يشارك فى استقبال المسافر منه فيهنئونه بسلامة الوصول ، ويشعرونه بفرحهم للقائه .

ومن أحاسن هذه الذكريات ما كان معروفاً عند أصحاب النخيل حتى عهد قريب ، إذ كان على كل ذى بستان أن يحجز منه حمل نخلة لكل واحد من جيرانه الذين لا يملكون نخيلاً فلا يمسها أحد سواه .

---

١ ــ العروس وزن فعول يستوى فيه الذكر والأنثى .

وأنت عندما تطالعك صور هذا التعاون الإسلامي لا تتمالك غصّة تشد على صدرك ، لزوال معظمه تحت ضغط التغيرات الاجتماعية ، الوافدة مع زواحف الحضارة المادية التي قطعت وشائج الأرحام بين أهلها ، حتى ليفارق الفتى والفتاة بيتهما بمجرد دخولهما أبواب الثامنة عشرة ، ثم لا يعرف أحدهما مصير الآخر ! . . والمؤسف والموجع أن عدوى هذا الوباء قد تسرب إلى معظم مجتمعات المسلمين في هذه الأيام ، حتى لترى العديد من أسرهم تجمعهم عمارة واحدة ، ثم تمضي الأشهر والسنون دون أن يعرف أحدهم اسم جاره أو عنوانه ، فهم أشبه بالجوامد يمر بعضهم ببعض صباح مساء دون أن يلقى عليه تحية أو يوجه إليه نظرة ، وقد نسوا عامدين أو غافلين حكمة نبيهم الأعظم ﷺ : بقوله : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا . أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ . . . أفشوا السلام بينكم »[1] .

وما أكثر ما أعطتنا هذه الحضارة من الخير : تقلُّصٌ في مساحات الأرض ، وتقارب بين شعوب العالم ، وتقدم لا مثيل له في علوم الطبيعة . . . ولكن . . ما أكثر ما سلبتنا من الخير : معايشة الطبيعة في حرها وقرها ، ومردود ذلك من المناعة الصحية ، وانشغال الوقت كلّه في الكدح للحياة حتى لا يبقى منه منفذ للغو والتفاهات ، والمودة والوفاء والتعاون على البر والتقوى . . والآداب الاجتماعية التي لا تغفل حتى تشميت العاطس ، وعيادة المريض ، وإقراء السلام على من عرفت ومن لم تعرف ، والإيثار على النفس حتى في صميم الخصاصة . . .

وهل أتيحت لك الفرصة فقارنت بين عهود القوافل المتعاونة في الرحلات البعيدة وبين أيام السيارات والطائرات التي لا تدع لك مهلة لتوثيق العلاقة مع رفيق ! . .

تصور أنك أزمعت سفراً من المدينة إلى مكه ، في ما سبق زمن هذه المسرعات ، فأول ما تفكر فيه هو رفاق الرحلة ، فإذا اجتمعوا مضيتم جميعاً في مثل التناغم الذي يصفه الشاعر :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا   وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح

١ ــ أخرجه مسلم .

وقد قسمتم الطريق إلى مراحل وفراسخ ، فهنا تنيخون للطعام ، وهناك تنزلون للراحة ، وهنالك تخيمون للنوم ، وفى كل منزل يفرض التعاون نفسه على الجميع ، فلكل منكم عمله فى خدمة الكل . . . فإذا انتهت أيام السفر التى قد تمتد إلى الأسابيع ، ودّع بعضكم بعضاً كما يودع الحبيب حبيبه ، وقد انطبع فى صدر كل منكم صورة رفيقه وصوته وحركاته وسكناته ، فلا يستطيع له نسياناً ولا عنه انقطاعاً . . .

فأى مجتمع سعيد هذا الذى فقدناه ! . .

وتستطيع الآن أن تتصور نفس الرحلة فى سيارة جمعت بينك وبين راكبيها الأربعة أو المئة وقد أخذت تنهب بكم الأرض ، وشُغل كل منكم بنفسه عن غيره بتأمل فى عمل ، أو قراءة فى كتاب ، أو غفوة بعد سهر طويل مع المسلسلات ، حتى تصير بكم السيارة إلى المقر المنشود خلال ساعات أربع . . . فيأخذ كل منكم سبيله إلى غايته دون كلمة وداع ! .

وهناك الطائرة التى تختصر هذا الزمن إلى ثُمنه ، فلا تمنحك فرصة لتعرف اسم جليسك فى المقعد الواحد . . . فاسأل نفسك : أى فائدة اجتماعية جنيت من هذه الرحلة أو تلك ؟ . . .

وأى مجتمع حجرىّ هذا الذى تعامله فى ظل هذه السرعة المضيِّعة ؟ ! . . .

ولكن حذار أن تتهمنى بالدعوة للعودة إلى عهد البغال والحمير وعربات الخيل . . فتلك مرحلة أصبحت فى نطاق الذكريات ، فلا يقول بعودتها مؤمن أو عاقل ، بيد أنه لا مندوحة لنا من التساؤل : أليس بوسعنا التأليف بين مكاسب المادة وتوهج الروحانية ! . . بلى . . إن ذلك لممكن . . وهو الذى يجب أن يكون . . ولكنه لن يكون حتى يحكم الإسلام حياة الناس . . .

وقلنا لفضيلة الشيخ : إنكم تلمسون تغيراً كبيراً فى مجتمع المدنية ، فما هى ملاحظاتكم حول هذا التغيير . . . وأهمّ مظاهره ؟ . .

فكان جوابه : إن أهم مظاهر التطور التى شهدها خلال حياته فى المدينة

تكاد تنحصر فى ناحيتى التعليم والعمران .

لقد أحرزت الحركة التعليمية تقدماً كبيراً منذ استقرار الحكم السعودى . ففى عهد الأتراك مثلاً كان التعليم مقصوراً على بعض أسر المدينة ، وكانت العناية بالمواد الشرعية لتحفيظ القرآن وإتقان تلاوته ، ثم الفقه والحديث والتفسير والفرائض والخط والحساب .

ولم يكن لسكان البادية والأعراب المجاورين للمدينة حظ من التعليم أو رغبة فيه أما الآن فقد تبدل الحال مادة ومنهاجاً ومقداراً ، وعمّ التعليم سائر الناس فى الحواضر والبوادى ، حتى كبار السنّ من الرجال والنساء وجدوا الفرص متاحة لتدارك ما نقصهم ، فى مدارس هيأتها لهم وزارة التعليم فى كل مكان . . وقد ساعد انتشار التعليم على تغير كبير فى بنية المجتمع ، إذ فتح الأبواب أمام أصحاب المواهب فى الحاضرة والبادية ، حتى تسنموا أرقى المناصب ، الأمر الذى لم يكن ميسراً من قبل إلا للأسر الميسورة . . ولكن شيئاً واحداً لا مناص من ذكره هنا وهو أن طلب العلم كان خالصاً لله ، فصار اليوم من أجل الدنيا ، ومن هنا فقد العلم بركته أو كاد . .

وعن الجانب العمرانى يقول الشيخ : إن المدينة التى كانت مجرد وسط زراعى ، وكان النخيل هو واجهته الأولى والكبرى ، إلى جانب أصناف الفواكه التى اشتهرت بها طوال القرون ، قد بدأت فى التغير بسرعة غير متوقعة ، فالسكان قد قفزوا من الآلاف إلى مئات الألوف ، والحقول التى كانت تزدان بها أرجاء المدينة وضواحيها قد شرعت فى الاختفاء لتقوم مكانها الأبنية الحديثة والأسواق التجارية الكثيرة ، والعيون التى كان لها الأثر الكبير فى ازدهار زراعتها قد نضبت وقلّ لها الرفد من المطر والسيول،وطبيعى أن يكون لهذه التطورات الفعالة أثرها فى تطور الحياة الاجتماعية ، وبخاصة بعد أن كثرت الأموال ، وانفسحت السبل لقضاء الإجازات فى مختلف أرجاء الشرق والغرب . . . وقد ظهر أثر هذا التطور فى توارى الطراز التقليدى فى البناء لتقوم مكانه أنواع « الفيلات » المنشأة على الطراز الغربى . . وكذلك الشأن فى دواخل المنازل حيث حلّت المفروشات الأجنبية محل الأثاث العربى ، وتبع ذلك كثير من التغير فى سلوك الناس وطرائق تعاملهم . . .

وقلنا للشيخ حفظه الله : يلاحظ من يخالطكم أن فى جوانحكم حنيناً عميقاً إلى الماضى فلو تفضلتم بتعليل ذلك .

ويجيب قائلاً : إن فى الماضى لدات العمر ورفاق الصبا ، والأخلاق المتجانسة ، والعقول المتقاربة . . والوفاء والذكريات . وفيه المجالس الممتعة التى تُقَصّ فيها حكايات المدينة وأهلها . . وبالجملة كانت الصلات أقوى والمودة أصفى ومشاغل الدنيا أقل ، والتزاور بين المتحابين أكثر . فمن الطبيعى أن يكون حنينى إلى الماضى وتعلقى به ووفائى لأهله .

وعن الشعر سألناه : متى بدأت معالجتكم له ؟ . . وهل كان لشيوخكم أو لأهل بيتكم أثر فى توجهكم إليه ؟ . . ويلاحظ أن لكم نشاطاً فى الشعر النبطى كذلك . . فأيهما أ [illegible] ليكم ولماذا ؟ . .

[illegible] والده قبله عناية بالشعر ، وكان بعض
الأصد [illegible] مسيرة الشعر فى بيتنا ، فكان لذلك
أثره فى [illegible] أ بالمطالعة وبخاصة فى كتب الأدب ؛
ومع ذ [illegible] ـد الأربعين ، وأذكر أن من أوائل
منظومـ [illegible] شيخ محمد المختار الكنتى أذكر منها
قولى :

فراقك . [illegible] الأيام يورثنا الأنينا
تركت نفـ [illegible] فى الأسى مضنى حزينا

ويتابع : [illegible] ـبى ، ودعانى إلى هذا الأخير كثرة
زوارى من ر [illegible] المشهورين به ، فأنا أستحسن معانيهم والنسج على
منواهم ، ولكن يظل الفصيح هو الأحبّ إلىّ والأملك لهواى . .

وهنا قلت للشيخ الفاضل :

اسمحوا لى أن أنتقل بأسئلتى إلى جانب آخر ربما لا تتوقعونه . .

إن مجلسكم اليومى فى هذه العباسية يعتبر ندوة علمية وأدبية ودينية . . . فمنذ متى بدأ ظهوره ؟ . وما أحب ذكرياتكم عن ماضيه ؟ . . وأهم الشخصيات التى استقبلها ؟ ؟

وأطرق قليلاً كأنه يتأمل فى مفكرة ثم أجاب :

لقد بدأ هذا المجلس قبل ثلاثين سنة ، وكان امتداداً لماضيه فى أيام الوالد والجد . . والتغير الذى طرأ عليه هو أن العباسية كانت فى عهدها موقوفة على فصول الإنتاج ، إذ كان مسكن الأسرة الرئيسى فى المدينة أيام الشتاء ، فإذا حان موعد الصيف والربيع انتقلت إليها ومنذ عشرين سنة تمّ تحويله إلى سكن دائم . . وقد زدنا فى أبنيتها حتى تستوعب الأهل والعمال . . ومنذ ذلك الحين لم ينقطع هذا المجلس عن استقبال الأحباب والزوار يتوافدون إليه من مختلف الأرجاء ولله الحمد .

ولقد سعدت العباسية بزيارة العديد من كبار أهل السلطان والعلم والفضل ، أذكر منهم جلالة الملك سعود بن عبد العزيز ، ثم صاحب السمو الملكى الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز ، والأمير السابق السيد عبد الله السديرى ، ثم صاحبي السمو أميرى قطر والبحرين ، ومن الوزراء السيد محمد عمر توفيق الوزير السابق للمواصلات والحج والأوقاف ، والدكتور أحمد زكى يمانى وزير البترول والثروة المعدنية . والسيد وزير الحج والأوقاف السابق الأستاذ حسن كتبى ، وزميله السابق أيضاً الأستاذ حسين عرب ، والأستاذ هشام ناظر وزير التخطيط ، والأستاذ إبراهيم الشويل وزير الزراعة السابق أيضاً ، والشيخ محمد الخالد السليم أمير عنيزة ، ومعالى وزير المملكة الأردنية الهاشمية الشيخ محمد عبد الله الخضر .

وممن سعد بهم مجلس العباسية من أهل العلم أصحاب الفضيلة والسماحة الشيخ عبد العزيز بن صالح خطيب المسجد النبوى ورئيس القضاء فى المدينة ، والشيخ عبد العزيز بن باز أيام رئاسته للجامعة الإسلامية ، ومعالى الشيخ محمد على الحركان ، والعالم الزاهد الشيخ محمد على التركى ، وكبير قراء المدينة الشيخ حسن الشاعر ، والشيخ مكى الكتانى تغمدهم الله برحماته ، والشيخ عبد الرحمن السليم من علماء عنيزة ، والشيخ على بن سعيد بن مشيط أمير الخميس ، وأصحاب الفضيلة الدكتور عبد الله الزائد وخلفه رئيس الجامعة الإسلامية الدكتور عبد الله الصالح العبيد ، ومفتى المملكة الأردنية الهاشمية الشيخ محمد عبده هاشم ، والشيخ أحمد بن سودة رئيس ديوان ولىّ عهد المغرب ، والشيخ أبو الحسن الندوى من أكابر علماء الهند .

وهنا أتذكر للمرة الثانية ، وأنا أكتب هذه الأسماء ، مجلس الصديق محمد نصيف بجدة ، الذى كان مزار كبار رجالات العالم الإسلامى حتى توفاه الله بعد يومين اثنين من وداعنا إياه فى بيروت .. والله نسأل لِعَلَمِ جدة المكان الأعلى كفاء فضله وجهوده فى خدمة الإسلام ، ولنظيره فى هذا المضمار ابن المدينة البار حفيد الصديق سعة فى حياته المباركة ، ومزيداً من التوفيق فى ميدان المعروف والبر .

وكان ختام الحوار ذلك السؤال الصغير الكبير :

لماذا يجمع الناس على حبكم واحترامكم ؟ . . . .

ويجيب الشيخ الوقور زاده الله من فضله : إن كان لذلك من وجود فبفضل من الله لا أستحقه ، ثم لحسن ظن الإخوان الذى يعكس كريم أخلاقهم . . وما أحسب فىّ من صفة أرضى عنها سوى واحدة أسأله تعالى أن يثيبنى عليها ، وهى سلامة الصدر من الحقد وحب العفو عن المسىء إنه خير مسئول .

بقى أن أتم مابدأته من حديث عن ثقافة المترجم ليستكمل القارىء صورته كما يعهدها كل من عرفه مثلى عن كثب .

لقد عرفت مما أسلفنا أن فضيلته لم يتمكن من مواصلة التعليم بعد السنة الأولى من الدراسة الثانوية ، بسبب الحرب بين السعوديين والهاشميين ، ثم بما ألقت وفاة والده وأخيه من العبء على عاتقه ، إذ أصبح المسئول الوحيد عن رعاية الوالدة والأهل ، والإشراف على الأعمال الزراعية غير القليلة ، على أن ذلك لم يمنعه من الانتفاع بصحبة أهل العلم والفضل من الذين عرضنا لذكرهم . وقد كان لذكريات والده ، وهو من ذوى العلم والعناية بالشعر ، أثرها كذلك فى توجيهه إلى المطالعة حتى صارت له غذاء لا يسعه الانفكاك عنه ، وها هو ذا وقد بلغ ما بلغ من السن لا يدع كتاباً حتى يأخذ بغيره . . وفى مكتبته التى تضم آلاف المجلدات ، فى مختلف الفنون والعلوم ، ما يصور لك مدى ارتباطه بالكتاب . . ويظهر أثر ذلك فى حديثه ومشاركته أثناء القراءة أو المناقشة ، وسرعة استحضاره للشواهد من الكتاب الكريم أو الحديث الشريف أو الحكم النفيسة . .

وللشيخ إلى ذلك ثقافة تجريبية استخلصها من عمله فى الزراعة ، وجمع حصيلتها فى كتاب يضم مائة وأربعاً وخمسين صفحة أصدره عام ١٣٨٩ هـ بعنوان « المرشد فى زراعة الأشجار والخضار » وجعله وقفاً لكل من يهمه أمر الزراعة ، وبخاصة زراعة المدينة التى لا يزال معظم اعتمادها على النخيل وأصناف الخضار ، وقد عُرف لدى مزارعى المدينة بأنه مرجع حى لما ينطوى عليه من التوجيهات العملية الدقيقة . . وقد قدرت له مصلحة الزراعة فى المملكة جهوده فى هذه السبيل ، فخصته بجائزة تقديرية هى عبارة عن خزانة نفيسة للكتب ترمز إلى واسع خبرته وحسن تجاربه فى هذا المضمار . .

على أن الشيخ لم يكتف بتجاربه الخاصة فى أعمال الزراعة ، بل ضم إليها كل ما وقف عليه واقتنع بصحته من تجارب الآخرين . .

ومن أمثال ذلك تلك القصة التى حدثنى بها ذات يوم وخلاصتها : أن معارف له من مزارعى القصيم نزلوا به بعض الأيام ، وكان مما ذكروه من وسائلهم لصيانة النخيل من غارات الجراد ، أنهم يعبئون الأعذاق بأكياس من الخيش تحفظها من أخطاره . . وشاء الله أن يزحف الجراد باتجاه المدينة فما ان وصلت أخباره حتى أسرع لتطبيق ما تعلمه من القوم ، فجمع أكداس الأكياس ولم يدع عذقاً إلا حصَّنه بواحد منها . . ودعا الزراع الآخرين إلى مثل عمله فلم يستجب له أحد ، فكانت النتيجة أن أرجال الغزاة قد أتت على كل محصول المدينة إلا ما حمل نخيله . وهكذا حقق الشيخ يومئذ سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى قوله لصاحب الناقة التى استشاره فى أمرها : أيعقلها أو يطلقها ويتوكل على الله ؟ فقال له : « اعقلها وتوكل »[1] فجمع بين العلم والعمل وكان الخير كله فيما فعل . . .

وفى نهاية هذا العرض الذى أرجو قبوله عند الله أرى أن أختمه بملاحظتين اثنتين .

الأولى : دقة الشبه بين عبد الحميد عباس وجده الصديق ، حتى ان من قرأ وصفه فى كتب السيرة ثم وقع بصره على حفيده لم يساوره شك بأنّ هذا الفرع من ذلك الأصل ، ومن حقى أن أؤكد على هذه النقطة لأنى سبق أن

١ ــ رواه الترمذى .

عنيت بتتبع هيئة الصديق فى كتابى عنه الذى سميته « مشاهد من حياة الصديق » فهو صورة عن جده فى كثير من مظاهره الحسيّة ، وفى نفسه ملامح من أخلاقه فى سماحة النفس وسخاء اليد ، والإسراع إلى الإحسان ما دام فى مرضاة الله ورسوله . . .

ثمّ شيء آخر يشترك به الحفيد والجدّ هو إجماع الناس على قبول وساطة كل منهما فى محاولات الإصلاح . . فالمعروف عن الصدّيق ، وقد كان ممثل قومه فى إحدى رئاسات المجتمع القرشى قبل الإسلام ، أنه إذا قضى أمراً بين الناس لم يجد قضاؤه غير القبول لثقتهم بعدالته ونزاهته [1] ، وهكذا رأيت الناس فى المدينة يقرون كل ما يقرره حفيده فى كل خلاف بينهم ، للسبب نفسه الذى زين قضاء جده فى قلوب المكيين والمسلمين من قبل ومن بعد .

والله أعلم حيث يجعل رسالته .

نماذج من شعره الوجدانى

غريب

نظرت إلى الدنيا فراع فعالها ... فؤادى بأشجان وفقد قريب
وأرزاء سقم لا يزال أمرُّها ... فراق حبيب بعد فقد حبيب
رمتنى الليالى بالخطوب وبالأسى ... فعدت كَإِلْفِ فى الأنام غريب
رجال أعزاء وكانوا أحبة ... فواحزنى من نأيهم وشحوبى
ذكرتهمو والعين تجرى دموعها ... فياشدَّ ماألقى وطول نحيبى
فمن عاش فى الدنيا سنين طويلة ... رأى من صروف الدهر كل عجيب
وما العمر إلاساعة ثم تنقضى ... كمر سحابٍ فى المصيف صبيب
أولئك إخوانى شموس هداية ... وكانوا بعيش ناعم وخصيب
ومن عاش سبعاً بعد سبعين حجة ... فورد المنايا منه جدُّ قريب

---

١ ـــ انظر « مشاهد من حياة الصديق » ص ٢٢ .

ذكريات

أيـــا نسيم الصبـــا بلـــغ أحبتنـــا	أنى مقيم على « العليـــاء » أرعاهـــا
ففى نسيماتها آثار نشركم	وفى مرابعها ذكرى حفظناها
حيث العقيق وبطحان وأقنية	تروى النخيل ويشفى الناس رياها
وحيث وادى قبا والماء يلبسه	برد الربيع وأخلاق ألفناها
وفى العوالى وفى قربان أودية	يا حبذا هى مرتاداً وسكناها
ما أنس لا أنس وادى السد يجمعنا	وكم به من ليـــال طاب مثواهـــا
وبالأحبة شمس الوصل مشرقة	سقياً لأيامها ما كان أحلاها
مرت كحلم ولم تبرح معالمها	فى القلب ماثلة تحيا ونحياها

الأستاذ عبد الرحمن باسويدان

عرفته قبل التلاقى عن طريق أحد الإخوة المسئولين عن المركز الإسلامى التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فى جاكرتا ، وقد وُصف لى بأنه من أفاضل مواليد العرب فى أندونيسية ، وكنت على وشك سفر إلى بلدة « جيو جاكرتا » فقررت الاتصال به هناك ، وفى فندق باتيك أوتيل من ذلك البلد وجدناه بانتظارنا ، إذ كان قد علم بقدومنا عن طريق الدكتور محمد ناصر .

لم نكن نتوقع لقاء الأستاذ بهذه السرعة ، ولم نكن على معرفة سابقة به ، لذلك رددنا على تحيته بمثلها ومضينا لشأننا نبحث عن الغرف المناسبة . . وشدّ ما أسفت حين علمت من الشيخ محمد قُدُسْ — خريج الجامعة الإسلامية — الذى كان ينتظرنا مع بعض إخوانه من مبعوثى دار الإفتاء ، أن الرجل الذى بادلناه السلام هو الأستاذ عبد الرحمن باسويدان ، وإذ لم يلق منا الاهتمام الواجب انسحب منزعجاً . .

وكلفت الأخ قدس أن يبلغ الأستاذ اعتذارنا ، وأن يحصل منه على موعد بلقاء خاص ، وسرعان ما جاء الجواب بتعيين اللقاء بعد عشاء ذلك اليوم .

وحملتنا السيارة إلى منزله المتواضع — كما يصفه أحد مترجميه — وعلى المدخل استقبلنا بكثير من الترحيب الصادق . . ومضى بنا إلى البهو البسيط الذى أفرغت عليه يد الأنوثة غير قليل من التنسيق الجميل . .

وعلى الرغم من أصالته العربية التى تحمل دلالتها الحضرمية — « با » التى تفيد « أباً » أو « ابن » فقد غلبت عليه هيئة الإندونيسى المتميز بخفة الوزن ولطافة الحجم ، إلا أن طلاقة لسانه بالعربية لا تلبث أن تذكرك بهويته البعيدة .

وشىء آخر لا مندوحة عن الإشارة إليه هو الشموخ الذى يشعرك لأول

وهلة بتصميم الإنسان الحضرمى فى أندونيسية على الاحتفاظ بتميزه القومى الذى يأبى الذوبان فى غيره ، ومن يدرى ، فلعل للنسبة الهاشمية أثرها فى ذلك ، إذ المعلوم أن لهذه النسبة وجوداً واسعاً بين حضارمة أندونيسية ، ولها تأثيرها العميق فى حياتهم وسلوكهم الاجتماعى ، فهم محتفظون بعاداتهم القومية الأولى فى مساكنهم وطعامهم والكثير من تصرفاتهم ، وبخاصة من ناحية الزواج إذ يلتزمون قصره على أوساطهم وفى ما بينهم وحدهم ، ولا أعلم إذا كان للأستاذ صلة ما بهذا البيت الهاشمى .

وبغير تحفظ تداولنا الحديث فى مختلف الشئون التى تهمنا معاً كأننا صديقان قديمان حميمان . . وعلمت أثناء ذلك أن ابناً له من طلبة الجامعة قد كان مطلوباً من قبل الشرطة فى تهمة العمل الإسلامى ، وهى من الجرائم الكبيرة بنظر السلطةالحاكمة، وقد كثرت مداهمتهم لهذا المنزل بحثاً عنه ، حتى جاءه صديق من المسئولين ينصح له بأن يسلمه إلى الشرطة رعاية لمصلحته . . وقد أخذ بنصيحة ذلك الصديق وأقنع ولده بالاستسلام ، ولا يزال ينتظر مصيره وزملائه من الشباب المؤمن ، وهو بالطبع مصير مجهول تمليه تقديرات القائمين على أجهزة الأمن ، فليس لها ضابط من العدالة أو القانون . .

ولم يتسع المجال لإجراء الاستطلاع على طريقة السؤال والجواب ، ولذلك سنكتفى باقتباس الخطوط الرئيسة عن حياته من ترجمة مقالة نشرتها عنه جريدة « كدولاتان رعيات » الصادرة يومياً فى جوجياكرتا . .

١ : إنه عبد الرحمن با سويدان الذى بلغ هذا العام ـــ ١٩٨٠ ـــ السبعين من عمره .

تلقى دراسته الأولى فى إحدى المدارس الإسلامية ، ثم تابع تحصيله فى معهد « كورسوس نيدرلاندفربوند » .

وقد بدأ حياته القلمية فى نطاق الصحافة فعمل مراسلاً لجريدة « اليوم » التى تصدر باللغة الإندونيسية ، ثم صحيفة « المساء » العربية وذلك سنة ١٩٣٢ ومن ثم التحق بهيئة تحرير جريدة « سين تيت بو » الصادرة فى مدينة سورابايا ، والمعروفة بالوقوف إلى جانب التنظيمات الوطنية ، وتأييد ما يسمى بحركة « المالوكو » .

وفى العام ١٩٣٣ عمل فى هيئة تحرير « هاديان عموم » الوطنية ، ثم انتقل فى العام التالى إلى تحرير « ماتاهارى » . .

ويقول كاتب المقال : إن هذه الصحف والرجال الذين تولوا تحريرها إلى جانب الحركات الوطنية ، يعتبرون من الأسماء اللامعة فى سجل الحركة الطليعية للتحرر الأندونيسى . . . وفى كتاب « قيام جمهورية إندونيسية » يقول مؤلفه أحمد سوبارجو بكلمة الإهداء : « ذكرى للصديق عبد الرحمن باسويدان المسهم فى كفاح إندونيسية والمشارك فى وضع دستورها أواخر الاحتلال اليابانى عام ١٩٤٥ » .

وبالإضافة إلى ذلك نرى أن فى تنقل الأستاذ بين العديد من الصحف دلالة على ثقة أصحابها والعاملين عليها بقلم المترجم وبمكانته الاجتماعية فى بلده أيضاً .

٢ ــ ومن خلال حوارنا مع الأستاذ باسويدان لاحظنا أنه غير مرتاح إلى موقف إخوانه العرب فى عزلتهم التى سبقت الإشارة إليها ، ورأى أن لا مندوحة من إقناعهم بمزيد من الاندماج فى غمار إخوتهم الأندونيسيين ، ولذلك عمد إلى طرح أفكاره على قادتهم ، وخاض معهم حواراً لم يكن سهلاً ميسوراً أول الأمر ، ولكنه استطاع بالمثابرة والحكمة تفتيت تلك الحواجز شيئاً فشيئاً ، ومن ثم قام بمبادرته لإنشاء الحزب الذى سمّى « اتحاد عرب إندونيسية » وأنشأ له مجلته الخاصة « سادار » أى الواعى . . والظاهر أن مضايقات سياسية حالت دون استمرار صدورها فى جيوجاكرتا فانتقل بها إلى « سيمارانغ » ثم إلى مدينة « سولو » حيث واصلت الصدور إلى عام ١٩٤٢ إذ فوجئت أندونيسية بكارثة الاحتلال اليابانى ، الذى كان أشد شراسة من سلفه الهولندى .

ومعلوم أن اندفاعة اليابان العسكرية فى مطالع الحرب العالمية الثانية لم تقف عند عمليتها الصاعقة فى بيل ها ربور ، بل أرادت استغلال الفرصة التى أتاحها انشغال العالم فى مجازر أوروبة وروسية ، لاحتواء أكبر مساحة من الأرض التى تجاورها ، فاندفعت نحو منشورية فبسطت عليها سلطانها ، والتفتت إلى الفليبين فابتلعتها ، وهاجمت قوات هولندة فطردتها من أندونيسية ،

واحتلت مكانها من تلك الجزر المتباعدة . . .

وإنما أرادت العسكرية اليابانية من هذه الضربات المباغتة توسيع الرقعة التى ضاقت بمواهب شعبها التكنولوجية ، فأقدمت على انتزاع الفريسة من أنياب المستعمرين الأوربيين والأمريكيين على اعتبار أنها أحق منهم بالتهامها وأحق بالأرض من شعوبها نفسها ، وقد اتخذت لتثبيت سلطانها فى هذه الأقطار سبيل الفتك والإرهاب فملأت الأرض رعباً وهلعاً . . . حتى شاء الله أن ينتهى ليلها بالقنبلتين الغادرتين على هيروشيما وناكازاكى ، وبذلك انفسح السبيل أمام شعوب تلك الأرجاء لاسترداد حقها فى أوطانها وخيراتها . . .

وقد لمسنا أثر ذلك الاحتلال اليابانى فى كل بقعة قُدِّرت لنا زيارتها فى جنوب شرق آسية ، فسمعنا الكثير من مآسى ذلك الاحتلال الرهيب . ولم نسمع قط كلمة واحدة فى الثناء عليه . .

٣ ـــ وفى مطالع عهد الاستقلال ـــ عام ١٩٥٠ ـــ كان الأستاذ با سويدان عضواً فى البرلمان الجديد ، ضمن مجموعة نواب حزب ماشومى الإسلامى ، وأصدر آنئذ مجلة « نوسابوترا » ـــ أى ابن الوطن ـــ وفى الوقت نفسه كان يتولى رئاسة تحرير مجلة « الحكمة » التى يصدرها الدكتور محمد ناصر ، هذا إلى جانب مسئولياته الكثيرة فى المجلس التأسيسى المنتخب لصياغة الدستور ، والذى استمرّ فى عضويته حتى عام ١٩٥٩ .

وهكذا ترتبط حياة الأستاذ با سويدان بالعمل الصحفى الذى بدأه فى ظلمات الاستعمار ولم يزايله بعد الاستقلال . .

وعندما نتذكر أهمية الصحافة فى توسيع مجال الرؤية عندكتابها ، حتى ليعلمون من شئون العالم ما لايحيط به غيرهم ، ويدركون من أسرار الأحداث العالمية والمحلية ما يزودهم بالخبرات التى تجعلهم من صُنّاع الرأى العام ، ومن أصحاب الأثر النافذ فى توعية الجماهير ، وبخاصة فى عهود الكفاح التحريرى . . حين نتذكر هذه الحقائق نقدر جهود أولئك الصحفيين الأحرار الذين أسهموا بالقسط الأكبر فى إنجازات شعوبهم . . وإنما نقيد صفة هؤلاء بكلمة « الأحرار » لأن الطهارة الفكرية هى الشرط الأول فى الصحفى الذى يستحق التقدير والتكريم ، وبذلك نطرح من حسابنا المرتزقة من المنتسبين إلى

الصحافة ، الذين لا يحسون باى مسئولية نحو الحق والخير .

ولا نشك بأن الأستاذ با سويدان فى مقدمة الصنف الأول بالنسبة إلى صحفيى أندونيسية ، وذلك ما لمسناه من أخباره عند عارفيه . . وقد اعترف له بهذا الواقع وزير الشئون الاجتماعية بقراره الصادر بتاريخ يوم ٣ ديسمبر ١٩٧٤ ورقم « ب و ل ٣٤ / ١٢ / ٧٤ بيكى » وقد سبق أن رشحتْه نقابة الصحفيين الأندونيسيين ، واتحاد ناشرى الصحف ، ووزارة الإعلام الأندونيسية إلى « مجلس الصحافة » الذى اقترح ترشيح الشخصيات التى تستحق لقب « رائد الصحافة الأندونيسية الوطنية » .

وحتى يوم لقائنا به كان المستشار لصحيفتى « مير تشوسوار » و « ماساكينى » .

٤ ــ لقد بدأ الأستاذ نشاطه الاجتماعى مبكراً ، ولم يكن قد تجاوز السابعة عشرة حين اندمج فى مجلس الدعاة والمبلغين بالجمعية المحمدية كأصغر عضو فى ذلك المجلس ، وفى الوقت نفسه اختير عضواً فى شبيبة « جمعية الفلاح والإرشاد » وعضواً فى « جمعية الشبان المسلمين » المؤلفة من طلاب المدارس الهولندية ، وذلك عام ١٩٢٥ . وفى العام ١٩٣٤ قام بالدعوة إلى مؤتمر لأقطاب مواليد العرب بمدينة سيمارانغ من جاوة ، وفى هذا المؤتمر قدم اقتراحه بإنشاء حزب سياسى باسم « بيراما » أساسه الاعتراف بأندونيسية وطناً لمواليد العرب . والتعاون مع الأحزاب السياسية الأندونيسية المناضلة فى سبيل الاستقلال ، وعلى هذه الأسس تألف الحزب الذى سبق الحديث عنه باسم « اتحاد عرب أندونيسية » وقد اعترفت الحركة الوطنية الأندونيسية به ، وأدخل فى « اتحاد الأحزاب الأندونيسية » وانتشرت فروع الحزب فى سائر أنحاء أندونيسية حتى بلغت الخمسة والخمسين ، وانخرط أعضاؤه فى معارك التحرير ، وقد سقط منهم العديد فى سوح النضال ودفنوا بمقابر الشهداء فى جاوة وخارج جاوة .

٥ ــ وقد مهدت له شهرته فى عالم الصحافة سبيل الوصول إلى وزارة الإعلام ، فعين وزيراً مساعداً لهذا القسم فى وزارة شهريز الثالثة ، مع مواصلة العمل فى توجيه الجالية العربية ، حيث أنشأ معهداً لتثقيف زعماء من مواطنى

مدينة سولو ، وكان غرضه من وراء ذلك إعدادهم ومن وراءهم من مولدى العرب فى إندونيسية للدفاع عن استقلال البلاد ، وفى وزارة الدكتور محمد حتا عُيّنَ مستشاراً لوزير الإعلام الدكتور محمدناصر ، واختير كذلك لعضوية الهيئة التنفيذية للجنة الوطنية المركزية ، التى كانت يومئذ بمثابة البرلمان ، وفى انتخابات ١٩٥٥ فاز بعضوية البرلمان والمجلس التأسيسى ، الذى استمر حتى حلَّه سوكارنو فى العام ١٩٥٩ .

٦ ـــ وقد شارك الأستاذ فى معارك الاستقلال التى بلغت أوجها سنة ١٩٤٧ فعين عضواً فى الوفد الذى كلف تمثيل إندونيسية فى « مؤتمر شعوب آسية » وقد استطاع الوفد اختراق الحصار الذى ضربه الهولنديون على إندونيسية ، حتى وصل إلى نيودلهى مقَر المؤتمر . . ومن هناك اتجه فى الوفد الدبلوماسى المنتدب إلى الأقطار العربية للحصول على اعترافها بإندونيسية دولة مستقلة ذات سيادة ، وفى هذه الرحلة تم التوقيع على معاهدة صداقة بين جمهورية إندونيسية والدولة المصرية ، فكانت هذه المعاهدة باكورة العلاقات الدولية بين إندونيسية ودول العالم .

٧ ـــ وكان جلاء الهولنديين فرصة سرعان ما انتهزتها العسكرية اليابانية فاكتسحت البلاد التى لم تكن مستعدة للدفاع عن نفسها ، ونشرت الرعب ، الذى أشرنا إليه ، فى كل مكان ، ولكن جماهير المسلمين تحت قيادة علمائهم ومفكريهم المخلصين لم يستسلموا للواقع ، بل حشدوا الطاقات فى مقاومة سرية شاركت فيها الأحزاب على اختلاف مشاربها ، وكان للمترجم دوره المناسب فى هذه المقاومة ، إذ انضم إلى جبهة المرحوم سوتان شهربز رئيس الوزرارة السابق ، وانتهى الأمر باعتقاله من قبل البوليس اليابانى « كين بى تاى » ولكن الله كتب له النجاة على يد صديق من أقطاب حزب « البارثينو »

أما الآن وقد دخلت حركات التحرير والمقاومة للاحتلالين الأجنبيين لأندونيسية نطاق الذكريات التاريخية ، وبدأ الصراع الجديد مع الاستبداد الداخلى الذى لا يكتم سدنته نواياهم نحو الإسلام ، بتثبيت العلمانية ، وإلزام الأمة بالميثاق الخماسى « البانجاسيلا » بديلاً لشريعة الله . . فى ظل هذا الوضع الجديد الخطير انصرف الأستاذ با سويدان مع إخوانه عن العمل السياسى المحض إلى خدمة الأمة عن طريق التوعية ، التى نهض بها المجلس الأعلى الأندونيسى

للدعوة الإسلامية ، فهو اليوم رئيس المكتب الفرعى لهذا المجلس فى مدينة جيو جاكرتا من جاوة الوسطى . . .

ولكن الحديث عن هذا الرجل ، كالحديث عن زملائه فى مجلس الدعوة الإسلامى ، لا يقف عند حدود شخصيته ومشاركته فى الصحافة والمناصب الحكومية ، بل لا بد أن يتناول ظروفه الراهنة فى ميدان المواجهة لأكبر مصائب المسلمين التى أعقبت جلاء المستعمرين عن أندونيسية .

إنها الغارة التنصيرية التى تشن على الإسلام فى كل مدينة وقرية وحارة من تلك الجزر العربية الغالية على قلوب المسلمين . ثم هناك المحنة الكبرى التى تطمع هؤلاء الغزاة فى التأثير على الكثير من المسلمين ، فلا يملكون لهم رداً ولا دفعاً . . تلك المحنة المتمثلة فى العدوين الأكبرين : جهل العامة ، وأشباههم من أحلاس الثقافة الغربيَة ، بجوهر الإسلام ، والفقر المدقع الذى يهيئهم لقبول أى دعاية تُمَنّيهم بالخلاص من الجوع والحرمان . . .

فكيف إذا ذكرنا تشجيع السلطات الحاكمة لحركة التبشير فى « إندونيسية » حتى لتفسح لها السبيل لاقتحام حصون الإسلام من البر والبحر والجو ، فى حين تضرب السدود حول دعاة الإسلام ، فلا تمكنهم من التحرك إلا فى أضيق الحدود ، وتطارد كل حركة إسلامية أن تتنفس فى المدارس والمعاهد والجامعات ، بكل وسائل الإرهاب ، حتى القتل بَلْهَ التعذيب حتى الموت . . .

وبين يدىّ الساعة تقرير مذيل بتوقيع الأستاذ با سويدان وزميل له من العاملين فى خدمة الدعوة الإسلامية ، لو اطلع عليه ذوو الضمائر لأخذتهم الرعدة ولملئت قلوبهم رعباً . . ولئن ضاق المجال عن عرض هذا التقرير جميعاً فلا أقل من أن نلم ببعض نقاطه الرئيسة :

١ ــ فى العام ١٩٥٠ أحصى سكان أندونيسية فبلغت نسبة المسلمين بينهم تسعين فى المائة، ولكن هذه النسبة لم تلبث أن انخفضت إلى سبعين فى المئة بعد الانتخاب الذى جرى فى السنة ١٩٥٩ ويعلل التقرير ذلك الانخفاض بتأثير الأيديولوجيات الأخرى وبخاصة الشيوعية والاشتراكية والقومية . . .

ولعل المراد بذلك أن أصحاب هذه الدعوات قد عبثوا بنتائج الانتخاب حتى يضعفوا من شأن المسلمين ، كالذى نعهده فى الكثير من بلاد العرب ، حيث تصنع نتائج الانتخابات حسب أهواء مراكز القوى . . وقد يكون الهدف من ذلك تخفيض نسبة الممثلين لجماهير المسلمين لحساب الطوائف التى كانت تحسب على الإسلام فى الانتخابات السابقة ، وهى خطة مألوفة فى أكثر من قطر إسلامى ، وفى كتاب « غارة تبشيرية جديدة على إندونيسية » إشارة هامة إلى أثر الحملات التبشيرية فى أحداث نيجيرية ، التى كان فيها القضاء على الأمير الشهيد أحمد بللو ، الذى أعقبه قيام دولة بيافرا النصرانية فى قلب نيجيرية ذات الأغلبية المسلمة ، ثم التلاعب بنتائج الإحصاء فى تعداد سكان نيجيرية الذى حوّل نسبة المسلمين من ٧٥ فى المئة إلى ٤٧ , ٢ فى المئة فمكّن للنصارى من الاستيلاء على المراكز القيادية التى تتحكم فى مصاير البلاد . .

٢ — ويؤرخ التقرير بدء الهجمة التبشيرية بالعام ١٩٥٠ حيث شرعت الإرساليات تتوالى على إندونيسية ، وتأخذ بتنظيم صفوف النصارى أولاً ، ثم تمارس أغراضها فى التسلل إلى ديار المسلمين . .

وقد يستغرب القارىء أن يتأخر تضخم الإرساليات إلى ما بعد الاستقلال ، وكان الأولى والطبيعى أن تبدأ تدفقها مع الزحف الاستعمارى الذى بدأ قبل مئات السنين . . ولكن التفسير المعقول لذلك هو أن المسلمين فى ظلّ الاستعمار شديدو الحرص على دينهم ، بحيث لا يكاد المبشر يجد منفذاً إليه ، فإذا زال ثقله عن أعناقهم تنفسوا الصعداء وفتحوا الباب على مصراعيه لكل واغل ، ولا سيما إذا كان حكامهم الجدد من تلاميذ ذلك الاستعمار الحريصين على استبقاء طرائقه . .

ومعلوم لدى المتتبعين لأحوال أندونيسية أن طلائع الزحف التبشيرى على تلك الجزر قد بدأت مع مطالع القرن الثانى عشر الميلادى ، وكان ذلك بنزول أول المبشرين فى الساحل الغربى لجزيرة

سومطرة ، وتبعه مبشر آخر جعل يتجول لاستكشاف مواقع عمله فى سومطرة وجاوة ، ثم اعقبهما ثالث جعل من أرخبيل مولاكو الجنوبية منطلقاً لحركته التنصيرية . . . ومن ثم شرعت زحوف المفسدين من جنود بولس اليهودى تتدفق تباعاً ، حتى أتمت انتشارها الذى يكاد يغطّى كل جزء من أندونيسية ، بفضل حكامها المؤيدين لكل تحرك غير إسلامى . . وحتى ليعلنون فى مؤتمرهم المنعقد فى مدينة « مالانج » أن عليهم أن ينتهوا من تنصير الستين مليون جاوى خلال عشرين سنة ، وأن يفرغوا من تنصير أندونيسية كلها خلال نصف قرن(١) . .

٣ ــ وجاءت الفرصة الكبرى لهؤلاء الغزاة عام ١٩٦٥ عندما أخفقت محاولة الانقلاب الشيوعية ، واعتقل الألوف من أصحابها ، وانتهز المبشرون هذه المناسبة للاتصال بأسرهم وإمدادهم بما يعوزهم من أسباب الحياة ، واستحدثوا للعجزة والأرامل والأيتام منهم المآوى التى تستقبلهم بكل المغريات . . وهكذا حققوا بواكير انتصاراتهم بتحويل الأعداد الهائلة من هؤلاء المحسوبين على الإسلام إلى النصرانية . .

٤ ــ ولم تقف جهود هؤلاء الغزاة عند حدود التنصير وحده ، بل عمدوا إلى الترويج لمغريات الحضارة الغربية ، وبخاصة فى أوساط المثقفين بمدارس الاستعمار من كبار الموظفين ورجال الدولة . . . وكانت تلك خطة مدبرة ، لأنهم واثقون أن شيوع الفكر الغربى وأخلاق الغرب بين المسلمين كفيل بإضعاف مقاومتهم لكل المحاولات التى تستهدف دينهم . . وبذلك جمعوا بين الجهتين : الإفساد الداخلى من جانب ، والإغراءات التبشيرية من الجانب الآخر . . .

٥ ــ والمسلمون الذين استنفدوا طاقاتهم فى كفاح الاستعمارين الهولندى واليابانى ما كانوا ليملكوا القدرة على مجابهة هذا الضرب من الغزو المنظم ، فاستغل المبشرون ذلك الضعف ومضوا ينفذون خططهم المرسومة ، فيبعثون بدعاتهم علانية إلى أماكن المسلمين ، ومعهم الإعانات والتبرعات ومختلف المغريات . . .

---

(١) انظر « غارة تبشيرية على أندونيسيا » ص ١٤ ط ٤ دار الشروق .

وهكذا انطلق الغزاة يسرحون على هواهم فى ساحة خلت أو كادت تخلو من المدافعين . . وما هى إلا صولة وجولة حتى رسخوا أقدامهم فى الحواضر والقرى والدساكر وحتى شعف الجبال . .

٦ ـــ وقد ساعد المبشرين على تحقيق الكثير من أهدافهم دخول الكثير من الصينيين فى ديانتهم ، ليتخذوا منها شعاراً يدفع عنهم الملاحقة بسبب انتماءاتهم الشيوعية ، ثمّ تواطؤ الطوائف الأخرى معهم كالباطنية وأشباههم من العلمانيين وأصحاب النحل المختلفة . .

٧ ـــ وفى تقرير آخر من فرع فاسوران بجاوة الشرقية للمجلس الأعلى بتوقيع كل من رئيس الفرع صالح بازيد وأميـن سر قسم الترجمة والنشر ، نقتطف المعلومات التالية :

١ ـــ إن هذا الفرع يقوم بنشاط مكثف فى مواجهة المؤامرات التبشيرية فيرسل مبعوثيه من الشباب المؤمن إلى مختلف القرى والدساكر لتوعية المسلمين وإثارة روحهم الإسلامية فيحققون بذلك أقصى ما تبلغه إمكاناتهم المحدودة من حسن النتائج . . ويذكرون من هذه النتائج اجتذاب العديد من المسلمين إلى المساجد التى توشك أن تكون مهجورة ، وقد أعادوا إلى بعض المساجد مهمتها فى تعليم المسلمين بعد أن كانت مقصورة علىّ الصلاة .

٢ ـــ وفى خبر آخر عن نشاط العاملين فى مديرية « فاسوران » بتأييد بعض المخلصين من رجال الحكم ، يقول التقرير إنهم استطاعوا بفضل الله إيصال نور الإسلام إلى ستمئة نفس فى إحدى القرى ،إذ انتقلت بأجمعها من الكفر إلى الإيمان . .

وإنما يدل هذا النجاح على مدى استعداد النفوس فى قرى إندونيسية للاستجابة إلى الخير إذا توافر لهم دعاته الصالحون ، كاستعدادهم لقبول المبادىء الأخرى عندما لا يكون أمامهم غيرها . .

وهكذا يكون المجال متسعاً لأنواع الدعوات ، وأقرب الدعاة إلى النجاح أكثرهم مالاً وأملكهم لحاجات الناس ، وهى الميزة التى

يفتقدها دعاة الإسلام ، وتتدفق على دعاة النصرانية من كل جانب فى أوربة وأمريكة وأسترالية . .

١ ـــ **٣ ـــ ويحدثنا ثانى التقريرين عن هذه الإمكانات قائلاً :**

ولكن التوفيق الذى نحققه بفضل الله ثم بجهاد الأبرار من إخواننا ، يضاعف من نشاط المبشرين فلا ينفكون يقتحمون مختلف الميادين بدعايتهم الكاثوليكية ومعوناتهم . وفى الأيام الأخيرة وفد عشرات الطلاب والمثقفين والمدرسين فى جامعة « بترا » الكاثوليكية إلى منطقتنا . . ولم يلبثوا أن بنوا فى قريتنا كنيسة دعوها « كنيسة الجاويين الشرقيين » وهى ليست محلاً للعبادة فقط بل تؤلف وحدة كاملة فيها المدرسة للتعليم ، والمأوى الخاص للأيتام تحت عنوان « منبع الرّحمة » . . وماهى إلا أيام حتى نهضت بجانب هذا المركز كنيسة بروتستانتية أيضاً .

وها هم أولاء يبعثون بدعاتهم إلى بيوت المسلمين يحملون لهم الهدايا والمساعدات من الأرز والمال ، وأدوات الدراسة لأولادهم . . وبهذه المغريات استطاعوا تنصير ثلاث عشرة أسرة من المسلمين ، وبينهم أمهات كنّ يستمعن من قبل إلى محاضرات إخواننا .

٤ ـــ ويذكر التقرير بعض الأمثلة المؤلمة من هذه التحولات فيقول :

« نور حياتى » هى حفيدة مؤذن فى قرية « كدوروس » وقد تلقت كل تعليمها فى مدارس الجمعية المحمدية ، وتخرجت فى مدرسة المعلمين « عبد الواحد هاشم » بمدينة سورابايا . . وفى النهاية تحولت إلى النصرانية وعُمِّدت فى كنيسة « ويونج » واقترنت بشاب نصرانى ! . . وهناك حادثة أدهى وأمرّ لفتاة عربية هى ابنة المرحوم الأستاذ محمد بن احمد غالب الحامد ، وحفيدة قاضى العرب فى سورابايا . . هذه الفتاة اعتنقت النصرانية وأصبحت داعية لها ، وهى الآن تعمل فى خدمة مرضى النصارى ! .

٥ ــ ويمكن تحديد خطط التبشير فى أندونيسية بالنقاط التالية التى نستخلصها من كلام التقريرين

أ ــ أن نشاط دعاة النصرانية يمثل أهمّ الجوانب فى حياة المجتمع الأندونيسى ، فإلى جوار عملهم فى نطاق التربية والتعليم والصحافة سيطروا حتى على حقول المعماريات والهندسة وفرضوا تأثيرهم على جهاز الحكم نفسه .

وقد روينا فى كتابنا « ذكريات لا تنسى » بعض المشاهد فى هذا النطاق ، وحسب القارىء أن يعلم أن مسجد الاستقلال وهو من أضخم مساجد الدنيا ــ قد خطط له ونفذ مشروعه أحد هؤلاء النصارى ، فجعل محرابه على هيئة صليب ، ويرى المشاهد لقبته العجيبة نجمة داوود ماثلة فى وسطها للناظرين . .

ب ــ ومن وسائلهم فى مجال الدعاية لدينهم كفالة الفقراء صغاراً وكباراً ، عن طريق إمدادهم بمواد الغذاء ، فإذا ما اطمأنوا إليهم عمدوا إلى إمدادهم بالتوجيه النصرانى ، وبالنسبة إلى أطفالهم لا يكتفون بقبولهم فى مدارسهم مجاناً ، بل يرتبون لهم المعونات الدائمة ، ويبنون لأهليهم المعامل التى تعود عليهم بالدخل اللازم ، ومن ثمّ يرسلون دعاتهم إلى القرى فيتخذون فيها مساكن لهم ، ويوطدون صلتهم بأهلها عن طريق الزيارات ، وتخصيصهم بأنواع الهدايا فى مناسبات الأعياد النصرانية .

٦ ــ وفى رأى أصحاب هذين التقريرين أن من أهم العوامل فى نجاح هذه الطغمة المضللة شيوع الجهل فى أوساط العامة من المسلمين ، فهم غير مزودين بأى حصانة تبصرهم بالأخطار المحدقة بهم . سواء من جهة المبشرين أو العلمانيين أو الباطنيين أو الماركسيين .

وأضم إلى ذلك رأيى بأن ثانى العاملين فى ترويض هؤلاء المساكين هو الفقر الطاحن ، الذى ما كنت لأعلم له نظيراً فى دنيا البشر قبل زيارتى لأندونيسية والهند وباكستان . . وقد سجلت الكثير من مشاهداتى تلك فى

ذكريات لا تنسى ، ويكفى أن أعرض منها اثنين مما لاحظته فى كل بلد غشيته من تلك الجزر .

لقد سألت أكثر من سائق لما يسمونه « الريتشاك » وهو عبارة عن دراجة ثلاثية العجلات تحمل راكبين ، ويدفعها السائق المسكين بحركة قدميه فى المرتفعات والمنخفضات ، حتى حدود الإنهاك . .

سألت كلاً منهم عن مبلغ دخله اليومى فكان الجواب متقارباً : إنه ألف روبية يؤدى نصفها لصاحب العربة ويعيش مع أسرته ببقيتها ! . .

ولكن . . أتدرى كم قيمة هذه الروبية ؟ . . إن الألف منها يساوى عند كتابة هذه الأسطر أقلّ من أربعة أريلة سعودية . . وسألت أحدهم عن أسرته فكان جوابه : خمسة . وقلت : وما تأكلون ؟ .. فقال : الأرز والموز ...

ولم أزد لئلا أجرح مشاعره ، ولكنى تمتمت فى أعماق : أين هؤلاء من اللّحم والفاكهة وبقية الضرورات ؟ . .

هيهات . . . هيهات ! .

أجل إنه الجهل والفقر . . وكلاهما وليد الحكم الذى لا يعترف بحق الإنسان فى الحياة ، إذا هو لم يملك القوة التى يفرض بها احترامه . . .

وأخيراً . . هل يستغرب القارىء لهذه الوقائع أن يسمع فى مكان ما من أندونيسية صرخات الاستغاثة موجهة إلى أغنياء المسلمين فى البلاد العربية ، وإلى المؤسسات التعليمية التى تحمل راية الإسلام ، تستمد منهم العون المادىّ والمنح الدراسية للوقوف بوجه هاتيك السيول المدمرة ؟ ! .

ويا لها من صرخات داميات يطلقها رجال يواجهون بصدورهم وبإيمانهم وصبرهم الذى لا ينفد جيوش المبشرين ومؤامرات الهدامين ، ونكال الطواغيت الظالمين . .

لقد سمعنا هذه الصرخات من الأستاذ باسويدان ، ومن كل داعية لله فى أندونيسية . . وها نحن أولاء ننقل بدورنا هذه الأمانة إلى مسامع الرجال الذين

آتاهم الله من فضله نعمة المال والإيمان ، لعلهم يتحركون لنجدة الإسلام قبل فوات الأوان . . .

ألا هل بلّغت ! ! !

اللهم فاشـهد . . .

* * *

الشيخ عطية محمد سالم

م : لو تكرمتم بالاسم والمولد ومكانه وزمانه والدراسة ؟ .

ع : عطية محمد سالم ، ولدت فى المهدية شرقية بمصر وذلك فى العام ١٣٤٦ هـ وبدأت دراستى العملية فى حلقات المسجد النبوى حيث قرأت على بعض المشايخ بلوغ المرام ورياض الصالحين وموطأ مالك ، ونيل الأوطار ، ثم صحيح البخارى ، ثم حضرت بعض الدراسات فى سنن أبى داوود ومصطلح الحديث وفى « دليل الطالبين » من فقه الحنابلة ، وكذلك فى الفرائض والنحو وقواعد الخط على عدد من الشيوخ .

م : وكان لى بعض الدراسات الخاصة فى مبادىء المنطق وأصول الفقه .

ويشرح الشيخ لنا انطباعاته عن ذلك اللون من الدراسة التى تكاد تتوارى من حياةالمسلمين فيقول : كانت تلك الدراسة هى قاعدة الأساس للتحصيل العلمى ، إذ هى مرتبطة بالكتاب المدروس لا بالمنهج والمقررات ، فلم يكن الغرض هو إنهاء المقرر فى زمن معين ، بل المنشود هو فهم ما يقرأ دون مطاردة للزمن ، ولم تكن الغاية النجاح فى الامتحان للحصول على الشهادة ، بل كانت الغاية هى التزود من العلم والمعرفة والتفقه فى دين الله .

ولهذا لا يلزم الطالب بالتفرغ والانقطاع لطلب العلم ، بل إن جميع من تجمعهم حلق الدرس فى المساء لهم أعمال فى النهار مختلفة ومتفاوتة ، ولكنهم فى الدرس متساوون لا يميز بينهم إلا التفوق فى التحصيل ، فهم بحق إخوة صدق .

وعقيب ذلك جاءت الدراسة النظامية فالتحقت بالمعهد العلمى فى الرياض ، ومنه انتقلت إلى كليتى الشريعة واللغة ومنهما حصلت على

المؤهلات الجامعية فى الشريعة واللغة .

بيد أن الدراسة التى جمعت بين النظامية والخاصة ،وامتازت على سائر الدراسات المختلفة ، فهى ملازمتى فضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطى طوال أربع سنوات لا أكاد أفارقه فى حل ولا ترحال ، حتى رحلاته إلى الحج ورحلته إلى دول إفريقية . . وكانت تلك الملازمة فرصة العمر للتحصيل ، إذ كنت أستفيد منه بيان ما أشكل علىّ من المقررات النظامية ، وأتوسع فى مدارسة سواها .

ويتابع الشيخ فى الحديث عن شيخنا الأمين رحمه الله قائلاً : من الدروس التى حضرتها عليه التفسير وأصوله ، وأصول الفقه والبلاغة ، وأدب البحث والمناظرة ، والفرائض ، ومقدمات فى المنطق ، وبخاصة مبحث التصور والتصديق. وأهم من هذا كله الجانب المسلكى من حياته الفاضلة ، فإنى وإن لم أستطع مجاراته فإنى لم أحرم الإفادة منه والحمد لله .

م : للأحداث أثر فعال فى تكوين أفكارنا ومسيرتنا ، فهل لكم أن تحدثونا عن أهم الأحداث التى واجهتكم وانفعلتم بها ؟ .

ع : كثيرة هى الأحداث التى تركت أثرها فى نفسى وبعضها أكبر أو أصغر من بعض . . ولكن لكل منها طابعه الخاص .

عندما بدأت الدراسة فى الثانية الثانوية من معهد الرياض العلمى سنة إحدى وسبعين جاء ترتيب الطلاب وفق الحروف الأبجدية ، فكان جارى وشريكى فى المقعد غلاماً لو تزوجت مبكراً لكان كبعض أولادى . وكبر علىّ أن أجالس صغيراً مثله ، إلا أنى سمعت من داخل نفسى هاتفاً يقول : نعم . . إنه العلم والجهل ، فمبادرته فى طلب العلم ألحقته بك ، وتباطؤك فى ذلك أخرك إليه .

وذات ليلة ، وكنت مشرفاً على برنامج النادى الأدبى فى المدينة ، فوجئت بين أسماء الطلاب الثانويين بواحد هو ابن ذلك الزميل وقد اشترك مع والده فى الكلام أثناء تلك الحفلة . . وفى هاتين الحادثتين عبرة أى عبرة . .

وآخر من هذه الأحداث واجهته فى مؤتمر ماليزية الإسلامى ، الذى انعقد عام ١٣٨٤ لدراسة « قضايا إسلامية » حيث فوجئت بقرار يتعلق بموضوع الربا ، وقد كاد أن يطرح للتصويت ، فاعترانى انفعال لم أعلم دوافعه ، وتلقائياً طلبت الإذن بالكلام ، فقيل لى إن الجلسة مخصصة للتصويت فقط . . فأجبت : أن القرار خطأ نظاماً وعلماً : فلا ينبغى الاقتراع عليه قبل استيفاء مناقشته . . فسُمِحَ لى بدقيقتين وفى مثل ومضة البرق بدت لى أربع نقاط تمنع إباحة الربا عقلاً وشرعاً ، فاستزدت فى الزمن لاستيفائها فلم أجد معارضاً ، وما ان فرغت من عرض هذه النقاط حتى تقرر وقف القرار . . فكانت مناسبة تذوقت فيها لذة العلم وحلاوة تحصيله ، ومدى توفيق الله لمن أراد وجه الله .

م : الرجال الذين تركوا آثارهم فى فكركم وسلوككم مع التعليل . .

ع :أما الأشخاص فهم كثيرون ممن درست عليهم أو شرفت بمعرفتهم أو زاملتهم ولكل منهم أثره فى نفسى ، وفى المأثور من الأخبار أن نبى الله عيسى عليه السلام ، قد سئل ذات يوم : بمن تأدبت وأنت لا والد لك ؟ . . . فأجاب : أرى الحسن من غيرى فأستحسنه فأفعله ، وأرى القبيح من غيرى فلا أقربه . . .

وعلى سبيل التسلسل الزمنى أذكر من هؤلاء الرجال :

١ ــ عمى محمد مصطفى عطية سالم . كنت فى المرحلة الابتدائية وهو بالثانوية ، وكان مثالاً فى جده واجتهاده ، يحصل على الأولية فى كل من سنواته ، فيعفى من تكاليف الدراسة بسبب تفوقه . . وقد أثربى من حيث انصرافه إلى دروسه واعتماده على نفسه بعد الله .

٢ ــ وفى مطلع دراستى فى المسجد النبوى تأثرت بسلوك ومنهج فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ عبد الرحمن الأفريقى ، فقد كان ليسر عباراته وسهولة أسلوبه ، ودوام بشاشته مع الطلاب وكأنهم أحب أبنائه ، وقبل ذلك قوة يقينه بالله ، دروس عملية تعلمت منها الكثير وانتفعت بها كثيراً .

٣ ــ الشيخ محمد الحركان رحمه الله فى أسلوبه المتميز بالضبط والمؤاخاة مع طلابه كذلك ، حتى لتراهم حوله كزملاء متحابين فى ذات الله .

٤ ــ الشيخ محمد بن تركى ، عليه رحمة الله ، فى استهانته بالدنيا ، واعتزازه بالعلم وصدقه مع نفسه ومع ربه ومع الناس ، وعظم توكله على الله .

وهؤلاء الثلاثة من المشايخ الذين حضرت عليهم فى رحاب المسجد النبوى المطهر ، وأما الآخرون من الأساتذة الذين أخذت عنهم أثناء الدراسة النظامية فأذكر منهم فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفى ، المتميز بمنهجه العلمى ، حيث يبسط المسائل التى يلقيها على طلابه بغاية الإيضاح ، إذ هو من الذين يركزون على دراسة الموضوع لا دراسة الكتاب المقرر .

أما من حيث منهجه فى الحياة فلعلمه الكثير وكلامه القليل ، ولتخطيطه لكل خطوة قبل أن يخطوها ، ثم لحسن تقديره الأمور .

وهناك آخرون تأثرت بمناهجهم أكثر من تأثرى بشخصياتهم . .

وأما الشخصية التى تأثرت بها ، وقد أكون انطبعت على بعض خصائصها شئت أو أبيت ، فهى شخصية العلامة الفقيد الشيخ محمد الأمين الشنقيطى رحمه الله ، تلك التى تركت أثرها فى كل من لقيها . .

وإذا كنت مطالباً بتحديد آثاره فى فكرى وسلوكى مع التعليل ، فيعسر علىّ ذلك ، لطول ملازمتى إياه على مدى اثنين وعشرين عاماً لم أكد أفارقه فى حله وترحاله كما أسلفت .

م : ففى منهجه العلمى العميق الاستيعاب والشمول ، وقد أعانه فى ذلك كله وفرة العلوم والإحاطة بمواد عديدة يخدم بعضها بعضاً ، وهذا الجانب يشترك فى إدراكه كل من درس عليه ، أو طالع تفسيره « أضواء البيان . . » إلا أن مايخصنى من ذلك هو أن صحبتى له كانت تتيح لى من الفرص ما لا يتاح لسواى إذ قد أتدرج معه فى الحديث أو يتوسع معى فى التدريس إلى حد لايتوافر فى أوقات الدروس المقررة ، ولا

سيما فى دقائق الأصول والتفسير والعقيدة ، وطرق التعبير عنها ..

وما أنسَ لا أنسَ من أخلاقه ذلك التورع الذى يمنعه الكلام فى أى مسألة لم يستوعبها ولم يعرف مستندها ، فيكتفى بالقول : « لا أدرى . . والله أعلم » ثم سرعة رجوعه إلى ما يظهرله أنه الحق فى أى مسألة خلافية . . . .

وأما من ناحية السلوك فقد لمست منه الشىء الكثير مما يتحلى به الفضلاء وأهم ما أذكر من شمائله فى هذا الجانب :

تجاهل العارف ، وتغاضيه عن هفوات الآخرين . . وكثيراً ما سمعته يتمثل بقول الشاعر :

ليس الغبىّ بسيد فى قومه ولكن سيد القوم المتغابى

يضاف إلى ذلك عدم مبالاته بأمور الدنيا ، حيث يستوى لديه شظف العيش ونعيمه ، وكثيراً ما كان يتمثل كذلك بقول الآخر :

الجوع يطرد بالرغيف اليابس فعلام تكثر حسرتى ووساوسى

ولا أنس تحفظه الشديد من لغو القول ، والتفوه بكلمة تعقب الندم أو الأسف ، بَلْهَ هُجرَ القول ، أو إجراء الغيبة فى مجلسه . .

ولقد كتبت عنه محاضرة وافية طبعت فى آخر الجزء التاسع من « أضواء البيان » فصلت فيها الكثير من حياته العلمية ودراسته وتدريسه ، ومع ذلك لما أستوف الحديث عن شخصيته ، وذلك لفرط تأثرى ولتنوع مؤثراته ، تغمده الله بوافر رحمته .

يقول مؤلف هذا الكتاب : وإنا لنشارك فضيلة الشيخ عطية فى كل ما أورده من محاسن شيخنا الأمين ، ونؤكد ما ذهب إليه من تأثره بالكثير من مزاياه حتى فى حركة يديه وهو يحاضر أو يحدّث . . ولكن شيئاً واحداً لم يُعنَ باقتباسه من الشيخ وأعنى بذلك موقفه من الشعر فلا نعرف له أى محاولة فيه ، مع أن شيخنا الأمين رحمه الله كان من صيارفته ، ولو تفرغ له لبرّز فيه وتفوق . . ولكنه سلك طريق الإمام الشافعى فى إيثاره العلم على الشعر ، خشية أن يشغله بأخيلته وجواذبه عن علوم الشريعة وحقائقها . . ويلاحظ

القارىء أثر إعراض الشيخ عطية عن الشعر من خلال إيراده البيت « ليس الغبى . . . » على لسان شيخه مختل الوزن ، ولا بد أن يكون شيخه رحمه الله قد قرأه صحيحاً على الوجه التالى :

ليس الغبىّ بسيد فى قومه لكنّ سيدَ قومه المتغابى

وحبذا لو يعير أهل العلم الشرعى فن الشعر بعض عنايتهم حتى يستقيم على ألسنتهم وحتى يألفوا أساليبه فيساعدهم ذلك على فهم أكثر لكتاب الله ، لأن الشعر العربى الأصيل هو الممثل الأول لطرائف البيان العربى . . .

ورحم الله أبا حيان صاحب « البحر . . » الذى يعتبر تذوق الشعر العربى البليغ من أهم الوسائل لفهم بلاغة القرآن العظيم . . .

ويتابع الشيخ عطية ذكرياته عن الرجال الذين تأثر بهم ، فيقول : من أهم الشخصيات الذين لا يستطيع نسيانهم اثنان . أما أحدهما فالشيخ عبد العزيز بن باز ، الذى رافقه أستاذاً فى مرحلة الدراسة ، وزميلاً أثناء مشاركته فى التدريس بكليتى الشريعة واللغة بالرياض ، ورئيساً خلال عمله فى الجامعة الإسلامية بالمدينة ، فقد كان لمنهجه فى التدريس ، وتلطفه مع الطلاب ، وتواضعه للزملاء وعمله الدائب فى مساعدة الآخرين ، أثره العميق فى تكوينه النفسى والفكرى . . وإذ لم يتسع مجال القول لاستيعاب مآثره فلنكتف بإحداها وهى أن كل منسوبى الجامعة على اختلاف أوضاعهم كانوا يشعرون بأنهم معه كالأسرة الواحدة يتولى أمرها بالعطف والرعاية والد كريم حنون . . .

وأما الشخصية الأخرى فالشيخ عبد العزيز صالح آل صالح فقد تأثرت به رئيساً فى معالجته الحكيمة للمشكلات وعمق تصوره للقضايا ، ودقة ملاحظاته لنفسيات المتقاضين ، هذا إلى سمو معاملته للعاملين معه ، وقدرته على دفع السيئة بالحسنة ، وإحجامه عن التدخل فى ما لا يعنيه . . ولا يقل عن ذلك تأثرى به رفيقاً فى رحلاته خارج المملكة ، سواء من حيث صفاء نفسه ، ووقار شخصيته وسعة بذله . . ولا أنسى سماحته التى تشعر مرافقه بأنه صديقه وزميله ومقدم عنده حتى على أبنائه ، ثم هاتيك « الدبلوماسية » التى

يقابل بها رؤساء البلاد التى يزورها ، ومحاورته إياهم فى أسلوب إسلامى عميق يستولى به على ثقتهم وطمأنينتهم وقبولهم لما يقول . .

م : لو تكرمتم بالحديث عن الأعمال التى توليتموها حتى الآن وأحبّها إليكم ، ولماذا ؟ .

ع :لقد عملت فى ميدان التعليم بدءاً من القسم المتوسط فالثانوى فى المعهد العلمى بالاحساء ، وانتهاءً بكليتى الشريعة واللغة بالرياض ، وذلك فى المرحلة الأولى عقيب التخرج . . ولما أُحدِثت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة أسندت إلىّ فيها إدارة التعليم ، ومنها تفرغت للتدريس فى كلياتها الأولى . . وأنا الآن أتولى تدريس بعض الحصص فى المعهد العالى للدعوة فى المدينة ، وهو تابع لجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ، وحصص أخرى فى قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية . .

ومعلوم أن من أعمالى الدائمة التدريس على نظام الحلقات فى المسجد النبوى الشريف ، ومنذ العام ١٣٨٤هـ أقوم بعمل قاض فى المحكمة الكبرى بقضاء المدينة المنورة .

أما أحب هذه الأعمال إلىّ فعائد لعلاقتى بالعمل نفسه ، وما أذكر أنى توليت عملاً منها إلا كنت مرتاحاً إليه ، وأنا أعتقد أن كل عمل يقوم به الإنسان عن رغبة وارتياح نفس لا بد أن يكون حبيباً إليه ، وإنما تأتى النفرة من العمل إذا أرغم المرء عليه ، أو كان فوق طاقته .

ومما لا خلاف عليه هو أن العمل التعليمى وبخاصة العالى منه محبب لكل واحد من أهل العلم ، لما يهيئه من الفرص لزيادة المعرفة ونشر العلم . . .

وأما عمل القضاء فمحفوف بألوان المصاعب والمتاعب ، ولكن مشقاته كلها تهون بل تتلاشى إذا قيست بثمراته الرضية التى يجنيها القاضى من نصرته لمظلوم ، أو إظهاره لحق مهضوم ، أو رده للهفة محزون . .

وغير خاف أن العمل القضائى مبناه أول كل شيء على الاحتساب وإن كان مشمولاً برعاية الدولة ، ذلك لأن احتساب القاضى هو الأصل . .

: ويقول المؤلف : ذلك هو المبدأ الأول للقضاء بقياس الإسلام ، وعليه درج قضاة الصدر الأول ، الذين بلغ بهم الورع أن يصدروا أحكامهم على الخلفاء والوزراء والأمراء وعلى طغاة الحكام دون أن يخشوا فى الله لومة لائم أو مهابة ظالم ، وما كان لهم أن يفارقوا خط النبوة فى قضائهم بعد أن فقهوا قول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : « القضاة ثلاثة واحد فى الجنة واثنان فى النار[1]» فأيقنوا أن النجاة لمن أخلص للحق ووفق إليه ، وأن الويل كل الويل لمن تلعّب به الهوى فأعرض عنه وهو عليم به . . وقد استمرت هذه المسيرة المباركة خلال التاريخ الإسلامى فلم تخل حقبة من قضاة كانوا المثل الأعلى لمعنى القضاء فى العالم ، حتى أسند القضاء إلى غير أهله ، وتغير روح القضاء باستبعاد شريعة الله عن مجال الحكم ، فصار القضاء أمالىَّ بغاةٍ لا هدف له إلا تثبيت أركان الظلم على أشلاء العدالة وحقوق المظلومين . .

م : ما دمنا فى صدد الكلام عن القضاء فيحسن بنا أن نحصل على بعض تجاربكم من خلاله . . .

وأطرق الشيخ قليلاً كأنه ينظر فى طوايا ذاكرته ليستخرج منهاالطريف من الوقائع . . ثم مضى يتحدث فى أناته المعهوده :

ع : سأقتصر على اثنتين من هذه التجارب لما فيهما من العبرة الرائعة :

أما الأولى فقضية خلاف بين زوجين طال أمده واستفحل شره ، وانتهى أمره إلىّ ، وعرض كل منهما دعواه على صاحبه ، متهماً إياه بسوء العشرة ، ومطالباً بحقوق عليه . وألحت المرأة بطلب الطلاق وبضم الأولاد إليها دون نفقة . . وبعد دراسة دقيقة للقضيةتبين لى ألّا سبيل للتوفيق بينهما على حالتهما الراهنة ، فقررت إجراء تجربة الطلاق لمرة واحدة ، وعرضت الفكرة عليهما فلم يترددا فى قبولها ، وأوقع الزوج الطلقة وهنا جعلت أذكرهما بحق المودة والرحمة والأولاد ، وختمت ذلك بقوله تعالى : ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم** ﴾ البقرة ٢٣٧ .

---

١ ــ من حديث شريف أخرجه أبو داود وابن ماجة .

وكان لكلامى أثره العاجل فإذا بالزوج يقول : إذا كان الأمر للمودة والرحمة والأولاد فإنى متنازل عن كل حق لى عليها ، ومستعد للإنفاق على أبنائى ما داموا فى كفالتها . . وأجابت المرأة على ذلك بأنها هى أيضاً متنازلة له عن مؤخر صداقها . .

وكان من أسباب الخلاف بين هذين الزوجين أن المرأة كلما استاءت من زوجها حاولت الذهاب إلى بيت أهلها فيمنعها أن تصحب من متاعها سوى ما تلبسه . . ولكن ما إن صارا إلى هذه النتيجة حتى تغير الحال وقال الرجل لزوجه ؟ هذا مفتاح البيت فخذى منه ما تحبين ودعى ما تكرهين . . .

ولقد كان لهذا الموقف أثره البالغ فى نفسى ، وأكثر ما راعنى منه تلك الدموع التى ذرفهاكل منهما . .

وبعد عشرة أيام فقط أرسلا إلىّ برغبتهما فى الرجعة ، ولكنى أخرتها عشرة أخرى للتحقق من صدق العزيمة . .

وهكذا كان الطلاق هو العلاج الحاسم لخلافاتهما المزمنة ، وما لبثا أن عادا بعدها إلى الحياة الزوجية الكريمة . . .

وأما القضية الثانية فقد بدأت يوم رفعت إلى من قبل الشرطة شكوى امرأة تُوفِى زوجها وخلف لها عدة أطفال ، وقد وجدت فى أوراقه أن له ديوناً عند بعض الناس مقابل أعمال له . وأحضرت الشرطة هؤلاء فأنكروا أن يكون فى ذمتهم حق للمتوفَّى ، وأظهروا استعدادهم لليمين ، وحضرت الأرملة مع أطفالها إلى المحكمة ، وتبين لى ألَّا بينة لديها سوى تلك القيود .

وفى الجلسة الأولى حضرت المدعية وأحد الغرماء واستوقفت الكاتب عن تلاوة الدعوى ، ثم استدنيت الرجل وأجريت معه هذا الحوار :

ـــ هل تعرف خصمك فى هذه القضية ؟

ـــ نعم . إنه هذه المرأة الحاضرة .

ــ كلا . . إن خصمك هو زوجها فهل تعلم أين هو ؟ . .

ــ لقد تُوُفِى . .

ــ حقاً لقد توفى وترك هذه الأرملة وهؤلاء الأيتام . . ولا شك لديك أنك ماض إلى مامضى إليه ، وأنك معروض معه على الله ، الذى سيسألك عن دعواه ، وهو أعلم بما أنتما عليه ، ولا يحتاج إلى بينة ولا تخفى عنه خافيه . . . فما تؤمن أنه يخلصك من عذابه ذلك اليوم فأجب به الآن ، واليوم أوسع لك من ذلك الموقف الذى لا درهم فيه ولا دينار . . فماذا تقول فى دعوى هذه المرأة ؟ . .

وأطرق الرجل ملياً ثم قال : أمهلنى فى الإجابة إلى الغد . .

وسألته : ولِمَ الإمهال ؟ . .

قال : لأراجع حسابى مع المتوفَّى . . .

ولمست فى هيئته ولهجته أنه يريد الحق فأخرته أسبوعاً . . .

وهكذا فعلت مع بقية الغرماء . . وكانت النتيجة واحدة مع الجميع . . .

ففى اليوم المحدد أدلى كل منهم باعتراف يفوق المبلغ المدعى به عليه . . . ومنهم من أحضر المال فسدَّد ما عليه ، واستمهل بعضهم إلى موعد الراتب آخر الشهر . . ولن أنسى وقع هذا الموقف فى نفس تلك الأرملة . . لقد غلبتها دموع الفرح ورفعت يديها بالشكر الحارّ لله الذى وفق إلى كل هذا الخير .

وإنى لأسأل فى غبطة لا توصف : هل بقى مثل هذا التجاوب العالى مع الحق فى غير نفوس المؤمنين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ؟ . .

وهل بقى للناس ملاذ غير القضاء الإسلامى يردهم إلى ربهم ، الذى يرجون رحمته ويخافون عذابه ، فيؤثرون مرضاته على كل شىء ! . . .

م : أبرز أعمالكم كان فى التعليم الجامعى ثم القضاء . . فهل لكم أن تحدثونا

عن أثر كل منهما فى تفكيركم وتقديركم ؟ . .

ع : كان من آثار التعليم الجامعى فى تفكيرى تركيزى على الناحية المنهجية فى دراستى لأى موضوع ، سواء كان تحضير درس للمسجد النبوى ، أو حلقة فكرية للتلفاز أو الإذاعة ، أو محاضرة للدراسات العليا ، أو رسالة خاصة أكتبها . .

ففى هذا كله لا بد من خطة أنهجها ولو فى موضوع موجز . .

أما القضاء فماثل الأثر فى تعميق الملاحظة ودقة التقدير ، والتركيز على تتبع خيوط الحقيقة ، فلا أقدم على تكوين رأى فى قضية قبل الفراغ من دراستها ، بل لا أعالج قضية إلا بعد تصور موضوعها وأبعادها . .

وطبيعى أن يكون لعملى فى التدريس الجامعى أثره الكبير فى منهجى القضائى لأن كلاً من العملين مكمل للآخر . .

م : ويذكرنى جواب الشيخ هنا ببعض الانطباعات التى حملتها عن فضيلته أثناء عملنا معاً فى التدريس الجامعى ، وخلال اجتماعاتنا فى مجلس الجامعة الإسلامية ، إذ كثيراً ما يتحدث عن برامج بعض الإذاعات التى تعرض لموضوعات القضاء وإجراءات المحاكم مع المتهمين ، وطرائق التحقيق لاستنباط الوقائع . . وذلك قبل أن نعرف شيئاً عن رغبته فى الانتقال إلى القضاء . . ولعل ذلك من الأسباب التى مالت به إلى هذا المسلك الذى أحبه وانسجم معه . .

م : بوصفكم اليوم من أهل القضاء يرجى بيان رأيكم فى موضوع تقنين الأحكام الشرعية لتيسير الوصول إليهاعلى طريقة « مجلة الأحكام » العثمانية .

ع :إن هذا السؤال تشريعى أكثر منه قضائياً ، لأن ما يسمى بالتقنين ، وهو وضع القوانين وتنظيمها ، من اختصاص السلطات التشريعية لا القضائية ، أما عمل القاضى فتطبيق التشريع على الوقائع ، وليس من حقه أن يشرّع أو يفسّر التشريع ، ولكن إذا كان السؤال عن رغبة القضاة وتيسير عملهم بترتيب الأحكام فى مواد منظمة ومقعدة ـــ أى مقننة ـــ

يلتزمها القضاة فلا يجدون عناء في تحصيلها ، ولا يقع بينهم اختلاف في تطبيقها ، فأقول : إن فكرة تقنين الشريعة أخذت وقتاً طويلاً في السبعينات وما بعدها ، وكتبت فيها الرسائل ، بين مؤيد ومعارض ، وكل استناد المنادين بها على سابقة المجلة العثمانية .

وأذكر أني دُعيت — في أواخر الثمانينات — إلى ندوة إذاعية بالرياض ، ولم أكن على علم تام بموضوعها ، وكان بين المشاركين فيها صاحب مؤلف كبير نال به درجة جامعية في الموضوع نفسه من خارج المملكة ..

ورأيي الخاص هو عدم إمكان تقنين الشريعة بالمعنى القانوني ، وذلك للأسباب التالية :

١ — إن التقنين من حيث الأصل هو عمل المقنن يصوغ ما يراه في فقرات منظمة ، فالفكرة من نفسه والصياغة من أسلوبه ، فليس هناك عامل خارجي آخر . . على حين أن الشريعة ليست من وضع هذا الإنسان فهو معها خاضع لغيره ، فلم يبق له من عمل سوى الصياغة .

ثم إن المقنن للشريعة سيواجه مشكلة موضوعية بالنسبة إلى اختلاف المذاهب ولو أراد الالتزام بمذهب فسيواجه المشكلة نفسها في اختلاف علماء المذهب وتعدد الأقوال والروايات فيه . . ولهذا يقول دعاة التقنين : على المقنن أن يرجح ويختار ، وبذلك يأتي انحصار القاضي في حدود اختيار المقنِّن ، إذ المفروض في القاضي الشرعي أنه مجتهد ، وبذلك يتعطل اجتهاده ، ويلزم بالخضوع لاجتهاد سواه . . .

٢ — إذا اجتمع من نرى فيهم القدرة والكفاية وتخيروا ما وصلوا إليه بعد كل جهد ، ثم جاء بعدهم من يكون له رأي آخر يقتضي تعديل اجتهاد المقنن السابق ، وهكذا يجري الأمر ما بين تعديل وتغيير ومراعاة للمصالح ، حتى تبعد تلك التقنينات كلها عن أصلها الأول ، كما هو المشاهد في قوانين الأحوال الشخصية ، فعلى الرغم من كونها قائمة على المذهب الحنفي ، فقد طرأ عليها الكثير من التغيير الذي أبعدها عن الأصل . .

٣ — وفى المنهج القضائى نفسه يعلم كل ممارس له أن لكل قضية ظروفها الخاصة ، فما صلح فى هذه القضية قد لا يصلح لتلك ، ومن هنا تأتى عوامل التخفيف والتشديد فى الحكم . . فإذا وضعنا مثلاً قانوناً فى الجنايات ألزمنا القاضى بتطبيقه على كل قضية جنائية تماثلت معها فى الصورة . وإن اختلفت فى الملابسات والدوافع ، وليس هذا بمحقق للعدالة .

أما نصوص الفقهاء واختياراتهم وأقوالهم فهى زيادة خير وسعة منهج أمام القاضى المجتهد تمكنه من المواءمة بين القضية والنصوص المتعددة ، وتصير به إلى تطبيق أفضل وأكمل وأكثر تحقيقاً للعدل .

وهنا يرد سؤال عن مستوى القضاة ومدى استيعابهم مختلف الأقوال فى المسألة ، وقدرتهم على الترجيح فى ما يذهبون إليه . والجواب على ذلك أن الأصل فى القضاة الارتفاع إلى هذا المستوى ، فإن يكن ثمة من قصور فيهم وجب تداركه بالرفع من طاقتهم العلمية بدلاً من الهبوط بقدرة التشريع الإسلامى ، إلى حصره فى اختيار بعض الأشخاص . .

وهنا يلتفت الشيخ إلى موضوع المجلة العثمانية فيقول :

إن المجلة لم توضع ليحكم بها القضاة ، ولا لتحصرهم فى نطاقها ، وإنما وضعت لقضاة التمييز الذين لم يطلعوا على أحكام الشريعة ، وتُعرَض عليهم قضايا سبق الحكم فيها لقضاة شرعيين ، فالغرض من المجلة إذن هو مساعدة قضاة التمييز عن طريق تزويدهم بالاجتهادات الفقهية ليتمكنوا من إجراء المطابقة بين أحكام القضاة وموادّ المجلة . . .

ويقف عند هذا الحد فى موضوع المجلة ، ليستأنف الحديث فى قضية التقنين وليقدم مزيداً من الاعتراضات عليه .

يقول الشيخ القاضى قد يقال : إن تعدد الأقوال والأوجه والروايات مؤدّ إلى اختلاف الأحكام مع اتحاد القضايا ، كأن تعرض قضية ما على أحد القضاة فينظرها ويجتهد فيها ، ويؤديه اجتهاده إلى اختيار أحد تلك الأقوال . . ثم تعرض أخرى مماثلة على قاض آخر فينظر ثم يجتهد ، وقد

يؤديه اجتهاده إلى اختيار قول آخر خلاف الذى أخذ به زميله ،فتختلف الأحكام مع اتفاق القضايا ، وهذا أهم ما يحتج به دعاة التقنين . .

ويقال لأصحاب هذا القول : لا نسلم بمقدمتكم التى تزعم أن القضيتين متفقتان ، فقد قدمنا آنفاً أن لكل قضية ملابساتها الخاصة ، فاتفاق قضيتين من جميع الجهات متعذر أو ممتنع ، ونذكر على سبيل التمثيل من القضايا الجنائية السرقة والحكم فيها بالقطع ورد المسروق ، فإن الحكم هنا يتوقف على اكتمال عدة أمور :

١ ــ مالية المسروق . ٢ ــ كمال التملك بأن لا يكون للسارق شراكة فى المسروق ولو من بعيد . ٣ ــ حرمة المال المسروق شرعاً ، بأن لا يكون مهدراً حكماً كالخمر وآلات اللهو . . و . . . ٤ ــ الحرز ، وحرز كل شىء بحسبه . ٥ ــ ظروف السارق والأحوال العامة للمجتمع . . . إلى غير ذلك من الشروط .

وكل واحد من هذه الأمور قد يختلف كل الاختلاف أو بعضه بين قضية وأخرى ، وبالتالى فإن توافر شروط الحكم الواحد فى قضيتين قد يكون معدوماً أو كالمعدوم . وربما لو عرضت القضيتان على قاضٍ واحد لاختلف حكمه فيهما لاختلاف ملابساتهما ، ولو فى نظره ورأيه .

م : وإذا كان الحكم مستنداً إلى قول فى المذهب أو نص فى الشريعة فما المحظور فى ذلك ما دام اجتهاد القاضى سليماً . .

وقد سبق من عمر رضى الله عنه أن حكم فى مسألة فرضية باجتهاد منه ، ثم عرضت مثيلتها بالتحديد فأراد أن يحكم فيها بمثل حكمه السابق ، فراجعه الورثة وناقشوه ، فتغير اجتهاده وأصدر حكماً آخر ، فلما راجعه أصحاب الحكم الأول قال : ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقضى . . .

ووجدنا فى التشريع مثلاً أنواع الكفارات من عتق أو صيام أو إطعام ، وفى الأسارى خُيِر الإمام بين القتل والفداء والمَنّ . .

ووجدنا فى اللعان قوله ﷺ « حسابكما على الله. أحدكما كاذب[1] »
وفى شهادة الزنا لو توافقت شهادة ثلاثة على صورة ولم يحققها الرابع فإننا نجلد الثلاثة حداً ، مع كونهم لم يشهدوا إلا بما رأوا ، ومع أن شهادتهم صحيحة بنظر القاضى من حيث الواقع . .

لقد توسع الشيخ عطية حفظه الله فى بسط أفكاره حول موضوع التقنين ، واستوفى ما يراه من الحجج الحاسمة للجهة المنادية به ، ونحن عندما طرحنا هذه القضية عليه وعلى سواه من أهل العلم لم نرد تأييداً لأحد ولا رفضاً ،بل نريد فقط الوصول إلى الحقيقة . ومعلوم أن قضية الشريعةالإسلامية وعودتها إلى نطاق الحكم ، من الأمور التى تشغل فكر المسلم المعاصرعلى اختلاف مواقعه . . ولا جرم أن موضوع الشريعة الإسلامية مرتبط بأساس العقيدة فى وجود الله تبارك اسمه ، والإيمان بالنبوة والكتاب ، لأن إنكار الشريعة ورفض تطبيقها فى حياة المسلمين إنما هو ردٌّ للإسلام كله ، وانسلاخ من الإيمان بأسره . . ثم لا بد لنا مع ذلك من إثبات صلاحيتها للحياة واستيعابها لكل مصالح الإنسانية أفراداً وجماعات ، وتفوقها على كل تشريع عرفه الإنسان منذ عرف التشريع حتى الساعة . .

وحسب الشريعة الإسلامية شهادة الله بتفوقها على كل نظام تشريعى بقوله الخالد ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ الإسراء ٩ . فلا نظام ولا قانون ولا دستور إلا والشريعة الإسلامية أكمل منه وأقوم . . ثم تأتى شهادة أساطين العلوم الحقوقية فى العالم لهذه الشريعة بأنها تفوق كل تشريع عرفته الأرض ، تحقيقاً للعدالة وتكريماً للإنسان ، وحمايةً للفرد والجماعة من عدوان الطواغيت . على أن المشكلة التى تواجه أنصارها فى هذه الأيام هو احتجابها عن ميادين التطبيق فى أرجاء العالم الإسلامى خارج حدود هذه المملكة ، ثم وقوفها بسبب ذلك بعيداً عن مشكلات العالم المستجدة ، مما لم يخطر على بال المجتهدين السابقين من أئمة العلم . . وقد زاد من عزلتها بالنسبة إلى مفكرى العالم انطواؤها فى موسوعات التراث ، التى لا يتاح الاتصال بها واستكشاف مضامينها

---

١ ــ من حديث أخرجه مسلم فى كتاب اللعان .

إلا لذوى الاختصاص من كبار علماء الإسلام ، وما أقلهم فى هذه الأيام ! . .

فبينما يجد خبير القوانين الطريق معبداً إلى أعماق التراث القانونى العالمى ، مرتباً منظماً مفصّلاً لا يكاد يدع شاردة ولا واردة من الأحداث إلا تناولها بالتعليل والتحليل ، وإعطاء كل منها الحكم المقتضى ، يجد الطريق إلى عمق التراث التشريعى الإسلامى مملوءاً بالعثرات والعقبات ، سواء من حيث غرابة مصطلحاته إلى تفرق مواده فى مئات الكتب ، دون أن تتوافر الهمم لتجميعها وتنسيقها فى موسوعة شاملة ومنسقة . . وذلك على الرغم من بعض المحاولات الرسمية ، التى لا تكاد تمضى بعض الخطوات حتى تتوقف ويغمرها الصمت ، أو من حيث تقديم نماذج من هذا التراث فى علاج بعض المشكلات العالمية ، تقنع كبار مشرعى العالم أن ثمة تشريعاً إلّهياً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من مصالح البشر إلا أحصاها على أتم الوجوه وأرعاها لهذه المصالح . . . حتى ليتضاءل بجانبه كل تشريع وضعى كما وصفه الأستاذ شبرل عميد كلية الحقوق فى عاصمة النمسا بقوله : إن من الفخر للإنسانية أن ينتسب إليها إنسان كمحمد ، وإننا نحن الأوربيين سنكون أسعد الخلق إذا استطعنا الوصول إلى مستوى شريعته ولو بعد ألفى سنة(١) .

ومن هنا كانت دعوة بعض مفكرى الإسلام المعاصرين إلى تقنين الشريعة منطلقة من الغيرة عليها ، ولإبراز محياها الجميل لأعين البشر ، كى يعلموا أنها الضامن الوحيد لإنقاذهم من البلايا التى عمت ظلماتُها الأرض . . .

وشىء آخر لا يحسن إغفاله وهو أن التقنين الذى يدعون إليه لا يُتَصور أن يقوم به خبير واحد مهما علا كعبه فى العلم ، وإنما يعهد به إلى مجمع علمى يضم أساطين الشريعة والقانون ممن يؤتمنون على دين الله ، وكذلك لا يقصدون بالتقنين مجرد تقسيم الأغراض ثم تحديد الأحكام فى فقرات مرقمة ، فهذا الضرب من العمل من شأنه تقييد مطلقات لا يمكن حصرها ، وإغفال اجتهادات هى من كنوز الفقه لمقاصد الشريعة الاسلامية فى ضوء

١ ــ انظر كتاب الأستاذ مصطفى الزرقا « المدخل » .

الوحيَيْن . . ولكنهم يريدونه تقنيناً ييسر للقاضى سبيل الوصول إلى بغيته ، مع الإشارة الوافية للمراجع الموسوعية فى الموضوع الذى هو بصدده ، كما فعل نجيب هواوينى فى مجلة الأحكام ، إذْ أورد النص المختار لكل حالة مصحوباً بالدلالة المفصلة إلى المظانّ المتممة له ، وبذلك ينتفى المحذور الذى أشار إليه الشيخ عندما اعتبر التقنين تعطيلاً لاجتهاد القاضى ، ولا تعطيل هناك بل هو التقريب والتيسير . .

وقد رأينا فضيلة الشيخ أيضاً يتخوف طروء التطور على أفكار المقننين حتى يضطروا إلى تعريض التقنين للتعديلات المتكررة بين الحين والآخر ، فيبتعد بذلك عن الأصل . . وهو تخوف لا موجب له ، إذ المعلوم أن أحكام الشريعة بين ثابت بالنص القطعى الثبوت والدلالة فلا مكان فيه لاجتهاد ، وآخر غير قطعى الدلالة فهو موضع الاجتهاد والخلاف ، وهذا القسم قابل لإعادة النظر فى دلالته باختلاف المكان والزمان ، ولا شك أن من الخير بل من الرحمة بالأمة أن يتجدد فيه الاجتهاد على ضوء التغيرات الاجتماعية ضمن المقاصد الشرعية . . أما سوى هذين القسمين مما لم يرد فيه نص صحيح فهو أرحب مجالاً للاجتهاد ولتجدد الاجتهاد حسب الدواعى الضرورية ، وإنها لميزة للشريعة السمحة تحفظ لها حرية الحركة والتجدد الدائم . . . فلا ينبغى أن تكون موضع خشية أو تخوف ، وحسبك دلالة على ذلك وصية الفاروق لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما « ولا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهُديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل[1] وليس القديم والجديد فى المذهب الشافعى إلا توكيداً لهذه الحقيقة . أما احتجاج الشيخ لرأيه بكون التقنين يلزم القاضى بإصدار الحكم الواحد على القضايا ذات الصور المتشابهة مع اختلاف ملابساتها ، فهو كذلك لا موجب له ، لأن ملاحظة اختلاف الملابسات أساسى فى عمل القاضى على اختلاف هويته ، وها هى ذى القوانين الوضعية نفسها تؤكد على ذلك ، إذ تعطى القاضى حرية التصرف فى الحكم فتقول فى موادها مثلاً : من فعل كذا يحكم بالغرامة من دينار حتى عشرين ديناراً ،

١ ـــ انظر « جمهرة رسائل العرب » ص ٢٥٢ ط ١ ت ١٣٥٦ .

أو بالسجن من أسبوع إلى ستة أشهر . . . ولا معنى لذلك إلا تفاوت الملابسات بين القضية والقضية . .

وأخيراً نذكر فضيلة الأخ بأن الاختلاف فى الملابسات ، وفى فهم القضاة ، وفى موازين التطبيق ، وما إليها إنما هى من الأمور التى لا مندوحة عنهافى أعمال القضاة ومن أجلها رتبت درجات القضاء من الابتدائى إلى الاستئناف إلى التمييز . . . وإنما أريد بهذا التصنيف زيادة الحرص على حقوق الناس ، حتى يتحقق لها أكبر قدر من العدالة وسيظل الناس بخير ما احتفظ القضاء بهذه المراتب ، والويل للإنسان من القاضى الذى أطلقت يده فى أموال الناس ودمائهم ، فكانت كلمته هى القانون النافذ فى ظل أنظمة الطوارىء وأحكام النواب الاشتراكيين ..

وحبذا لو خرجت قضية التقنين من ميدان الجدل النظرى إلى ساحة التطبيق العملى فى تجربة محدودة ، فإن تحقق نجاحها مع الحفاظ على جلال الشريعة تقدمت التجربة خطوات أخرى حتى تستوفى موضوعها كاملاً ، وإلا وقف المشروع بعد أن ثبت إخفاقه : وقامت الحجة على أنصاره .

م : فى موضوع الأحكام الشرعية هل تقفون عند حدود المذهب الحنبلى أو ترجعون إلى مجموع المذاهب المعتبرة ؟ . .

ع : النظام ينص على تقديم العمل بالمذهب ــ الحنبلى ــ وللقاضى أن يختار منه ما يتفق مع القضية ، ما دام مستوفياً شروط الاختيار : فإن لم يجد فى المذهب المطلوب الذى يطمئن إليه قلبه نظر فى المذاهب الأخرى ولا حرج عليه ، فإن اختار رأياً لأىّ منها فله أن يحكم به بشرط أن يذكر مستند هذا الرأى فى موضعه ، ليكون مسوِّغاً له فى ترك مذهبه وانتقاله إلى مذهب آخر . . . ذلك لأننا نعتبر المذاهب الأربعة كلها سواء فى البناء على الكتاب والسنة ولا معارض فى ذلك . ولعل فى هذا دليلاً جديداً على أن تقنين الشريعة تضييق على القاضى لا تيسير له . .

ونقول لفضيلته : هذا صحيح عندما ينهض التقنين على مذهب واحد وهو خلاف ما يرجوه دعاة التقنين ، الذين يريدونه سلفياً قائماً على أصول المذاهب المعتبرة ، ومستضيئاً باجتهاداتها المحترمة . .

م : معلوم أن لكم نشاطاً فى خدمة الدعوة . سواء فى المسجد النبوى الشريف ، أو فى المناطق التى جبتموها من العالم الإسلامى . فالمرجو أن توضحوا رأيكم فى مسيرة الدعوة ومسالك الدعاة ، وما تقترحون فى هذا الصدد . .

ع :من خلال تجربتى ، سواء فى المسجد النبوى ، أو مؤسسات الإعلام ، أو فى رحلاتى إلى البلاد التى زرتها ، أو خلال لقاءاتى مع العديد من القائمين بالدعوة فى موسم الحج ، يمكننى تلخيص انطباعاتى عن الموضوع كما يلى :

١ ــ فى المسجد النبوى ، وبخاصة أثناء الموسم فإن مسيرة الدعوة هى أتم وأنجح ماتكون ، إذ نلتقى أيامئذ بكل ذى استعداد لقبولها مقبل عليها بدافع الحاجة ، ولا سيما ما يتصل بشأن الحج والعمرة والصلاة فى المسجد النبوى وآداب الزيارة للقبر المطهر . وقد لمست آثار هذا التلاقى عند زيارتى موريتانية مع شيخنا الأمين ، إذ وجدنا من ينقل بعض ما سمع منا ويحدث به هناك . .

أما مسالك الدعاة فقد جنَّدت كل من الجامعة الإسلامية ، ومركز الدعوة والإرشاد ورئاسة الحرمين الشريفين ، علاوة على مدرسى المسجد النبوى ، عدداً كبيراً يعمل فى الموسم وبعدة لغات ، وكلهم على اتجاه واحد ومناهج مستقيمة بحمد الله ، ومعنيون بتصحيح العقيدة والتوجيه الإسلامى السليم ، ومن مهامهم بيان مناسك الحج ، ومعانى التلبية والطواف ونحر الهدى وآداب الإحرام . وما إلى ذلك . .

والذى أقترحه بهذا الصدد أن يتم اختيار أولئك العاملين من نوع خاص على مستوى المسئولية الإسلامية ، بكل معطياتها ، وأن يبدأ ذلك من مطالع العام الدراسى ، ثم ينظم لقاء للجميع لدراسة المناسك وبعض ما يعرض لهم مع الحجاج لئلا يكون هناك خلاف بينهم يؤدى إلى تشويش أذهان الحجيج . .

٢ ــ أما فى البلاد التى زرتها فإن الدعوة ناشطة ولله الحمد ، ولكن مسالك الدعاة فى حاجة إلى تنظيم وتركيز ، وإلى مضاعفة الاهتمام

بمستوياتهم المادية والمعنوية . أما من حيث المادة فلتمكينهم من الحياة اللائقة فى ظروف يتصاعد بها الغلاء وترتفع تكاليف المعيشة باطراد . . ومن الناحية المعنوية فلتأهيلهم لمجابهة التيارات المختلفة وبخاصة حملات الغزو التبشيرى . .

وأحب هنا أن أركز على نقطة هامة أعتبرها من الدرجة الأولى ، وهى أن نرفع مستوى التعليم بين أبناء البلاد المدعوة ، كى يكونوا مؤهلين لسد حاجتها ، فهم أقدر على معايشة أهلها ، وأبلغ فى إفهامهم . .

فبالنسبة إلى إفريقية مثلاً نلاحظ أنها لا تزال تحمل عقدة الرجل الأبيض ، فتعليم أفراد من كل بلد هناك قد يكون أجدى وأيسر من إرسال البعثات . . .

م : وفى رحلتنا إلى بعض الأقطار الإفريقية وبخاصة فى « داهومى » سمعنا من يقول : لا نريد من العرب سوى الإسلام ، فأعطونا أساتذة يعلمون أبناءنا ، أو خذوا أبناءنا فعلموهم عندكم . .

ومن الناحية المنهجية لمست وجود بعثات سعودية وأخرى مصرية ، وقد يكون ثمة بعثات من جهة أخرى ، فحبذا لو توحدت هذه البعثات واتحدت الجهود وتقاربت الأساليب . إذن لكان المردود أعظم وأكبر وأجدى . .

كذلك لاحظنا أن بعض الجهات ترسل إعانات من المال أو المطبوعات عن طريق بعض الشخصيات ، وقد يكون لهؤلاء انتماءات إلى مختلف الأنشطة ، فتكون المنافسات ، وسرعان ما تجر هذه المواقف إلى أقاويل تعطل مسيرة العمل . لذلك أرى تكوين هيئة خاصة للإشراف على توجيه تلك المساعدات والاهتمام بنوعية الذين توجه إليهم . ويتبع ذلك ما يشبه ندوات مرورية على الدعاة فى أماكنهم . لا بقصد التفتيش بل لمدارسة المشاكل التى تواجههم . والتعاون معهم على حلها وتخطى عقباتها ، وانتفاع كل فريق من تجارب الفريق الآخر . .

وأخيراً إنى أتمنى أن توجد هيئة دولية إسلامية تكون مسئولة عن عمل

الدعاة ، فتخطط وتشرف وتُمَوِّل ، وتدعمها الحكومات الإسلامية عن طريق سفاراتها فى الخارج ، على أن يكون اختيار مسئوليها مبنياً على وصية رسول الله ﷺ لمعاذ رضى الله عنه عندما أوفده إلى اليمن : إنك تأتى قوماً أهل كتاب ،فليكن أول ما تدعوهم إليه . . . إلخ ومعلوم أنه ليس المراد هنا فائدة الخبر بإعلام معاذ أن القوم أهل كتاب ، وإنما المراد هو لازم الفائدة ، ليدير الحديث معهم حسب أفهامهم ، فلا يكون معهم كما لو كان مع أميين . .

م : فى العالم الإسلامى يقظة مبشرة وبخاصة فى أوساط الشباب وطلاب الجامعات . . فما السبيل إلى حمايتها من الشطط وضبط مسيرتها فى الطريق السوى ؟ . . .

ع :من البديهيات أن كل طاقة منطلقة لا بد لها من ضوابط تصونها من الانحراف . . وفى بيعة العقبة لما أخذت الحماسة شباب الأنصار فقالوا لرسول الله ﷺ : مُرْنا فَلَنَميلَنَّ على أهل الموسم بأسيافنا . . . كان الضابط من رسول الله قوله : إنا لم نؤمر بقتال .

وهكذا . فإن يقظة الشباب بحاجة إلى أناة الشيوخ والإفادة من خبرات السابقين من عقلاء الدعاة ، الذين جربوا طرائق العمل وتمرسوا بها : ليتعلموا كيف يتصرفون ، وليكونوا على بينة مما يعملون . . وإنا لنعلم أن محنة الإسلام والمسلمين أول ما تأتى من حمية الشباب وكسل الشيوخ ، فيندفع أولئك ويتوانى هؤلاء فيقع الانقسام . .

فواجب المسئولين عن هؤلاء الشباب ، وبخاصة فى الأوساط الجامعية ، أن يخلصوا مجتمعهم من عناصر التهور ، وأن يركزوا على التزود بعد القرآن العظيم من المعينين السيرة النبوية والفقه الإسلامى . . ففى السيرة زادهم الضرورى من السلوك ، وفى الفقه حاجتهم العقلية من المنهج .

م : هناك غارات جديدة على الإسلام ، بعضها من الغرب الصليبى واليهودى ، وبعضها من انحرافات بعض كبار المسئولين بإزاء السنة ، فما العمل الواجب لصدها وإبطالها ؟ .

ع : معلوم أن لكل غارة سلاحها الهجومى ، فيجب مقابلته بسلاح يكافئه . فلا تواجه الغارات الجوية بسلاح المشاة ، ولا زحف الدبابات بكتائب الخيالة . .

وهكذا نرى هجمات الغربيين عن طريق التشكيك بحقائق الإسلام والتشويه لمحاسنه ، ومصادمة مثالياته ببهارج المادية . . . كل هذا ، وإن تنوعت صوره ، لا يعدو كونه سلاحاً واحداً . . فالعمل الواجب هنا يرتبط بالعمل الواجب للحفاظ على الصحوة الإسلامية ، وتيقظ الدعاة لأهداف العدو وتحركاته ، ويتم ذلك فى مقابلة الفكر الغازى بإبراز حقيقة الفكر الإسلامى ، وليس هذا بالأمر الهين . . إنه يتطلب تصحيح الكثير من أوضاعنا الفكرية والتربوية . وأكتفى من ذلك بالإشارة إلى الواجبات التالية :

١ ــ إعادة النظر فى مناهج التعليم بمعاهدنا لوضعها على أساس إسلامى يرسخ العقيدة ويغذى العقل بتعاليم الإسلام ، فلا يبقى فيها مكان لمثل نظرية دارون مثلاً . .

٢ ــ أن يفسح المسئولون عن الدعوة صدورهم لمشكلات الشباب فيعالجوها بالمنطق والعلم حتى يزيلوا من صدورهم كل شبهة .

٣ ــ إصلاح الجهاز الإعلامى باستمداد برامجه جميعاً من صميم الإسلام .

٤ ــ العناية بنشر ما تنتجه الأقلام الإسلامية من واقع التراث فى إطار من الفن الجديد . .

٥ ــ التقريب ما أمكن بين هؤلاء الشباب وعلماء الأمة ، ليتخطوا الحواجز ، وتتلاقى طاقات الفريقين على خدمة الإسلام بقلوب مفتوحة .

وفيما يتعلق بالشق الثانى من السؤال يقول الشيخ ما مؤداه : إن هؤلاء المعرضين عن السنة والمعادين لها إنما يفعلون ذلك بتأثير ثقافتهم التى تلقوها من أعداء الإسلام ، من المبشرين والمستشرقين . . وهى علة نشأت من تربيتهم الفكرية بمناهج ملتوية ، فلا مناص من علاجها بما يقابلها من

المناهج القويمة ، وذلك بالكشف عن كنوز السنة ، والعناية التى أحيطت بها ، والعلوم التى قامت لخدمتها ، والآثار التى أحدثتها فى صميم الحضارة الإسلامية والعالمية . . وسيكون من المفيد فى هذا المجال دراسة الرجال الذين حملوا إلينا علوم السنة ، والميزات العليا التى أهلتهم لهذه المهمة .

وقبل الانتقال إلى السؤال التالى أرى فى ما تقدم من أجوبة الشيخ نقاطاً تستدعى بعض الإيضاح . .

ففى الفقرة التى تعرض لنظرية دارون يقترح الشيخ سدّ الطريق أمامها باستبعادها من مناهجنا الدراسية . ومعلوم أن مثل هذه النظرية لا يواجهها الطالب إلا فى المرحلة الجامعية ، وهى الفترة التى تدرب عقله على النقاش والبحث . . فإذا نحن حجبناها عنه أيامئذ لم نأمن تعرضه لها خارج نطاق المنهاج العلمى ، الذى يستهدف بناءه العقلى . . والرأى الأصح بنظرى أن نقدمها للطالب مفصلة فى إطار من النقاش الذى جوبهت به على أيدى ثلة من أكابر علماء الغرب والشرق ، ومن ثم تفنيدها بحكم القرآن الذى ينسفها من أساسها ؛ بتقريره أبوة آدم للجنس البشرى بأسره ، على حين تفسح تلك الفرية المجال للأخذ بزعم ذلك الأحمق القائل :

وماآدم فى مذهب العقل واحدا ولكنــه عنــد العقــول أوادمُ

ذلك لأن القول بنشوء الإنسان الأول من رواسب الماء ، على الطريقة غير الغائيَّة التى يتصورها دارون ، يجعل تكرار ذلك النشوء من أوائل الممكنات ، وبذلك تترسخ عوامل التمايز العنصرىّ ، الذى يضرب السدود بين أنواع البشر على أساس ألوانهم وهُوِيَّاتهم . . . وهو زعم يناقض حقائق الإسلام ، الذى يقول منزله سبحانه ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾ الحجرات ١٣ .

ولا حرج بعد ذلك أن نفرق بين أباطيل تلك النظرية وبعض الحقائق التى انطوت عليها ، من حيث أثر التطور فى حياة بعض الكائنات ، مما هو

مشاهد لكل ذى عينين ، وهو الجانب الذى استهوى بعض أبنائنا من خريجى الجامعات الغربية ، فعمَّموا حكمه على مجموع النظرية دون تمييز بين الحق والباطل ! .

م : وهناك كذلك إقبال على الإسلام بين مثقفى العالم ، وهو على الغالب إقبال شخصى ليس وراءه دعاة إسلاميون ، فكيف يمكن الإفادة من هذه الفرصة ؟ . .

ع : إن الإقبال على الإسلام فى تزايد مستمر ولله الحمد ، والدافع له أحد أمرين :

١ ــ هروب هؤلاء من واقع موجع محيِّر ألقى بهم إلى متاهات لا يدرون فيها مكانهم من هذا الوجود ، ويجدون فى الإسلام ملجأ يأوون إليه فيُلفون به اطمئنانهم فى الحياة وبعد الممات . .

٢ ــ أو قناعة عقلية انتهوا إليها بعد تجاربهم فى الأديان الأخرى والتيَّارات الفكرية المختلفة ، وبعد أن تحرروا من مفتريات الأفاكين على الإسلام ، فنظروا إلى حقائقه فى معزل عن تلك المؤثرات . ولا عجب فالإسلام إنما يعمل بحقائقه ..

وللإفادة من هذه الفرصة نذكر بوجوب اهتمام الدعاة بهذه النوعية من الناس ، وإبراز محاسن الإسلام لعقولهم وقلوبهم ، وعقد الروابط الأخوية معهم حتى لا يستشعروا الوحشة فى النقلة من جو الأمس إلى جو اليوم ، بل وليشعروا بالبون الشاسع بين الماضى الشقى القلق الذى كانوا عليه ، والحاضر السعيد الذى صاروا إليه .

هذا مع الحرص التام على تزويدهم بالإسلام الصحيح النقى السليم من أباطيل القاديانية ، وتهويمات التجانية وأشباهها . .

م : إنكم تشهدون المعركة القائمة بين الإسلام والجاهليات الحديثة على الصعيد العالمى قد بلغت أشدها ، ولا سيما فى نطاق الإعلام والتغيير الاجتماعى ، فكيف تتوقعون نتيجة هذا الصراع ، وما السبيل لجعله فى صالح الإسلام ؟ . .

ع : الذى أتوقعه لهذه المعركة أنها ستسفر عن انتصار جديد للإسلام بفضل الله وقوته ، لأن تجارب الماضى من خلال المعارك التى خاضها هذا الدين تؤكد لنا أن العاقبة له دائماً .

أما السبيل إلى استمرارها فى صالح الإسلام فكما أسلفت فى دعم شخصيات الدعاة ، ثم تجاوب هؤلاء مع أجهزة الإعلام الإسلامية ، ليقابل السلاح بالسلاح ، وذلك بالإضافة إلى ما ذكرناه فى جواب السؤال الحادى عشر .

يقول المؤلف : ولنا هنا تعقيب أيضاً نلخصه فى ما يلى :

بالنسبة إلى شخصيات الدعاة لا بد من النظر إلى أصنافهم ، إذ منهم الذين لاتتجاوز طاقاتهم تذكير الناس ببعض مبادىء الإسلام المتصلة بالعقيدة ، وبعض الممارسات اليومية التى لا مندوحة للمسلم من معرفة حكم الله فيها ، وهم الأكثرون من الموفدين لخدمة الدعوة فى الخارج ، ولا مجال للتعويل على هؤلاء فى مجابهة التيارات التى تحركها وتقودها أيدى الشياطين من ماركسيين وصهاينة وصليبيين وماسونيين . . فلا مفر إذن من الاهتمام بنوعية الدعاة الصالحين لهذه الجهات ، ولعل خير ما يمكن عمله فى هذا الجانب ما سبق أن دعونا إليه مراراً من ضرورة التعاون بين أولئك الذين هداهم الله من مفكرى العالم ، مثل رجاء جارودى وموريس بوكاى وإخوانهما ، وبين الذين عُرفوا بجهادهم المبرور الناجح لنشر الوعى الإسلامى من أمثال الدكتورين ناصر ومحمد الرشيدى ـــ فى أندونيسية ـــ والدكتور المهدى بن عبود ـــ فى المغرب ـــ والشيخ محمد الغزالى ومحمد قطب ويوسف القرضاوى ـــ فى مصر ـــ والدكتور معروف الدواليبى ـــ فى سورية ـــ ثم يأتى موضوع التجاوب مع أجهزة الإعلام الإسلامية . وأؤكد على « الإسلامية » لأن الإعلام فى بلاد المسلمين ـــ إلا مارحم الله ـــ موجّه ضد الإسلام ، فكيف يطلب من الدعاة الإسلاميين أن يتجاوبوا معها ؟ ! وقد كان المعقول أن يطلب من هذه الأجهزة أن تتجاوب معهم بدلاً من إلزامهم الانسياق فى دربها . .

وعندى أن مجرد تصحيح أوضاع الإعلام فى العالم الإسلامى كاف لتصحيح الفكر الإسلامى ، ومن ثم لتعطيل الكثير من المؤامرات العالمية على الإسلام . .

م : نعلم أن لكم كذلك نشاطاً فى نطاق التأليف ، فما أفضل ما صنَّفتم وأحبُّه إليكم . . ولماذا ؟ .

ع : مؤلفات كل كاتب كقصائد كل شاعر تعتبر بمنزلة أولاده ، إلا أن فيهم الصغير والكبير والقوى والضعيف ، وفيهم النجيب والخامل . . فلا بد أن يكون بينهم من هو أرضى له ، ولكنهم متساوون لديه من حيث صلتهم به وحبه الخير لهم جميعاً . . .

ومن هذا المنطلق أنظر إلى كل ما صنفته من رسائل وكتب ومحاضرات أدبية أو علمية أو اجتماعية ، ومع ذلك فأحبُّها إلى قلبى تتمة « أضواء البيان » لشيخنا الأمين رحمه الله .

أما لماذا . . فقد يعود إلى ناحيةعاطفية مردها شدة ارتباطى بمؤلفه ، ثم لموضوعه الذى هو كتاب الله تعالى ، ولمنهج الشيخ فيه من حيث بيان القرآن بالقرآن ، يضاف إلى ذلك الفائدة بل الفوائد الكثيرة التى عادت علىّ من هذا العمل أثناء التحضير لكل آية كتبت عنها ، وما كان لهذه الفوائد أن تحصل فى تقديرى لو لم ييسر الله لى مثل هذا العمل . . ولا أنسى أثر منهج الشيخ فى تفكيرى ، فإنى وإن لم أساوه لم أخرج عن خطوطه فى الجملة . .

وأخيراً علىّ أن أذكر ما لمسته من التوفيق الذى أفاضه الله علىّ أثناء قيامى بهذه المهمة ، ومارأيته من المبشرات قبل الاشتغال بها وأثناءها .

والحق أن لفضيلة الشيخ عطية فضلاً لا ينكر فى الست عشرة من مئات الصفحات التى أكمل بها مؤلف المغفور له شيخنا الأمين ، إذ كان عمله فيها كعمل السيد رشيد رضا رحمه الله وإيانا فى إضافاته التى أتم بها « تفسير المنار » بعد أن حال الأجل دون استيفائه من قبل الإمام الشيخ محمد عبده .

والله المسئول أن يتغمد برحمته المؤسِّسَيْنِ ، وأن يشمل بالعفو والقبول كلاً من المتمِّمِين .

والحمد لله رب العالمين

الأستاذ عمر التلمساني

ليس بوسع مؤمن يهمه أمر الإسلام والدعوة إليه وتقصّي أحوال دعاته أن يجهل اسم هذا الداعية، الذي قدر له أن يحمل أمانة القيادة لأكبر حركة إسلامية عرفها هذا القرن. ولولا الزامية المنهج بضرورة التعريف بالمترجَم تعريفاً يحيط بنشأته وبيئته ومؤثرات حياته، على وجه يقرب صورته (الشخصية) من أذهان القراء، لكان عليّ أن أباشر الحديث عنه دون أي مقدمة اعتماداً على معلوماتهم الذاتية عنه.. هذا إلى أن في مثل هذه المقدمات المنهجية فائدة تتيح لمُطالع الترجمة الإلمام بملابسات الأحداث والأسباب التى ساعدت علي تكوين الاتجاهات النفسية والفكرية التي ميزت صاحبها على اختلاف الأحوال.

ومن هنا نبدأ بتقديم مترجمنا الفاضل. فهو عمر بن عبد الفتاح بن عبد القادر مصطفى التلمساني.. وهي نسبة تُشعرنا بأن أصوله القريبة وافدة إلى مصر من تلمسان الجزائرية، وأؤكد على قربها لما أراه في خطه من الطابع الأندلسي المحافظ على خصائصه حتى في شكل الحروف وطريقة التنقيط، مما لايتوافر لجزائري قديم الهجرة في العادة، أو لعل في ذلك دليلاً على شدة ارتباط الأسرة بالوطن الأول، ارتباطا يحفظ على أفرادها مميزاته الأصيلة.

وقد ولد فضيلته في القاهرة بشارع حوش قدم بالغورية عام ١٩٠٤م وكان جده ووالده كلاهما يعملان أول الأمر في تجارة الأقمشة والأحجار الكريمة، وتنتشر تجارتهما هذه مابين القاهرة وجدة وسنغافورة وسواكن والخرطوم، ثم صفيا عملهما ذاك ليتوجها إلى الزراعة حيث اشتريا مساحات واسعة من الأرضين في قرية نوى مركز شبين القناطر بمديرية القليوبية.. ومساحات أخرى في قرية المجازر مركز منيا القمح بمديرية الشرقية.

ويمتاز جده بالاتجاه السلفي في العقيدة، إذ كان ــ على تعبير المترجم ــ

وهابي النزعة، وقد تولى طبع العديد من كتب الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب على نفقته.. وفي هذا الجو الرخي الحياة، البعيد عن البدع، نشأ الأستاذ محاطاً بالنعمة والروح الديني، إذ كان كل من في ذلك البيت قائماً بحقوق الله صلاة وصياما وحجا، سواء في ذلك الرجال والنساء، والفتيان والفتيات. وفي هذه البيئة ــ يقول الأستاذ ــ طرق سمعه اسمُ ابن تيمية وابن قيم الجوزية، أثناء المناقشات التي كانت تجرى بين جده وزواره من أهل العلم. ويصف الأستاذ جده هذا بأنه، إلى جانب ثقافته العلمية، يمتاز أيضاً بالدعابة اللطيفة، ومن ذلك أنه يستقبل زائريه ومدعويه من هؤلاء مرحباً بقوله: (ماشاء الله.. وأتوني بأهلكم أجمعين.. أما فيكم من معتذر أو متخلف!!..) حتى إذا ظهر في الفناء ديك رومي صاح فيه: أنج بنفسك ولا تلق بيدك إلى التهلكة».

وفي مدارس الجمعية الخيرية هناك تلقى الأستاذ دراسته الإبتدائية. فلما توفي الجد انتقلت الأسرة إلى القاهرة، فالتحق بالمرحلة الثانوية من المدرسة الإلهامية في الحلمية. حيث حصل على شهادتها، ومن ثَم انتظم في كلية الحقوق، وبعد التخرج فيها بدأ التمرن على المحاماة، ثم اتخذ له مكتباً فى بندر شبين القناطر، حيث مارس عمله القانوني بتوفيق مرموق..

ويبسط الكلام عن عمله هذا قائلاً: لقد باشرت عملي في المحاماة على قواعد ديني جهد الامكان، فإذا جاءني ذو قضية مدنية درست مستنداتها، فإذا رجح لديّ جانب الكسب فيها قبلتها، وإلا نصحت له بالصلح مع خصمه..

وطبيعي أنه يفعل ذلك مع مراعاة جانب الحق بالدرجة الأولى، بحيث لايقبل المرافعة في قضية تخالف قواعد الدين التى أخذ بها نفسه كما تقدم. ولم تشغله المحاماة عن تثقيف نفسه بالعلوم الإسلامية إذ كان نَزَّاعاً إلى المطالعة في كتب الفقه والتفسير والحديث والسيرة النبوية.. ومع وفرة قراءاته ومحفوظاته من القرآن الكريم والحديث الشريف، لايزعم لنفسه العلم وليس هو في رأيه عن نفسه سوى قارىء نَهِمٍ لكل مايتعلق بدينه يريد أن يتعلم منه مالا يعلم، ولا يسمح لنفسه أن يفتي في شيء، فإذا سئل في أمر ديني أجاب: أذكر أني قرأت في هذه المسألة كذا.. وليس لك أن تستند إلى إجابتي بل عليك مراجعة

المتخصصين في هذا الباب، ويؤكد لنا أنه لايزال على شأنه حتى اليوم. وذلك لعمر الله هو الورع لأن أجرأ الناس على الفتيا أجرؤهم على النار، وما أكثرهم في هذه الأيام!..

ويتصل بهذا الجانب من حياة فضيلته أنه مع حفظه الآلاف من حديث رسول الله ﷺ، لايلقي بالأثر الذى يستشهد به مرفوعاً إلى مقام النبوة إلا مصحوباً بقوله «أو ماهذا معناه» لأنه لايحفظ مع الحديث سنده، ويخشى أن تكون له رواية أخرى أصح لفظاً منه، فيعمد إلى ذلك الاستدراك لعلمه بأن أئمة الحديث يرون صحة روايته بمعناه، ويتأيد ذلك لديه بالأثر النبوى القائل (نضرّ الله وجه امرىء سمع مقالتي فوعاها) حيث قيد سلامة الرواية المقبولة بالوعي، والوعي أمر يختص بالمعني دون حرفية اللفظ. وقد أشرنا فيما تقدم إلى استظهاره كتاب الله، وهو يقول انه لايزال يتعهده باستمرار خشية تفلته من الذاكرة.

وعلى سؤال عن آثاره المنشورة أو المعدَّة للنشر، أجاب: أن ليس فى آثاره القلمية مايستحق الحاقه بالمؤلفات، وإنما هي خواطر جُمعت في كتب، منها: (شهيد المحراب) الفاروق و(قال الناس ولم أقل) عن حكم عبد الناصر، ثم (بعض ماعلمني الإخوان المسلمون) و(الملهم الموهوب) حسن البنا، وأخيراً (ثلاثة وثلاثون يوماً من حكم السادات) هذا إلى جانب افتتاحياته لمجلة (الدعوة) وما يكتبه حول الشئون الإسلامية في المجلات والصحف السيارة.. ويُردف هذه العنوانات بقوله: إن من أجل نعم الله عليه كونه لايحمل حقداً ولا كراهية لإنسان أيا كان مذهبه، بل من عادته أن يترك مايصيبه لله يتولى الفصل فيه بحكمته وعدله.. وهي إشارة لطيفة وغير مباشرة إلى مضمون هذه الآثار من حيث كونها عرضاً موضوعياً لوقائع أو أفكار مبرأة من أهواء النفس، فلا مكان فيها لكراهية أو ضغينة، إنما هي تجلية لحقيقة، أو بيان لرأى الجماعة التي يمثلها. أو مجرد نصيحة يوجهها إلى حاكم رجاء أن ترده إلى جادة الحق، علي الطريقة التي أمر الله بها نبيه والمؤمنين معه في قوله الحكيم ﴿**ادعُ إلى سبيلِ ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادلْهم بالتي هي أحسن**﴾ (سورة النحل ١٢٥). ويتحدث عن الأعمال التي تولاها وأثرها في نفسه فيقول: شاء الله أن أبدأ عملى في المحاماة كما أسلفت، استبعاداً لنفسي عن حَيِّزِ الوظيفة التي

لأحتمل قيودها من الضغط على حرية الرأي، وتحديد موارد الرزق، فاثرت الحرية في العمل بحيث لايكون لأحد عليّ من سلطان إلا مراقبة الله. وأنا امرؤ طبعت على الحياء حتى لأتساهل في كثير من حقوقي، إلا أن مما أحمد الله عليه، ولا حصر لفضله، منحه إياى نعمة التجرد من الخوف، فما خفت أحداً في حياتي إلا الله، ولم يمنعني شيء من الجهر بكلمة الحق التي أؤمن بها، مهما ثقل وقعها على الآخرين، ومهما لقيت فى سبيلها من العنَت.. أقولها هادئةً رصينة مهذبة لاتؤذي الأسماع ولا تخدش المشاعر، وأتجنب كل عبارة أحس أنها لاترضي محدثي أو مجادلي، فأجد من الراحة النفسية في هذا الأسلوب مالا أجده في سواه، ولئن لم يكسبني الكثير من الأصدقاء، فإني قد وُقِيتُ به شر الكثير من الأعداء، هذا إلى أن ما نالني ورميت به منذ انتسابي إلى جماعة الإخوان المسلمين، قد أصبح لي درعاً واقياً من الغضب والكراهية، تنهال عليه النصال فيكسر بعضها بعضا.. ويستأنف فضيلته: على أن العبء الوحيد الذى يبهظني وأنوء بحمله هو مسئوليتي عن الإخوان، لأن نظام الهيئة التأسيسية للجماعة يقضي بأن يتولي الأمر أكبر الأعضاء في مكتب الإرشاد سنًّا، وشاء الله أن أكون الأكبر في هذه الظروف، فكان الوفاء لبيعتي أن أحمل العبء ماضياً مستريحاً، لالأن في ذلك مخالفة للقانون الذى قضى بحل الإخوان، بل لأن الصلة الروحية بيني وبين الإخوان جعلتهم ينظرون إليّ بهذه العين، وجعلتني أرتاح للنهوض بالواجب مهما واجهت من الصعاب والمشاق، وقد عاملني المسئولون في الدولة على أساس من هذا التصور.. وهنا لايفوتني الاعتراف بأن جانب الحرية الذى أتمتع به، على ضآلته، لاأعرف مثيلاً له في العالم الإسلامي مابين أندونيسية إلى أقصى المغرب، ولا جرم أن لله حكمةً في ذلك...

وأنا أقول في ماأسلف فضيلته من حديث عن ملامحه النفسية: لقد عرف جمهور الناس أسلوبه الحكيم من خلال حواره مع الرئيس أنور السادات، يوم وجّه هذا هجومه العنيف عليه وعلى الإخوان، وساق إليهم أنواع التهم المفتراة، وهو يظن أن خوف السلطة سيقطع لسانه عن الرد، فإذا هو يخيب فأله ويلتف على مفترياته بالحجة الداحضة حتى يختمها بقوله: **الشيء الطبيعي بازاء أي ظلم يقع عليّ من أي جهة أن أشكو صاحبه إليك بصفتك المرجع الأعلى للشاكين بعد الله، هأنذا أتلقى الظلم منك فلا أملك أن أشكوك إلا إلى**

الله.. وما كان أروعه رداً حطم سلاح الطغيان بأدب اللسان وقوة الإيمان، فإذا بالرئيس يلملم تهمه وينقلب مستعطفاً يسأل المظلوم إلغاء شكواه.. وكل ذلك على مرأى ومشهد من مئات الحاضرين لذلك الحفل، وملايين المشاهدين عن طريق التلفاز.

ولا أنسى كذلك ذلك الحياء الذي لمسته في أول لقاء أثناء زيارتي أياه مع بعض الأحبة في منزله ــ أواخر المحرم ١٤٠٤ هـ ــ فقد دخل علينا مرحباً دون أن يوجه نظره إلى أحد، وجعل يجيبني على بعض أسئلتي دون أن يرفع إلي بصراً، فلم يسؤني ذلك منه لما سبق أن عرفته عن طبيعته تلك.. وقد كان في بعض حِوارنا مايثير الأعصاب ولكن أناته الغالبة ألزمته الرقةَ التي ذكرها عن أسلوبه، مما يشعر جليسه ومحاوره بأن الأحداث القاسية والطويلة التى عركته في ظلمات السجن قد صهرت نفسه، حتى لم تدع فيها مكاناً لغير الحقيقه التي يؤمن بها..

أما جانب الحرية التي يتمتع بها في مصر فهي واقع لمسناه أثناء تلك الأيام التي قضيناها هناك، فالناس أحرار في تحركاتهم وتصرفاتهم مواطنين وزائرين، ماداموا لايتعرضون لتصرفات الحاكمين، ولكن الويل لمن يحاول الخروج عن هذا الخط، فإن هناك غياهب السجون، وفيها كل مالا يتصوره الخيال من ألوان الهوان، الذي وكلت به مخلوقات من الكلاب وأشباه الكلاب، دربت على تعذيب الناس وإذلالهم، وبخاصة إذا كانوا من دعاة الإسلام وعلمائه، مما يعتبر معه الموت من أحب أماني الإنسان.. ومن هنا انتقلنا إلى السؤال التالي:

م ــ أكثر الرجال تأثيراً في حياتكم وأفكاركم، وأهم الأحداث التي عاصرتموها..

ع ــ بعد رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار كان أكثر الرجال تأثيراً في حياتي هو الإمام الشهيد حسن البنا رضوان الله عليه. فقد حباه الله بكل مايقربه إلى قلوب المسلمين، ويبغضه إلى كل خصوم الدعوة الإسلامية، لاأتحدث عن غزير علمه، فرسائله حوت، على إيجازها، كل مايحتاجه المسلم للتفاني في سبيل دينه، وما يعوز الداعية من منهاج واضح بَيّن

موضوعاً ووسائلَ وأساليب، فكل واحدة من رسائله متن صالح لمجلدات ضخمة تفسيراً وتبصيراً. لقد أفاض الله عليه ذكاء عجيباً حتي ليكاد يجيبك علي ماتريد قبل أن تتوجه إليه بالسؤال، وكان من الثقة بحيث يظن كل أخ من ملايين الإخوان المسلمين أنه أقرب الناس إليه، وأحبهم لديه، بسيطاً غايةَ البساطة في مظهره ومعاملاته وأحاديثه، حتي إذا علا المنبر أخذ بكل جوانب النفس، فتظل معلقةً بكلامه في وعي خيفة أن يفوتها حرف منه، حتي إذا فرغ من حديثه استرد كلُّ سامعٍ قلبهَ وفكرَه إلا شخصاً واحداً بقي قلبه مع الإمام الشهيد في روحاته وغدواته. ولا جرم أن هذا المستثني الأخير هو صاحب هذا الوصف، ولكن من الواصف!.. هو الأستاذ التلمساني نفسه، مع أنه يختم هذه الأسطر بقوله: وهذا الكلام هو لفضيلة الإمام المرشد الثاني استاذنا حسن إسماعيل الهضيبي رحمه الله وحشره مع الصالحين الأبرار.. وسواء كان ذلك من كلام التلمساني أو المغفور له الهضيبي، فهو يصور رأيهما في إمامهما الأول الشهيد البنَّا دون ريب.

ويستأنف الأستاذ التلمساني فى وصف شخصية الإمام الشهيد قائلاً: إذا كان في رحلة من رحلاته التي لاتُعَد ولا تحصى، في الداخل والخارج، فلا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يستريح إلا بعد أن يطمئن على كلّ من فى رفقته. كان جمّ التواضع، نظيف العبارة حتى مع مهاجميه وخصومه، لم يسىء إلى احد منهم قولاً ولا عملاً.. يربي أعوانه تربية عملية، فيكل إليهم القيام بالأمور الهامة مثنياً عليهم، مصححاً لأخطائهم، محتملاً لكل تجاوزاتهم.. ولا أنسى يوم أن حصل خلاف بين الإخوان والوفديين في بور سعيد، فاستدعاني وكلفني الذهاب إلي هناك قائلاً لي: تصرف كما يوحي إليك الموقف دون الرجوع إليّ في شيء، فكانت هذه اللفتة التربوية معواناً لي في استفراغ الوسع، حتى انتهي الأمر إلي خير مايمكن أن يصير إليه ذلك الموقف الشائك المعقّد..

كل ذلك وما أشبهه ربط قلوبنا جميعاً بإمامنا الشهيد بأوثق عرى المحبة والوفاء والإخلاص.. ولهذا عشقتُ الدعوةَ والداعية، ووقفتُ عليها حياتي إلى اليوم.

ويستأنف الأستاذ: عاصرتُ الوفدَ وقيامه، وثورة ١٩١٩، وكانت بحق نابعةً من مشاعر الشعب كله، وكان المنتظر أن تأتي بأبرك الثمرات لمصر بخاصة وللأمة الإسلامية بعامة، لولا المؤامرات الشخصية، والانفعالات الزعامية، والألاعيب السياسية، التي مزقت الشعب المصري فرقاً وأحزاباً وشيعاً واتجاهات، وأطاحت بكل ماأمله المصريون. ولقد نابني من ذلك بعض الرشاش خلال تعصبي الوفدي وأنا في مطالع الشباب، كذلك كان لانقلاب يوليو ١٩٥٢ أثره الكبير، إذ أيقظ المشاعر وحرك الرغبة في رؤية شرع الله مطبقاً في هذا البلد المسلم، ومن أجل ذلك كان للإخوان المسلمين أكبر الأثر في نجاحه.. إذ كانوا يجوبون القطر كله في بث الدعوة الإسلامية، وربط القلوب بعقيدتهم، ونقد المفاسد والمظالم التي كانت تسود البلاد من قبل الاستعمار، وطغيان الملكية وتهافت الأحزاب. أما هيئة الضباط الأحرار فكانت تعمل في الخفاء، ولم يكن يشعر بها أحد، فلما أسفرت وجدت الطريق ممهداً والجو صالحاً، والشعب على استعداد لتقبل الانقلاب، ولكن لحكمة لايعلمها إلا الله تغلب حب الزعامة والظهور، فكان ماكان من انقلاب الضباط الأحرار على الإخوان المسلمين، الذين أخلصوا لهم العون، ومهدوا لهم السبيل، ولا غرابة في ذلك، فالسلطان، كما يقال، عقيم لايتورع أصحابه أن يتجاوزوا من أجله كل شيء حتي أبسط مبادىء الأخلاق.. وفتك عبد الناصر بالإخوان المسلمين استناداً إلى قوة الجيش والشرطة، والقوى التي كانت تكيد للجماعة، وبخاصة الصليبية والصهيونية والملاحدة.. ولو أن ماأنزله عبد الناصر كان في غير الإخوان المسلمين لكانوا اليوم واحداً من أخبار التاريخ ترويه الأجيال للعظة والاعتبار، أما الإخوان فقد زادتهم المحن إيماناً، ومكنت لحب الله ودعوته في قلوبهم، وقد ذهب الظالمون وأعوانهم وبقيت دعوة الله على الرغم من محاولات القوى المحاربة للإسلام، لأن كلمة الله ثابتة لايعتريها زوال..

وما من شك أن مواقف الإخوان المسلمين ودماءهم الطاهرة التى روّت شجرة الإيمان على ثرى فلسطين وعلي ضفاف القناة، قد هزّت المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.. وهكذا أثبتت دعوة الإخوان للعالم بأسره

أنها قوة ولاء عملي، رسخ الإسلام في صدرها، وصدق العمل في حركاتها وتصرفاتها وتضحيتها وصبرها ومرابطتها، الأمر الذي ألهب نيران الكراهية في صدور اعداء الإسلام، فهي تتكشف يوماً بعد يوم على كل بقعة من ربوع المسلمين، وما إسرائيل إلا صورة بارزة لهذه الكراهية، التي توهمهم أن القضاء علي الإسلام والمسلمين أصبح وشيكاً.. وخاب فألهم، فلئن استطاع هؤلاء الاعداء أن يقضوا على بعض المسلمين فهم أعجز من أن ينالوا من الإسلام، لأنه رسالة الله الخاتمة إلى الأرض، فلو لم يبق على البسيطة سوى مؤمن واحد يحمل راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وكانت السموات والأرض رتقا عليه لفتقها الله له قوة وعزة ونصرا.. وكل شيء عنده بمقدار..

م ـ كان سجنكم طويلاً شهدتم أثناءه الكثير من الوقائع المؤثرة، فما الحصيلة التي خرجتم بها من تلك الرحلة الشاقة؟.

ع ـ خرجت من السجن وقد ازددت يقيناً بالحكمة القائلة (لو اطلعتم علي الغيب لاخترتم الواقع) فالسجين قد استقر عند خاتمة المطاف، فليس لدى ظالمه إلا سجنه أو قتله، والسجين المستمسك بعقيدته تسليماً لأمر الله أشد إيلاماً لنفس الظالم من غيره، لأن غيره يبيت ويصحو متوقعاً المجهول من البلاء، وهذا التوقع قد يحول بينه وبين الكثير من العمل لدعوته. وفي ذلك راحة لخواطر الظالمين. وإذن ففي ثبات السجين على دعوته انتصار للحق على الباطل، وهزيمة للباغي في عجزه عن تحقيق بغيته، فالباغي مهزوم مهزوم وصاحب العقيدة منصور منصور.. وهنا أسجل أن انتصار الدعاة لم يكن قط وليد شجاعتهم أو تحديهم أو صبرهم، وإنما هو فضل الله في تثبيتهم ﴿**ولولا أن ثبّتناك لقد كِدتَ تَركَنُ إليهم شيئاً قليلا**﴾ (سورة الإسراء ٧٤).

أجل إن الله هو صاحب الفضل الأول فى النعمة إذا اقترنت بالشكر، وهو صاحب الفضل الآول في المحنة إذا لازمها الصبر، وفي كل خير، وليس ذلك لغير المؤمن.

إن صنوف العذاب التى أوقعها عبد الناصر وخليفته السادات بالإخـوان

المسلمين ماكانت لتحز في نفوسهم كثيراً، ولكن الموجع ماكنا نسمعه ونحن في ظلمات الزنازين من تأوهات المعذبين وأصوات العصي والسياط التي كانت تنهال متلاحقة عليهم.. وكم من أخ أُدخل على إخوانه في المطبق وقد سال دمه وتمزق لحمه وبرزت عظامه، وهو يبتسم، وهم من حوله محزونون مغمومون لما أصابه، لالما سيلحق بهم بعد قليل.. لقد كانت العواطف الإسلامية دفاقة بالإيثار والتضحية والحب، وكانت حياتهم فى غمرة المحنة فداءً وصبراً وحمداً وشكراً وصلاة وصياماً وذكراً فما أروع ماحصلناه في تلك السجون من نعم الله في الناحية الإيمانية، فما استأثر واحد منا براحة دون أخيه، وما اختص نفسه بمطعوم تسلل إليه.. لقد كان بعض القائمين علينا في السجون يبدى الكثير من الأسى على مانحن فيه ولكنهم لايملكون أن يقدموا غير هذا، فسيوفهم علينا وقلوبهم معنا، ولكنه خير كان ينفح ببعض الراحة علي أي حال. حقا إن السجون مدرسة للتطهر والصفاء وترسيخ اليقين.

م ــ معلوم أن الدعوة التي تمثلونها متميزة بخطها المتفرد عن سائر الحركات المحلية العالمية.. وقد نشرت بعض الصحف خارج مصر مايوحي بأن ثمة تقاربا بينكم وبين ممثلي هذه الحركات في مصر، وبخاصة الماركسيين.. فما حقيقة ذلك..

وكان لسؤالنا هذا وقع لم يستطع الأستاذ إخفاءه.. ولابد أنه قد سمع مثله من غيرنا، فجاء وكأنه نكأة لجرح لم يستوف برأه بعد.

ع ــ يقول فضيلته: مما يصاب به بعض الناس أن يحكموا قبل أن يتبينوا، وهذا منهيٌّ عنه شرعاً، فيجرون وراء أوهام تطوف بخواطرهم سواء استقام طريقهم أو اعوج، فإذا قرأوا لأحد الإخوة مقالاً مثلاً رأيتهم يجتزئون بعض فقراته ليحكموا على المقال كله من خلالها، مع أن العدالة تقتضي تقويمه كاملاً، فإن رجح سداده كان خيراً مشكوراً، وإن غلب سيئه كان محل المؤاخذة.. وذلك هو المعيار الذي يحاسبنا به الله يوم القيامة، حيث توزن الأعمال بقسطاس الحق، فإن رجحت الحسنات أُدخِل المسلم الجنةَ بفضل الله علي مافي صحائفه من السيئات، أما إذا غلبت السيئات فإلي

النار حتى تطهره عدالة الله. وما أكثر مايغفل البعض هذا العدل الرباني، فيقصدون إلى التماس الخطأ في أعمال إخوانهم، فإذا ماعثروا على ذرة من ذلك طاروا بها فرحاً، ثم راحوا يشهرون بها نقداً وتجريحاً.. كل ذلك وهم بعيدون عن ميدان المعركة، لايدري أحدهم ظروفها ولا ملابساتها، ولا يقدر مسئولية القائد إن تقدم أو تأخر أو داور.. وما أحسب مثل هذا الإنسان سليم الطوية أو سويَّ التفكير، وليس معني ذلك ادعاء العصمة، وهي لاتكون إلا للأنبياء، والكمال لله وحده.

إن كتَّاب المسلمين يزنون كلماتهم وهم يخطونها ويقوّمون عباراتهم وهم يقدمونها، لأنهم يعلمون بيقين أنهم ليسوا مسئولين عن أنفسهم فحسب. فرب كلمة تساق دون وعي ولا تقدير تلحق الضرر بالآلاف من حملة الدعوة، وهي مسئولية ضخمة ثقيلة ماأظنها تخفى على أريب، غير أن البعض يحب أن يتظاهر بالعلم والشجاعة والغيرة على الدعوة مادام آمنا مطمئناً، جريا على طريقة القائل:

وفي الهيجاء ماجربت نفسي ولكن في الهزيمة كالغزال

ولعل أعلى الناس صوتاً بالشجاعة والإقدام أسرعهم إلى الفرار يوم الزحام.. على أن هناك فريقاً من حَسَني النية يحرصون على ألا يسقط أخ لهم في محذور أو محظور، فهؤلاء تشفع لهم نواياهم، وإن كنا ننصح لهم بالتأني والتروي قبل إصدار لحكم، خشية المسألة أمام الله، مع العلم بأن خلوص النية غير كافٍ حتي يصحبه سداد القول والفعل في الحياة الدنيا على الأقل. ولا ننسى أن المسلمين مطالبون بالستر على بعضهم، فلا يسيرون بالسيئة بين الناس معالنين، حتى إذا ما عاتبهم أحد تذرعوا بحجة الخوف على أخيهم، وحرصهم على أن يكون فوق الشبهات وهى حجة لو عرضوها على معيار الإسلام لوجدوها عليهم لالهم، ولأمسكوا أن يكونوا من الذين قال الله فيهم ﴿**وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به**﴾ (سورة النساء ٨٣) لئلا يأخذوا البرىء بجريرة المذنب، فكم ظاهر في صورة الخطأ ينكشف عن محض الصواب حين تدقق الوقائع.. فليرحمْ هؤلاء أنفسهم، وليشفقوا على المحاطين بالأخطار، فيعينوهم أو يَدَعوهم، بدلا من أن يلاحقوهم باشاعاتهم وأذاهم!..

إن الثقة أحد عناصر الأخوة في الله، فإذا توافرت سترت العيب وعالجته في مودة، وإذا فقدت كان الغرض هو تضخيم الخطأ إذا وجد، وإختلاقه إن لم يوجد.. ولا شأن لنا مع هؤلاء المبتغين للبرآء العيب، وإنما نخاطب إخوتنا في الله فنذكرهم بما قد يغفلون عنه من مشتبهات الأمور. ليكونوا لنا معينين لامعوّقين..

ويلاحظ القارىء من خلال هذه المقدمة مدىٰ تأثر الأستاذ من تلك الإشاعات التي أطلقها بعض الصحفيين لخطأ أو غرض، فالتقطتها بعض الألسن تلوكها على غير وعي، وانه لعرض جدير بأن ينقل ويقرأ لما فيه من التوجيه الحكيم..

ونتابع الآن مع الأستاذ بقية جوابه حول الموضوع لنستمع منه إلى هذا التفصيل الدقيق:

يقول فضيلته: إن دعوة اخوان قامت على الإيمان العميق. واليقين الخالص. في حين قامت الماركسية اللينينية على إنكار الرسالات بكل حقائقها، ووصفت كل ذلك بكونه مخدرات للشعوب.. ففي عقل أي أبله أو معتوه يتصور أن هناك تقاربا بين الفريقين!. وما نوع هذا التقارب.. وما وجهته!.. لقد علم الخاص والعام أن الإخوان يرفضون الدخول في جبهات، لأن الجبهة الوحيدة لهم هي عقيدتهم الإسلامية، فكيف يمكن أن يجتمع الالحاد والإيمان في إهاب رجل واحد!.. وإذا فرضنا أن ائتلفنا مع غيرنا لازالة حكم ما، ثم وصلنا إلى مانريده، فأي منهم هو الذى سيحكم أو يسود!.. ألا نكون بذلك قد خرجنا من ائتلاف مع جهة واحدة إلى صراع مع عدة اتجاهات!.. مالكم كيف تحكمون!.. ثم مامضمون هذا التقارب؟.. أيتنازل الإخوان عن شيء من معتقدهم، والآخرون عن شيء ليكوّنوا منهاجاً أسود ــ أبيض ــ أحمر ــ أخضر ــ أزرق ــ أصفر في وقت واحد؟!..

أما القصة التى حيكت حولها كل هذه الأقاويل فإليكها:

كنت فى معتقل القصر العينى، وكان هناك بعض المعتقلين من مختلف الهيئات والاتجاهات، فلم أجد إلا أدباً وحسن معاملة وتبادل احترام..

وقد كان بعض المعتقلين من الشيوعيين يؤدون معنا صلاة الجماعة ، بل لقد قمت ذات ليلة للتهجد فرأيت أحدهم يتوضأ ليتهجد أيضاً ، فهل من حقي شرعاً إذا سئلت عنه أن أنكر رؤيتي لِصلاته !. ألا يعلم المعترضون أن رسول الله ﷺ إذا دعي للصلاة على ميت سأل : هل رأوه يصلي ؟.. فإذا جاء الجواب بالإيجاب صلى عليه ، وإلا فلا .. هل يريد المنتقدون أن أدع سنة رسول الله ﷺ اتقاء انتقادهم أو اعتراضهم !..

ألا فمهلاً .. بعض هذا التدلل . لقد أمرنا ديننا أن نحسن معاملة الناس أيا كان دينهم ، وكان يزور جاره اليهودي إذا مرض ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي .. أليس هذا هو أدب النبوة !.. أم يريدون أ ن نخاشن الناس ونجافيهم .. وإذا دعتني لجنة الحريات في نقابة المحامين للكلام في الموضوع .. أأرفض أم أذهب لأقول كلمة الحق والدين !.. ففيمَ الاعتراض ، وعلام الانتقاد ؟!.. وابن عباس رضى الله عنه كان يسلم فى طريقه على المسلم وغير المسلم ، فلما قيل له فى ذلك أجاب : حتى يعرفوا أننا مسلمون .. وماذا يقول هؤلاء الغاضبون في قول الله تبارك وتعالى : ﴿**وقولوا للناس حسنا**﴾ ولم عمّم فذكر الناس ولم يخص المسلمين وحدهم !.. وكان بين أمراء المسلمين من الأمويين والعباسيين محالفات مع غير المسلمين ، فلم يعترض واحد من فقهاء تلك الأعصر ، وبينهم الشافعي وابن حنبل ثم ابن تيمية ، وغيرهم أأنتم أشد حرصاً على الدين من أولئكم !.. وقبل ذلك عقد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله محالفة مع يهود المدينة ، وقال عن حلف الفضول الذى حضره في الجاهلية : لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأُجبت . ألا بربكم دعونا من شكلياتكم التي تصور الإسلام على غير حقيقته وأربعوا على أنفسكم ، فإننا نتصرف بفهم صحيح من ديننا ، ولسنا بالمترخصين في شيء يمس عقيدتنا الطاهرة من قريب أو بعيد. ولقد علمتم أن حضور الإخوان اجتماع الهيئات الناظرة في مستقبل الديمقراطية بمصر أدى إلى صدور بيان المجتمعين متوّجاً بطلب التطبيق لشريعة الله ، وعودة الأئمة المبعدين إلى مساجدهم ، أفليس فى ذلك ربح للدعوة وتأييد لمبادىء الإخوان المسلمين !.. فماذا تريدون بعد هذا .

لقد اتهمَنا الساداتُ بأننا المسئولون عما سماه بالفتنة الطائفية، فكان تعاملنا مع أقباط مصر، وموقفهم منا أثناء مرض بعضنا، أبلغَ رد على تلك المفتريات. ولسنا نمنُّ بعمل ولكننا نشهد الله أن المسلمين أبعد الناس عن التعصب، وأن محمداً صلوات الله وسلامه عليه ماأُرسل إلا رحمةً للعالمين. إن دعاة الإسلام في أمس الحاجة لإثبات هذه الحقيقة للناس جميعاً حتى يعلموا بيقين أن سماحة الإسلام وجماله وجلاله فوق كل الشبهات، وقد رأينا ربنا تبارك اسمه حين يصف اليهود بأنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين لم يجعل هذه العداوة متبادلة، بل جعلها من ناحيتهم وحدهم، لأن المسلمين مكلفون دعوة الناس إلي مايسعدهم ويحييهم في الدنيا والآخرة، ولن يكون ذلك بمعاداة الناس والتجهم لهم، ولكن بالتودد إليهم ترغيباً وتحبيباً بدعوة الله.. هذه طريقتنا ولن يثنينا عنها مخالف أو معترض، والله نسأل الهداية والمغفرة للجميع..

وبعد فهذه خلاصة مكثفة لما كتبه فضيلة الأستاذ التلمسانى من جواب على استيضاحنا تلك الإشاعة غير المحققة بشأن موقف الإخوان المصريين من الشيوعيين، والتي حاول بعضهم استغلالها، وأساء البعض الآخر فهمها، فكان في هذا العرض الوافي مايكفي ويشفي.. وقد التزمنا بنقل هذا التفصيل من كلمات الأستاذ، وعباراته ذات الطابع الخطابى، الذى يميز أساليب الدعاة فى ندوات الجماعة..

بقي أن نتذكر أن صلاة يقوم بها شيوعي ذات يوم أو أيام لا تزيد على صلاة أولئك الذين كانوا يؤدونها وراء رسول الله من عصائب ابن أبي بن سلول ــ الأب ــ الذين يصور القرآن العظيم حقيقتهم بمثل قوله: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلي شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون**﴾ (سورة البقرة ١٤) وأي صلاة هذه التي يتظاهرون بها وقد كفروا بأصل العقيدة حين رضوا لأنفسهم ولأمتهم نظاما للحكم غير الذى أنزله الله.. وحسبنا في أمثالهم قول ربنا القاطع المانع ﴿**فلا وربك لايؤمنون حتى يُحكِمّوك فيما شَجَر بينهم ثم لايجدوا في أنفسِهم حرجاً مما قضيتَ ويسلموا تسليما**﴾ (سورة النساء ٦٥).

م ـــ كنتم أحد الجهات المدعوة للشهادة في قضية الجهاد بيد أن الظروف حالت دون حضوركم يومئذ ولو قدر لكم الحضور ، فما الفكرة التي كنتم ستدلون بها إلى المحكمة في هذه القضية !..

ع ـــ ما كنت بزائد على ما قاله فضيلة الشيخ الجليل صلاح أبو إسماعيل عضو مجلس الشعب إلا أنى أضيف إلى ذلك إقرارى بأن الشباب أخطأ ، وأن الحكومة أخطأت كذلك . أخطأ الشباب فى اتجاهه وأخطأت الحكومة فى تصرفاتها معهم . إنه شباب مسلم حقاً ، ولكنه أخطأ الطريق فى إقامة ما رآه من اعوجاج .

لقد فسحت الحكومة المجال لشرح وجهة نظرها ، وحرمت الشباب حقه فى عرض مفهوماته ، وليس هذا بالمنهج المنشود فى الإصلاح ، فالحجة بالحجة والدليل بالدليل ، وليس سوى هذا للإصلاح والتصحيح من سبيل ، إلا أنى أصبحت مرتاحاً لما يعرضه علينا التلفاز من الحوار الذى يقوم بين أفاضل العلماء وهذا الشباب . . . والله هو المسئول أن يأخذ بيد الجميع إلى خير الإسلام والمسلمين .

م ـــ وما مطالعاتكم فى شأن الحوار القائم بين لجنة الأزهر وفضيلة الشيخ صلاح أبو إسماعيل حول شهادته فى هذه القضية . . . .

ع ـــ إنني أميل إلى الأخذ برأى فضيلة الشيخ صلاح ، لأن مافصّله في شهادته عن أوجه الانحراف الاجتماعي والفردى والحكومي هو من الواقع الذي لامندوحة من أن يؤخذ فيه بالرأى الحاسم ، والإجراء الفاصل ، لكي توضع الأمور في نصابها .. وإني لمع القائلين بعدم إسكات المتألم الباكي قبل أن أطلب من المتسبب في هذه الآلام أن يقلع عن كل مادعا إلى التألم والشكوى . وقد اعتبر عمر بن الخطاب نفسه مسئولاً عن ضرر العاثر إذا لم يكن قد سوى له الطريق ، فما بالنا ونحن نرى الصراصير والنمال تتهاوى علي مقدسات العقيدة والأخلاق !!. إنني بطبيعتي لاأقر العنف أيا كانت صوره ، ولكنني أصرح في الوقت نفسه بوجوب إزالة كل المسببات لطلقات المدافع والرصاص . إن قضية الجهاد بين يدي قضاء عادل أثبت نزاهته ومراقبته لله الذي يحول بين المرء وقلبه ، وهو المسئول أن يلهمه

الصواب، وأن يجري الحق علي لسانه أيا كان الحكم الذى سيصدره.. بل إني لأذهب إلي أبعد من ذلك فأطالب بالتقويم وسيادة الألفة والتعاون والتوادّ بين الجميع، ولو افترضنا أن هناك إدانة فإن تصحيح المسيرة لايزال في يد السيد رئيس الجمهورية، لأن الدستور يمنحه العفو الشامل، إذا ماقدر أن ذلك في مصلحة الوطن. إن لمثل هذه الخطوة فاعلية رائعة في نفوس الشباب، إذ يؤمنون حينذاك أن أزمة البلاد في يد أمينة حانية، ،ولا مرد لما حدث، أما الابقاء على الأحياء بالعفو والصفح فقد يكون من ورائه خير كثير..

وجزى الله الأستاذ التلمساني كل خير على نصيحته الحكيمة هذه، وكم نود لو أبلغها إلى رئيس الجمهورية قبل فوات الأوان، فقد يتأخر ظهور هذا الكتاب إلى مابعد صدور حكم القضاء في حق المئات من صفوة شباب مصر، وقد يتم تصديق الرئيس عليه فيصير بهم أو بأكثرهم إلى لقاء الله، ولو وصله مثل هذا التذكير الحكيم قبل ذلك لكان حرياً بأن يترك أثره في قلبه.. وليس هذا بغريب فى تاريخ ذوى السلطان، فرب كلمة من عقل حكيم، أو نفثه من قلب شاعر، قد هزّت أريحية جبار فاستبدل بالعقوبة العفو، وبالقسوة الرحمة، ولم تزل قلوب العباد بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ولا يزال في أهل الإسلام خير بفضل الله، وسننقل هذا الرأى إلى فضيلة الأستاذ التلمساني عسى أن بلهمه الله العمل به، والله الموفق والمستعان.

م ــ على الرغم من كل المعوّقات التي تواجه مسيرة الدعوة في معظم الديار الإسلامية يلاحظ أن ثمة نهضة إسلامية تتنامى بقوة وعمق، ولاسيما فى الأوساط الجامعية العلمية وبخاصة في مصر.. فما تفسير ذلك، وما توقعاتكم بشأنه، وما السبيل إلى ضبط هذه النهضة في طريق الإسلام الصحيح!..

ع ــ لقد بلغ الفساد بالمجتمعات الإسلامية حداً لايمكن تجاهله، وآمن الجيل الحاضر والغابر ألاّ ملجأ ولا منجاة من ذلك التدهور إلا بدين الله، فانبرى لحمله صادقاً مخلصاً، وأخذ المد الإسلامي يرقى ويتسع، فأنزل به

أعداء الإسلام ضربات قاصمات حسبوا معها أنهم بذلك يقضون على الدعوة والدعاة، وغالوا في تخبطهم فسلكوا إلى أغراضهم كل سبيل شيطاني، وكل وسيلة جهنمية، فاستباحوا الأعراض، وانتهكوا الحرمات، وتنكروا لكل معني إنساني.. وما كان أشدّ غيظهم عندما رأوا أن كل محنة ينزلونها بأهل الحق تزيد من تصميمهم فيزدادون عدداً وإقبالاً على الله، وكأنما كل تلك المحن مغريات بالمضي في سبيل الله. ومن هنا شرعوا في تعديل طرائقهم فجربوا وسائل الإغراء من المال والمباهج والمراكز، وإذا بالنتائج عكس مايتوقعون، فلا الإغراء بمجدٍ، ولا الارهاب بناجعٍ، فعادوا إلى الإجرام مرة أخرى، ولن يفلحوا إذن أبدا..

والسر فى ذلك غاية فى البداهة، ذلك أن الإيمان إذا خالطت حلاوته القلوب، وتمشى برده في الصدور، هان على أهله كل مايُبتلَون به.. وقد اقتدى شبابنا الطاهر بسلفه الصالح، وراجع مواقفه الإيمانية، فإذا هو مصمم على احتمال أمثالها في سبيل الله، لم يزده البلاء إلا إصراراً وتسليما، فإذا ماإكتوى جسده الناحل بلذعات السياط، انطلق لسانه بكلمة التوحيد..

ذلك هو الطريق الوحيد لترسيخ العقيدة ونشرها وإنمائها وامتدادها إيمان بالله. وحب له يفوق حب المال والأهل والولد والجسد، واحتساب لاشكوى معه، ويقين راسخ بموعود الله ﴿**وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين**﴾.

أجل.. إن الوعى الإسلامى قد استيقظ فى قلوب المسلمين وهيهات أن يناموا، وقد لفتت هذه اليقظة أنظار الشباب إلى ماعليه أمتهم من ضعف وهوان، فعز عليه أن يرى خير أمةٍ أُخرجت للناس في هذا الدرك المَشين، فعاهد ربه على العمل لعودة العزة السليبة أو الموت الكريم في طاعته.. وهكذا استهانوا بقوة الأعداء اعتزازاً بقوة الله، فهم منتشرون في أرجاء الأرض داعين إلى الله على بصيرة، مصممين على استرداد القياد الذى سلبتهم إياه القوى الباغية، لتعود القافلة التائهة إلى المحجة الهادية، فتقدمَ للبشرية الضائعة أكرمَ رسالة وأقوم منهاج يخرجها من الظلمات إلى النور..

ذلك هو واقع الجيل الذى يمثل هذه النهضة فى مصر بخاصة وفى العالم الإسلامي كله بعامة، وما دام المنطلق صحيحاً سليماً فالعاقبة من النوع نفسه، إن شاء الله ﴿إن اللهَ مع الذين اتقَوا والذين هم مُحسِنون﴾ (سورة النحل ١٢٨).

وعن ظاهرة الانحراف فى مسيرة بعض الشباب والسبيل إلى ضبطها فى طريق الإسلام الصحيح يقول فضيلة الأستاذ التلمساني:

إنى لعلى يقين بأن الشباب المسلم سيركن فى نهاية المطاف إلى الأخذ بالأساليب الإسلامية، إذا مانشط الأزهر والدعاة والمسئولون في سبيل التوضيح والشرح والتبيين. إن أولئك الذين يرمونهم بالانحراف والتطرف قد عوملوا بقسوة لامسوّغ لها، وهذا دون ريب قد ترك في نفوسهم الكثير من المرارة والحفيظة. والمسئولون هم المكلفون بالعمل الدائب على إزالة هذه الندوب ليأخذ كل شيء خطه المستقيم. وإني لواثق كل الثقة بأن معاملة الشباب على هذا المنهج النبوى الراشد الرحيم ستأخذ بيده إلى الجادّة التي لاضلال فيها لسالك. إن الحاكم هو الطرف الأقوى، وعبء إصلاح العوج واقع على كاهله، وعليه هو أن يبدأ حتى يحس الشباب أنه يتعامل مع عاطفين عليه محبين له، لامع كارهين له ناقمين منه.. إننا نطالب الشباب بالعدول عن العنف، وفي الوقت نفسه نطالب المسئولين بأن يبنوا صلتهم بالشباب على هذا الأساس الصالح، وحبذا لو فسحوا المجال أمام الدعاة الذين طال تمرسهم بمعالجة النفوس، إذن لرجونا أن تؤتي جهودهم الثمرات الطيبة والمرجوة.

ذات يوم ــ بعد أحداث العام ١٩٨١ ــ طلبت منى وزارة الداخلية أن أذهب إلى سجن طرة للتحدث مع المعتقلين، وفعلت والتقيت بالكثيرين منهم هناك، وكانوا من مختلف الاتجاهات والأفكار، ودخلت معهم في حوار متفاوت الحرارة، ساخن مرة وهادىء أخرى، ولكن ماإن انتهى الحوار بعد ساعة ونصف حتى اندفع الشباب كلهم إلى احتضاني وتقبيل رأسي ويدي، إعراباً منهم عن الإقتناع بما سمعوا ووعوا.

وهنا، وقبل الانتقال إلى متابعة الحوار، يحسن بى أن أقف قليلاً لأعرب عن عميق إعجابي بهذا المنهج الذي يميز أفكار الأستاذ التلمساني في معالجة

أدق الأمور وأشدها حساسية، حيث يعطي كلا من الشباب والحاكم حقه من التذكير والنصيحة، فإذا كان من واجب الشباب الالتزام بأدب الإسلام في أسلوب العمل وفق التوجيه النبوي في قوله، صلوات الله وسلامه عليه: «إن الله رفيق يحب الرفق»(١) فمن واجب الحاكم أيضاً أن يلتزم بمنهج الإسلام في علاقته بذلك الشباب المتطلع إلى الأفضل وفق متطلبات دينه، فيعمل بقانون الفاروق رضى الله عنه يوم أن خطب فى جموع الحجيج قائلا: (ألا وإني إنما أبعث إليكم عمالي ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم، ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ويأخذوا أموالكم..(٢) ويلتفت إلى عماله محذراً و متوعدا: (لاتضربوا المسلمين فتذلوهم..)(٣)،وهي هي الخطة التي تعلمها الفاروق من أستاذه الأعظم رسول الهدى والرحمة القائل: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتُصلون عليهم ويصلون عليكم(٤) ويوم يعود الحكم إلى منطق الإسلام هذا لن يكون ثمة ظالم ومظلوم، بل أسرة متضامنة متعاونة على تحقيق المنهج الذى يحبه الله»..

م ــ وأخيراً. إن في حياتكم المباركة خبرات تستحق التسجيل لينتفع بها المسلم في كل مكان.. فهل لكم بكلمة توجهونها إلى الدعاة والشباب في ختام هذا الحوار المفيد إن شاء الله؟..

ع ــ الصعاب التي تعترض الدعاة في هذا العصر عاتية غاشمة. القوة المادية في يد أعداء الإسلام، وقد اتحدوا مع اختلافهم على أهله، وأكبر تركيزهم على الإخوان المسلمين. وعلى أساس الموازين البشرية لم يكن لجنود طالوت المؤمنين طاقة بجالوت وجنوده، ولكن لما أيقنت عصبة الإيمان أن النصر من عند الله وليس مرهوناً بالعَدد والعدة هزموا كتائب جالوت بإذن الله. إنني لاأستهين بقوة العدد، ولا أطلب من الدعاة أن يُخلدوا إلى التواكل ومصمصة الشفاه، وتحريك الأعناق يمنة ويسرة، وضرب الأكف بعضها ببعض.. إنها نكبة النكبات القاضية الماحقة الساحقة، ولكن التمسك بالوحي المنزل من عند الله، والجهر بكلمة الحق في إصرار واستمرار، والإستهانة بكل صنوف الإيذاء، وضرب المُثُل العالية من أنفسهم في

(١ و ٤) من حديثين أخرجهما مسلم.
(٢ و ٣) انظر جمهرة خطب العرب ص ٢١٩ و ٢٢٠.

الرجولة والبطولة والثبات، ويقينهم بأن الله مبتليهم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، ليعلم الصادقين من المزيفين.. هذا كله من أسباب النصر في سنن الله، وقصص القرآن خير شاهد على ذلك.

أما الشباب فإن العزيمة التى تواكب وعيه العميق فى غير حاجة إلى الكثير من التجارب، ولكنها بحاجة إلى الكثير من الصبر، والالتزام بتوجيهات الوحي من الكتاب والسنة. ثم من حيوات السلف الصالح الذين قَيَّدوا تصرفاتهم بها فحقق الله لهم من العزة والسؤدد مايشبه الخوارق.

إن شبابنا قد بلغ أشده واستوى وآتاه الله حكما وعلما وعزيمة ورشدا وفهما سليما، فعلى بركة الله، ومن تكن لكتاب الله نصرته دانت له الدنيا على وجه اليقين، ومن ينصره الله فلا غالب له.. و(قل: الله ثم ذرهم).



الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ

شاء الله لحكمة يعلمها أن يقترن اسم الدولة السعودية منذ نشأتها الأولى باسم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فعلى التعاون التام بين مؤسسها الأول الإمام محمد بن سعود وبين إمام الدعوة المجددة لمسيرة الإسلام المصفّى نهضت، وقد استمر هذا التعاون على أتمه بين أبناء المؤسسيْن وأحفادهما حتى أيامنا هذه، وسيظل هو المرتكز الذى يقوم عليه بناء هذه المملكة إن شاء الله، ماستمرت الغاية الواحدة هي الجامعة بين آل سعود وآل الشيخ، تلك الغاية المتمثلة في الهدف الواحد الذى هو إعلاء كلمة الله، وترسيخ قواعد التوحيد على الأسس التي أنزلها الله على قلب محمد رسوله المبعوث رحمة للعالمين.

ولقد ظل آل الشيخ المجدد يتوارثون مهمته في تحقيق هذا التعاون البار وراء الهدف نفسه، إذ كان منهم حملة علمه ينشرونه على نطاق المملكة وفي أنحاء العالم الإسلامي، عن طريق مؤلفاتهم وتلاميذهم الذين لايفتئون ينتشرون في كل مكان، ولئن وقف تنامي المشتغلين بعلوم الشريعة من هذه الذرية المباركة في هذه الأيام، بسبب انصراف الكثيرين من شبابها إلى العلوم العصرية، فإن في أولئك التلاميذ الحاملين علوم ذلك البيت لضماناً أكيداً ـــ بفضل الله ـــ لاستمرار مهمته في خدمة الإسلام وفي إعلان حقائقه المجردة عن كل مالصق بها خلال القرون، من تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين..

ولا خلاف على أن مترجَمَنا الكريم هو الذى انتهت إليه راية هذه الدعوة أمانةً عن أسلافه المتلاحقين على حملها من أبناء الشيخ في عهدها المعاصر، وأنه لم يفارق هذه الدنيا إلا بعد أن أدى مهمته كاملة في نشر النور الذى أضاء بصيرته، فهيأبه جيلا من كبار علماء الإسلام في هذه المملكة وما وراءها من الربوع، التي تتلقى أمانة العلم عن طريق هذه المملكة ...

إنه الشيخ الإمام محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن الإمام مجدد القرن الثاني عشر الهجرى محمد بن عبد الوهاب، فهو رابع أحفاد ذلك الشيخ الذي كان ظهوره في عالم الدعوة صدمة مزلزلة للجاحدين والخرافيين، ونعمة أبهجت قلوب المعتصمين بحبل الله المتمسكين بكتابه المبين وسنة رسوله الأمين..

ولد في مدينة الرياض في اليوم السابع عشر من شهر المحرم عام أحد عشر وثلاثمائة وألف من الهجرة، وكان منشؤه في تلك الأسرة باعثا على سلوكه منهجها في التربية والأخلاق ومحبة العلم، وقد بدأ تعلمه بكتاب الله فبعد أن أتم قراءته وأتقن تلاوته، شرع في استظهاره فما أن استتم الحادية عشرة من عمره حتى كان قد أتم حفظه..

ومن ثم أخذ سبيله في طلب العلم على والده قاضي العاصمة، وعلى عمه علامة نجد في زمنه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، فدرس التوحيد وأصول العقيدة، ثم أقبل على مختصرات كتب جده المجدد وأضاف إليها دراسة مختصرات كتب شيخ الإسلام بن تيمية وتلميذه العلامة بن القيم، وتبحر في النحو والفرائض..

وقدر الله أن يصاب مترجمنا، كالكثيرين من فضلاء نجد، في بصره وهو في الرابعة عشرة إذ ذهب الجدري ــ الذى كان على أشده في تلك الأيام ــ بنور عينيه ولما يتجاوز الرابعة عشرة، فتحول النور إلى بصيرته وضاعف من نشاطه فى الدرس والمثابرة على الطلب فعلاوة على مايحصله من شيوخ أسرته أقبل على الاغتراف من علماء بلده، فقرأ التفسير والحديث وأصولها، إلى علوم العربية والمطولات من كتب الفرائض.. وهكذا أدرك من العلم في الزمن القصير مالم يدركه الكبار في الزمن الطويل وبذلك صار من أحب تلاميذ عمه العلامة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف وأحقهم بتقديره حتى إنه عندما أحس عمه ثقل المرض عليه لفت نظر جلالة الملك عبد العزيز إليه، وأثنى لديه على علمه وبعد نظره وحسن إدراكه، فلما توفي عمه أسندت إليه مهامه من التدريس والإفتاء والإمامة والخطابة، والتف حوله الطلاب يقرؤون عليه ويفيدون من علمه..

وقدر الملك عبد العزيز مواهبه فاتخذه مستشاراً شرعياً في تولية القضاة وإبداء الرأى في الأمور الشرعية.

وعلى دأب الشيوخ من أسرة آل الشيخ، وعلى طريقة العلماء فى نجد أثناءئذ كان على صاحب الترجمة أن يقف حياته على التوجيه والإصلاح إلى جانب الدروس العامة التى لم ينقطع عنها حتى آخر حياته رحمه الله.

ويفهم من كلام مترجمه ــ الشيخ عبد الله البسام ــ أن قد كان للشيخ جولات وصولات في معالجة غلاة البادية، الذين طالما عرقلوا إصلاحات الملك عبد العزيز، فلم يزل بهم حتى دحض شبهاتهم وأبطل مدعياتهم، وأوضح لهم سبيل الحق والرشاد بإقامة الحجة القاطعة..

في ميدان التعليم:

وأما في ميدان التعليم فقد كان الشيخ تغمده الله برحماته مثالاً حياً لعلماء السلف الذين يقدرون أمانة العلم فلا يدخرون وسعا في بثه لمختلف طبقات الناس على وفق حاجاتهم واستعدادهم ومستوياتهم.

كان يجلس للطلبة في مسجد الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بحي دخنة عقيب صلاة الفجر من كل يوم، فيبدأ بصغارهم يعلمهم مبادىء النحو فإذا مافرغ من هؤلاء انصرفوا للمراجعة ليستقبل الفئة الوسطى، فإذا مافرغ منهم أقبل عليه كبار الطلبة ليدرسوا عليه الألفية..

ثم ينتقل إلى الفقه فالحديث.. كشأنه في دروس النحو، حيث يتدرج مع كل فريق من الطلبة وفق مستواه، وهم مابين صادر ووارد كلما انتهت حصة تلتها أخرى..

وبعد راحة قصيرة في منزله يعود إلى مجلسه ليستأنف عمله في تعليم كبار الطلاب في أمهات المراجع، ويعقب ذلك فترة استراحة أخرى في بيته إلى صلاة الظهر، فإذا ماقضيت الصلاة عاد إلى مجلسه وقد تحلق حوله الطلبة من الكبار والصغار، ليشاركوا في درس عام بأحد كتب الحديث الستة فإذا مافرغ من هذه النوبة بدأ أخرى فى كتب العقيدة، من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وغيرها، حتى تحين صلاة العصر فإذا ماقضيت عاد إلى

جلستة ليستقبل أفواج الطلاب، فيحاورهم في مختلف العلوم إلى صلاة المغرب، وبعد الصلاة يأخذ في علم الفرائض لأهلها، ثم يعقب ذلك بدرس عام في التفسير يستمر حتى صلاة العشاء..

ولقد تعمدنا أن نضع بين يدي القارىء هذه الصورة من عمل الشيخ العلامة الراحل خلال يوم واحد، هو النموذج لسائر أيامه في خدمة العلم لايكاد ينقطع عنها إلا لعارض من مرض ونحوه، وقد نقلنا هذه الصورة من كتاب (علماء نجد) للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام لنذكر القارىء بذلك الطراز الفريد من بقايا سلفنا الصالح، الذين ملئوا الدنيا علما وإخلاصا للعلم، حتى كان الواحد منهم إحدى معجزات الإسلام فى نشر الخير والحق، لايجد راحةً لنفسه إلا بالدأب في أداء الواجب.. ولا شك أن من المحزن كل الإحزان أن نشهد هذه البقية العزيزة تتوارى عن الأبصار في ديار الإسلام واحداً تلو الآخر، ثم لانجد مايعوضنا عنها في كل من تخرجهم المدارس والجامعات على كثرتها وتكاثرها!..

وقد ذكر الشيخ البسام من تلاميذ الفقيد ثلاثة وثلاثين من كبار علماء المملكة، بينهم العلامة الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز، والفقيد الراحل الشيخ عبد الله بن حميد، وكلهم من مشهورى العلماء العاملين في هذه الديار ولكل منهم أثره الواسع في نشر العلم والدعوة إلى الله، وفيهم من سارت فتاواه مسير الشمس في عالم الإسلام..

مع التطور الكبير:

وقد شغل الفقيد العديد من أهم الأعمال إلى جانب خدمته للعلم على ذلك النحو المدهش ...

فمن أبرز أعماله، إلى جانب التعليم والإرشاد، رئاسة القضاء في نجد كلها، ولما شكلت المحاكم الشرعية في نجد والمنطقة الشرقية كان المشرف عليها وعلى أعمالها، عندما وحدت المحاكم أُسندت إليه رئاسة القضاة على مستوى المملكة، فإليه يرجع الأمر في تنظيم المحاكم وتعيين القضاة...

وكان من أثر التطور العام في المملكة أن تغيرت طريقة التعليم المسجدية،

إذ ناب عنها نظام المعاهد الذي اعتُمد لتخريج العلماء في الشريعة والعربية، فانتشرت المعاهد العلمية في كل مدينة وقرية، ثم تلا ذلك إنشاء كليتين للشريعة واللغة، وكان المترجم هو الرئيس العام لكل هذه المؤسسات، يشرف عليها وينظم أمورها الإدارية والدراسية. كذلك انيطت به رئاسة المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي منذ إنشائها تأييدا للدعوة التي أطلقها المغفور له الملك فيصل إلى التضامن الإسلامي.

ولم يكن بد من سريان النهضة التعليمية إلى أوساط الإناث، فكان على العلامة الفقيد أن ينهض بعبء هذه المسئولية في وجه التقاليد التي حاولت بكل طاقاتها عرقلة هذه المسيرة، ولكن منزلة الشيخ في نظر الجماهير، وثقتهم بحكمته ودينه، قد مهدت السبل لقبول هذا التطور، وكان ذلك خيراً للحركة الجديدة، إذ قامت منذ يومها الأول على أساس الدين وفي كنف آدابه وفضائله ...

ثم جاءت الخطوة الجبارة المباركة بإنشاء الجامعة الإسلامية في المدينة لاستقبال طلبة العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فكان هو رئيسها المشرف على تأسيسها والمتولي رئاستها العليا، منيباً عنه تلميذه العالم الثقةالشيخ عبد العزيز بن باز في إدارتها المباشرة.

وأعقب ذلك دار الإفتاء التى لم يكن عنها مندوحة فى دولة تحكمها شريعة الله، فتتطلب التعمق فى فقه الكتاب والسنة لمقابلة النوازل الطارئة بالحلول الصحيحة. وقد أحسن تنظيمها على أفضل الأسس وحشد لها جمهرة من خيرة أهل العلم، تدرس الوقائع وتستنبط لها الأحكام من مصادرها النقية البيضاء. وهكذا حققت وتحقق هذه الدار مهمة الاجتهاد الجماعى الذى يدعو إليه مفكرو العصر، وكان لها الفضل الكبير فى ترسيخ النظم الإسلامية فى نطاق التعامل والتعليم وسائر جوانب الحياة الاجتماعية، ودعمت ذلك كله بإشاعة العلوم الدينية على مستوى الجماهير، وذلك بنشر المؤلفات النافعة وتوزيعها بالمجان على الخاص والعام داخل المملكة وخارجها..

ولا جرم أن لهذه الجهود المبرورة أثرها المحسوس في امتياز المملكة السعودية على سائر بلاد العالم من حيث انتظام الحياة واستتباب الأمن الذى أصبحت بهما مضرب الأمثال في كل مكان ..

آثاره المكتوبة:

وطبيعي أن ضخامة هذه الأعباء التي شغلت معظم حياة الشيخ على امتداد سنيه الثماني والسبعين ليس من شأنها أن تدع له متسعا للتأليف، فقل إنتاجه في هذا الميدان، ولكنه غرس في صدور تلاميذه ثم تلاميذهم مايجعل من كل منهم كتابا ناطقاً بفضله وآثاره.. على أن في فتاواه الكثيرة مايملأ المجلدات ولا يزال أهل العلم ينتظرون جمعها ونشرها منذ صدر التوجيه بذلك من قبل الملك فيصل بن عبد العزيز غفر الله له وطيب الله ثراه ..

وإني لأكتب هذه الصفحات وقد انطوى على فراقه الدنيا خمسة عشر عاما ولا يزال ذكره حيا على ألسنة عارفيه والقابسين من علمه وفضله، وكذلك شأن المخلصين من عباد الله الناشرين لنوره، يهيء لهم ألسنة صدق تدعو لهم وتجدد ذكراهم وتخلد مآثرهم.

ولا أدل على منزلة هذا الإمام فى قلوب السواد الأعظم، وبخاصة في هذه البلاد، من تلك الحشود الضخمة التي زحفت لتشييعه إلى مثواه الأخير، وقد جمعت أصناف الخلق من قادة المملكة وعلمائها وجماهيرها، الذين أجمعوا على تقديره والحزن العميق لفراقه . .

ولقد شاء الله أن يحال بيني وبين تلك المناسبة، فلم يقدر لي المشاركة في حضور تلك الجنازة، ولكن ذلك لم يمنعني من الإعراب عن شعورى بازاء هذه النازلة فأبرقت يومئذ إلى أعضاء أسرة الفقيد بالأبيات التالية:

لله عمرُ إمامٍ قد تصرَّم في ... نصر الحقيقة وفق المنهج السلفي
مضى حميداً وقد وفَّى أمانته ... وحسب ذي العلم فضلا أن يقال وفي
فليكرم الله مثواه، ونسأله ... خير العزاء لمن أبقى من الخلف

ولقد حفلت صحف المملكة ومجلاتها بخبر وفاته، وخصصت بعضها أعدادا للتنويه بأعماله ومناقبه ولعل أجمع ماكتب عنه حتى اليوم تلك الصفحات العشر التي وقفها على أخباره صاحب كتاب (علماء نجد) في جزئه الأول، ومنها اقتبسنا أكثر المعلومات عن حياة الفقيد مع بعض التصرف.

ذكريات لاتنسى :

وأقف الآن قليلاً لأستعيد ذكرى معرفتي بتلك الشخصية الجليلة.

لقد لبثت طويلاً أتشوف للاجتماع بوارث علوم آل الشيخ مجدد القرن الثاني عشر، الذي أول ماعرفته عن طريق مجلة المنار، تلك التي كانت المعرض الجامع لحركة الاصلاح، التي أحدثها في عالم الإسلام الثلاثة السابقون إلى بعث النهضة الإسلامية الحديثة جمال الدين الأفغاني وتلميذه الأول محمد عبده ورفيق جهاده السيد رشيد رضا، رحمهم الله أجمعين وأجزل أجرهم كفاء ماأيقظوا من النيام، وأثاروا من الهمم لاستعادة الوعي الذي فقده سواد المسلمين، وإن أنكر المنكرون وتجاهل المتجاهلون وتقوَّل المتقولون..

ولما أسعدني الله بالهجرة إلى جوار نبيه المصطفى، صلوات الله وسلامه عليه وآله، والتحقت بالجامعة الإسلامية متعاقداً للتدريس فيها انتهزت أول فرصة للقاء المترجم، وكان ذلك في مكة المكرمة، وكنا إذ ذاك عدداً من مدرسي الجامعة السوريين، فقدمنا أنفسنا إليه وأحاطنا برعايته واهتمامه، إذ جعل يسألنا عن شئون الجامعة ومسيرة التدريس فيها وأحوال طلابها الوافدين إليها من أنحاء العالم الإسلامي..

وكان الحديث ممتعاً تناولنا خلاله مختلف القضايا من علمية واجتماعية، واستمعنا إلى الشيخ يفيض بالعميق من الأفكار العالية والملاحظات السديدة، ولم نغادر ذلك المجلس إلا وقد امتلأت جوانحنا إعجاباً وتقديراً وتوقيراً..

ثم جاءت الفرصة الثانية في الطائف، حيث حضرت مجلسه مع فضيلة الزميل — يومئذ — والقاضي — اليوم — الشيخ عطية محمد سالم.. وكان البحث آنئذ حول الأقاويل التي تطلقها الصحف عن حركات الفلك والتطلع إلى غزو القمر، وما يتعلق بذلك من الكلام عن الأرض وتكوينها وموضعها من الحركة والسكون..

وقد بدا الشيخ رحمه الله على وعي كبير لما يثور في العالم المعاصر من أفكار وأراء، وكشأن علمائنا الملتزمين بآراء المتقدمين من علماء السلف، جعل يفصل مايعلم عن شأن الأرض ويقدم أدلتهم على سكونها..

وقد سرني ماوجدته يوم ذاك من اتساع صدر الشيخ للآراء المخالفة، فعرضت موقف أصحابها من أدلة الأقدمين والأدلة المضادة لها وأهم مستنداتهم في هذا الخلاف.. ثم افترقنا وقد ازددت حباً للشيخ وتقديراً لعلمه وبلغت انطباعاتي أشدها عن ذلك الوقار المهيب الذى يغمر مجلسه وحديثه حتى الذي تخالفه فيه.

وهكذا تكررت زياراتي لفضيلته في الرياض بعد ذلك إذ كنت أجد في زيارته متعة روحية تشدني بقوة إلى رؤيته وإلى حديثه..

فرحمة الله على ذلك الفقيد الذى كان نعم المعلم والواعظ والمرشد والمصلح، ونعم القدوة في الفضل، والوارث لمناقب السلف، الذين وقفوا حياتهم على الالتزام بالحق، الذى يؤمنون به فلا يحيدون عنه ولا تأخذهم فيه لومة لائم.

* * *

الدكتور محمد الرشيدي

لقيته لأول مرة مع الدكتور محمد ناصر في دارة (المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية) بجاكارتا، وقد تفضل بترجمة الحوار الذى أجريناه مع دولته يومئذ، فكان لبيانه العربي الرصين أثره الطيب في نفسي، وعلمت إثر ذلك الكثير عن نشاطه المشكور في خدمة الإسلام.

وقد شاء الله أن أنتفع ببعض نتاجه العلمي إذ وقع في يدى مؤلف له بالأندونيسية يتحدث عن بعض معتقدات الباطنية الجاويّة، فكلفت أحد طلابي الأندونيسيين فترجم لي بعض فصوله، وإذا أنا تلقاء واحد من المصادر الرئيسة لفروع الباطنية المنتشرة في مختلف البلاد العربية وبخاصة سورية. ولا جرم أن هذا أحد الحوافز التي حبَّبت إليَّ تقديمه إلى قراء العربية.

أول مايواجهك من الدكتور الرشيدى هدوؤه والوقور، الذى يشعرك بأنك أمام رجل وهب نفسه للعلم والحق، حتى إذا تكلم أدركت أن حصيلته من الفكر السليم على غاية من النضج والعمق، وأن أفقه العقلي قادر على استيعاب أنواع الحوار في أناة الخبير الذى مارس مختلف التجارب العلمية، وفي دقة الجامعي الذى يتقن مناقشة الفكر وتوصيل آرائه في أوجز العبارات وأوضح الأساليب.

ومن هنا انبثق الاتجاه إلى إجراء هذا الحوار مع فضيلته، فطلبنا إليه أن يتفضل أولاً:

م ـــ بتعريف نفسه ودراسته..

ر ـــ يقول فضيلته أنه ولد في ٢٠ / ٥ / ٩١٥ بمدينة جكجاكارتا، ويأسف لأنه لايعرف مايقابل هذا التاريخ من الأشهر العربية، التي طمس عليها الاستعمار الهولندى في أذهان الأكثرين من الأندونيسيين.

أما دراسته فبدأت في إحدى المدارس الدينية فى ذلك البلد، ولايكتم

تذمره من أسلوبها العقيم وقد انتقل منها إلى مدرسة عربية داخلية، حيث تدرب على المحادثة العربية زيادة عن القراءة. وكان مدير هذه المدرسة العربية هو الشيخ أحمد السوركتي السودانى، ويزيد في تعريفه، الذي سبقت الإشارة إليه في ترجمة الدكتور محمد ناصر، أنه كان من علماء مكة المكرمة في أوائل القرن العشرين، قدم أندونيسية للتعليم فى مدرسة الجمعية الخيرية التي كان يديرها السادة العلويون، ولكن الشيخ لم يستطع مواصلة التعاون معهم لما أحس من غطرستهم وتفاخرهم بالنسب الكريم مما أبعدهم عن تعاليم الإسلام التي تقضي بالمساواة، فترك مدرستهم وأنشأ جمعية الإرشاد الإسلامية التي اختير أعضاؤها من العرب المميزين بالعلم والفضل.

وتابع الدكتور الرشيدى أنه قضى فى مدرسة الإرشاد مدة سنتين، ومن ثم زوده الشيخ السوركتي بتوصية إلى العلامة الشهير الشيخ الطنطاوى جوهري مؤلف تفسير الجواهر، وفي القاهرة ألحقه هذا العلامة بدار العلوم، حيث قضى ثلاث سنوات حصل بنهايتها على شهادتها الثانوية وكان أثناء دراسته بدار العلوم يتلقى العلوم ودروساً أخرى في الثانوية الحكومية، فنال شهادتها كذلك، وتمكن خلال دراسته هذه من تعلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية ولذلك انفسح له الطريق للالتحاق بقسم الفلسفة من كلية الأداب في الجامعة المصرية.

ــ وعن الشخصيات التي أثرت في توجيهه يقول:

ــ في مقدمة هؤلاء الرجال أقدم اسم الشيخ السوداني الذى أحمل له أحسن الذكريات وأفضل الانطباعات، فقد درست على يده قواعد العربية، وحفظت ألفية ابن مالك، وقرأت شرحها لابن عقيل وفي حاشية الخضرى، وحفظت كثيراً من المتون، كما قرأت عليه الفقه والتوحيد ومتن الرحبية في الفرائض، ومتن السلم في المنطق.

ويتابع الدكتور الرشيدى فى رسم مشخّصات هذا الشيخ الفاضل قائلاً:
كان الشيخ السوركتي من أحرار الفكر، لايقبل كل كلام أقرؤه عليه بل كثيراً مايواجه الخطأ بالوعي.. ومن هنا بدأت أفهم أن ليس كل مافي

الكتب يجب أن يكون صحيحاً ..

وتتداعى فى ذاكرة الدكتور صور الرجال الذين تركوا بصماتهم على عقله وقلبه، وفيهم المسلمون وغير المسلمين .. ويبدأ هذا الجانب بالحديث عن الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى تولى مشيخة الأزهر بعد وزارة الأوقاف، فيقول: لقد كنت معجباً بشخصيته، مأخوذاً بوقاره وصفاته الإسلامية المميزة، وزاد إعجابي به إتقانه اللغة الفرنسية وقدرته على الخطابة فيها، ولعله قبس كثيراً من هذه المميزات عن طريق أستاذه الشيخ محمد عبده الذى كان مثله يتقن الفرنسية، وقبل ذلك عن والده عبد الرازق باشا، الذى كان من ذوي الوجاهة والعاملين في حقل السياسة المصرية.. لقد غرس هذا الرجل في قلبي بذور التطلع إلى استكمال دراستي فى فرنسة، وشاء الله أن يحقق لي هذه الأمنية بعد ثمانية عشر عاما من حصولي على شهادة الليسانس في الفلسفة من الجامعة المصرية، ولاينسى الدكتور أثر الشيخ الطنطاوي جوهري في بنائه الفكرى، وكذلك المجاهد الفلسطيني ذا الذكر الحميد الأستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة (الشورى) الذى يقول عنه إنه أوقد في صدره لهب الجهاد والتضحية.

ويضيف إلى هؤلاء المؤثرين من أهل الإسلام اثنين من غيرهم أحدهما الأستاذ (أندريه لالاند) ويصفه بأنه فيلسوف فرنسي استدعته الجامعةالمصرية للتدريس فيها، والآخر هو الأستاذ (هوكرت) الإنجليزى الذى كان يدرسهم علم الاجتماع..

وهنا يتوقف الدكتور رشيدى ليستعيد فى نفسه ذكريات عزيزة ما لبث أن سجلها في هذه الكلمات يقول الدكتور: بعد التحاقي بالحكومة الوطنية الأندونيسية، وأثناء نضالها للاستعمار الهولندي، سعدت بالتقرب من عظيمين هما: المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود، ثم المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز.

أما الملك عبد العزيز فقد تكرر لقائى إياه وبهرتني شخصيته، ومما أحمل من الانطباعات عن تلك الشخصية العظيمة كثرة ترديده في المناسبات

لقول الله عز وجل: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن ينصرُه، إن اللهَ لَقَويٌّ عزيز. **الذين إن مكَّناهم في الأرض أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأمروا بالمعروف ونَهَوا عن المنكر**..﴾ وكأنه بترديده هذا الكلام الإلهي يذكر نفسه بفضل الله عليه، ووجوب القيام بأمره في مملكته التي أقامها على طريقة السلف، فكانت الأنموذج العملي للحكم الإسلامي الصالح..

وأما الملك فيصل غفر الله له فكنت كثير الاتصال به عندما كان نائباً لوالده في مكة ووزيراً للخارجية، وكنت ممثل اندونيسية الرسمي في جدة لسنوات عديدة.. ولقد كان لهذه الاتصالات أثرها العميق في نفسي إذ تلقيت من جلالته نصائح كثيرة تدل على عمق تفكيره وبعد نظره في توجيه العالم الإسلامي نحو المستقبل الأفضل، على أساس التمسك بعرى الدين والأخوة والتضامن، وإحياء الحركات الإسلامية وتشجيعها مالياً وأدبياً، فرحمهما الله رحمة واسعة وجزاهما عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء..

م ــ أهم الأحداث التي عاصرتها وانفعلت بها.

ر ــ أيام الاستعمار الياباني ــ الذى أراد الحلول مكان الهولنديين ــ كنت موظفاً صغيراً في الإذاعة، ثم اختارني الزعيم الدكتور محمد حتا، وكان موضع ثقة اليابانيين، لأكون مدرساً للفلسفة في المدرسة العليا التي أنشأها، وما هي إلا أشهر قليلة حتى اضطر اليابانيون للانسحاب عقيب قنبلتي هيروشيما وناجاساكي، فكانت فرصة لإعلان استقلال أندونيسية، وتألفت على الأثر وزارة وطنية برئاسة المرحوم شهريز، وحتى تلك الأيام لم يكن لي صلة بالعمل السياسي، ولكني فوجئت باسمي في آخر قائمة الوزراء في الحكومة الجديدة، وكنت أثناءئذ في الثلاثين من سني، فكانت مفاجأة كبيرة.. وتفكرت ملياً في الأمر، ثم قررت القبول، وقلت في نفسي: إن رفضي هذا الأمر سيثير تساؤلات كثيرة في أوساط الشعب، وبخاصة في مثل هذه الظروف البالغة الخطر..

ويقول الدكتور الرشيدى: فى أيام الجهاد، عقيب إعلان الاستقلال، أرسلتني حكومة اندونيسية سكرتيراً للوفد الدبلوماسي إلى البلاد العربية

للحصول على اعترافها، وكان رئيس ذلك الوفد المرحوم الحاج أكوس سالم الزعيم المسلم المثقف[1] فزرنا مصر وسورية ولبنان، وكلها أعلنت اعترفها الدولي بأندونيسية الجديدة، وفي هذه الأثناء تحولت الجيوش الهولندية لاحتلال أندونيسية من جديد، وأعادت وجودها إلى عدد من الحواضر، فاضطر الحاج أكوس أن يشخص مع رئيس الوزراء شهريز إلى هيئة الأمم للدفاع عن البلاد، وأسند رئاسة الوفد إلي، فواصلت عمله ومضينا إلى المملكة العربية السعودية، وفي الرياض تشرفت بمقابلة المغفور له جلالة الملك عبد العزيز الذي مالبث أن أسلمني خطاب الاعتراف بالجمهورية الأندونيسية..

ويدع الدكتور فى هذا العرض السريع بعض الفراغ الذى لا نعرف كيف نتداركه إذ ترك هذه الأحداث التي يشير إليها دون تعيين لتاريخها، ولكن القارىء يجد في ترجمة الدكتور ناصر السابق مايساعد على سد هذا الفراغ إلى حد، ثم إن في قرب الأحداث من أذهان القراء المهتمين بشئون البلاد الإسلامية مايغني عن الكثير من التفصيل.

والظاهر أن الدكتور الرشيدى قد ساقته وفادته الدبلوسية إلى العمل فى وزارة الخارجية الأندونيسية، فهو يقول:

عندما كنت أعمل فى الخارجية .. دون أن يعين نوع هذا العمل .. عَرَضَتْ علي إحدى المؤسسات العلمية الدولية بعثة إلى فرنسة للحصول على الدكتوراه فقبلت العرض، وقد شجعني على ذلك ماسبق أن أعددته من مواد هذه الدراسة، وهكذا وفقني الله لتحقيق هذه الأمنية العلمية فحصلت على شهادة الدكتوراه من جامعة باريس، والآن وبعد أربع وعشرين سنة على تلك المرحلة أشعر بأني قد أفدت خيراً كثيراً من تلك الدراسة، ومن مطالعتي الوفيرة للكتب الفرنسية التي لم يسبق لي قراءتها، لاني عن طريق هذه القراءات استطعت أن أعرض الإسلام على الأندونيسيين الذين تشبعوا بالثقافة الهولندية العلمانية وخلت ثقافتهم من أي أثر للتصور الإسلامي، وهؤلاء غير قليلين، وفي أيدى كثرتهم تتركز

(١) وقد سبق الدكتور محمد ناصر إلى ذكر هذا الرجل بين الذين تأثر بهم.

مقاليد السلطة، فبهم ينبغي الاهتمام، أما جماهير الشعب الأندونيسى، فهم ملتزمون بالإسلام دما ولحما، ولكنهم لايملكون في ميدان الحكم حلا ولا عقدا.

م ــ يسر القارىء لترجمتكم أن يقف على آثاركم في نطاق الإنتاج الفكري.

ر ــ لي من المؤلفات مايقارب العشرين، بين رسالة إلى ترجمة إلى إنتاج شخصي، وكلها ترمي إلى هدف واحد هو تقريب الإسلام إلى أذهان الزعماء الوطنيين وطلبة الجامعات، وبعبارة موجزة إلى المسلمين الذين انطبعوا بالتفكير الغربي العلماني..

وكنا نتوقع بعض الإيضاحات الكاشفة عن مضامين هذه المؤلفات، ولكن لم نجد في أجوبة المترجم مايُروي غلة، بل إنه ضن حتى بعنوانات بعضها.

م ــ وطلبنا من الدكتور الرشيدى أن يتفضل بمزيد من التفاصيل عن الأعمال التي تولاها.

ر ــ ويجيب فضيلته: أثر عودتي من القاهرة توليت التدريس في بعض الثانويات، وفي عهد الاحتلال الياباني كنت موظفاً صغيراً في وزارة المعارف، وبعد إعلان الاستقلال كنت أول وزير للشئون الدينية في حكومة الجمهورية الأندونيسية، ثم حين اعترف العالم بالدولة الأندونيسية بُعثت سفيراً إلى مصر والمملكة العربية السعودية في تمثيل واحد خلال العام ــ ٥٠/ــ ٩٥١ ــ، ومن ثم نقلت سفيراً إلى طهران، ثم عدت إلى وزارة الخارجية حيث قضيت ثلاث سنوات بعثت بعدها سفيراً إلى باكستان لمدة سنتين، ثم استقلت من السفارة بسبب الثورة التي انفجرت بوجه سوكارنو، واتخذت سبيلي إلى كندا لأعمل أستاذاً للدراسات الإسلامية في جامعة «ماك جيل» في مونتريال، ثم لم أعد للبلاد إلا عام ١٩٦٣ ومنذ العام ٩٦٥ حتى الآن لاأزال أعمل أستاذاً للشريعة الإسلامية في كلية الحقوق بجامعة أندونيسية، ومديراً لمكتب التعليم الديني فيها، وقد أُحِلت إلى المعاش منذ شهرين، وفي نيتي أن أتفرغ لترجمة كتب هامة عن الإسلام، سواء كانت عربية أو إنجليزية أو فرنسية..

وهنا تركنا الدكتور حفظه الله فى ضبابة محيرة ، فنحن لا نعلم نوع العمل الذى تولاه في وزارة الخارجية لمدة ثلاث سنوات عقب عودته من طهران ، ولا نعلم كذلك اسم الجامعة التى عمل بها في كندا ولا مقرها ولا الزمن الذى قضاه فيها[1].. وليته سمَّى بعض الكتب التي يريد ترجمتها بعد إحالته على المعاش..

م ـ وسألنا فضيلته رأيه في المعركة بين الإسلام والجاهلية الحديثة..

ر ـ عاقبة هذه المعركة ستكون نصراً للإسلام إن شاء الله دونما ريب، فقد شعر الغربيون بأن مدنيتهم عرجاء عوراء، تمشي على قدم واحدة، وتنظر إلى جهة واحدة، على حين أن الإسلام نظام متكامل يتولى الإنسان والحياة كلا لايتجزأ..

ويستأنف الدكتور مؤكداً : لكن تعاليم الإسلام يجب أن تفهم على ضوء آخر مابلغته التطورات العلمية والاقتصادية والسياسية والثقافية.. ذلك لأن أحداً لايدرك عظمة الإسلام وشموله إلا إذا احاط بالنقائض الكامنة في مدنية الغرب التى لايفتأ كثير من المسلمين مأخوذين بها مفتونين..

م ـ وفي موضوع الشباب المسلم والوسيلة المثلى لضبط اتجاهاته في طريق الإسلام الصحيح..

ر ـ يقول الدكتور الرشيدى : إن العناية بالشباب المسلم مسئولية كبيرة، وفى المملكة العربية السعودية نجد منظمة الشباب التي مركزها مدينة الرياض، تقوم بقسط هام من هذه العناية وللمخيمات الدولية التي تقيمها في مختلف الأماكن تأثير كبير في توحيد الجيل المسلم الجديد في المستقبل القريب إن شاء الله..

وأحب أن أُذكر القائمين بهذه المهمة ضرورة تقديم المعلومات الصحيحة عن الإسلام لهؤلاء الشباب، وأعنى بالمعلومات الصحيحة التركيز على بيان علاقة الكتاب والسنة بالحالة الروحية والمادية جميعاً، وبذلك يتم الترابط بين الإسلام والحياة والإسلام والعصر، لأن الإسلام ليس عقيدة

---

(١) أخذنا اسم هذه الجامعة أخيراً من كتاب « غارة تبشيرية » ص ٤١ وفيها أنه استمر فى عمله لمدة خمس سنوات .

فقط ولكنه تعاليم تُنَظِّم الحياة الايجابية لجميع أمم العام.

م ـــ وحين عرضنا لواقع الخلاف القائم بين العاملين للإسلام.. والمنهج الأفضل الذى يستقر رأيه عليه .

ر ـــ أجاب : أنا من الذين يؤمنون بأن الهدف الجامع الذى يجب على الجميع الالتفات حوله هو تجميع القوى لمواجهة العدو المشترك استعمارا أو أفكارا، مع تجاهل الخلافات الداخلية، إن أعداء الإسلام يودون أن نتقاتل فيما بيننا لنتركهم يفترسون الشعوب الإسلامية واحداً بعد الآخر. ولم يكن بدٌّ من استطلاع رأى فضيلته فى موضوع الثورة الإسلامية فى إيران، ولا سيما بعد الذى لمسناه في أوساط الشباب الأندونيسيي المثقف من تفاعل معها وتساؤل عن أخبارها، فأجاب: قضيت سنة واحدة سفيراً في طهران، وعرفت خلال ذلك طبيعة النفسية الشيعية، فخرجت بحصيلة فكرية تجعلني لاأكرههم ولكن أُشفق عليهم وأَحْذَرُهم.. إن بناء المذهب الشيعي قائم على خطأ، فالإسلام دين تفكير وتعقل ووعي، وهؤلاء يجعلون من الإسلام دين متابعة للإمام المعصوم، فليس هناك ديمقراطية ولا انفتاح فكري، وإنما هو نفوذ العالم الديني بصفة شخصية، ولذلك نرى الإيرانيين المثقفين يهجرون بلادهم لأن العلماء لايرجى منهم شيء، والحكم كان ممعناً في الظلم والطغيان.

وقبل الإفضاء بهذه الانطباعات قال الدكتور : هذا الجواب ليس للنشر .. ولقد توقفت مليا قبل أن أنقل هذه الفقرات وأنا أتساءل: إذا كان هذا الجواب لغير النشر فَلِم يُفضي به إليَّ ؟!. ثم لماذا نكتم حقيقة وثقنا بصحتها مجاملة لآخرين ؟!. أليس هذا هو الكتمان الذى حذّرنا الله منه في كتابه الحكيم ؟!، أو ليست هذه هى التَّقِيَّة التى ننعاها على إخوتنا الشيعيين ؟! لقد كنت أحد المبتهجين بقيام تلك الثورة لأنها انتصار للشعب المسحوق على ذلك الطاغوت الذي كان يريد القضاء على آخر معالم الإسلام في إيران، ليقيم بديلا عنه تلك النحلة البهائية الضالة لمجرد أنها منبعثة من صميم الأرض الإيرانية..

وضاعف من ابتهاجى هاتيك التغيرات الرائعة التى حققتها الثورة : قطع

العلائق مع إسرائيل وإعلان المعاداة لحليفتها أميركة، ومصارحة ممثلي البابوية بنقمة الشعوب الإسلامية من مواقفها الظالمة بجانب اليهودية والمظالم الصليبية.. ثم استبعاد الفنون الهدامة عن الإذاعة، وإلغاء مصانع الخمور واعتبار العربية لغة الدولة الثانية، وإلزام المرأة بالحشمة والطابع الإسلامي و ..و ...

إلا إننا سرعان ما فوجئنا بأنواع الانحرافات السياسية والاجتماعية ، من عدوان على موظفين دبلوماسيين لهم حق الحماية والعودة إلى ديارهم بالتي هي أحسن، والتصريحات المخبولة التي راحت تطلق التهديدات على جيرانها المسلمين، وإيقاع التقتيل الذريع في صفوف المعارضين، بدلا من الحوار الحازم الحكيم، والإصرار على حرمان أهل السنة من كل حقوقهم الإنسانية، والانسياق مع الجماهير العمياء في تقديس القبور، ومحاولة زعزعة الأمن الذى نتمتع به في هذه المملكة.. ومالا نحصي من الالتواءات التي أوشكت أن تهدم ثقة العالم بصلاحية الحكم الإسلامي، الذى أصبح في مفهوم الحكام والسياسيين العالميين عبارة عن نوع من الفوضى التي تدمر نفسها وما حولها..

أما حديث الدكتور عن أثر التزمُّت الشيعى فى نفوس المثقفين الإيرانيين حتى يضطرهم إلى الهجرة.. فلم يعد أمراً مجهولاً، ولقد سمعنا من آحد الثقات الإيرانيين أن أخا له سِيق إلى خدمة العلم أيام الشاه، وكان سكنه مع عشرات من شباب الشيعة الجامعيين، قد أتاح له الاطلاع على أفكارهم، فإذا هم أجمعون من شيوعي وملحد لايعرفون شيئا عن الله، وليس في معلوماتهم عن الدين إلا مايُنَفّرِهم منه ومن أهله..

ومن هنا رأيت أنى غير ملزم بشرط الدكتور الرشيدى فى شأن جوابه الصريح الذى يجب أن يقرأه الناس على اختلاف أفكارهم واتجاهاتهم ..

م ـ وعن موضوع باكستان وإعلان حاكمها ضياء الحق عزمه على تطبيق الشريعة الإسلامية يجيب :

ر ـ أرجو لباكستان الشقيقة كل التوفيق، ولكني أرى التؤدةَ في هذه المرحلة وبخاصة مايتعلق منها بالحدود، والحدود كما نعلم لم تنفذ في عهد النبي

ﷺ إلا قليلا، وإنما أخشى إذا تكرر تنفيذها أن يحدث رد فعل لدى الرأي العام، فيتحول إلى الشفقة على المجرم، والكراهية للحكومة القائمة بهذا التنفيذ، فقضية الأحكام الشرعية وبالاخص الحدود تستدعي تفكيراً سليماً وسياسة قويمة ..

ولابد لنا هنا من وقفة أخرى مع الدكتور الرشيدى لنحاوره حول بعض النقاط الهامة في جوابه هذا.

١ ـ إن قلة وقائع التنفيذ للحدود الشرعية أيام الرسول ﷺ والراشدين لم تكن بسبب التساهل في إقامتها، ولكن بسبب قلة الوقائع الموجبة للحدود، والدكتور يذكر جيداً كلمة رسول الله لأسامة حين أراد الاستشفاع بالسارقة المخزومية: «أتشفع في حد من حدود الله!.. والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

وإنما قلَّت هذه الوقائع بالتربية النبوية التى جعلت للإيمان فاعليته الكبرى في ضبط تصرفات المسلمين ضمن نطاق الواجب حتى ليُسَلِم أحدهم نفسه للقتل رجما إذا قهره الشيطان على اقتراف مايستحق من أجله الرجم، كما حدث لماعز والغامدية رضي الله عنهما.

٢ ـ أما خشية الدكتور من عواقب التكرار لتنفيذ الحدود، فلا مكان لها لأن حداً واحداً تقطع به يد سارق في أى بلد كاف لردع كل ذى عوج عن الإقدام على السرقة الموجبة للحد، وهذا أمر مشهود للعالم كله في المملكة العربية السعودية التي لاتبلغ وقائع الحدود فيها عدد الأصابع.

٣ ـ أما الكارهون لإقامة الحدود فلن تجدهم أبداً بين أولي الوعي والدين من أمة الإسلام، بل وعلى الضد من ذلك ترى هؤلاء المؤمنين يستقبلون أخبارها بمشاعر السعادة، لأنها تؤكد لهم أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم مادام ثمة من يقيم حدود الله.

ومع ذلك فإن الإسلام كلٌ لايتجزأ، فالحاكم الذى يتصدى لإقامة حدود الله يعلم أنه مسئول عن توعية رعيته بحقائق الإسلام بكل وسائل الإعلام، فعملية الحدود ماضية في الحكم الإسلامي مع مسيرة التوجيه العام، في التعليم والصحف والإذاعة والمسجد والأسرة و ... و ... و .

وصدق الله العظيم في وصف هؤلاء المؤمنين الصالحين إذ يجعل علامة إيمانهم الخضوع المطلق المصحوب بالرضى المطلق لأحكام الله سبحانه، وذلك في قوله الكريم: ﴿**فلا وربك لايؤمنون حتى يُحَكِّمِوك في ماشَجَر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قضيتَ ويسلِّمِوا تسليما**﴾ (سورة النساء ٦٤).

والشعب الباكستاني على اختلاف مواقعه ومشاربه ليس أقل من أخيه الأندونيسي التزاما بروح الإسلام، ولئن وُجِدَ فيه من يتنكر لدين الله وحكمه فلن يُعَدّوا شيئا مذكوراً بإزاء السواد الأعظم من المؤمنين.. ولكن مع ذلك فلا مفر من إحاطتهم بالجو الإسلامي الذى يشعرهم بعظمة دينهم وجماله..

م ـ وعن رأيه في تكاثر المؤتمرات التي تعقد هنا وهناك وهنالك ومردودها الحق للإسلام الذى تعقد باسمه، يجيب الدكتور:

ر ـ فكرة المؤتمرات الإسلامية صحيحة، ولكن الهيئات التي تتولى تنفيذها وتمثيلها هي موضع التساؤل.. أهي جادة أم عابثة تتصرف بمال المسلمين على غير جدوى!.. لقد شاهدت مؤتمرات كثيرة يُدعى إليها كلُّ من هبَّ ودب، فكيف ننتظر لهذه المؤتمرات مردودا مفيدا!

وطبيعى أن كلامى هذا ليس عاماً بحيث ينطبق على كل فريق من أولئك الممثلين، وعلى كل واحد من هذه المؤتمرات، والمهم هو حسن الاختيار وسلامة العناصر المشاركة، وكلما حسنت النوعية حسنت النتيجة.

وبشأن المؤتمرين الأخيرين حول الغزو الشيوعي لأفغانستان يقول الدكتور: لم أتتبع أنباءهما، غير أني أتوقع خيرهما، لأنهما تعبيران عالميان عن اهتمام المسلمين بعضهم ببعض، وإشعار لأبطال الجهاد الإسلامي في الأفغان أنهم ليسوا وحدهم، وأن قلوب مليار مسلم تدعو لهم وتتلهف لانتصاراتهم في مواجهة أشرس قوة إلحادية في العالم..

إن روسية كغيرها من دول البغى، لا تعير اهتماماً لغير القوة، ولكن تظاهرات التأييد سواء عن طريق المؤتمرات الإسلامية أو الإعلام الإسلامي، أو العون الإسلامي، سيكون لها أثرها الفعال في ردع الظالمين إن شاء الله.. وسألنا الصديق الفاضل عن تقييمه للحركة الإسلامية في أندونيسية ومدى رصيدها من الوعي، فأجاب: في اندونيسية شعور

إسلامي عميق وقوى، وهو ثمرة جهاد الزعماء والعلماء المسلمين.. ولكني على يقين بأن حاجتنا إلى رصيد أكبر من الفهم الصحيح للإسلام لايزال كبيراً.. وأكرر هنا ماسبق توكيده، وهو ربط التعاليم الإسلامية بحاجة العصر.. إن المرحلة التي تمر بها البشرية تتسم بخصائص جاهلية عريقة، فلا مندوحة إذن عن تحليل واقع هذه الجاهلية التي تمثلها حضارة الغرب، تحليلاً يبرز مساوئها وظلامها وخطرها على الحياة، وحاجتها الماسة إلى أنوار الإسلام..

م ــ إن الإسلام يعاني الكثير من ضغط الأجهزة الحاكمة في إندونيسية، فكيف تتصورون مصير هذه المعركة؟

ر ــ أنا متفائل، وأبني تفاؤلي على التطور الكبير الذي حدث بعد الاستقلال، فعلى الرغم من مطاردة السلطات الأندونيسية للحركات الإسلامية، التي لاترى سبيلا للمصالحة بينها وبين (البانجاسيلا) ومع كل المضايقات التي تواجه بها هذه السلطات كل ذى تفكير حر، وبخاصة إذا كان من ذوي الثقافة الإسلامية، فإن الإسلام مستمر النماء والانتشار ولله الحمد..

ب أجل إن ما يعانيه الإسلام من مكايد الشيوعيين والمبشرين والزعماء العلمانيين، وتعسف الحكومة التي تضع المبادىء الخمسة ــ البانجاسيلا ــ فوق تعاليم الإسلام، إن مايعانيه الإسلام من هؤلاء جميعاً لَيُلقي الفكر المسلم في بحران من الحيرة، وأمام أكداس من المآزق لايبصر من خلالها سبيلا، ولكن.. إذا رجعنا إلى الماضي وتذكرنا أن الإسلام إنما أخذ سبيله إلى أندونيسية عن طريق التجار والمتصوفة، ومازال ينتشر حتى استوعب ٩٠٪ من سكانها، نقطع بأن ذلك أمر فوق المعقول، وأن وراء الإسلام القوة التي لاتغالب ولا تقهر.. وحينئذ سنزداد يقينا بأن المستقبل للإسلام على الرغم من كل المثبطات بمشيئة الله وقوته..

ويستأنف الدكتور قائلاً: لقد قرأت كتاباً لمؤلف سويسرى وأقوم الآن بترجمته، يقول مؤلفه (إن للإسلام حيوية هي سر الوحي الإلٓهى الذي أنزل على محمد ﷺ قرآناً عربياً غير ذي عوج) ونحن نقول: إن الإسلام بهذا السر سيصل إلى كل قلب مفتوح للحق، وسيسجل الانتصار تلو

الانتصار على كل من يحاول الوقوف بوجه مَدِّهِ المضيء المنقذ إن شاء الله .

وفى هذه الإجابة الصريحة مكان لملاحظتين :

إن مؤرخى الدعوة الإسلامية كثيراً ما يعرضون للتصوف والمتصوفة على اعتبار أنهم كانوا ذوي أثر فعال في انتشار الإسلام، سواء في آسية أو أفرقية، أو الجوانب الأخرى من أرض الإسلام، فإذا وقف القارىء العادي على كلامهم ذاك انصرف ذهنه إلى المشاهَد من أعمال شيوخ الطرق، الذين يكثر فيهم المرتزقة والمُخَرِّفَة، فتساءل : أي إسلام هذا الذى يدعو إليه هؤلاء ؟!

ومن حق القارىء أن يذهب إلى هذه الظنون ، لأن النماذج التى يعاصرها أو التي قرأ عنها من مدَّعي التصوف ليسوا على شيء من الوعي السليم لحقائق الإسلام، إن لم نقطع بأنهم المشوهون لحقائق الإسلام..

لقد بدأ التصوف زهداً واعتزالاً للفساد ، وتذكيراً بحقوق الله ، وعظاتٍ تبعث الحياة في موات القلوب، ثم مالبث أن تحول على أيدى الزنادقة والمتفلسفة أنواعاً من أساطير الوثنية الهندية، القائمة على التصورات الباطنية لذات الحق سبحانه، حتى استقرت على القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود.. وما إلى ذلك مما لاحَظَّ لأصحابه في الإسلام، وفرَّخ هؤلاء وعششوا في أوساط الأغبياء من العامة وأشباههم، ممن جعلوا خير عبادتهم.. فيما يزعمون، رقصاً وشطحاً وتلاحين تستهوي الشياطين وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!..

والحق أن التصوف الذى يشير إليه الدكتور الرشيدى ، والذى يذكره مؤرخو الدعوة بين المؤثرات الهامة فى اجتلاب الناس إلى الإسلام ، إنما هو من النوع الأول الممثل بالزهد فى الشهوات والإقبال على الطاعات ، وتصفية النفوس من المفسدات . وهى صفات كانت ولا تزال من أصح الوسائل لاجتذاب الأبصار ، واستنارة البصائر ، ومن حقها أن تستحوذ على ثقة الآخرين وتقديرهم فتتيح لأهلها فرص الاتصال والتأثير حتى يدخل الناس الإسلام على أيديهم أفراداً وجماعات .. وقد حدثنا الداعية الكبير الشيخ أبو الحسن الندوى فى كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) عن شيوخ من هؤلاء العباد الزهاد هُدِىَ ببعضهم المئات ، وبآخرين منهم الآلاف ومئات

الآلاف ، مما لا يكاد يصدق لولا عدالة المخبرين عنهم وصدق روايتهم ..

وعلى هذا فالتصوف الـذى يذكـره الدكتـور هو هذا التسامـى الـذى يجب توافـره أبدا فى مقومات دعاة الإسلام، وليس هو تصوف الجهلة الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وتجارة ..

أما الملاحظة الثانية فهى حول الكتاب السويسرى الذى يقوم الصديق بترجمته ، فقد ذكره غُفلا من العنوان والمضمون واسم المؤلف ، ولو أوضح هويته لكان خيراً ، ولكان ثمة أمل بترجمته إلى العربية أيضاً[١] .

م ــ في حياتك الكثير من العمل السياسي، وغير قليل من الجهد العلمي، فأى الجانبين تراه هو الغالب عليك؟ ·

ر ــ لست زعيماً سياسياً، بل أنا رجل شَغف بالعلوم العربية والإسلامية ومقارنتها بالأفكار الغربية، وقد تبين لي أخيراً أنني بسبب من هذا الشغف استطيع أن أقدم للإسلام والمسلمين في أندونيسية شيئاً كثيراً، فقد دخلت جامعة أندونيسية أستاذاً، على الرغم من كونها علمانية لايُقبَل للتدريس فيها إلا من اصطبغ بمنطق الغرب، وما كان لي أن أدخلها مُدَرِّساً بثقافتي العربية الإسلامية، وإنما حصل لي ذلك بفضل شهادتي من جامعة باريس. ولقد بلغت مرحلة التقاعد ففارقت الجامعة، ولكنني مواصل جهودي في نقل ماكتب في الغرب عن مساوىء المدنية الغربية، وعن فضائل الإسلام، وفي ذلك امتدادٌ لعملي السابق في الجامعة ولكن على مستوى أوسع وأبعد مدى.

---

(١) يعقب الدكتور الرشيدى على تساؤلنا بقوله :

اسم الكتاب هو L'humonisme de L'Islam « إنسانية الإسلام » ، ومؤلفه الدكتور morcel Boèsard السويسرى ، والأمين العام لجمعية : الإسلام والغرب التى يرأسها الدكتور معروف الدواليبى . والكتاب فى نحو ٣٥٠ صفحة ، يبحث عن العلاقات بين الدولة الإسلامية وغير المسلمين . وقد تَرجمتُ بعد ذلك الكتاب كتابا اخر بعنوان : دعوة الإسلام : ومؤلفه البروفسور روجيه جارودى الفرنسى وقد أسلم وحج . Les Promesses de L'Islam par Roger garoudi .

قلت : وليت هذه الجهود تمتد إلى أبعد من أندونيسية فتفيد منها الجامعات الإسلامية ومؤسسات الدعوة الإسلامية في ديار العرب، فتقوم بترجمة هذه الآثار إلى العربية، أو تكلف الدكتور بنقلها إلى العربية التي يُتقنها، وبذلك نحقق التعاون المنشود بين مفكري العالم الإسلامي لخدمة الإسلام والمسلمين أجمعين. وسألنا الصديق الفاضل أن يزودنا أخيراً بأسطر من آثاره العملية والأدبية مكتوبة بخط يده فأجاب: كل مؤلفاتي حتى الآن باللغة الأندونيسية، وقد حثني كثير من الأصدقاء لأن أكتب تاريخ أندونيسية بالعربية.. وقد بدأت أفكر في هذا الموضوع.

وبعد الفراغ من أجوبة الدكتور الرشيدى وقعت في مكتبتي على كتاب نفيس بعنوان (غارة تبشيرية جديدة على أندونيسية) وهو من تأليف (أبو هلال الأندونيسى) ولعل (أبو هلال) هذا ليس رجلا بعينه، بل مجموعة من الرجال ذوي الغيرة سجلوا مرئياتهم في صفحات ذلك الكتاب، وعاقهم الضغط السياسي في بلادهم عن الظهور بأسمائهم، فرمزوا إليها بالهلال، الذى يريدون به مايسلطونه من الأضواء على تلك الحقائق.

في هذا الكتاب ــ الواقع في قرابة المئتين من الصفحات ــ نقرأ تسجيلاً هاماً عن (مؤتمر للأديان) دعت إليه الحكومة الأندونيسية وكان انعقاده في الثلاثين من نوفمبر ١٩٦٧، وقد حضره ممثلون عن كل الأديان العاملة بأندونيسية..

وكان بين المتكلمين عن أهل الإسلام الدكتوران محمد ناصر ومحمد الرشيدى.. وقد رأيت من تمام التعريف بالرشيدي أن أثبت في ذيل ترجمته مقاطع من محاضرته الصريحة الرائعة التى ألقاها فى ذلك المؤتمر، وفيها تصور دقيق لواقع الغارة التى يشنها دعاة النصرانية على الوجود الإسلامى فى أندونيسية وفيها كذلك رد فامع على تصريح الدكتور ثامبونان وزير الشئون الاجتماعية فى حكومة سوهارتو آنذاك، وهو ممثل البروتستانت فى ذلك المؤتمر، إذ كان من كلامه فى تسويغ أعمال المبشرين قوله: إن الغاية التى يعمل لها البروتستانت هى التجديد (المودرنيزاسيون) ويعنى بالتجديد طبعاً تغيير واقع المسلمين بنقلهم من جنة التوحيد إلى متاهة التثليث، ومن التزام فضائل الوحى الإلّهى، إلى فوضى الأخلاق

التى انتهت بمجلس الكنيسة الأعلى فى بريطانية إلى إباحة اللواط ، والتى أسفرت أخيراً عن إصدار البرلمان السويدى قانوناً بإباحة حرية الجنس بين أعلى القرابات أى إباحة زواج السويدى من أخته ومن والاها ، على النهج نفسه الـــذى سلكتـــه الدانيمارك قبل أختها السويد !..

ويزيد ثامبونان هذا قوله: بأن المسيحيين رغما عن ارتباطهم بالدولة الأندونيسية هم أكثر ارتباطاً بالتعليمات الانجيلية التي تأمرهم بالتبشير بالدين المسيحي في كافة أنحاء المعمورة.

وهو تصريح حاسم بأن هؤلاء المضللين لن يكفوا عن محاولاتهم إفساد عقيدة المسلمين حتى يحققوا أمنيتهم الشيطانية بتحويل مسلمي أندونيسية كلهم إلى حظيرتهم التي يصفها بالمسيحية ولو أنصف نفسه ونِحْلتَه لسمَّاها (البولُسية)[1] .

وإلى القارىء الآن بعض المقاطع المقتطفة من محاضرة الدكتور الرشيدى:

١ ــ قبل نشوب الحرب العالمية الثانية، عندما كانت دول الغرب لاتزال تستعمر دول وشعوب آسية وأفريقية، كان الغربيون مفتونين بما أحرزوه من تقدم ونجاح في مختلف ميادين الحياة، افتتاناً جعلهم يستخفون بكل مالا يمت إلى الغرب بصلة، وذلك مايعرف بعنجهية التفوق الحضارى والثقافي، فنظام الحكم ــ مثلاً ــ إذا لم يكن متمشياً مع النمط الغربي يعد نظاماً متأخراً وغير عصري، والدين الذي لايعتنقه الغربيون لايعتبر دين حق، وإن الشعوب التي تريد التقدم والرقي والتحضر فعليها أن تقلد الغرب في كل شيء.

وقد أثَّرت هذه المفاهيم فينا نحن الأندونيسين ، وإننا أبناء هذا الجيل المخضرمين، لانزال نذكر النظرة السائدة قديماً تجاه الأندونيسي الذي لايجيد التحدث باللغة الهولندية (لغة السادة الحكام آنذاك) إذ لايعتبر إنساناً جديراً بالاحترام، بل إن هناك من يعتقد أن الدين الذى يعتنقه الهولنديون، أسمى من الدين الذي يعتنقه أفراد شعبنا.. طبعاً، غير أن مفكرى الغرب اليوم بدأوا يتجهون اتجاهاً مغايرا لما ذكرنا، منهم الأستاذ

---

١ ــ نسبة إلى بولس صاحب التأثير الأكبر فى ديانتهم.

(ويلفر كنتويل سميث) الأستاذ الجامعي وأحد القسس المعروفين حيث يقول في كتابه (عقائد الآخرين) مامعناه:

إن على الغربيين أن يتخلوا عن أسلوب فكرة تقسيم البشر إلى فريقين، فريق الناجين وهم المسيحيون حسب مايعتقدون، وفريق الهالكين وهم فريق غير المسيحيين، كما يجب أيضاً أن يتخلوا عن اعتقادهم الذي يرى أن أسلوب الحياة الغربية هو الأسلوب الصائب إطلاقاً.

إن مثل هذا الاعتقاد الذى يرى أن كل شيء يجب أن يسير على النمط الغربي فيه الكثير من الخطل وسيلاقي الكثير من المقاومة).

٢ـ ويؤكد الأستاذ سميث في موضع آخر من كتابه إنه: إذا أردنا أن نجنب العالم شرور الشيوعية والإلحاد فالسبيل إلى ذلك هو الحفاظ على المسيحية في الغرب، وكذلك بالحفاظ على الأديان الأخرى مثل الإسلام والهندوكية وغيرها.

أيها الإخوة ..

لقد اقتبست الكثير من كلام الأستاذ سميث، لأن ما اقتبسته فى معرض كلامه ينطبق تماماً مع كثير من الأحداث التي نعايشها اليوم في أندونيسية، فنظرية تقسيم الناس إلى فريق الناجين وهم النصارى، وفريق الهالكين وهم غير النصارى، مستحوذة ومسيطرة على تفكير المسيحيين الأندونيسيين، وهذا هو الأمر الذى جعلهم ـ على مايبدو ـ مندفعين في التحمس لتنصير الشعب الأندونيسي بأسره!.

٣ـ لقد بلغ من تحمسهم أنهم مارسوا التبشير معي أنا شخصياً، وقد كنت، كما نوه بذلك السيد رئيس الجلسة، أول وزير للشئون الدينية في أندونيسية المستقلة، فقد جاءني اثنان من المبشرين يحثاني على نبذ الإسلام واعتناق المسيحية، كانا يقولان لي ونسخة من الإنجيل في أيديهما: (إن هذا هو الكتاب الوحيد الذى يضم بين دفتيه الحق كل الحق، والذي استطاع أن يثبت أمام التمحيص العلمي). وحين سألتهما عن تاريخ الأناجيل وعن مصادرها ثبت لي أن معلوماتهما بهذا الصدد ضحلة جداً، واتضح أنهما لم يطلعا بعد على كتاب الأستاذ سخوتفيلد (تاريخ

الأناجيل) وهو االكتاب الذي يجب أن يطلع عليه كل إنسان مثقف، وبالحري إنهما لم يطلعا أيضاً على المؤلفات المسيحية التي كتبها مسيحيون ذوو طابع راديكالي، مثل كتاب الأستاذ باول دافيس المسمَّى (مغزى مطامير البحر الميت)، وكتاب الأستاذ تشارلس فرانسيس بوتر المسمَّى (الكشف عن السنين المفقودة من حياة يسوع).

والكتابان الأخيران ــ كما هو معروف بين أوساط المثقفين ــ قد أماطا اللثام عن الكثير من تاريخ المسيحية، بمناسبة العثور على مستندات ووثائق قيمة في أرض فلسطين يعود تاريخها إلى القرون المسيحية الأولى.

٤ ــ كنت منذ أيام في بلدتي بـ (جاوا الوسطى) في زيارة خاصة، فاتصل بي أحد السكان هناك يعرض علي القضية الآتية قائلاً:

(إن لي نسيباً اعتقلته الحكومة بسبب اشتراكه في الانقلاب الشيوعي الفاشل، وبقيت أسرته تعاني العوز بعد اعتقاله، وقد اتصل به في المعتقل أحد المبشرين وسأله: هل تحب أن تتلقى أسرتك معونة تنقذها من غائلة الضياع والفاقة؟ فأجابه نسيبي على البداهة: طبعاً: ولكن من هو الإنسان النبيل الذى سيقدم لأسرتي تلك المساعدة الكريمة في هذه الظروف بالذات؟ فقال له المبشر إن المعونات ستصل إلى أسرتك بانتظام، ولكن عليك أولاً أن توقع على هذا الصك معترفاً بالتنصُّر.

ولم يفكر نسيبى طويلاً ووقع على الصك وأصبحت أسرته تتلقى المعونة بانتظام، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط، فلي أخت أخرى، حين رأت شقيقتنا قد تحسن حالها بفضل المعونة التي تتلقاها بعد تنصر زوجها، قالت لي هذه الأخت: إن أختنا قد نالت معونة منتظمة، وأنا في أشد الحاجة إلى مثلها، فهل بإمكانك تأمين مثل تلك المعونات لي أم أقتدي بأختي؟.. وقصدها واضح، إنها تريد مني أن أؤمن لها حاجاتها المعيشية، كما أمنت لأختها، وإلا فإنها ستقتفي آثار أختها، حذو النعل بالنعل.. ومن أين لي ذلك وأنا شخصياً أعيش عيشة الكفاف، ولكني لاأريد أن أرى أختي الأخرى ضحية من ضحايا التبشير).

٥ ــ قبل ستين عاماً من هذا اليوم، حاول المبشرون الهولنديون أيام سيطرة

هولندة على أندونيسية أن ينصروا الأندونيسيين المسلمين، ولكن الحكومة الهولندية رفضت ذلك بشدة، فثارت ثائرة المبشرين وهاجموا الحكومة الهولندية في البرلمان الهولندي، واتهموها بأنها تحمي الإسلام في أندونيسية، والحكومة لم تكن تحمي الإسلام، ولكنها تحمي مصالحها في أندونيسية، من أى استفزاز تقترفه حماقة التبشير مع المسلمين في أندونيسية.

وقد سألتهم الحكومة الهولندية:

ـــ لماذا تريدون تنصير الأندونيسيين مع أنهم مسلمون؟

فأجابوا: اننا لانريد تنصير المسلمين ولكننا نريد تنصير أولئك الذين يدّعون أنهم مسلمون، ولكنهم لايعرفون عن الإسلام الكثير، ولا يعرفون اللغة العربية ولا يؤدون فرائض دينهم على الوجه المنشود.. إننا نريد أن نقدم المدنية والتجديد والعلم للأندونيسيين المتخلفين في كثير من ميادين الحياة.

فردت الحكومة قائلة:

٦ ـــ إنه لكى يتقدم الإنسان ويتحضر فليس من الضروري أن يتنصر أولا، إن الإسلام في أندونيسية لايتنافى أو يتعارض مع الحضارة والتقدم (وهذا ماقاله المستشرق الهولندى سينوك هورخرونيه) والحقيقة أن الإسلام جملة وتفصيلا لم يكن غير متناف مع الحضارة والتقدم فحسب، بل إن تعاليمه ومبادئه شاملة أيضاً لتعاليم وأسس التقدم والحضارة).

وبحث المبشرون عن مبررات أخرى يتذرعون بها، فقالوا:

إننا سنأتى إلى أندونيسية مدفوعين بدافع الشفقة والإنسانية، إننا نريد أن نخفف عن البائسين في أندونيسية وطأة البؤس والشقاء والجهل والمرض.

فردت الحكومة قائلة:

هذا حسن جداً، إذا كانت الإنسانية هي دافعكم فاعملوا.. انشئوا المدارس والمستشفيات، وأسدوا البر إلى البؤساء، ولكن حذار من اشتراط التنصر على المحتاجين إلى تلك المعونات، وحذار من التغرير بالطلبة والفقراء والمرضى بالتنصر، في هولندة مثل معروف يقول:

(تنصروا بسبب الأرز) أى إنهم تنصروا لابدافع اليقين والاقتناع ولكن بسبب الحاجة إلى الأرز.

وأنا لاأشك بأن القارىء المثقف واجد في هذه المقتطفات مايشد به إلى مطالعة المحاضرة كاملة في موضعها من كتاب (غارة جديدة..) وإنه كذلك ملاحظ قوة الفكر الذى يحمله رجال الدعوة الإسلامية في أندونيسية، تلك القوة التي تتجلى في دقة البحث، ثم في الطابع العلمي القائم على المنطق البرهاني المفحم، ثم في الأسلوب المحكم الذى من شأنه أن يستحوذ على إعجاب السامعين، ولو كانوا على خلاف معه في الرأي..

وهنَّ السمات الملحوظة في كل من المفكرين الكبيرين ناصر والرشيدى على السواء..

والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء..

* * *

الأستاذ محمد قطب

ماأحسب مسلماً يهمه أمر الإسلام والمسلمين فى أى مكان من العالم يسعه أن يجهل أخبار آل قطب فى هذه المرحلة الرهيبة من تاريخ الإسلام.

أول من عرفت من هذه الأسرة شهيد الإسلام سيد، وكان ذلك عن طريق مقالاته الثورية فى مجلة الفكر الجديد، ثم صدر كتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام) فكان فتحاً جديداً فى موضوعه اجتذب كل المعنيين بالإصلاح الاجتماعي من هواة الثقافة الإسلامية، ثم تلاه (مشاهد القيامة) و(التصوير الفني فى القرآن) وغيرهما من المؤلفات، التي نشرت ذكره، ورسخت مكانته حتى إذا طلع على الناس بكتابه العظيم (فى ظلال القرآن) ثم (معالم في الطريق) كان قد احتل، مع كبار مفكرى الإسلام المعاصرين، مركز القيادة الفكرية فى أذهان المسلمين وقلوبهم.

وكان ظهور الشهيد سيد قطب بهذه القوة المتفوقة قد مهد السبيل لظهور أخيه الأستاذ محمد قطب، الذي كان بروزه مفاجئا للوسط الفكري الإسلامي، أو على الأقل بالنسبة إلينا في الشام، إذ لم نكن قد طالعنا له أي إنتاج يسترعي الانتباه قبل كتابه العملاق (الإنسان بين المادية والإسلام).

ومن هنا كان تطلع الوسط الفكري الإسلامي إلى أخبار هذين الأخوين وإلى إنتاجهما الأثير، فلما أنشب الطغيان مخالبه فى آل قطب وإخوانهم، تداعى لهم ضمير الأمة كلها بالألم والتعاطف، وانطلقت الأقلام المؤمنة تدق قلوب الطغاة بمختلف الأساليب المثيرة للإنسانية، والمحذرة من نقمة الله.. ولكن هؤلاء كانوا قد صمموا على أن ينزلوا بالإسلام الضربة التي ترضى أعداءه من الشرق والغرب، فلم يعيروا كل هذه المناشدات والتحذيرات أي إهتمام، وساقوا الموكب الثاني من خيار المؤمنين إلى الموت، وبينهم سيد الذي احتفظ

وإخوانه بعزة الإسلام، فلم يهنوا ولم يستكينوا ولم يسترحموا سوى الله، حتى حقق ربهم لهم ماتمنوه من نعمة الشهادة، والانتقال إلى دارة الكرامة التي عرضها السموات والأرض.

وانقطعت أخبار الثلة المعذبة من إخوان الشهداء، حتى كدنا نيأس من بقائهم على قيد الحياة وكان محمد قطب أحد الذين شاع نبأ مصرعهم تحت التعذيب، فلم نملك له ولإ خوانه سوى العبرات والدعوات الحارة نرفعها إلى الله، مستمطرين لهم الرحمة والمغفرة، ومستنزلين من عنده جميل الصبر والعزاء لمن بقي من أهليهم وأحبابهم.

ولكن.. وما كان أسعدها مفاجأة يوم أعلنت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عن أول محاضرة يلقيها الأستاذ محمد قطب فى دار الحديث التابعة لها!

ولأول مرة نلتقي هذا الوافد العزيز وجها لوجه، وكأنما أعيد إلينا من عالم البرزخ ليحدثنا عن إخوانه السابقين إلى جنات النعيم.. ولم أتمالك أن عقبت على محاضرته النفيسة يومئذ، فرحبت بالشهيد الحي، وأتبعت ذلك بقصيدتي (عِبر وَعَبَرات) التي سبق أن صغتها فى الشام أيام المحنة فى ظل الطغيان الناصري، فبكيت الضحايا، وصورت فظائع المجرمين والمنافقين من أعوانهم، وأبرزت تصميم المظلومين من أبطال الدعوة على الصبر والمصابرة والمرابطة، حتى يأتى الله بأمره على القوم الظالمين، تحقيقاً لوعده الذى لا يتصور منه الخلف.

ومنذ ذلك اليوم تتابع لقائي هذا المفكر الإسلامي الكبير فى هذه المملكة، التي أصبحت وطنه الثاني، وبات عمله رئيسياً فى جامعة (أم القرى) على مقربة من البيت العتيق، وتلك منحة أكرمه بها الله جزاء صبره على البلاء الذى تحمله فى سبيله، وهي فى الوقت نفسه فرصة فسحت له مجال العمل لنشر أفكاره النيرة مدرساً ومحاضراً ومؤلفاً ومحدثاً، لاعلى مستوى المملكة وحسب، بل ومبعوثاً إلى العديد من الجامعات والمناسبات.

ولكم كنت أود لو أفردت للشهيد سيد ترجمة صالحة ولكن حال دون ذلك حرماني لقاءه، وقد ألزمت نفسى ألا أترجم إلا لمن عرفت فلم أشذ عن هذه الخطة فى كلا كتابيَّ « علماء ومفكرون عرفتهم » إلا قليلاً مما أشرت إلى

دوآعيه فى مكانها .. وإن كنت كتبت عن الشهيد كثيراً فى تضاعيف كتبى الأخرى .. ولعلى أكفر عن قصورى فى حق آل قطب بكتابتى هذه عن مفكرها الثانى الذى أراه حقيقاً بلقب « الشهيد الحى » .

البيئة الأولى:

أما مترجَمنا الذي لايجهله مثقف من المسلمين فهو محمد قطب إبراهيم، ولد فى ٢٦ / ٤ / ١٩١٩ فى بلدة موشا ــ من محافظة أسيوط بمصر وكان والده قطب إبراهيم من المزارعين فى تلك الناحية، لم يتجاوز في دراسته المرحلة الابتدائية، ولكنه لم يقف عند حدود التحصيل المدرسي إذ كان محباً للمطالعة مقبلاً عليها، فهو يُعتبر من مثقفي قريته المهتمين بالأمور العامة، وبذلك كان موضع الاحترام والتقدير من أهلها إذ يعدونه من أصحاب الرأي فيهم، بالإضافة إلى مكانة أسرته بينهم. أما والدته فهى السيدة فاطمة عثمان تنتمي إلى أسرة عربية محبة للعلم، وقد تلقى إخوتها دراستهم في الأزهر، وبرز منهم أحمد حسين الموشي، الذي امتاز بمواهبه الأدبية والقلمية، إذ كان شاعراً أديباً، وقد اشتغل بالصحافة والسياسة، فأحرز شهرة فى كلا الميدانين.

ومن هنا كان تأثر السيدة فاطمة فنشأت محبة للعلم والثقافة، وقررت أن تبعث بولديها سيد ومحمد إلى القاهرة ليتلقيا تعليمهما هناك.

ففي القاهرة بدأ الفتى محمد دراسته من أولها، فأتم المرحلتين الابتدائية والثانوية، ثم التحق بجامعة القاهرة حيث درس اللغة الإنجليزية وآدابها، وكان تخرجه فيها عام ١٩٤٠، ومن ثم تابع في معهد التربية العالي للمعلمين فحصل على دبلومها فى التربية وعلم النفس.

في رعاية سيد:

ويحدثنا الأستاذ عن أعمق الرجال تأثيراً في توجيهه وتفكيره، فيؤكد أن أعظم الناس تأثيراً في حياته كلها هو أخوه سيد، الذي كان يتقدمه بأكثر من اثني عشر عاماً فى الميلاد، فهو الذي أشرف على تعليمه وتوجيهه وتثقيفه،

وكان بالنسبة إليه بمثابة الوالد والأخ والصديق.

ويقول الأستاذ لقد عايشت أفكار سيد ــ رحمه الله ــ بكل اتجاهاته منذ تفتح ذهني للوعي، ولما بلغت المرحلة الثانوية جعل يشركني فى مجالات تفكيره، ويتيح لى فرصة المناقشة لمختلف الموضوعات، ولذلك امتزجت أفكارنا وأرواحنا امتزاجاً كبيراً، بالإضافة إلى علاقة الأخوة والنشأة في الأسرة الواحدة، وما يهيئه ذلك من تقارب وتجاوب. ويقول الأستاذ: لقد كانت صلة سيد بي من حيث التربية يتمثل فيها العطف والحسم في آن.. فلا هو اللين المفسد، ولا الشدة المنفرة، كما أنه كان يشجعني على القراءة فى مختلف المجالات، وكان هو نفسه نَهماً إلى القراءة، فساعدني هذا التوجيه على حب المطالعة منذ عهد الطفولة..

وخاله الأريب:

وعن تأثير خاله يحدثنا الأستاذ قائلاً: كان لوجودنا مع خالي، ذي النشاط السياسي والأدبي والصحافي، أثره الملموس في توجيهنا ــ أخي وأنا ــ نحو الأدب والشعر وتغذية ميلنا الى القراءة والاطلاع، وإذ كان خالي على صلة وثيقة بالعقاد فقد اجتذبنا إلي التأثر به فكرياً وأدبياً إلا أن تأثيره في أخي كان أكبر لطول مصاحبته ومعايشته، ولاشتراكهما في النشاط الأدبي والنقد الأدبي بخاصة.

أما أثره بالنسبة إلي فقد بدأ منذ بدأت الاتصال بكتبه وكتب المازني وطه حسين، وأنا فى التاسعة من سني، إذ كنت أجدها بجانبي في البيت، فأحاول أن أفهم منها مايتيحه لي وعيي وتجربتي، ويمكنني القول بأن أثر العقاد بي فكرياً إنما يتمثل فى الصبر على معالجة الأفكار بشيء من العمق وعدم تناولها من سطوحها، وأسلوبياً يتمثل في التركيز على الدقة في التعبير.. وطبيعي أن شيئاً من ذلك لم يظهر إلا بعد أن بدأت أمارس الكتابة بالفعل، وفيما عدا هؤلاء الثلاثة لاأحسب أحداً ترك في نفسي أو فكري طابعاً ملحوظاً، اللهم إلا بعض اللمسات الهامشية التي لاتعد في المؤثرات الهامة.

مأساة آل قطب:

والكلام عن آل قطب أو أحدهم سيظل أبتر خداجاً مالم يتصدَّ للأحداث التي جعلت من محنتهم صورة أخرى لمأساة آل ياسر مع أبي جهل.. وعلى الرغم من شهرة هذه المحنة، وكثرة رواتها وتواتر أنبائها، وتوافر الأقلام التي تناقلتها، لن يجد القارىء في أي منها مايغنيه عن الاستماع إلى خبرها من فم الرجل الذي شارك في معاناتها ومعاينتها في نفسه وأهله.. وهاهو ذا الأستاذ محمد قطب يقص علينا كل مايتصل بالمحنة من مقدمات وخلفيات ووقائع.

يقول حفظه الله بدأت طلائع تلك الأحداث منذ عودة أخيه سيد من أمريكا، بعد قضائه فيها العامين ٤٩ و ١٩٥٠ فقد شرع قلمه في معركة صحفية سياسية هائلة كانت تعرضه باستمرار لخطر الاعتقال على ذمة التحقيق.. وكانت هذه تجربة جديدة في حياة الأسرة من ناحيتين، أولاهما مواجهة الباطل وجها لوجه فى ميدان الواقع، بعد أن اقتصر صراعهم إياه على ميدان الفكر وحده، والثانية هي تعرض حرية سيد للمصادرة بين الحين والآخر، وهو رب الأسرة التي يستغرقها الشعور بأنه ــ بعد الله ــ معتمدها الوحيد في سائر شئونها الحيوية.

وعلى الرغم من أن التجربة قد مَّرت دون أخطار حقيقية، فقد كانت أشبه بالإرهاص لما بعدها.

لقد انفجرت الثورة العسكرية بعد ذلك.. وقامت بينها وبين سيد علاقة مرضية أول الأمر، إلا أن مسيرتها سرعان ماشرعت في الاضطراب، وجعلت تتخذ وجهة أخرى، مما أنذر بوشك تصادم بينها وبين أصحاب الاتجاه الإسلامي.. وهكذا استمر الخطر يقترب ويتفاقم، حتى كانت مسرحية الإسكندرية الشهيرة في أوكتوبر ــ ت ١ ــ ١٩٥٤ ــ التي أعقبت اعتقال سيد والموكب الأول من شهداء الدعوة، ثم جاء دور أخيه محمد بعد أيام، وأتيح لهما أن يشهدا من فنون التعذيب مالا يخطر على بال إنسان.. وقد ألحق كل من الأخوين بمكان من السجن الحربي بعيد عن الآخر، وحيل بينهما حتى

لايعرف أحدهما عن أخيه شيئا.. ثم أفرج عن الأستاذ محمد بعد فترة غير طويلة، وبقي سيد في قبضه الجلادين طوال عشر سنوات.

ويقول الأستاذ: كانت فتنة السجن الحربي بالغة الأثر في نفسي، إذ كانت أول تجربة من نوعها، وكانت من العنف والضراوة بحيث يمكن لي القول إنها غيرت نفسي تغييراً كاملاً من بعض الجوانب على الأقل.. كنت أعيش من قبلها في آفاق الأدب والشعر والمشاعر المهومة، أعاني حيرة عميقة صورتها في الأبيات التالية من قصيدة جعلت عنوانها (ضلال):

ثم مرت بيَ دوراتُ الليالي
وانطوى السحر الذي غشى خيالي
فإذا بالحق فى الكون بدا لي
وإذا الناس جميعاً في ضلال!
ما الذى يرجون فى دنيا الزوال!!
أنا والوهم الذي يشغل بالي
في غدٍ نذهب في طيات هاتيك الرمال
ثم يمضى الكون في التيه المعمَّى لايبالي

وكانت تلك الحيرة تشكل أزمة حقيقية في نفسي استغرقت من حياتي عدة سنوات، غير أن الدقائق الأولى منذ دخولى ذلك السجن، والهول الذي يلقاه نزيله، بدلت ذلك كل التبديل.. لقد أحسست إذ ذاك أنني (موجود) وأن لي وجودا حقيقياً، وأن الذي في نفسي حقيقة لاوهم.. وهذه الحقيقة هي السير في طريق الله، والعمل من أجل دعوته، وأن السائر في هذا الطريق ليس ضائعاً بل هو المهتدي، وأنه حين يذهب في طيات هاتيك الرمال باللحظة المقدورة له لايذهب بددا، وإنما يذهب إلى الله، وهناك يجد وجوده كله.

لقد كانت هاتيك اللحظات مفترق طريق.. وانتهت الحيرة الضالة، ووجدت نفسي على الجادة.

وخرجت، يوم أفرج عني، لأحمل عبء الأسرة التي كانت من مسئوليات أخي وحده كما عودنا، ومضيت أخوض تجارب الحياة العملية خلال أكداس من العسر على مدى عشر السنوات، حتى أفرج عن سيد رحمه الله

وتلقيت ذلك الإفراج بكثير من القلق، إذ كنت أحس فى قرارة نفسي أنهم لم يخلوا سبيله إلا وهم يدبرون له أمرا أشد سوءاً من السجن، وقد كان ماتوقعت، فما إن انقضى على مغادرته السجن الحربي عام واحد حتى اضطربت الأمور كرة أخرى، وتيقنا أن المؤامرة تحدق بنا من كل جانب، فلما شرعوا في اعتقالات ١٩٦٥ أعيد سيد وأعدت كذلك إلى السجن، وكان نصيبي أن أقضي فيه ست سنوات متصلة، من ٣٠ يوليو ــ تموز ٦٥ / إلى ١٧ أكتوبر ــ ت ١ ــ ١٩٧١، وكان نصيب أخي الإعدام بعد محاكمة صورية مع ثلة من كرام الشهداء، وقتل في هذه المجزرة واحد من أبناء أختي أثناء التعذيب دون إعلان، واعتقلت شقيقاتي الثلاث ومنهن الكبرى أم ذلك الشهيد، وعذبت الشقيقة الصغرى ثم حكم عليها بالسجن عشر سنوات، وتعرضنا جميعاً لحملة ضارية من التنكيل الذي لايخطر على بال إنسان. وكان ذلك كله جزءاً من الحرب المسلطة على الإسلام، يقودها، نيابة عن الصليبية العالمية والصهيونية الدولية، مخلوقون يحملون أسماء مسلمين.

ولكن هذه السنوات الست بكل أحداثها ووقائعها هي في النهاية زاد على الطريق.

مساومات لم تنجح:

وسألنا الأستاذ إيضاحاً لما يشاع من أن طغمة المتسلطين قد حاولت احتواء الشهيد سيد بإسناد وزارة المعارف إليه، فكان رفضه إياها من الأسباب المباشرة لتلك المحنة؟

ويجيب الأستاذ إن محاولة احتواء أخي بعرض وزارة المعارف ورفضه إياها حقيقة واحدة من الحقائق الكثيرة المتعلقة بذلك الصرَاع العنيف الطويل بين العساكر والإسلاميين، إلا أنها لم تكن السبب الأساسى فى المحنة، وإنما كان السبب هو اختلاف الطريق، ذلك الاختلاف الذى ظنوا أنهم يستطيعون تجاوزه فيما يتعلق بأخى، فلما تبين لهم اصراره على الحق، وصلابته فى دين الله، واستحالة احتوائه أتموا خطتهم المقدرة وكان ماكان.. بل إن محاولة الاحتواء قد استمرت حتى آخر لحظة، فبعد إصدار حكم الإعدام سنة ١٩٦٦

عرضوا عليه أن يعتذر لجمال عبد الناصر، ويعلن أن الإخوان كانوا مخطئين، ومقابل ذلك لن يلغي أحكام الإعدام عن كل المحكومين فحسب بل سيفرج عن المعتقلين جميعاً، وبذلك تنتهي القضية كلها.. فلما رفض سيد العرض مضوا إلى آخر الشوط بتنفيذ الإعدام.

فى أفكار الشهيد

وكان سؤالنا التالي عن رأى الأستاذ بما نشر فى بعض الصحف الإسلامية عن أفكار الشهيد سيد وما نسب إليه من القول بوحدة الوجود فى بعض تفسيره، فكان جوابه:

«لقد وردت فى (الظلال) عبارات يمكن لمن يفصلها عن القرائن أن يوجه إليها مثل هذا الظن، غير أن الباحث المدقق، فضلاً عن الباحث المنصف، إذا وجد فى الظلال عبارات متواترة تبين بصورة قاطعة أن المؤلف يقول إن الله متفرد بكل صفاته، وإن مخلوقاته عارية عن هذه الصفات، فلابد لهذا الباحث أن يؤول تلك العبارات الموهمة بما يتناسب مع ماتقطع به العبارات الأخرى الكثيرة المتواترة، من إفراد الله وحده بالألوهية والربوبية، ونفي أي اشتراك بينه وبين خلقه فى شيء من صفاته التى تفرد بها.

ولنأخذ مثلاً على ذلك قول الحواريين لعيسى عليه السلام: ﴿**هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدةً من السماء؟**﴾ فلو أن إنساناً أخذ هذه العبارة وحدها، فنسب إليها عقيدة الحواريين، وقال إنهم يشكون فى قدرة الله.. فهل يكون فهمه سليماً؟.. كلا.. بالطبع، والداعي إلى تنزيههم عن ذلك هو القطع بأنهم كانوا مؤمنين، والمؤمن منزه عن الارتياب فى قدرة الله، ومن أجل ذلك أجمع المفسرون على تأويل هذه العبارة بما يصرفها عن شبهة الشك فى قدرة الله.

ومع حفظ المقامات لأصحابها نقول: إذا ثبت فى أكثر من مائة موضع فى الظلال اعتقاد المؤلف الجازم بأن الله تعالى متفرد فى صفاته، لايشاركه أحد فى شيء منها، فقد وجب أن تُحمل تلك العبارات على أنها محاولة من المؤلف للتعبير عن استشعاره لعظمة الله سبحانه، وأن كل المخلوقات إنما تستمد

وجودها من وجوده.. وأنا لاأقول هذا دفاعاً عن أخي فهو بين يدي مولاه، وإنما أقوله لأني عايشته السنين الطوال، وأعلم بمالا يدع مجالا للشك أنه لم يقع فى عقيدته شيء من الزيغ الذى توهمه تلك العبارات..».

ولعل فى هذا الايضاح من رفيق الشهيد وتلميذه المقرب، مايكفى لإلغاء كل مايثار من الشبهات حول الموضوع.. وقد سبق أن ناقشنا هذه الشبهات فى مقال واف نشرته جريدة المدينة ــ فى العام ١٤٠٣ ــ وذيلنا به ترجمة فضيلة الشيخ «محمد ناصر الدين الألبانى» فى الطبعة الثانية من كتابنا الأول (علماء ومفكرون عرفتهم) الذى نشرته مؤخراً دار (عالم المعرفة) فى جده.. وهناك بيَّنا مانطوت عليه تلك الشبهات من أخطاء مردها إلى عدم التدقيق فى نقل عبارات الشهيد من مظانها فى تفسير الظلال.. وماأحسب شيخنا الجليل الأستاذ الألبانى إلا مقتنعاً بما أوردنا من الحق، وعائداً إن شاء الله عما توهمه فى كلام الشهيد من التواء لامكان له فى تفسيره.

فى رحاب الأدب

ومثل الأستاذ محمد قطب لايستكمل الحديث عن خصائصه إذا أغفل منها جانب الأدب، الذي يمكن القول بأنه مفتاح شخصيته، فهو أديب فى مشاعره، وأديب فى تفكيره، وأديب فى فلسفته، وأديب فى طريقة تناوله لكل ماينشىء.. هذا إلى كونه شديد التركيز على أهمية الأدب فى مخاطبة القراء والمستمعين، حتى لتشعر، وهو يطالعك بأفكاره فى هذه الشئون، أنه يعتبر الكلمة الجميلة، والعبارة البليغة، والصورة الموحية، هن الوسائل المفضَّلة التى عن طريقها يتوصل الداعية الإسلامي إلى التأثير المنشود فى العقول والقلوب.

ومن هنا كان سؤالنا التالي:

ــ فى نطاق الأدب يلاحظ أنكم كثيراً ماتركزون على ضرورة الالتزام بالتعبير غير المباشر. ومعلوم أن هذا ألصق بفن الشعر منه بالأدب العام، لأن الأدب هو كل تعبير جميل يؤدي إلى المراد بالأسلوب المناسب، فلكل من المباشر وغير المباشر مجاله الذي لايغني فيه سواه.. فما رأيكم فى هذا؟

ــ غير خاف أن الأدب ألوان مختلفة، ولكل لون خصائصه المناسبة.. وحين اتحدث عن التعبير غير المباشر فلا يمكن أن يتطرق ذهنى إلى المقالة والبحث والدراسة والموعظة، التي تلقى على الناس مباشرة بقصد التوجيه والتذكير، إنما أقصد بذلك الشعر والقصة ــ بأنواعها ــ والمسرحية.. ففي هذه الفنون يحسن دائماً أن يتوارى المؤلف، وأن يتوارى القصد المباشر، وأن يصل المؤلف إلى هدفه من خلال عرضه مشاهد حية، شعورية وفكرية وحسية، يتصرف الناس فيها تصرفاتهم التي تتناسب مع مواقفهم المختلفة ومن خلال براعة العرض يتبين الموقف الصحيح، أو الذي ينبغي أن يتجه إليه الناس، وهي طريقة أكثر تأثيراً فى هذه الفنون من التعبير المباشر الذي يفسد على القارىء أو المشاهد متعة المشاركة مع أشخاص القصة أو المسرحية، ومتعة استخلاص القصة بنفسه لنفسه. والملحوظ أن الشعر والقصة والمسرحية إذا لجأت إلى التعبير المباشر تستوي مع الموعظة بكون تأثيرها يكون عابراً مؤقتاً ثم لايلبث أن يخفت ويضيع.. على حين تظل مع التعبير غير المباشر مؤهلةً للخلود

العلوم الإنسانية فى ضوء الإسلام

ــ فى بعض محاضراتكم عرضتم لموضوع علم النفس وعلم الاجتماع، ودعوتم إلى تكوين كل منهما على أسس الإسلام، بحيث يكون هناك علم نفس إسلامي، وعلم اجتماع إسلامي.

فلو تفضلتم بشيء من التفصيل فى هذا الموضوع.

ــ العلوم الإنسانية جميعاً، وهي تشمل فيما تشمل علوم التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع، إنما سميت فى أوروبة كذلك لابمعنى أنها تعالج أموراً إنسانية، كما يتوهم بعضنا حين يستخدم هذا الوصف، بل بمعنى أن المرجع فيها هو الإنسان، وليس الله! ولإيضاح ذلك نذكر بأن هذه العلوم نبتت فى أوروبة ضمن جوّ معادٍ للدين، بسبب الظروف المحلية القائمة هناك منذ عصر النهضة، ونحن نقلناها كما هي، ودرسناها فى مدارسنا وجامعاتنا بنفس الروح المجافي للدين والمعادي له، سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر.. وقد آن لنا أن نتخلص من وطأة الغزو الفكري على عقولنا وأرواحنا، فنتناول هذه العلوم من

منطلقنا الإسلامي، الذي لم يعرف العداوة بين الدين والعلم، ولا بين الدين والحياة.

وحين نصنع ذلك فسيتضح لنا أن فى هذه العلوم ــ كما هي فى صورتها الأوربية ــ اختلالات مبدئية تترتب عليها نتائج خاطئة، وإن اشتملت على حقائق جزئية كثيرة، ولكنها حقائق يفسدها اختلال القاعدة التي تقوم عليها، ويمكن الإفادة منها بتصحيح تلك القاعدة.

وإليك مثالاً واضحاً: منذ داروين سيطرت فكرة حيوانية الإنسان وماديته على الفكر الأوربي فى مجال علم النفس والاجتماع والتربية والاقتصاد وما إليها.. وحيوانية الإنسان ليست فكرة علمية صحيحة، والعلم ذاته يتجه الآن تدريجياً نحو تأكيد إنسانية الإنسان، بمعنى تفرده بخصائص رئيسة لاتتوافر للحيوان.. فكل النتائج المترتبة على تلك النظرة الخاطئة هي خاطئة كذلك، ومن شأنها أن تسقط كل القيم الخلقية، أو لاتعتبرها أسساً ثابتة فى الكيان البشري.

وحين نعود إلى مقومات وجودنا الحقيقية، وهى المقومات الإسلامية، فستكون نظرتنا إلى الإنسان مختلفة من جذورها، ومن ثم تصل أبحاثنا العلمية إلى نتائج نهائية مختلفة تماماً عما تصل إليه (العلوم الإنسانية) فى مفهوم الغرب.

أعني حين ننطلق من أن (الإنسان إنسان لاحيوان) وأن الله خلقه ليكون خليفة فى الأرض، أي مسيطراً ومهيمناً عليها ومعمّراً لها، ومنحه الأدوات والمواهب التي تعينه على عمارتها، من عقل وصلاحية للتعلم، ودوافع وقدرة على ضبط الدوافع وتنظيمها.. وفى الوقت ذاته شق له الطريقين وألهمه معرفتهما ومنحه القدرة على اختيار أحدهما ﴿**ونفسٍ وما سواها. فألهَمَها فجورَها وتقواها. قد أفلحَ مَن زكاها. وقد خابَ من دسَّاها**﴾ سورة الشمس ــ فصار لأعماله قيمة خلقية مصاحبة لها، نابعة من الفطرة نفسها لامفروضه عليها من الخارج. ثم إن الله كلفه أن يعبده وحده لاشريك له ﴿**وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون**﴾ الذاريات ــ والعبادة شاملة لكل أعمال الإنسان ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين**﴾ الأنعام ــ فصارت مهمته النهائية هي عمران الأرض بمقتضى المنهج الرباني، وهي موضع ابتلائه.. أيستقيم على النهج فيفلح فى الدنيا والآخرة، أم يزيغ مدفوعاً بشهواته،

فيستمتع فى دنياه متاعاً مشقياً مدمراً ويخسر فى نفس الوقت آخرته!.

حين نتحرك من هذا المنطلق فلا شك أن علومنا النفسية والاجتماعية وما إليها ستختلف اختلافاً جوهرياً فى المبدأ والنهاية، وإن اشتركت مع العلوم التي نتعاطاها اليوم فى بعض الحقائق الجزئية التي تثبتها التجربة والمشاهدة ــ كما أسلفنا ــ وهذا ماأقصد إليه بكلمة (علم نفس) و(علم اجتماع) إسلامي.

ولقد بذلت بعض الجهد فى هذه السبيل عن طريق كتبي (الإنسان بين المادية والإسلام) و(دراسات فى النفس الإنسانية) و(منهج التربية الإسلامية) في جزئيه الأول فى النظرية، والثاني في التطبيق.. غير أن المجال لايزال واسعاً جداً، ولا يزال فى حاجة إلى جهود مكثفة حتى نصل إلى علوم متكاملة في هذا الميدان..

وفي تراثنا العلمي كنوز

ولعمر الحق إن في هذا البعض من الجهد لذخراً كبيراً من الحقائق العلمية والكشوف النفسية، من شأنه أن يسد فراغاً واسعاً في المكتبة الإسلامية الحديثة، وقد سبق أن قرأت الكثير مما كتبه في نقد الداروينيه، ولكن كتاب (الإنسان بين المادية والإسلام) جاء متميزاً عليها جميعاً بإنطلاقه من رؤية إسلامية جمعت فأوعت، إلى جانب الحجج الموضوعية التي لاأغالي إذا قلت إنها أتت على كل ماانطوت عليه تلك النظرية التطورية من زائفات الظنون التي لاتقف أمام العلم.

وحبذا لو أتم الأستاذ شوطه في هذا المضمار فراجع بعض المؤلفات المتعلقة بموضوع الإنسان ومناهج تربيته فى ضوء الوحيين، وهى غير قليلة في تراثنا الإسلامي، ولكنها تنتظر البصيرة النافذة التي تحسن استخراج كنوزها، وتصنيفَها في نسق تربوي يصلح للمطالعة والدراسة.

وأذكر بهذه المناسبة حديثاً جرى فى مجلس سماحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز ــ أمتع الله بحياته ــ لفتُّ أثناءه نظر شيخنا إلى كتاب الإمام ابن القيم المسمَّى (طريق الهجرتين) وما يتضمنه من تحقيقات نفسية بشان النفس

واحوالها ووسائل تدبيرها ومعالجة نزعاتها وترويضها على المسالك المثلى التي تُؤَمِّنُ لها سعادة الدارين .

وقلت يومئذ لسماحة الشيخ : إن فى هذا الكتاب لمادة خصبة لتأليف في علم النفس الإسلامي يحمل الخير الكثير ..

وأجاب الشيخ إذ ذاك : فعليك به إذن .. فقلت : وأين أنا من مثل هذه المهمة التي تتطلب مجموعة من العزائم .. وخير مايُخدم به هذا الكتاب وأمثاله من نفائس التراث هو أن يُعهد بها إلى لجنة من خبراء التربية الإسلامية توسعها درساً ، ثم تصوغ من مناجمها المناهج التي تنقذنا من سلطان التقليد لأعداء الإسلام .

ولا أزال أكرر هذا القول واذكّر به سماحةَ الشيخ الجليل ، الذى لانعرف له نظيراً فى الاهتمام بتصحيح أوضاع المسلمين فى كل مجال .

الشرق الإسلامي هو الميدان الأول

وخبرة الأستاذ الطويلة والعميقة في ميدان الدعوة تدفعنا لاستطلاع رأيه فى مسيرتها الراهنة ، وبخاصة في أوساط مفكري الغرب .. وما يقترحه في هذا الشأن .

ومن منطلق هذه الخبرة الحية يرى الأستاذ أن فى مسيرة الدعوة هذه الأيام إيجابيات وسلبيات ، فهي تتطلب مراجعة موضوعية واعية تتناول أحداث نصف القرن الأخير ، لِتأكيدِ الإيجابيات ومحاولة التخلص من السلبيات وبالنسبة إلى إقبال بعض مفكري الغرب على الإسلام يرى كذلك أن من حقنا أن نبتهج ونرحب بكل مفكر غربي هداه تفكيره السليم إلي الحقيقة ، ولكن هذا لاينسينا أن ميداننا الأصيل في الدعوة ينبغي أن يظل فى الشرق في داخل العالم الإسلامي ، لرد الناس إلى حقيقة الإسلام التي أصبحت غريبة بينهم ، تصديقاً للخبر النبوي القائل : «بدأ لإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء .. الذين يصلحون ماأفسد الناس» ولئن ألجأ الضياع بضعة أفراد وعشرات أو مئات ، أو حتى الألوف من الغربيين إلى البحث عن طريق الخلاص حتى يقفزوا فوق الحاجز الصليبي ، الذي حال في الماضي بين أوروبة والإسلام ، ثم

لايكتفوا باعتناقه حتى يصبحوا من دعاته، لقد كانت الفرص مهيأة لأن يكونوا ملايين بدلاً من الألوف لولا العقبات الأخرى، المتمثلة فى الواقع السيء الذي يعيشه المسلمون بعيدين عن حقيقة الإسلام.. ولو كان الإسلام في صورته الحقيقية ماثلاً فى واقع حي لانتقل ملايين الأوروبيين اليوم إلى الإسلام. لذلك يقرر الأستاذ ضرورة التركيز على الدعوة في داخل العالم الإسلامي ذاته، وليس معنى ذلك ألا نلتفت إلى الغرب، ولكن معناه فقط أن حصيلتنا فيه ستظل ضئيلة حتى يتغير هذا الواقع الذى يلابس المسلمين.

الإسلام هو المنقذ الوحيد

وعن المحنة التى يمر بها شباب الدعوة وشيوخها فى معظم ديار المسلمين، والمصير الذى يتوقعه لها يقول: إن المحنة القائمة فى محيط الدعوة تبعث على الأسى الكثير، ولكن لابد من دراسة أسبابها دراسة موضوعية فبعض هذه الأسباب قد يكون عائداً إلينا نحن، كما أن بقية الأسباب من صنع أعدائنا ولاشك. فمن جانبنا ينبغي أن نتساءل أترانا سلكنا المنهج الصحيح؟ وما المنهج الصحيح؟.. أهو الاستكثار من الجماهير؟ أم هو البدء بإعداد مجموعة قليلة العدد نسبيا، تأخذ حظاً كاملاً من التربية التي أنشأ عليها رسول الله، صلوات وسلامه عليه وآله، أصحابه.. ثم تمضي القاعدة في الاتساع خطوة فخطوة ولكن على تمكن..

ويتابع تساؤلاته: وهل بدأنا التحرك الصحيح الذي هو تجلية العقيدة، وتقويم ماانحرف من مفهوماتها، مع التربية على مقتضى هذه العقيدة، تربية تحول مقتضياتها إلى سلوك واقعى؟ أم هو مجرد دروس تثقيفية فى شتى المعارف الإسلامية!

وهل الخطو الصحيح هو استعجال الصدام مع الأعداء قبل إعداد القاعدة المناسبة لهذا الصدام، ولاستمراريته فى حجمها وصلابتها. حتى يؤتي ثماره المرجوة؟.. أو هو تحاشي الصدام جهد الإمكان حتى تتهيأ القاعدة الواجبة؟..

وهل وعينا خطط أعدائنا كيلا نفأجا بها، ولا يستغرقنا الذهول كلما نزلت بنا واحدة من ضرباتهم أو خديعة من خدائعهم، مابين محاولات الإبادة ومحاولات الاحتواء؟

وقبل ذلك وبعده هل تجردنا لله حق التجرد، حتى نستأهل أن يمن علينا بالنصر الموعود؟ أو أن أهواءنا الشخصية هي المسيطرة، فمنها ننطلق وحولها ندور؟..

أما أعداؤنا فلن يكفّوا، وقد علمنا ذلك يقيناً من قوله تعالى **﴿ولن ترضى عنك اليهودُ ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾** سورة البقرة ـ **﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾** سورة البقرة.

ويعقب هذه التساؤلات المثيرة بقوله المملوء باليقين: (ولكني على الرغم من كل شيء أشعر دائماً بالتفاؤل العميق بالنسبة إلى مستقبل الدعوة).

ويعلل تفاؤله باستقرائه لسنن الله والتتبع لظواهر مشيئته وقدره، فلو كان فى قدر الله أن ينتهي الإسلام من الأرض لكان زوال الخلافة هو الفرصة الملائمة لذلك، وبخاصة أن ذلك هو مقصد الأعداء من تدمير الخلافة، بيد أن هذا الحدث ذاته هو الذى بعث حسن البنا لإنشاء حركته العالمية.. ولو كان فى قدر الله أن تموت الحركة الإسلامية لكان التعذيب الوحشي، ومحاولات الإبادة الجماعية في السجون والمعتقلات كافية للقضاء على كل أمل بحياتها، على حين نرى الضد من ذلك، فبعد كل مذبحة ينبثق مدد جديد من الشباب يعتنق الدعوة ويتفانى من أجلها..

ثم أن المحنة الكبرى التي فتنت المسلمين عن دينهم كانت هي أوروبة وبريق حضارتها الخاطف.. ولكن أوروبة اليوم قد تجلى عوارها للجم الغفير من أبنائها، إذ بدأ كثير منهم يبحثون عن طريق الخلاص من أمراض تلك الحضارة المدمرة.

وكذلك الأمر بالنسبة لملاحدة الزعماء الذين بذرتهم أوروبة وأمريكة وروسية في العالم الإسلامي، ليحولوا الناس عن الإسلام بالشعارات المضللة أو بالقتل والتشريد، فقد أثبت هؤلاء إخفاقهم الذريع فى حل مشكلات شعوبهم، بل زادوا هذه المشكلات سوءا وتعقيداً، وزاد هوان المسلمين على أيديهم فضاعت فلسطين، ومضى غيرها فى طريق الضياع، واليوم تبدأ على أيديهم عملية التفتيت للدول الإسلامية تحقيقاً لأهداف أعدائهم.. ولم تزدهم تلك الأنظمة المستوردة من مصانع أولئك الأعداء إلا إخفاقاً وهواناً، والنتيجة

واحدة ومشتركة هي اليأس من كل النظم وكل الاتجاهات، والتطلع إلى الإسلام على أنه هو المنقذ الوحيد، وما ذلك إلا توكيد حاسم بأن الحركة الإسلامية هي طريق المستقبل رضي الأعداء وأذيالهم أم أبوا.. ومع ذلك لاأتعجل النتائج.. وأعرف أن ثمة مخاضاً ضخماً لابد أن تخوضه الأمة الإسلامية وطريقاً طويلاً مشحوناً بالمعاناة والعرق والدماء والدموع، ولكنه قدرها الذي لامندوحة لها عن سلوكه، ثم تتنزل رحمة الله بالنصر والتمكين، وصدق الله العظيم القائل فى كتابه الحكيم: ﴿**وَعَدَ الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ولَيمكّننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وَلَيُبدلنَّهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لايشركون بي شيئاً**﴾ سورة النور آية رقم ٥٥.

آثاره المفضلة

وكان خاتمة الحديث استفسار الأستاذ عن أحب مؤلفاته إليه، فكان جوابه:

من المعتاد أن يقول المؤلف أن كتبه كلها أبناؤه، وكلهم عزيز عليه. وأنا أيضاً أقول هذا، ومع ذلك فقد يكون (الإنسان بين المادية والإسلام) وهو باكورة كتبي، أحبها إلي، فضلاً عن كونه الابن البكر فهو يشتمل على الخطوط الرئيسية التي انبعثت منها عدة كتب تالية فى مجال التربية وعلم النفس، كما أن كتاب (جاهلية القرن العشرين) له موضع خاص في نفسي كذلك، ولعل السبب أنه يمثل رؤيتي لحقيقة الجاهلية، وأنها ليست محدودة بفترة معينة من الزمن، وإنما هي حالة يمكن أن توجد في أي زمان ومكان، وأن البشرية تعيش اليوم أعتى جاهلية عرفتها.. كذلك كتاب (دراسات قرآنية) فإنه يحكى قصة حياتي مع القرآن منذ الطفولة حتى النضج.. وأخشى أن يستدرجني السؤال إلي أن أوثر كل واحد من كتبي على إخوته، فيضيع معنى السؤال.

أما من حيث الأهمية في تقديرى فقد أقدم (الإنسان بين المادية والإسلام) و(منهج التربية الإسلامية) و(منهج الفن الإسلامي) و(التطور والثبات في حياة البشرية) و(جاهلية القرن العشرين) وأخيراً كتاب (المذاهب الفكرية المعاصرة)..

ومع ذلك فقد يكون للقراء رأي آخر..

تعقيب لاتثريب

وأنا بوصفي واحداً من هؤلاء القراء، ومن منطلق تقديري لرأي المؤلف في هذه الكتب، أحب أن أشير إلى ملاحظتين، إحداهما وردت في إحدى مُذاعات الأديب الكبير الشيخ علي الطنطاوي ثم كررها أكثر من مرة، والأخرى لقارىء نشرت في العدد ٩٣١ من مجلة الدعوة ــ بالرياض ــ فقد عارض الأستاذ الطنطاوي استعمال كلمة الجاهلية للأوضاع الراهنة في حياة المسلمين، وحجته في هذه المعارضة فرق مابين حال الجاهلية السابقة للإسلام وحال مسلمي اليوم، إذ لم يكن أولئك على نور من الكتاب، على حين يحتفظ هؤلاء حتى اليوم بالصفات التي تربطهم بالإسلام الحق عن طريق إيمانهم بالكتاب والسنة .. فأين هم من الجاهلية ؟ وهي حجة صحيحة إذا أريد بها ذوو العقائد السليمة من المسلمين، ولكن هناك السواد الأعظم من الذين سُلبوا الوعي الصحيح لحقائق الإسلام، وراحوا يضربون وراء كل ناعق، لايكادون يملكون من صلة بالإسلام خارج حدود الهوية، التي تمنحهم حق الإرث وصلاة الجنازة والدفن في مقابر المسلمين.. وإلا فكيف يُعدَ من المسلمين ذلك الطرقي الذي يقول بالحلول والاتحاد وبوحدة الوجود؟ وكيف يُحسب على الإسلام ذلك الشيوعي الذي أسلم وجهه لماركس ولينين، والآخر الذي آمن بالاشتراكية ورفض نظام الإسلام، وأولئك الذين ربطوا وجودهم بقيود الحزبية، فهم يصلون ويصومون ويحجون، فإذا ألفوا أنفسهم بين دعوة الله ونداء الحزب لم يترددوا لحظة في الاستجابة للحزب والإعراض عن دين الله.. أفنستكثر على هؤلاء أن يُحشروا مع الجاهليين، والله يقول في وصفهم وأشباههم ﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به، ويريدُ الشيطانُ أن يُضِلَّهم ضلالاً بعيدا**﴾ سورة النساء ــ ٦٠ .

الحق إنها لجاهلية جديدة لاتقل أثراً عن الجاهلية القديمة، بل لعلها تفوقها خطراً بما تملكه من وسائل الاغراء والتضليل التي لم يعهدها الضالون السابقون..

أما الملاحظة الثانية فحول كتاب (الإنسان بين المادية والإسلام) ويؤكد فيها القارىء على مأخذين أحدهما تعليل المؤلف لأسباب الثورة على ذي النورين بردها إلى بذور التفاوت الاجتماعي، وبأنها ثورة ناشئة عن شعور المسلمين بأن الأمور لاتجرى كما ينبغي أن يكون، وأنها تخالف الحق والعدل.. الخ وطبيعي أن هذا التعليل قائم على ادعاء أولئك الثائرين المضللين، وهو ادعاء له مايُحتج به من ناحية التفاوت الاجتماعي الذي جاء به التطور، الذي أعقب أيام الفتوح والاستقرار، فكثر المال، واتسعت شقة التفاوت بين الناس، حتى كان هناك الطبقة الغارقة في غمار النعيم، إلى جانب الطبقة المتخلفة في ميدان الكسب، فكان مالا مندوحة عنه من شيوع التذمر والتحاسد.. وفي مثل هذا الجو تضطرب المعايير وينفسح مجال النقد، حتى يتوهم الغوغاء من جيل مابعد الصحابة أن الوضع مخالف لما يفرضه الإسلام من الحق والعدل والمساواة، وبذلك يتهيأ المجال أمام المفسدين لاستغلال هذه الظواهر، وهو عين ماحدث في عهد الخليفة المظلوم رضي الله عنه.

ويتناول المأخذ الثاني موضوع (الانحراف الذي ـ يقول المؤلف إنه ـ امتد أيام الدولة الأموية) فيسوء القارىء ذلك القول لمجرد أن حكامها من المسلمين .. وكان على هذا الأخ أن يراجع تاريخ الأمويين فى مصادره الصحيحه، وبخاصة ألوان المفاسد الممثلة فى أنواع التماثيل والزخارف التي خلفوها فى مصايفهم بالأردن.. ليستيقن أن فى ذلك العهد من الانحرافات مالا تفي بوصفه كلمة الانحراف.

ثم أسأل هذا الأخ ماذا يسمي عمل الحجاج فى بقية الصحابة، وفي بيت الله الحرام.. وبأي عبارة يصف استباحة القوم لمدينة رسول الله.. وكيف ينظر إلى مأساة أهل البيت المطهر على أيدي ابن ذي الجوشن ومالك بن البشير، وسنان بن أنس، وبقية الطغمة من كبار القتلة ؟!..

ألا فلنُذعنْ للحق، ولنقلها صريحة: إن المسلمين الذين حكموا الدولة الأموية لم يكونوا على سواء فى الالتزام بمنهج الإسلام، ولو أننا عزلنا صالحيهم وهم الأقلون لم يبق لدينا سوى أولئك الذين مهدوا بانحرافهم لكل مآسي المسلمين.

بقى أن نُذَكّر الأخ القارىء بأن بعض هذه المتشابهات التي يعدها من المآخذ قد استدركها المؤلف فى مابعد الطبعة الأولى من كتاب (الإنسان بين المادية والإسلام) — كما أخبرنا — .

وأخيراً

ذلك هو محمد قطب الذى شرّق اسمه وغرّب مع مؤلفاته الطافحة بالجديد من الفكر الحي النابع من الرؤية الإسلامية، التي خلصت من شوائب التقليد، فكانت إحدى المنارات القليلة التي تبين للقارىء المسلم طريقه الموصل إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

* * *

محمد محمود الصواف

يقول فضيلته انه ولد من أبوين وفقهما الله إلى الصلاح فى أسرة معروفة تعمل فى نطاق الزراعة والتجارة وكان مولده فى الأول من شوال سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة، وذلك فى مدينة الموصل الحدباء الواقعة فى شمال العراق.

وقد تلقى دراسته الأولى في المدرسة الابتدائية الأهلية بالجامع الكبير من ذلك البلد، ومنها انتقل إلى مدارس المساجد، التي يشرف عليها العلماء، وفي هذه المدارس وفق إلى ختم القرآن، ومن ثم شرع في المسلك العلمي مبتدئاً بالنحو والسيرة النبوية على يد الشيخ صالح الجهادي، ثم انتقل إلى المدرسة الفيصلية الدينية، التي أسسها علامة الموصل الأكبر الشيخ عبد الله النعمة، الذي يقول المترجم إنه كان رجل دعوة مزوداً لها بالخلق العالي والأدب الجم، مما ترك أعمق الأثر فى تكوينه الفكري والعلمي.

وعن الناحية الروحية يحدثنا عن شيخه الآخر الذي يصفه بأنه رجل الموصل وشيخها وإمامها الأكبر الحاج محمد الرضواني.. الذي لازم معه صلاة الفجر لعدة سنوات منذ يفاعته، وكانت صلوات خاشعة يعقبها إقبال على ذكر الله وتحميده وتمجيده إلى قريب من مطلع الشمس، حيث ينصرف الشيخ إلى طلاب العلم، الذين يكونون بانتظاره.. وقد وقف تأثره بهذا الشيخ عند حدود هذه المناسبات التي تركت فى قلبه ذكريات وانطباعات لاتُمحى.

ولم يتلمذ للشيخ في النواحي التعليمية لأنه كان مستمر الدراسة بالمدرسة الفيصلية، حتى أنهى مقرراتها، وتخرج في الفوج الأول من طلابها، ولم يلبث أن عُين معلماً في بعض المدارس الابتدائية، ثم نقل للتدريس في الثانوية الأهلية بالموصل، بيد أنه لم يستطع البقاء على هذا المستوى فاستقال من عمله، وأخذ سبيله إلى القاهرة، حيث التحق بكلية الشريعة في جامعة الأزهر.

وكان عليه أن يتابع دراسته الجديدة هناك طوال ست سنوات، إلا أنه بتيسير الله ثم باجتهاده المتصل، استطاع أن يختصر الزمن إلى نصفه، فأحرز شهادة العالِمية ثم تخصص القضاء خلال سنوات ثلاث، وكان ذلك بقرار استثنائي من المجلس الأعلى الذي قدر مواهبه وأجرى له امتحاناً عاماً نجح بكل مقرراته. فكان ذلك موضع الإعجاب الكبير من أساتيذه، حتى ليقول له شيخ الأزهر يومئذ: (ياولدي. لقد فعلت مايشبه المعجزة).

ولا تنس أن لِسابق دراسته على علماء المساجد يداً لاتنكر في ذلك النجاح السريع، وهذا بعض مميزات الطريقة القديمة التي أخرجت للأمة الإسلامية أساطين الأئمة، وأجلة المفكرين، فما زلنا بها مسخاً وتشويها حتى استبدلنا بها نظاماً يكاد يعجز عن أن ينشىء لنا عُوَيلِماً أو كُويتبا على الرغم من سنواته الطويلة الهزيلة.

مؤسفات

وإني لأكتب هذه الأسطر وفي ذاكرتي بقية الأسى لما سمعته ظهر أمس من حديث إذاعي لاتتجاوز مدته الدقائق الخمس، ومع ذلك لم يستطع صاحبه الدكتور إرسال عبارة واحدة صحيحة التعبير، ولعله لوعوتب في ذلك لقال: أنا لست متخصصاً بالعربية فلي أن أعبر عن فكري بما أشاء وليس عليَّ أن ألتزم قواعد الإعراب.. ولهذا نقول: عندما تعمد إلى التعبير بالأجنبية أتتعرض لمثل هذه العثرات أم تتحفظ لكيلا تتهم بالجهل؟ فكيف تستخف بلغتك التي هي دليل أصالتك، وتوقر الأجنبيه وهي لغة عدوك!.. وهذا آخر تخرج بالليسانس في إحدى جامعاتنا الإسلامية، ومع ذلك لايفرق والله بين الناصب والجار. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وليسمح لي القارىء أن أواصل استطرادي هذا فأعقب بكلمة يسيرة على موضوع تلك الأذكار التي كان مترجمنا يقضيها في يفاعته مع شيخه الرضواني في أعقاب صلوات الفجر.

لقد راجعت نفسي طويلاً بالأمس وأنا استعرض واقع حفيدي، هذا اليتيم الذي يعيش معي، فلا أكاد أجد منه أي استجابة لنصائحي وتوجيهاتي. إنه

ليلازم هذا الشيطان الذي يسمونه التلفزيون كلما وجد فرصة لمشاهدته، حتى إنه لينام وهو شاخص إليه.. وحتى ليواصل النوم بسبب ذلك حتى تفوته الصلاة عقب الصلاة دون أن نستطيع إيقاظه أحياناً، فإذا زايله كابوس الكَرى نهض يتمطى فيجمع الصلوات الفائتة كأنه لم يأت سوءاً قط!..

وأطرقت أتساءل: أليس من سبيل إلى تقويم هذا العوج الذي هو مرض الجيل كله؟ وانتهيت أخيراً إلى القطع بأن الدواء الوحيد لعلاج هذا الداء هو صحبة الصالحين وشغل القلب بذكر الله، والتصبور الواعي لجلاله وكماله الذي به تحصن نفوس المؤمنين ضد كل المفسدات والمفسدين.

ولكن أين الصالحون الذين يمثلون بسلوكهم النقى الأسوة الحسنة، التى تحبب الشباب والمراهقين بذكر الله ومراقبته. لقد فقد البيت ـ أوكاد يفقد ـ كل أسباب التربية الصحيحة ولم يبق لنا من أمل فى غير المعلم، الذى يستطيع، لو أصلح قلبه أن يصلح قلوب هؤلاء المساكين الضائعين، من أبنائنا الذين أسلمناهم إليه طائعين ومكرهين.

جهاد لايفتر

ويعود الفتى الأزهرى إلى العراق مزوداً بالعلم الذي يساعده على تحقيق أحلامه البعيدة، وبالبصيرة التى غذتها التربية الصالحة في البيت وفي البيئة الدراسية، التي جمعته بأفاضل الدعاة والهداة، وبدأ مهامه الإصلاحية عن طريق التعليم، إذ عُين للتدريس بكلية الشريعة الحديثة في بغداد، بعد أن رفض العمل فى القضاء إيثاراً لذلك المسلك الذي كان أقرب إلى استعداده وأرحب لأفكاره.. وكان إيثاراً حكيماً إذ وفق الله هذا الفتى المملوء حماسة لدينه، أن يحقق فى مجتمع العراق من اليقظة الإسلامية في أوساط الشيوخ والشباب مالا يكاد يصدق، وهذا رفيقه وصديقه الأستاذ على الطنطاوي يعد من مآثره (جمعية إنقاذ فلسطين) و (مؤتمر القدس ـ ١٩٥٧) الذي يقول إنه كان لولبه ومحركه، ثم الآلاف من الشباب الذين نفعهم الله بتوجيهه فرد بهم للعراق لونه الإسلامي الأصيل، الذي لايزداد على الأحداث إلا تألقا، ولا عجب (ففيض قلم الأستاذ وفيض لسانه يحيي القلوب، وينشيء الله به أنفساً مؤمنة وعقولاً..) حسب تعبير الأستاذ الطنطاوي[1].

---

١ ـ انظر مقدمة الطنطاوى لكتاب الأستاذ الصواف «المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام» ط ٣

وقد شاء الله أن يكون عمله بكلية الشريعة فى أشد ظروف العراق، بل البلاد العربية بأسرها، حرارة وأحفلها بالأحداث، فهناك معاهدة بورتسموث التي عقدتها حكومة العراق أيامئذ مع المستعمر الإنجليزي، لإنجاز أمر الاستقلال مقابل بعض الامتيازات التي احتفظ بها الإنجليز للاستفادة منها عند طوارىء الحرب، فلم يتقبلها ساسة العراق على اختلاف وجهاتهم، واستغل الشيوعيون نقمتهم منها، فانطلقت التظاهرات الصاخبة ضد الحكومة التي عقدت تلك المعاهدة، وشارك المترجم بكل طاقته الخطابية والحماسية فى تلك التظاهرات التي انتهت بسقوط المعاهدة وإلغائها، ولكن المستعمر الذي أوجعته تلك الصدمة، قرر أن يثأر لنفسه وكرامته عن طريق القضية الفلسطينية، التي كان قد سوّى أمرها مع المفاوضين العراقيين بالاتفاق على نوع من الحلول الوسطى، فما لبث أن دبر أمر انسحابه من فلسطين على ذلك الوجه الذي مكن لليهود من الحصول على مالم يحلموا به من المصالح، بعد أن رتب مع حلفائه من الأمريكيين والروس والأوربيين المصير الذى يتطور كل يوم من السيّء إلى الأسوأ ومن التشريد إلى الإبادة.

وهكذا كان على الشيخ الصواف أن يتابع جهاده في ميدان فلسطين بعد شوارع بغداد، بكل ماحَمَلَه من موحيات الجهاد التي بثها الإمام حسن البنا في نفوس المسلمين لافى مصر وحدها، بل في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. وكان من نشاطه في هذا الميدان بعد تأسيس (جمعية إنقاذ فلسطين) العمل الدائب لتجميع المجاهدين وتدريبهم على فنون القتال. ويقول الأستاذ: (لقد وفقنا الله بتجهيز ثلاثة أفواج من المتطوعين بكامل أسلحتهم وعتادهم، ومضيت معهم للمشاركة في واجب الجهاد).

وقد عرض فضيلته أعمال هذه الأفواج، وعلاقتها بالمقاتلين الآخرين من حولها، والمعارك التي خاضتها، والنتائج التي أسفرت عنها في كتابه (معركة الإسلام بين الأمس واليوم) الذي كان سجلاً أميناً حياً لمعارك تلك الفترة التي لم تسجل بحذافيرها حتى الآن، وقد اختلط فيها الحابل بالنابل، فكادت معالمها تضيع بين مختلف الاتجاهات، وكاد الناس ينسون حقيقتها الكبرى، وهي أن الإسلام وحده هو الذي قاتل في فلسطين، ولم تكن مشاركة الآخرين في تلك المرحلة سوى نوع من التظاهر الذى انتهى أخيراً إلى تنفيذ المخطط الصليبي بكل

دقائقه.. فحق لهذا المجاهد، وقد كان مع إخوانه بعض شهود التاريخ لتلك الملحمة أن يؤرخ لها باسم (معركة الإسلام).

نقاش خفيف

ومعلوم أن مترجمنا لم يقصر اهتمامه قط على أرض العرب وحدها، على طريقة العنصريين الذين أخذوا بإيحاءات الشرق والغرب، لأن نشأته الإسلامية سواء في العراق أو مصر قد وسَّعت مدى رؤيته حتى استوعبت العالم الإسلامي بأسره، ومن هنا كان نشاطه الفكري ممتدا امتداد هذا الوطن الكبير، وبهذا الروح عُنِيَ بقضايا الإسلام في كل مكان، ويذكر لنا من الأحداث التي انفعل بها قيام دولة باكستان فيقول: (لقد حضرت المؤتمر الإسلامي الأول الذي انعقد في كراتشي عام ١٩٥٠ مندوباً عن العراق، وكان من حضوره والمنظمين له رئيس وزراء باكستان الشهيد لياقة علي خان).

وتشدني من هذا الخبر كلمته في وصف أول رئيس وزارة للباكستان بالشهيد، إذ المعلوم أن كلمة (شهيد) في مثل هذه المناسبة لاتعدو كونها مصطلحاً إسلامياً، يوصف به من قتل في سبيل الله من المؤمنين، أو استحقه بأحد الأحوال التي عينها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.. وقد اتضح من خلال أحداث باكستان أن قادتها الأولين من رجال السياسة لم يكونوا يفقهون عن الإسلام إلا أنه تجمع مِلّي من شأنه قيام دولة مستقلة عن سيطرة الهندوس، تتيح لهم أن يحكموا هذا التجمع بأنظمة مستوردة من الغرب أو الشرق، ولم يخطر فى بالهم قط أن تكون باكستان يوماً مادولة إسلامية تحكمها شريعة الله، وتتمثل من خلالها حقائق الإسلام، من الشورى والعدالة الاجتماعية، وتربية الأمة على روح التقوى والدعوة إلى الله.

ولا جرم أن تصور لياقة وإخوانه للدولة الباكستانية على ذلك الوجه لايتجاوز نطاق العصبية العمية، التي حذر منها رسول الله، حين حدد صفة الشهيد بقوله (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[1] فهل قتل لياقة على خان لأنه من العاملين لإعلاء كلمة الله!.

١ ـ من حديث متفق عليه.

وعن أعماله الاجتماعية فى العراق يقول الشيخ: إنه قام بتأسيس جمعية الأخوة الإسلامية بالتعاون مع كبار العلماء وعلى رأسهم علامة العراق الأكبر الشيخ أمجد الزهاوى رحمه الله، ويصف هذه الجمعية بأنها كانت منطلقاً للدعوة الإسلامية في العراق، وتحت لوائها عاش الشباب المسلم وتمرس بمعاني الدين الحق بفضل الله، وتفهم من هذا الوصف أن أولئك الشباب لايبرحون ملتزمين بهذه المعاني لم تزلزل عزائمهم الأحداث الرهيبة المتتالية.

لقد كثرت الجمعيات في بلاد المسلمين، وكثرت عنواناتها وأغراضها، ولكن قليلاً من هذه الكثرة كانت معنية بتربية الشباب على روح الإسلام، لتجعل منهم فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى، وقد تتألف جمعية لهذا الغرض ولكن القائمين عليها لايرتقون إلى مستواه، ولا يتزودون بالوعي الكافي لمعناه، فلا يعدون واقع ذلك الرجل الذي حفظ كتاب الله ولم يتح لنفسه أن ينتفع بآياته، فهو كما قال فيه أحد العلماء: كان في البلد خمسون نسخة من القرآن فزادها واحدة.

ولقد عرفت أثناء عملي في الدعوة جمعية من هذا الطراز التحق بها الكثيرون، ولكنهم لم يجدوا في ظلها أكثر مما يجد رائد المقهى من الأنس في (تقطيع الوقت).. ثم جاء عهد صرفهم عن الجمعية إلى تنظيمات أخرى لم تلبث أن جعلت منهم أقطاباً في محاربة الإسلام.

وما أقل تلك الجمعيات التي يتربى الشباب المسلم تحت لوائها على روح الإسلام، فلا تستهويهم مغريات الدنيا، ولا تغيرهم عاديات الأيام!

في حلبة الصحافة

والأستاذ الصواف كإخوانه من رجال الدعوة الذين أدركوا أهمية الكلمة فى تكوين الفكر والسلوك، فكانت الصحافة الإسلامية أحد أهم مرتكزاتهم فى بث الوعي الإسلامي الصّحيح، وقد بدأ عمله في هذا الجانب بإصدار مجلة (الاخوة الإسلامية) التي استمرت لمدة سنتين حتى أوقفت في عهد حكومة نورى السعيد، ولم يقف الأمر عند توقف المجلة؛ بل ألغيت الجمعية كذلك، وصودرت حرية الأستاذ بإدخاله السجن.

ثم جاءت محنة العراق بانقلاب عبد الكريم قاسم، وبرزت مخالب الشيوعيين تهدد كل شيء، فكان على ربيب الدعوة الحقة أن يتقدم لتحمل مسئوليته بوجه السيل الأحمر، فأصدر مجلته الأخرى (لواء الأخوة الإسلامية) ولكنها لم تمهل سوى سبعة أعداد، فقط حتى اندفع الشيوعيون إلى مهاجمة المجلة، وتحطيم المطبعة، وتبديد المكتبة.. وراحوا يفتشون عن صاحبها ليسحلوه ويقتلوه كما صنعوا بغيره من أحرار العراق.. ولكن عصمة الله حفظت عبده فصرفت عنه كيدهم، وذلك بادخاله السجن الذي كان له رحمة وحماية من حيث لا يشعرون ولا يحتسب، على الرغم مما لقيه فيه من أنواع العذاب الذى أتقنه الملاحدة من القوميين والشيوعيين.

ذكريات لاتنسى

وهنا نقف قليلاً لنتذكر ونذكر القارىء بما لايحسن بنا أن ننساه من فصول المأساة التي عاناها الإسلام في عراقنا العزيز هاتيك الأيام:

لقد كنا نتلقى أخبار الفجائع التي يقترفها الشيوعيون وملاحدة القوميين في أنحاء ذلك القطر بأسى لايوصف، دون أن نستطيع حراكاً ولا كلاماً سوى الدعاء الحار إلى الله بكشف الغمة، وقد بلغت تلك الفجائع ذروتها يوم اذاعت محطة بغداد ذلك الحوار الرهيب الذي دار بين ممثلي الطلاب الحمر، الذين نهضوا بأهول الأدوار في تلك المحنة، وبين عبد الكريم قاسم حاكم تلك الفترة الدهياء.

لقد قَدِم أولئك القتلة ليطلبوا من فرعونهم الأكبر مزيداً من الصلاحيات يستطيعون بها تفريغ العراق من كل أثر لعلمائه وشرفائه.. وكان عبد الكريم قاسم على إدراك تام بأن القاعدة التي يستند إليها في حكمه الدموي مهزوزة محدودة الطاقة، لايمكن أن تستمر إلا ريثما تنجلي الغمرة التي تثيرها الغوغاء، ثم تأتي ردود الفعل أشد من مفاجآته.. لذلك رأى أن يُحدث يداً عند الشعب تكسبه بعض الثقة، وتجعل له متكأ يستعمله عند الحاجة، فكان رده على وفد الشياطين مخيباً لآمالهم، ومزلزلا لأعصابهم، ومباغتة لم تكن تُتوقع.

لقد نقلت الإذاعة الحية صوته وهو يقول لهم: إنكم تريدون مزيداً من

الصلاحيات الثورية لتكملوا مهمتكم في تطهير البلاد من الخونة وأعداء الشعب.. وأنا أقول لكم إن أعداء الشعب الحقيقين هم الذين يُرَوِّعون أمنه ويستبيحون حرماته.. إنهم أولئك المجرمون الذين باسم الشعب دفنوا في مدينة الرمادة مائة وثمانية وعشرين من الأبرياء وهم أحياء!..

ولا أذكر ماذا أعقب هذه الحمم الحارقة من كلام أو عمل، ولكن أروى نبأها لنذكر جميعاً ذلك الزلزال الرهيب الذي كان يجتاح العراق أيامئذ، وينذر بقية الأقطار العربية بما ينتظرها من شره إذا استمر في طريقه، واستمرت هي في غفلتها أو تغافلها، ولقد طالما نبهت إخواني ونحن نشاهد طلائع تلك المحنة: وأحس تجاوبهم معها نكايةً بمواقف نورى السعيد وأشباهه من رجال ذلك العهد، طالما نبهتهم إلى العواقب الوخيمة التي تنتظر البلاد والعباد من زواله، وما أحسبهم قد نسوا بعد قولي لهم: إن سقوط عهد نوري السعيد إنما هو انهدام للسد الذي يمسك طوفان الفتن.. وأنا لاأزعم أن رأيى ذاك كان الصوابَ كله في مواجهة تلك المقدمات، ومن أين الرأى السديد وقد باتت الأرض على كف عفريت، وأفلت الزمام من قبضة العقل، حتى أصبحنا كضحايا الزلزال يشهدون هلاك إخوانهم وهم ينتظرون مصيرهم، وما كنت بالبعيد عن موقف أولئك الاخوة من نوري السعيد، فأنا على يقين أنه بانحيازه لأعداء الإسلام في الغرب إنما يزيد في تحريض أذناب الشرق لتقريب موعد المحنة.. وما دام الجميع سواء في حرب الإسلام فلن يكون ثمة مهرب من عقاب الله.. ولكن الخلاف بيني وبينهم أنهم يتوقعون من سقوطه خيراً، وأتوقع من خصومه كل شر

وكان بين أنباء تلك الفواجع أخبار عن اخوة لنا في الله أوقع بهم الجزارون، وفي مقدمتهم مترجمنا الفاضل الذي نُقِل إلينا بطريق القطع أنه اختطف من منزله، ومُثل به قتلاً وسحلاً في شوارع بغداد، ثم شاء الله أن يجمعنا به على أتم مانعهده ولله الحمد حياة ونشاطا، ليواصل سبيله في خدمة الإسلام.

وخبراً آخر لاأدري كيف أغفله فضيلة الشيخ، وهو ذو صلة وثيقة بأحداث بلده، من جانب، ولما يحمله من تصوير لمؤامرات الشيوعية وأساليبها الشيطانية من الجانب الآخر.

والذي حدثني بهذا الخبر هو الدكتور مجاهد الصواف الأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز في مكة المكرمة ونجل فضيلته.

يقول الدكتور مجاهد الصواف: كان بين المواظبين على دروس الوالد في مسجد الصابونجي بالموصل رجل معروف بشهود الجماعات، وتوقير العلماء، واسمه عبد الرحمن القصاب، مايكاد يفوته واحد من دروس الوالد فإذا ماانفضت الحلقة أقبل على يده يقبلها ويسأله الدعاء.. وقد أحرز بذلك ثقة الناس حتى أسندت إليه وظيفة الخطابة والإمامة في مسجد رأس الكور.

ومن الموصل انطلقت شرارة الثورة المضادة لعبد الكريم قاسم بقيادة الضابط عبد الوهاب الشواف، ولكن شاء الله أن تتم المحنة، فأخفقت الثورة وقتل قائدها، وإذا بالشيوعيين يتدفقون على البلد من كل جانب حتى يفرضوا عليها سلطانهم، ولا يلبثوا أن يعقدوا المحاكم في الشوارع للقضاء على كل مناوىء للشيوعية بيد أن المفاجأة الكبرى هي أن يكون الآمر الأعلى لتلك المحاكم الميدانية هو ذلك القصاب نفسه!

وليس للقارىء أن يدهش لهذه المفاجأة، فقد عرف تاريخ الإسلام شياطين كانوا يرتدون مسرح الأولياء، ويطيلون الاعتكاف في المساجد، ويسلكون سبيل الزاهدين، حتى إذا مااستوثقوا من انجذاب العامة وأشباههم إليهم شرعوا ينفثون سمومهم في العقول والقلوب، طورا باسم التصوف، وتارة باسم الإمام المستور، وحينا باسم الأبواب والحجاب.. وللشيوعية كذلك وسائلها التي لاتتورع عن استغلال الدين على الوجه المرسوم.

إلى الشام فالمملكة

ويتابع فضيلته حديثه عن المحنة، التي أنقذه الله منها بالسجن، كما أنقذ عبده موسى من فرعون بإدخاله بيته، وتنشئته في ظله ورعايته، وهو الذي يتلهف لقتله، فكان ذلك سبيله إلى النجاة، ثم إلى الرسالة التي قضى بها سبحانه على فرعون وجنوده.

يقول الشيخ: لقد يسر الله لي الخروج من العراق على حين غفلة من الظالمين المتربصين بي الدوائر. ولبثت في الشام أربعة أشهر آمناً بين إخواني،

ومن ثم قدر الله لي الهجرة إلى هذه المملكة الغالية حرسها الله .

وفي ظل الأمن الذي كان أحوج مايتصور إليه، وجد المجال واسعا لنشاطه العلمي والدعوي، فقد بدأ عمله مدرساً في كلية الشريعة بمكة المكرمة، ثم رأى وزير المعارف الصالح حسن عبد الله آل الشيخ أن يعهد إليه بعمل مستشار في وزارته، واستمر على ذلك حتى انتقل معاليه إلى وزارة التعليم العالي، وفي تلك الأثناء صدر الأمر بمنحه التابعية السعودية، فعاد إلى جامعة الملك عبد العزيز متعاقداً ليستأنف عمله في مهمة استشارية ولما أُنشئت جامعة أم القرى الحق بها على المهمة نفسها، وحتى الساعة التي تسطر فيها هذه الكلمات لايزال قائماً بعمله ذاك في خدمة العلم.

ولكن نشاط الشيخ لم يقف عند حدود التدريس والإدارة خلال هذه السنين، فقد رأى شهيد الإسلام فيصل بن عبد العزيز، تغمده الله بواسع رحماته، أن يوجهه للعمل في حقل الدعوة فاختاره مبعوثاً خاصاً من قبله إلى ملوك المسلمين ورؤسائهم، للتذكير والتبليغ ولجمع كلمة المسلمين وتوحيدهم تحت راية القرآن، ونشر الوعي بين شباب الإسلام في مختلف ديار المسلمين.

وقد نهض الشيخ بهذه المهمة على أفضل الوجوه الممكنة، وتابع رحلاته طوال خمس سنوات، زار خلالها أكثر من خمس وثلاثين دولة في أفريقية وغربها وشمالها، كما زار كلا من باكستان وإيران.. وكان من ثمرات هذه الرحلات تكوين منظمة المؤتمر الإسلامي بتوجيه ومجهود الملك الشهيد.. وهي المنظمة التي لم تفتر مساعيها الحميدة في خدمة الشعوب الإسلامية على المستوى العالمي.

وقد أحسن الشيخ صنعاً بتسجيل وقائع ذلك التجوال المبرور في كتابه النفيس (رحلاتي إلي الديار الإسلامية) الذي ظهر مجلده الأول عن (أفريقية المسلمة) في ثمنمئة صفحة، وبذلك أتاح للقارىء المسلم أن يعرف الكثير عن وقائع هذه الرحلات ونتائجها وآثارها المباركه على القارة الأفريقية، ولا يقل عن ذلك أثراً مايحمله إليه ذلك الكتاب من أنباء هامة عن إخوانه وأوطانهم وأحوالهم وإمكاناتهم مما لايحسن بمسلم يهمه أمر أمته أن يكون على جهل به.

مَبَرَّة محمودة

وهنا تذكرت خبراً قرأته ــ أو سمعته ــ عن جائزة رصدها الشيخ لِحفَظَةِ القرآن الكريم في تركية الشقيقة فرجوت منه أن يقفنا على جلية الأمر، فكان جوابه: أنه أثناء تجواله في بعض الحواضر التركية قد أتيحت له زيارة العديد من معاهد التعليم الأهلية، المعنية بتدريس القرآن وتحفيظه، فسره كثيراً أن ثمة مايزيد على عشر الآف مدرسة من هذا النوع خاصة بالذكور، وأكثر من ثلاثة الآف مدرسة للبنات، ويضم معظمها أقساماً داخلية لبيت الطلاب والقيام بمئونتهم من الطعام والشراب، وقد راعه مالمسه هناك من عناية بكتاب الله قراءة وتجويداً واستظهاراً وبازاء ذلك يقول الشيخ قررت إحداث جائزة سنوية بمقدار مليون ليرة تركية ــ في حدود عشرين ألف ريال سعودي ــ توزع عن طريق الثقاة من أهل العلم والدين على طلاب وطالبات هذه المدارس القرآنية، ولضمان استمرار هذه الجائزة أوصيت أبنائي بتعهدها بعد وفاتي[1] .

ويتابع فضيلته: ولقد كان لهذا الخبر أثر طيب في نفس المحسن الكريم الشيخ إبراهيم الجفالي ــ من أعيان مكة ــ فلما علم بعزمي السفر إلى تركية في العام التالي حمَّلني مائة ألف ريال لأوزعها بنفسي على هؤلاء الطلاب والطالبات.. وفعلت ذلك بمعونة بعض إخواني من الأتراك، وشمل التوزيع العديد من تلك المدارس على مستوى الدولة، وفي العام التالي أيضاً دفع إلي بمئتي ألف ريال، فأبلغتها مكانها المنشود في مئات المدارس القرآنية، من استانبول وأنقرة وبورصة وبولا وأرضروم وغيرها من المدن.. وقد شاء الله أن تكون وفاة ذلك المحسن الفاضل أثناء ذلك التوزيع، فانتقل إلى جوار ربه مشيَّعاً بدعاء الألوف من الذين أحسن إليهم غفر الله له وعوض المسلمين عنه وجزاه خير مايجزى به عباده الصالحين..

---

(١) كنت : أتصفح عدد ٢٨ / ٦ / ١٤٠٤ من جريدة الرائد الهندية فإذا أنا أواجه على الصفحتين ١ ، ٢ تقريراً بقلم المترجم عن رحلته إلى مواطن المجاهدين الأفغان ، يصور فيه ما لمسه عن عزائمهم الإيمانية ، ويهيب بمسلمى العالم أن ينهضوا بواجبهم نحو هؤلاء الأبطال .. ثم يختم إهابته برصد أربعين ألف ريال سعودى سنوياً لهذا الجهاد ما دام قائماً ..

فبارك الله بأبي مجاهد وحقق الخير بندائه ..

(م ٢٠ – علماء ومفكرون عرفتهم)

يقول الشيخ: وإن لي وطيد الأمل بأن أخاه الوجيه الكبير الشيخ على الجفالي سيواصل سبيل أخيه وقد أكد لي ذلك بقوله: إنهم سينفذون كل ماكان يفعله أخوهم من هذه المبرات إن شاء الله، وفقهم الله إلى كل مايحبه ويرضاه.

خطيب ومؤلف

والذين يعرفون الشيخ يعلمون أن الله الذي أعطاه بسطة في الجسم قد آتاه مثلها في العلم وفي النشاط الدائب لخدمة الدعوة حيثما كان، وقد شهدته الأندية الأدبية والعلمية في المملكة ثم في مختلف الأنحاء التي جابها من أقطار المسلمين، خطيباً مفوها حاضر البديهة.. قد يدعى للكلام فإذا هو يتدفق في موضوع لم يعد له، وكأنه يقرأ في كتاب، وما أسرع ماتستجيب له الشواهد من أحداث التاريخ الإسلامي، ومن أخبار الصحابة، فتجري على لسانه مائجة بالمعاني، باعثة للتفاعل، ماثلة بالصور الحية، كأنك تشهدها بعينيك وفكرك معاً.. ومما يعمق أثرها في السامعين، انفعاله هو بها وعمق واقعها في قلبه، حتى ليغلبه الانفعال فيبكي ويُبكي، وتأخذه الحماسة حتى لكأنه يخطب في كتيبة من المجاهدين.

وقد شاء الله أن يتسع نطاق نفعه، فهو يخطب ويحاضر ويحدث ويؤلف، ويسمي لنا بعض مؤلفاته بالعنوانات التالية/

١ ــ (نداء الإسلام) ٢ ــ (صوت الإسلام) ٣ ــ (المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام) ومن مؤلفاته شبه سلسلة من الكتب في إطار مادعاه (المكتبة القرآنية) وقد صدر منها حتى كتابة هذه السطور ثمانية أجزاء ١ ــ القرآن آثاره، أنواره، فضائله. ٢ ــ أم القرآن. ٣ ــ نظرات فى سورة الحجرات. ٤ ــ بين الدعاة والرعاة.

ومن كتبه الأخرى (معركة الإسلام ــ وقائعنا في فلسطين بين الأمس واليوم). ثم (عدة المسلمين في معاني الفاتحة وقصار السور) ثم (تعليم الصلاة) و(الصيام في الإسلام) و(زوجات النبي الطاهرات وحكمة تعددهن) و(المسلمون وعلم الفلك) وأخيراً (رحلاتي إلى الديار الإسلامية) الذي سلف ذكره وهو أوسع كتبه ولابد أن يكون من أكثرها نفعاً للراغبين في معرفة أحوال المسلمين وبخاصة فى أفريقية.

التراث الذي نسيناه

وقبل الانتقال إلى تتمة العرض أحب أن أقف بالقارىء هنيهة أمام أحد هذه الكتب وهو (المسلمون وعلم الفلك).

إن المطلع على فهارس المؤلفات الإسلامية قبل سقوط بغداد في أيدى متوحشة التتار، وأثناء اللمعات المتقطعة خلال عصور التخلف والجمود من تاريخ المسلمين؛ يدرك أن علماء الإسلام ومفكري المسلمين لم يدعوا شاردة ولا واردة من علوم الكونيات إلا سجلوا كشوفهم وملاحظاتهم عنها ودراساتهم لها، وقد وقع منها الغربيون على كنوز فتحت لهم أبوابا للمعرفة لم تخطر على أفئدتهم قط، وكان بعضها منطلق وثباتهم الهائلة في قوانين المادة. غير أن جمود السواد الأكبر من المسلمين على محض التقليد وانقطاعهم عن سبل البحث والكشف والإبداع، أقصاهم عن تراثهم الحضاري الذي أضاء ظلمات العالم.. حتى صاروا يستغربون كل ماهو مألوف عند أهل العلم والخبرة، ويستنكرون كل جديد يحققه الإنسان الطليق من أصفاد التقليد.

وفي موقف بعض مشايخنا الموقرين من موضوع الفلكيات مثل بارز على ذلك الواقع المؤسف الذي انتهينا إليه.

لما بدأت محاولات الرواد في عالم الطيران أثناء القرن التاسع عشر، وجعلت الصحف العالمية تنشر أخبار الأخوين (رايت) وتجاربهم في هذا الحقل، كتب أحد كبار العلماء المسلمين في تفسير له للقرآن العظيم ينكر هذه الاخبار، ويؤكد استحالة الطيران على الإنسان، مستدلاً على ذلك بقول تعالى ﴿**يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا**﴾ سورة الرحمن ٣٣ . ثم لم يمض إلا زمن قصير حتى اخترق الإنسان الفضاء بأسرع الأجهزة، فقرب الأبعاد، وقصَّر الآماد، ولا يزال يتابع السعي لتضييق مساحة الكون بأسره.

ولما تصاعدت الأحاديث عن غزو القمر انتفض بعض شيوخنا نفعنا الله بهم يثيرون الزوابع، ويكذبون الوقائع، ويكفرون من يقول بذلك.. وعملية غزو القمر وما وراءه مرتبطة من حيث السنن الكونية بحركة الأرض ودورانها، اذ لايمكن حسبان العملية إلا على أساس وضع الأرض وما فيها من جاذبية، وما

يحيط بها من أجواء واسعة كونية .. فإذا هم يملئون الفضاء صياحاً بالتحذير من قبول هذه الأفكار ولا يتورع بعضهم عن قذف أهلها بـ (الصواعق المحرقة) من الطعن والقذف ..

ولو أن هؤلاء الفضلاء أصلحنا الله وإياهم راجعوا أقوال أساطين علماء المسلمين من السابقين، الذين عالجوا بعض هذه الموضوعات، ولو أنهم رجعوا البصر في كتاب الله لرأوا غير مارأوا. وحسبنا أن نذكرهم — في مايتعلق بدوران الأرض الذي بات من المتواترات بل المشاهدات في هذه الأيام — أن الله لم ينسب السبح للشمس والقمر قط إلا وقبلهما الأرض لفظا ومعنى، فليرجع من شاء إلى قوله تعالى ﴿**وكل في فلك يسبحون**﴾ في سورتي الأنبياء وياسين حتى يعود إلى القناعة بعد الرفض.

أذكّر بهذا كله لأشير إلى تلك الضجة التي أثارها بعض أولئك الفضلاء حول كتاب الأستاذ الصواف (المسلمون وعلم الفلك) وقد ملأت كتابين يحويان مئات الصفحات شحنت بالطعن والتجريح والهجوم على المؤلف، وهو الذي لم يقل من عنده شيئا بل نقل أقوال أهل الاختصاص، ودعمها بما وصل إليه العلم التجريبي من كشوف، لايتصور أن يكون بينها وبين حقائق الوحي أي خلاف .. وجزى الله شيخنا الجليل أبا عبد الله عبد العزيز بن باز كل خير لرحابة صدره في نقاش المخالفين، فقد كان آخر ماسمعت منه في شأن الأرض أنه لايزال على رأيه في ثباتها أخذاً بظواهر بعض الآى، ولكنه لايسيء الظن بمخالفيه بناء على ماظهر لهم من الأدلة .. وأجزل الله أجر فقيد العلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، الذي قال لنا مثل ذلك، وأضاف إليه أن هذا مبلغ فهمه من الكتاب العزيز، فإذا تحقق خلافه كان الخطأ في فهمه لكتاب الله، فهو الغالب وإليه الحكم في كل اختلاف.

أرقام ناطقة

وشيء آخر من حق القارىء أن يقف عليه، ولا يحسن بمترجم لمثل هذا الداعية إغفاله، ذلك هو ما علمته أثناء وجودى بالقاهرة فى المحرم عام ١٤٠٣ هـ من فضيلة الأخ الشيخ حسن أحمد عاشور، صاحب الاعتصام ومجلتها حين حدثنى عن بعض مؤلفات المترجم ومدى انتشارها فى مختلف

أقطار المسلمين ، وقد خصّ بالذكر منها الأربعة التالية (**القيامة رأى العين**) و (زوجات النبى الطاهرات) ثم (بين الرعاة والدعاة) وأخيراً (**تعليم** الصلاة) .

يقول الشيخ حسن : لقد بلغ المطبوع من الأول **ثلاثمائة ألف نسخة** ، ومن الثانى أكثر من خمسين ألفاً ، ومن الثالث عشرات الألوف ، ومن الرابع مائة ألف ، وترجم لأكثر من عشر لغات .

وإنها لشهادة تصور علاقة المؤلف بملايين القراء ، وفى المقادير الهائلة من نسخها دليل كبير على انتشار أفكاره وآثارها فى العقول والقلوب ، ومما يؤكد أهمية هذه الشهادة صدورها عن الناشر الذى عن داره صدرت هذه المطبوعات . .

أنموذج من كتابته :

وأخيراً . . لقد كانت رحلة القارىء مع مترجمنا الفاضل على قصرها كافية لإعطائه الكثير من ملامحه النفسية والعقلية ، ونشاطه الدؤوب فى خدمة الإسلام ، فلنختم الآن هذه الرحلة بنموذج من كتابته التى لا أقدرَ منها على تصوير تلك النفس بكل ما فيها من حماسة وإخلاص وصراحة ووضوح ، وقد استنسخناها مما سطره عن مؤتمر كراتشى ، بعد وقفة حائرة بين ما نأخذه وما ندعه ، لأن فى كل كلمة مع تلك الصفحات عاطفة تموج ، وروحا تتوهج ، وعزيمة تتفجر ، وفى كلها صورة صادقة من مميزاته الشخصية تشهد بصحة الرأى الذى يقول : أسلوب الإنسان هو نفسه . .

يقول الأستاذ الصواف في الصحفتين ١٦٢، ١٦٣ من كتابه (نداء الإسلام) ط ٢ :

«وأود هنا أن أضرب مثلين شهدتهما بنفسي ليرى الناس روح الإسلام في نفوس المسلمين غير العرب ، ومن خلالهماأرجو أن يتبين لنا وجه الحق ونعلم كم هي خسارتنا حينما نقلنا قضية فلسطين من قضية إسلامية إلى قضية عربية خاصة .

قبل عشر سنوات تقريباً دعيت إلى المؤتمر الإسلامي الأول المنعقد في كراتشي عاصمة الباكستان، فذهبت عن العراق أنا وعالم العراق الأكبر الشيخ أمجد الزهاوي حفظه الله وبعض الإخوان المحامين ورجال الصحافة في بغداد، وكانت قضية فلسطين لاتزال طرية جديدة، وشارك في المؤتمر وفود كبيرة من مختلف ديار الإسلام، ومن الوفود البارزة رؤساء قبائل الباتان وهي قبائل ضخمة تعد بالملايين ورجالها أبطال أشداء أو لو بأس شديد ترى الرجولة والبطولة والعزة بادية على وجوههم المشرقة بنور الإيمان، وعلى أجسامهم الممتلئة صحة وعافية ويقينا، وتسكن هذه القبائل في الجبال الممتدة بين باكستان وأفغانستان يفصلها مضيق خيبر المشهور، وهم شقر الوجوه، ضخام الأجسام، رجال حرب وضرب، كانوا يدخلون المؤتمر بأسلحتهم ولا يفارقون السلاح وهو من صنع أيديهم وبصورة جيدة جداً ولقد رأيت بعض أسلحتهم بنفسي ولم أرها تختلف كثيراً عن السلاح المصنوع في أوربا سواء بنادقهم أو مسدساتهم.

وعند مناقشة قضية فلسطين وكان سماحة الحاج أمين الحسيني يومها رئيساً للجلسة احتدم الجدال فقام رئيس هذه القبائل وقاضيهم الشجاع فوقف وسط المؤتمر وتكلم باللغة العربية وقال بجد وحماس: افتحوا لنا الطريق أيها العرب نحن نكفيكم الحرب، ونحن نقتل ونطرد اليهود والإنكليز ونخلص مسجدنا المبارك ومسرى نبينا وحبيبنا وإمامنا محمد ﷺ. وقبلتنا الأولى المعظمة.. افتحوا لنا الطريق لنجاهد في سبيل الله. أعلنوها أيها العرب جهاداً إسلامياً ونحن وحدنا ننقذ الأقصى ولا نكلفكم مالاً ولا رجالاً ولا سلاحاً فنحن سلاحنا معنا ونصنعه بأيدينا منذ مئات السنين. إن الإنكليزي الشيطان مااستطاع أن يدنس أرضنا منذ مائة وخمسين عاماً.

بل نحن فرضنا الجزية عليه. افتحوا لنا الطريق لنموت شهداء في سبيل الله.

كيف تضيع منكم فلسطين ؟ كيف تضيع ؟! كيف تضيع ؟؟ ثم دمعت عيناه وجلس وساد المؤتمر صمت عجيب وشعرنا نحن العرب بالخجل والأسف ثم أيده رجال القبائل جميعاً ثم كان بيننا بعد الجلسة عناق وبكاء على هذه الروح الإسلامية التى أضعناها بجعل قضية فلسطين قضية عربية فقط» ..

الدكتور محمد ناصر

عرفته لأول مرة قبل خمس عشرة سنة ...
وكان ذلك في بيت الطلبة الأندونيسيين ...
دعاني بعضهم للاستماع إلى محاضرة يلقيها الدكتور محمد ناصر ...
ولم يكن ذلك الاسم غريباً عني، فقد قرأت عنه الكثير خلال مطالعاتي أنباء الدولة الإسلامية الكبيرة الجديدة أندونيسية ...
وكانت محاضرة رائعة على الرغم من أني لم أفهم حرفاً من لغتها الأصلية، إلا أن الطالب الذي تابعها بالترجمة كان فصيح العربية مبينها ...

لم يبق في ذاكرتي شيء من موضوع تلك المحاضرة، اللهم إلا أطيافا لاأزال أتذوق جمالها، ومرد ذلك إلى أمرين أحدهما الأفكار العالية التي عالجها على مدى أكثر من الساعة، وكلها حول أندونيسية، والصفة الإسلامية التي يجب أن تتميز بها أبدا وبخاصة في مرحلتها الجديدة بعد الاستقلال،والثانى عمق الرؤية التي كانت تظلل تلك الأفكار فيخيل للسامع أنها فلذ من قلبه أكثر مما هي كلام يقال ...

وكان للرصانة التي تُميز صورة الخطيب ولهجته ضرب من الإيحاء قوي يشد إليه السمع والبصر.. إذ تشعر وأنت تلاحظه وتستمع إليه أنك تلقاء شخصية ثقلت موازينها، فهي أكبر من الكيان الذي تحتله من ذلك الحجم الأندونيسي اللطيف.. شخصية تتجمع فيها مواهب الجامعي الدقيق العبارة، والسياسي البعيد الغور، والمؤمن الذي يسكب على كل من هاتين الصفتين الوقار الموجب للثقة والاحترام.

وتكر الأيام، ويقدر اللهَ لي الشخوص إلى أندونيسية، فألقى الدكتور محمد ناصر بمكتبه فى المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية فى جاكرتا، فإذا هو هو الذي لقيته في المدينة المباركة قبل هاتيك السنين، لم يتغير على نظري شيء منه، هدوؤه ورصانته ومظهره الجدي الوقور، بل لكأن الزمن قد وقف به حيث كان

يومئذ، فلم يقربه من الشيخوخة، ولم يبعده عن سن الشباب، ولا غرابة في هذه فهي السمة المميزة للجنس الأندونيسي الذي يحتفظ أبدا برونق الشباب، فلا يكاد يرهقه الكبر...

على أن سنوات الفراق لم تكن لتقطعني عن أخباره، فأنا أعلم من خلالها ضخامة العبء الذي يتحمله في سبيل الإسلام، وشدة البلاء الذي يواجهه من أعدائه، الذين تسللوا إلى القوة عن طريق المنافذ التي خططها لهم الاستعمار، كما فعل في كل قطر إسلامي أكره على مغادرته، فلم يدعه إلا بعد أن أسلم أزمته إلى تلاميذه الذين فاقوه في عمليات التخريب لكل ماهو إسلامي...

لقد استطاع خلال المناصب التي شغلها من إدارات ووزارات ورئاسات وغيرها، أن يرفع راية الإسلام كما أنزله الله ديناً ودولة، وصدع بكلمة الحق في وجه الزعازع الهائلة من مؤامرات المعادين للحق، ولم يستطع رأس طواغيتهم سوكارنو وكل الذين آزروه وحرضّوه، إخفات ذلك الصوت إلا بالوسائل التي عرفتها شعوب الإسلام في كل مكان قفز فيه أعوان الشيطان إلى سدة الحكم بالتزييف وبالحديد والنار.. وكان بوسعه وإخوانه أن يستمروا في نطاق السلطة لو رضوا بما عرضه عليهم أولئك الطواغيت من التخلي عن الصفة الإسلامية التي أقاموا جهادهم السياسي على أساسها . ولكنهم آثروا إسلامهم على كل شيء، وفارقوا مناصب الحكم ليتابعوا سبيلهم لخدمة الدعوة في أوساط الجماهير، التي ستظل الممثلة لمادة الإسلام في سائر البلاد الإسلامية، وعليها يتوقف مصيره أمام الهجمة الشرسة التي يشنها أساطين السلطة الغاشمة على قواعده..

وهكذا انحاز محمد ناصر وإخوانه إلى العمل الصامت عن طريق المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية الذي تنتشر فروعه على مستوى الجزر المأهولة في أندونيسية، يبصرون المسلمين بدينهم، ويُعَمِّقون انتماءهم إليه، ويواجهون بصبرهم ودأبهم واستقامتهم أعنف الحملات الصليبية على هذا الدين، الذي تضافرت على حربه كل مراكز القوة من حكام داخليين وأعداء خارجيين، ودعاة للنصرانية لايقبلون هدنةً مع الإسلام، الذي أعلنوا تصميمهم على استئصاله، وأعدوا لذلك عدتهم الهائلة من أساطيل تجوب أقاصي الجزر وأدناها

في الجو والبحر والبر، ومن مؤسسات تعليمية تفوق معاهد الدولة وجامعاتها، إلى وسائل إعلامية تغطي بصحفها ومنشوراتها وإذاعاتها كل مكان من أندونيسية.. وقد اتقنوا فنون الاستغلال للأوضاع الاقتصادية التي ترهق الطبقات المسحوقة تحت عجلات النظام، الذي ضيق عليها سبل الحياة فحرمها حتى الضرورات الأولية وبذلك هيأها للسير وراء كل ناعق يضمن لها الحد الأدنى من وسائل العيش، وأطمع بها أولئك المضللين حتى استطاعوا تحويل الآلاف بل الملايين من الإسلام إلى النصرانية على مرأى ومسمع من الحكام الذين لم يخفوا تأييد النصرانية الغازية، بل حركوا حتى بقايا الوثنية من باطنيئ جاوة لاعلان نحلتهم، وللمطالبة بالامتيازات التي تمكنهم من إثبات وجودهم وتثبيت شخصيتهم الطائفية فى مجلس الأمة وهى المؤامرة التى نفذت بقوة الحراب فسقط ضحيتها الأعداد من شباب الإسلام الذين هبوا للاحتجاج عليها بتظاهراتهم الصاخبة، فجوبهت بالجيش يقتحم عليها ساحات الجامعات ويملأ بجرحاهم المستشفيات..

ثم تأتي مع هذا وذاك فتنة (البانجاسيلا) التي اخترعتها الطغمة السوكارنية، لتجعل منها منهاجاً جديداً يصرف المسلمين عن دينهم إلى تعاليم يراد منها أن تحل محل الأديان المعروفة في أندونيسية، فتجعل من المائة والأربعين مليوناً من سكانها عجينة موحدة النوع لاتنظر إلى الحياة كلها إلا من ثقب واحد، هو الذي يحدده ذلك الميثاق الخماسي العجيب.. وكأن واضعيه إنما أردوا إحياء بدعة ذلك الأفاق امبراطور الهند (جلال أكبر) الذي أغواه شياطين الجن والإنس، فلم ير لتوحيد شعوب الهند سوى إلغاء انتماءاتهم الدينية بتحويلهم إلى ديانة واحدة لفّقها من معتقداتهم جميعاً.. فكان أن زاد الطوائف واحدة تمتاز على الجميع بأنها أشد حقداً على الإسلام وعدوانا على المسلمين.

ولقد قيض الله لنا الفرصة المناسبة أثناء زيارتنا أندونيسية، فلمسنا آثار المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية في كل بلد حللناه من تلك الجزر، والتقينا بما لايحصى من الشباب العامل في ظله، فأدركنا الحكمة التي حققها الله في انصراف الدكتور محمد ناصر وإخوانه إلى ذلك السبيل الذي اختاروه مخلصين لخدمة الإسلام وإصلاح شأن المسلمين، والوقوف بوجه الغزو الصليبي

الشرس، على الرغم من البون الشاسع بين وسائلهم ووسائل المبشرين.. وكل سلاحهم في هذا المعترك هو وعيهم العميق لحقائق الإسلام، ثم إيمانهم الراسخ بأن الله ناصرهم ماداموا في طاعته، فهم لايدّخرون وسعاً في بذل كل مايملكون من مجهود في سبيل الدعوة التي شرفهم الله بخدمتها..

حوارنا مع الدكتور محمد ناصر

س ـ نرجو التفضل بذكر الاسم والميلاد والبلد والدراسة؟

ج ـ الاسم محمد ناصر، وقد ولدت يوم ١٧ يوليه من عام ٩٠٨ في بلدة تدعى (الاهان بانجانغ) من أعمال (مانتجاو) في أندونيسية، وتقع على ضفاف البحيرة التي تحمل هذا الأسم، وهي معروفة بطبيعتها الخلابة.

ويفهم من كراسة كتبها عنه الأخ الأستاذ محمد أكوسجيء أن تلك البلدة في ولاية سومطرة الغربية، وعلى عادة أهلها في تكريمهم للزعماء والقادة اكتسب الدكتور لقب (داتو سينارو بانجانغ).

ويزيد الأستاذ محمد سعيد بأنه نشأ في بيت دين وعلم وجاه، فجده لأمه واحد من علماء مينانكاب أما أبوه فكان أحد اداريي المنطقة، وبذلك اجتمع في الدكتور محمد ناصر رافدا الدين والجاه ثم الثقافة العامة.

ويقول الدكتور أنه تلقى دراسته الابتدائية فى المدرسة الحكومية الهولندية (سولوك) ثم انتقل إلى المرحلة الإعدادية فى المدرسة الحكومية (ميولو) فى بادانغ ومن ثم التحق بقسم الآداب الغربية الكلاسيكية في المدرسة الثانوية المسماة (الكوميني ميد ليارسكول) في مدينة باندونغ والظاهر أن مركز أسرته قد ساعده على هذا الالتحاق، إذ كان الوصول إلى المدارس الحكومية محفوفاً بالمصاعب إذا لم يكن التلميذ من أبناء الذوات وموظفي الحكومة أو كبار الملاك والأثرياء، هذا فضلاً عما يقتضيه التغرب من أعباء تبهظ كاهل الأسرة، وقد جمع الفتى بين الدراستين الحكومية والدينية، إذ قسم يومه الدراسي شطرين، فشطره الأول في المدارس الرسمية، وشطره الآخر في إحدى المدارس الأهلية الإسلامية، كشأن أبناء الأسر المسلمة الحريصة على دينها حتى الآن.

يقول الدكتور: إن انتقاله إلى باندونغ المعروفة بلقب (باريس جاوا) آنذاك كان ضربا من المغامرة وقاه الله شرها بما سبق له من التربية الدينية، ثم بما أتيح له من الاتصال بأحد فضلاء العلماء هو الشيخ حسن أحمد العالم السلفي، الذي ضاعف من زاده الروحي بما تلقي على يديه من علوم الشريعة إلى جانب دراسته العامة. وفي هذا الجو الجاد أتم المترجم مرحلته في تخصص التدريس حتى نال إجازته.

س ـ وعن الرجال الذين أثروا في توجيهه يقول الدكتور:

ج ـ أولهم هذا الفاضل الشيخ حسن أحمد، وكان يدير في باندونغ معهد (برساتوان إسلام) أى معهد الوحدة الإسلامية، إلى جانب عمله في تأليف الكتب الإسلامية ونشرها، وقد أعجب الشيخ بالفتى لما وجده من تشبعه بالثقافة وشدة اهتمامة بالعلوم الإسلامية، فلم يدخر وسعا في تعميق ذلك الاهتمام وإمداده بالغزير من الخير.

ويثنى الدكتور بالحاج أقوس سالم الذى يصفه بالسياسى المسلم الذى جعل همه الأخذ بيد الشباب الناشيء على الثقافة والتربية واعادته إلى الحظيرة الإسلامية، وكان من جهوده الموفقة تشجيع هؤلاء الفتيان على إنشاء منظمة (بونغ إسلاميتين بوند) وهو تعبير هولندي يعني (اتحاد الشباب المسلمين) وكان لهذه المنظمة أثر هام إذ خرَّجت أفذاذ القادة والزعماء الإسلاميين الملتزمين، الذين تولوا قيادة المسيرة الإسلامية فيما بعد وكان محمد ناصر هو رئيس فرعها في باندونغ، التي تعتبر أحد منطلقات الجهاد الإسلامي فى أندونيسية.

ثم يذكر من ذوى الأثر فى توجيه الشيخ أحمد السركتى الأنصارى السوداني، الذي وفد إلى أندونيسية لنشر العلم والمعرفة.

ويصف هذا الشيخ بأنه من السلفيين، وأنه مؤسس مدارس الإرشاد فى العديد من مدن جاوة.. وقد أتيح لنا زيارة مؤسسة الإرشاد القائمة في سورابايا، إحدى أروع حواضر أندونيسية، ولمسنا جهودها المباركة سواء في معهدها التعليمي أو مستشفاها المتكامل، وضاعف إعجابي هناك تلك العربية السليمة التي سمعناها من كل مسئول لقيناه في تلك

المؤسسة ولا سيما ذلك الحضرمى الكريم الذي أُنسيتُ اسمه، وقد سجلت ذلك كله في كتابي (ذكريات لاتُنسى..) ومن هنا تطرقنا إلى السؤال الرابع.

س ـ أهم الأحداث التى عاصرتموها وتفاعلتم معها؟

ج ـ بعد تخرجي فى معاهد العلم الهولندية تفرغت للعمل الإسلامي، وبدأت ذلك في التدريس، إذ افتتحت مدرسة باسم (روضة التربية الإسلامية) استأجرت لها مبنى اتخذت قسماً منه سكناً لي ولزوجتي التي اقترنت بها حديثا...

ويقول الأخ الأستاذ محمد سعيد: لقد أقبل الدكتور على عمله فى التدريس بجد كبير، ولم يكتف بالتدريس بل اندفع بالروح التي ألهبها شيوخه في صدره فشرع قلمه للكتابه في الصحف وألف عدداً من الكتب باللغة الهولندية موجهةً إلى خريجي الثقافة الغربية تعرض لهم حقائق الإسلام ومحاسنه.. ومن روائع كتبه أثناءئذ مؤلفه عن (المرأة المسلمة وحقوقها) و(حضارة الإسلام) الذي اشترك في تأليفه مع البروفيسور الهولندي سخوماكر، ثم كتابه الآخر (هلموا إلى الصلاة) فكان له أثر طيب في خريجي المدارس الهولندية. وقد صدرت هذه الكتب مابين ١٩٣٢، ١٩٣٦.

وهكذا بدأت مسيرته العملية فى الدعوة إلى الإسلام والدفاع عن حقائقه بوجه الحملات المسعورة التى تولى كبرها دعاة النصرانية وأذيالهم من المتخرجين على أيديهم وقد أصدر من أجل ذلك مجلة سماها «الدفاع عن الإسلام» حملت الكثير من مقالاته فضلاً عن كتاباته الأخرى فى العديد من الصحف بتوقيع «أ. مخلص».

فى تلك الأثناء حدثت هزيمة الهولانديين على يد الغزاة اليابانيين وفى ظل التغيرات الجديدة أسندت إلى الدكتور إدارة التربية والتعليم فى حكومة بلدية باندونغ.

على أن من أهم الأحداث التي واجهها عقيب ذلك، فكان لها الأثر العميق في مجرى حياته، هو انتقاله إلى جاكارتا، ليتولى سكرتيرية الجامعة الإسلامية، التي أُنشئت حديثاً. ففي باندونغ كان متفرغاً للتربية والتعليم

وللدفاع عن الإسلام ومصالح المسلمين، لذلك لم يلتحق بأي من الأحزاب السياسية حتى سنة ١٩٤٠ إذْ انضم إلى (الحزب الإسلامي الأندونيسي) برئاسة الدكتور سوكيمان.. ومن هنا أخذ سبيله إلى العمل السياسي، فمالبث أن برز كأنموذج للزعيم المسلم النزيه.

وأما الحدث الثاني فقد تمثل في التفاعل الذى حدث بين الدكتور ناصر وسوكارنو. يقول الأخ محمد سعيد: لقد شَهِدَتْ باندوبغ حركتها الإسلامية بزعامة محمد ناصر، على حين قامت فيها حركة قومية بزعامة سوكارنو، تتخذ من النعرة القومية متكأً لها..

كان سوكارنو يدعو إلى القومية الأندونيسية كسناد لحركة التحرر، على حين كان محمد ناصر وصحبه يدعون إلى الإسلام كمنطلق للتحرر، وقد بذل جهداً عظيماً في شرح حقائق الإسلام وفاعلية تعاليمه في تنظيم الحياة العامة.. وقد بلغ التفاعل بين الحركتين أشده فيما بعد.

حزب ماشومى

عقيب استقلال أندونيسية عام ٩٤٥ وبعد انحسار الاحتلال الياباني اجتمع زعماء الأحزاب والجمعيات الإسلامية السابقة للاحتلال الياباني في مؤتمر عام بمدينة جوكياكارتا بتاريخ ٧ نوفمبر ٩٤٥ وقرروا نبذ الفرقة والانضمام فى عمل سياسي يوحد كلمتهم، فكان من ذلك (مجلس ماشومى مسلمى أندونيسية) وفي هذا الاجتماع التاريخي انتخب محمد ناصر ممثلاً للشبان المسلمين في ذلك المجلس، ثم مالبث أن بويع رئيساً عاماً للحزب لفترة امتدت مابين ٩٤٩ و ٩٥٩ ثم خلفه على رئاسة الحزب الأستاذ برادوتو عندما انضم محمد ناصر إلى الثورة الإسلامية بسومطرة لمواجهة انحرافات سوكارنو.

لقد كان لقيام حزب ماشومى هزة عظيمة، إذ كان يمثل مسلمي أندونيسية في وحدة متلاحمة، وكان برنامجه السياسي واضحاً وصريحاً قائماً على الالتزام التام بالإسلام. ومن منطلقاته الرئيسية عدم التعاون مع الشيوعيين ومن يتعاطف معهم. ومعلوم أن ذلك إعلان صريح بالمعارضة لحزب سوكارنو.. الذي اتخذ له واجهة (الديمقراطية الموجهة) فما إن حلت أواخر الخمسينات حتى بلغ الخلاف بين الفريقين أشده، إذ انطلق سوكارنو فى خطه المضاد

للإسلام، راكباً نزواته السياسية وغير السياسية، ومحتضناً الحزب الشيوعي الذي آثره بالرعاية، وأصر على اشتراكه فى الحكم.. وكان ذلك من سوكارنو إيذانا بالحرب لحزب ماشومي، ثم لم يتورع عن استخدام كل أنواع الأرهاب في تعامله مع زعمائه، ومن ذلك استخدامه شباب الشيوعيين والمرتزقة. للتضيق عليهم وتهديدهم، مما اضطر كثيراً منهم للنزوح إلى سومطرة، في حين برزت في الأقاليم انتفاضات بقيادة قواد المناطق العسكريين تطالب بعودة محمد حتا إلى الحكم وإقصاء الشيوعيين عن مراكز السلطة.. بل لقد بلغ الأمر إلى حد إعلان بعض المناطق تمردها ورفضها الخضوع لأوامر السلطات المركزية.. فكان هذا نذيراً بمضاعفات خطيرة تفسح السبيل للاستغلال الأجنبى، فكان على محمد ناصر وصحبه وجوب التدخل لتلافي ماأمكن من الأخطار المتوقعة، والعمل على ضبط الأمر في الطريق الصحيح.. وطبيعي أن يكون موقفهم مبنياً في الأساس على الوقوف بوجه الخطر الشيوعي، الذي كانوا يحسبون له ألف حساب. وقد برهنت الحوادث التالية على صدق توقعاتهم حين انفجر الإنقلاب الشيوعي عام ٦٥، واغتال الشيوعيون العديد من قادة الجيش، وكادوا ينجحون في اغتصاب السلطة لولا رحمة الله، الذي تدارك الخطر الماحق بيقظة العناصر الإسلامية، ثم استمرت مواجهة الإسلاميين لنزوات سوكارنو حتى تمت الاطاحة به عام ٩٦٦.

سـ لو تفضلتم بالكلام عن آثاركم العلمية والفكرية.
ج ـ وأجاب فضيلته بأن ثمة عدداً من المؤلفات والرسائل منها:

١ ـ (كتاب الصوم) ٩٣٢ / ٢ ـ (إسلاميتين ايديال) ٩٣٤ / ٣ ـ (المرأة المسلمة وحقوقها) ٩٣٦ / ٤ ـ (ببلوفيليزم) ٩٤١ / ٥ ـ (الحضارة الإسلامية) ط ٣ من مجلدين / ٦ ـ (التركيب الطبقى لمجتمع الإسلام ٩٥٠ / ٧ ـ (البناء وسط الأنقاض) ٩٥١ / ٨ ـ (خطبة عيد الفطر) ٩٥١ / ٩ ـ (هل يمكن فصل الدين عن السياسة ؟) ٩٥٣ / ١٠ ـ (إسهام الإسلام فى السلم العالمى) ٩٥٣ / ١١ ـ (الثورة الأندونيسية) ٩٥٥ / ١٢ ـ (الدينية أو اللادينية) ٩٥٧ ، وقد ترجمت إلى العربية وصدرت منها طبعتان وقد صدر له فى الستينات الكتب الآتية : (الأخلاقيات الحديثة) و (العلم

والسلطة والمال أمانة) (وحدة الدين والدولة) و(ابذروا البذور) و (الإسلام والنصرانية فى أندونيسية) وفى السبعينات صدرت له المؤلفات التالية : (ابنوا العالم بأعمالكم وأضيئوا الزمان بإيمانكم) و (أعيدوا المثالية مرة أخرى) و (معقل الدفاع الفكرى) و (الإسلام والفكر الحر) و (القلق الروحى ومسئولية الأسرة الجامعية والمعاهد العليا) و (طوبى للغرباء) و (حينما لا يستجاب الدعاء) و (آثار الرسالة وأسس الدعوة) و (فى ظل الرسالة) و (قضية فلسطين) و (المسجد والقرآن والانضباط) و (الخوف والاستعمار) و (الدين والأخلاق) و (الدعوة والتنمية) و (المحمدية رائدة تجديد الفكر الإسلامى) و (اليد التى لم يتقبلها أحد) و (الإيمان مصدر القوة الظاهرة والباطنة) وتبلغ هذه المؤلفات خمسة وعشرين عنواناً ، وتحت بعضها أكثر من كتاب ، ولعلى نسيت بعضها عند النقل ويلاحظ القارىء من خلال هذه العنوانات ملامح الجدة والعمق والشمول التى يمتاز بها فكر الدكتور محمد ناصر فهى من هذه الناحية لا تخص أندونيسية وحدها بل تمس واقع العالم الإسلامى بأسره ، بل إنها لتتسع حتى تشمل تطلعات الإنسان أياً كان وأينما كان .

وطبيعى أن شخصية هذه بعض آثارها لا بد أن تتعدد أعمالها ذات الأثر العميق فى حياة المجتمع لذلك طرحنا بين يدى الدكتور السؤال التالى :

س ــ إن المطالع لترجمتكم لا بد أن يتساءل عن الأعمال التى توليتموها حتى الآن ؟

ج ــ ومضى الدكتور في سرد هذه الأعمال منذ تخرجه في التعليم حتى يوم لقائه هذا : ١ ــ إدارة مدرسة (روضة التعليم) في باندوبغ. ٢ ــ مدير مصلحة التربية والتعليم في باندونغ. ٣ ــ أمين سر الجامعة الإسلامية في جاكارتا. ٤ ــ عضو المجلس الأعلى الإسلامي الأندونيسي. ٥ ــ وزير الإعلام في ثلاث وزارات. ٦ ــ عضو اللجنة الوطنية الأندونيسية ــ البرلمان المؤقت. ٧ ــ عضو البرلمان الأندونيسي. ٨ ــ رئاسة مجلس وزراء أندونيسية. ٩ ــ رئيس حزب ماشومي. ١٠ ــ عضو المجلس

التأسيسي المنتخب. ١١ ــ رئيس المؤتمر الإسلامي بدمشق. ١٢ ــ نائب رئيس المؤتمر الإسلامي حتى الآن. ١٣ ــ عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي حتى الآن. ١٤ ــ مستشار عام رابطة العالم الإسلامي. ١٥ ــ رئيس المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية في أندونيسية. ١٦ ــ مستشار في عدد من المنظمات والمعاهد والجامعات الإسلامية بأندونيسية وبخاصة اتحاد الجامعات الإسلامية الأهلية واتحادات المعاهد الإسلامية..

ونجد في ماكتبه الأستاذ محمد سعيد عن (محمد ناصر) مالا غنى عن ذكره لسد بعض الفجوات التي تركها جواب الدكتور الآنف، وبخاصة في الجانب السياسي، وما رافقه من ألوان الصراع بين إرادة سوكارنو الاستبدادية واستظهاره بالشيوعيين والقوميين، وبين المنهج الشوري الذي التزم به حزب ماشومي وأنصاره على مستوى الدولة الأندونيسية كلها.

لقد وجد سوكارنو في حزب ماشومي وأنصاره سداً منيعاً بوجه انحرافاته، فحشد كل ماحوله من الطاقات لتعويق مسيرته الإسلامية، ولإقامة العقبات في طريقه، واستعان لذلك بالنصارى والشيوعيين وبذل المستحيل لتفتيت الوحدة الجامعة داخل ماشومي، حتى استطاع أخيراً انتزاع جماعة نهضة العلماء من صفوفه، فأعلنت استقلالها عن ماشومي وأصبحت بذلك حزباً سياسياً مستقلاً، وبذلك أتيح لسوكارنو أن يدعم مركز الشيوعيين ويفتح لهم السبيل للتغلغل في مختلف القطاعات حتى أصبح الشيوعيون أكبر حزب شيوعي في بلد غير شيوعي خلال عقد واحد من السنين، بعد أن كان موصوفاً بالخروج على القانون بسبب ثورته التي سدّد بها عام ١٩٤٨ طعنة غادرة إلى قلب أندونيسية قبل أن تستقر أوضاعها. وعندما كانت مهددة بعودة الاستعمار الهولندي، الذي حدث فعلاً في شهر ديسمبر من تلك السنة.

وما إن استوثق سوكارنو من قوته بالشيوعيين والقوميين حتى شرع في مطاردة زعماء ماشومي، وذلك بتسليط الفوضويين ممن يسمونهم (فيلق الطلبة) وميلشية الشيوعيين، على هؤلاء الرجال يهاجمون بيوتهم لاختطافهم، مما اضطرهم إلى التواري والهجرة إلى سومطرة وغيرها، وأشيع أن هناك محاولة

لاعتقال محمد ناصر، فاتصل به سفراء بعض الدول الإسلامية يعرضون عليه حق اللجوء السياسي إلى بلادهم، ولعل بعض هذه العروض قد أريد بها تنفيذ رغبة سوكارنو ومن وراءه من الدول الشيوعية في استبعاده ليخلو الجو أمام نزوات سوكارنو وأعوانه، ولكن محمد ناصر قابل تلك العروض بالشكر والاعتذار، لأنه لايستطيع مفارقة الساحة وهي أحوج ما تكون إلي العنصر الإسلامي الصادق

في هذا البحران الهائل من الاضطراب والانحراف انطلقت في سومطرة ثورة أعلنت رفضها لحكومة جاكارتا التي ألفها سوكارنو على أنقاض البرلمان المنتخب، وشكلت حكومة مناوئة للوضع الاستبدادي، غير أن قادة الثورة قبلوا نداء رئيس الوزراء جواندا، الذي أعلن العفو عن الثوار ووعد بالعمل على تصحيح الأوضاع.. ولكن سوكارنو لم يلبث أن نقض ذلك العفو بفرض الإقامة الجبرية على رجال الثورة باسم الحجز السياسي، ثم مالبث أن ساقهم معتقلين إلى السجن الحربي الذي لم يغادروه إلا بعد الإطاحة به في أعقاب الإخفاق الذي انتهت إليه محاولة الانقلاب الشيوعي في ذلك العام.

وهكذا تحررت أندونيسية من كابوس العهد السوكارني وتنفس محمد ناصر وإخوانه الصعداء إلى حين، بعد أن سلب أعوان الطاغية أموالهم وأمتعتهم ومساكنهم فأصبحوا ولا مأوى لهم، بيد أن البلية الكبرى التي واجهتهم في هذه المرحلة هى الدمار الذي أصاب المجتمع الأندونيسي في العقيدة والأخلاق، فكان على هؤلاء المصلحين أن يوجهوا طاقاتهم لتدارك هذا الخراب الرهيب.. ومن هنا كان بروز (المجلس الأعلى الأندونيسي للدعوة الإسلامية) الذي أسلفنا ذكره، ومهمته الأولى بناء الكيان العقائدي للأمة، وتصحيح المنطلقات الأساسية التي تلاعب بها سوكارنو والذياد عن الإسلام ضد خطر التنصير الذي استفحلت ضراوته في ظل ذلك العهد البغيض.

ولن يفوتنا أن نذكر بموقف لمحمد ناصر كان ضرباً من الإنقاذ العام لأندونيسية جميعاً ذلك أن المفاوضات التي سبق أن دارت بين هولندة وممثلي الأندونيسيين عام ٩٤٥ قد استقرت على قيام عدة دويلات في رباط فيدرالي. ولكن هذا الترتيب قد جوبه بانتفاضات حادة في تلك الدويلات، إذ أبت جماهيرها ذلك التقسيم، وطالبت بتوحيد الجزر كلها في جمهورية واحدة على أن

هذا الانتفاض سرعان ماجر اضطرابات أخرى ولاسيما في شرق أندونيسية، وقد بَات الوضع مهدداً بتسلل الشيوعيين للاستغلال الذي هم أتقن الناس له.. فالخطر أذن رهيب ولابد من تداركه وهذا يقتضي تحويل المسيرة نحو الوحدة ماأمكن، ولكن وراء التقسيم قوى لامندوحة من النظر إليها بعين الاعتبار، وبخاصة أن الجيوش الهولندية ماتزال رابضة تراقب الوضع في حال تهيئها للجلاء، ولا يستبعد أن تستعيد تدخلها عن طريق بعض الموتورين من معارضي الوحدة.

في هذا الجو المتلبد باكداس التوقعات تقدم محمد ناصر بالحل الشافي، وذلك بأن عرض على البرلمان ــ وهو أحد أعضائه ــ اقتراحاً مفصلاً يقضي بأن تحل كل دولة من مجموعة الاتحاد نفسها، على أن تشكل عقب ذلك الجمهورية الموحدة..

ووفق الله فاستجابت الحكومات إلى ذلك الاقتراح دون تحفظ، وأخذت كل دولة بتنفيذ مايخصها منه، وتمت صياغة الدستور الجديد على أساس الدولة الموحدة، وبموافقة الجهات المتعددة، وبناء على هذا التراضي انتخب سوكارنو رئيساً لجمهورية أندونيسية، ومحمد حتا نائباً للرئيس، وأُسنِد إلى محمد ناصر الأمر بتشكيل أول وزارة للدولة الموحدة، فلم يُشرك فيها أحداً من الشيوعيين ولا القوميين ــ جناح سوكارنو ــ لأن هؤلاء قد بدؤوا يتحولون نحو اليسار..

وهكذا كان مشروع محمد ناصر بمثابة زورق الإنقاذ لجمهور الأندونسيين، إذ حقق لهم أهم الأهداف وأجلها دون أن تسفك قطرة دم، أو يراق ماء وجه.. ولولا انحرافات سوكارنو، ونزواته الاستبدادية، وغروره الذي قاده إلى اختلاق ميثاق (البانجاسيلا) الذي سلف ذكره، إذ أوهمه أنه به يستطيع أن يحول طوائف البلاد كلها عن دياناتهم وتقاليدهم ومواريثهم دفعة واحدة إلى قطيع لايهمه إلا بطنه، ولا يفكر ولا ينظر إلا من خلال الثقب الذي يحدده ذلك الميثاق، الذي سرعان ماولد مواثيق مماثلة في العديد من بلاد العرب والمسلمين!..

أجل.. لولا تلك الانحرافات وهاتيك النزوات، وذلك الغرور، لانتهى الأمر بأندونيسية ذات المائة والأربعين مليونا إلى قيادة المسيرة الإسلامية الحديثة

على مستوى العالم كله..

س ـ إنك تشهد كيف أن المعركة بين الإسلام والجاهلية الحديثة قد بلغت أشدها.. فكيف تتوقع أن تكون النهاية؟

ج ـ النهاية ستكون نفس ماصارت إليه الجاهلية الأولى، لأن المعركة فكرية، والفكر الإنساني قطع مراحل طويلة في مسيرة التقدم والنضج، والبراهين الناصعة التي قدمها الإسلام عن الكون والعلوم والإنسان تزداد نصاعة وإقناعا، وإذا قارنا أوضاع العالم الإسلامي اليوم بما كان عليه قبل نصف قرن من الزمن لما وسعنا إلا أن نحمد الله جل وعلا، فقد استقلت الشعوب المسلمة وزاد تعداد دولها على الأربعين، وفتحت أمام أبناء هذه الشعوب فرص التزود بالثقافة الفكرية الرفيعة وطرق البحث والتزود العلمي، وتخرج الكثيرون من أبناء المسلمين في مختلف التخصصات العلمية البحتة كالطبيعة والفيزياء والذرة، وكل هذا كفيل بمواجهة ودحض دعاوى الجاهلية الحديثة إن شاء الله.

وقلنا لفضيلة الدكتور:

س ـ هناك تطور ملموس في اتجاهات الشباب المسلم في كل مكان، فما السبيل إلى ضبطها في طريق الإسلام الصحيح؟

ج ـ السبيل إلى ذلك هو التدريبات العملية المنظمة، والتوجيه المستمر كي يعايش الشباب المسلم جوهر تعاليم الإسلام، وذلك بعرض النماذج المثالية من حياة الرعيل الأول لشباب محمد ﷺ، والمهم في إعداد وتربية هذه الكوادر أن تتاح لهم فرص الاطلاع بالمسئوليات حين تعهد إليهم مهمات محددة لخدمة الأمة «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته» ويجب أن تتاح الفرص أمام الكوادر لتدريب أنفسهم على الإحساس بالمسئولية، إن مجرد القيام بالواجب دون الإحساس بالمسؤلية لن يسفر عن قيام زعامة وارثة منضبطة بالإسلام.

س ـ المتصدرون للإصلاح من مفكري الإسلام مختلفون في نظرهم إلى الواقع فمنهم من يرى البدء بتصحيح العقيدة واستبعاد التأثير الصوفي، وآخرون يرون تجميع القوى لمواجهة العدو المشترك ـ استعماراً أو أفكاراً ـ

دون تعرض للخلافات الداخلية، فما حكمك على الموضوع؟

ج ــ في الواقع كثيراً مانحس بضيق النفس والشدة حين نرى أنفسنا نواجه ونجابه الكثيرين من الأعداء من مختلف الأشكال والنواحي، بحيث يتشابه الأمر علينا في تحديد من أين نبدأ؟ ولكن يجب أن نكون على ثقة، بأن مانحتاجه من قوة لمواجهة أي عدو، لايمكن أن يفيد دون أن تكون لتلك القوة عقيدة صحيحة. إذن فموضوع تصحيح العقيدة وإن كان مقصوراً على فئة قليلة هي البطانة يعتبر شرطاً ضرورياً على الإطلاق، وتنشئة الكوادر المبنية على تصحيح العقيدة ليس من الضرورى أن يثير التناقض فيما بيننا بله العداوة والخصام والمجابهة الداخلية، بل علينا أن نسلك الطريق الذي أشار إليه مالك إمام المدينة رحمه الله بقوله (لايصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها) فنتقصى الأشياء التي صلح بها أوائل هذه الأمة، لأن عليها يتعلق أمر إصلاح الأواخر، وكل ماعدا ذلك لايلتفت إليه.

س ــ إلى أى حد يمكن للعالم الإسلامي أن يفيد من ثورة إيران الإسلامية؟

ج ــ إننا مسلمي أندونيسية طبعاً نتعاطف ونعطف على ثورة إيران الإسلامية لاننا نعلم أن إخوتنا الإيرانيين لاقوا العنت والعناء الكثير تحت وطاة حكم الشاه الظالم ثلاثين عاماً. وقد سبق أن عانينا شيئاً قريباً من ذلك الظلم أيام الاستعمار الهولندي والاحتلال اليابانى، ثم أخيراً وليس آخراً تحت نظام الديمقراطية الموجهة لسوكارنو، لذلك فإننا نتعاطف مع إخوتنا الإيرانيين الذين يبذلون جهدهم الآن لاعادة تنظيم شئون حياتهم بإقامة دولة عادلة، والدرس الذي يمكننا أن نفيد منه في أي انتفاضة ضد الظلم والغشامة وهو أن كل سلطة متعسفة ظالمة غير عادلة لابد لها ــ على المدى القريب أو البعيد ــ من أن تجرى عليها سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

أما السؤال الخاص بمدى استفادة العالم الإسلامي من الثورة الإسلامية الإيرانية في تطور العمل الإسلامي فهو يتطلب دراسة مستفيضة في وقت ليس بالقصير لأنه ليس بامكاننا تقييم أمر من الأمور بناء على معطيات من بلد مازال يعيش ثورته وقبل أن تستقر الأمور فيه.

وإذا تذكرنا أن هذا السؤال طرح على الدكتور محمد ناصر في مطلع الثورة

الإيرانية ثم نظرنا إلى تحفظاته الأخيرة بشأن معطياتها، أدركنا بعد نظره والعمق الذي تبلغه حنكته السياسية في تقييمه للأمور.

لقد خيبت الثورة الخمينية الكثير من آمال المسلمين بسيرتها المضطربة، وطريقتها الدموية التي شوهت مفهوم الحكم الإسلامي بنظر الملايين الذين كانوا يتطلعون إلى حقيقته في نطاق التطبيق، فجاء تطبيقها العملي صورة رهيبة ضاعفت من آلام دعاة الإسلام، إذ دفعت الحكام المنحرفين إلى زيادة التنكيل بهم، واتخذوا من أخطاء تلك الثورة ذريعة مسوغة لمحاربة الإسلام نفسه.

س ــ ماتوقعاتكم بالنسبة إلى تطبيقات الشريعة الإسلامية في الباكستان؟

ج ــ إننا نسأل الله مخلصين أن يوفق الباكستان في جهودها لتحقيق تطلعاتها، لإثبات أن الشريعة الإسلامية وتعاليم الإسلام، هي التي تستطيع أن تكون خير نظام للحياة وتلك مهمة صعبة جداً، لأننا نعيش الآن وسط خِضَمٍّ من الناس لايعلمون بعامة ماهي حقيقة الإسلام، إننا لانواجه الخطأ في فهم الإسلام أو قلة الفهم له فقط بل نواجه أناساً يتعمدون النيل من الإسلام.

إن تدوين الأحكام واختبار الحكام أمر غاية في السهولة ويمكن تحقيقه في أسرع وقت ممكن، ولكن بناء الأمة التي ستكون المحكومة بذلك الحكم، بحيث ينطبق عليهم قوله تعالى ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾ فذلك الذي يتطلب الكثير من الوقت إلى أسلوب في العمل دقيق التخطيط والتوجيه.

س ــ تكاثرت المؤتمرات الإسلامية في أواخر القرن الرابع عشر ولا تزال تتكاثر فما رأيكم إجمالاً في هذه المؤتمرات؟.. وما مردودها للإسلام؟ ثم مارأيكم في المؤتمرين الأخيرين حول موضوع الغزو الشيوعي لأفغانستان ومحصولهما للقضية؟

ج ــ إن عقد المؤتمرات يعني أن هناك فكرة هامة وهذا بحد ذاته سيحقق **أمرين، أولاً ــ** حدوث لقاءات بين العلماء والمفكرين المسلمين، القادمين من

مختلف بقاع العالم ليتعارفوا بينهم ويتدارسوا أمورهم، وهذا سيكون المنطلق بإذن الله في المستقبل إلى التعاون والعمل المشترك البناء، والثاني إتاحة الفرصة للمؤتمرين من أجل البحث فى قضايا تهمُّ المسلمين وتتعلق بمصالحهم المختلفة سواء مايتصل بشئون دينهم واقتصادهم وشئون سياستهم، ولئن كان مثل هذه المؤتمرات لم تنجح بعد في حل تلك المشكلات، فإن إحساس الجميع بوجود تلك المشكلات نفسها، سيفتح الطريق الموصل إلى حلها مستقبلاً.

س ـ يلمس الزائر لاندونيسية شعوراً إسلامياً قوياً.. فهل ترون وراء هذا الشعور رصيداً كافياً من الوعي الإسلامي الصحيح؟

ج ـ نعم هناك رصيد كاف إن شاء الله، وقد حدثت حالات برهنت على ذلك، وهي أنه كلما حدث مايمس الكرامة الإسلامية نجد المسلمين شباباً وشيباً يهبون للذود عن تلك الكرامة، وإليك مثلاً عن ذلك عندما تجرأ أحد القسس النصارى ـ وهو مدرس في مدرسة حكومية للتجارة في ماكاسار ـ على اتهام الرسول ﷺ أنه كان يعاشر بعض النساء سفاحاً، طالبه تلامذته أولاً بسحب اتهامه ذلك، وحين عارض وأصر طالبوا الكنيسة المسئولة عنه أن تلزمه بسحب كلامه ولما تملصت الكنيسة عن الاعتراف بمسئوليتها آذن التلامذة إخوتهم وكبارهم فهبوا هبة رجل واحد وقدموا مطالبهم باتخاذ الإجراءات الرادعة تجاه هذا القسيس الأرعن، ولما أحسوا بعدم جدوي ذلك، أحرقوا عدداً من الكنائس في مدينة ماكاسار (أوجونغ باندتن حالياً) ومثلاً آخر عندما حاول البعض في البرلمان تقديم مشروع بقانون مدني للزواج يسرى على كل مواطن أندونيسي بغض النظر عن دينه وعقيدته، طالب المسلمون بتعديل ذلك المقترح أو سحبه، أصلاً ولكن أصحاب الاقتراح نظراً لأنهم يملكون أغلبية ساحقة صمموا وأصروا على المواصلة في مناقشة المشروع، وهنا هب المسلمون والشباب منهم بشكل لافت للنظر وقاموا بالتظاهرات التي عمت شوارع العواصم، تشدد النكير على المقترح وتنادى بسحبه، وكان هذا العمل تلقائياً، دون أن يوعز إليهم أحد بذلك ودون أن يثيرهم لذلك أحد، وفي أحدى التظاهرات وقفت إحدى الفتيات تصيح منفعلة : إننى لاأرضى لنفسى قراناً هو السفاح عينه.

وحين أحس الشباب المسلم أن هناك موعدا في البرلمان لمناقشة المقترح حضروا إلى البرلمان كأي مواطن يشهد جلسة من جلسات البرلمان، واحتلوا شرفات الضيوف هادئين دون أن يبدو عليهم أي شيء يثير الاشتباه فيهم، وحين افتتحت الجلسة وكانت برئاسة الحاج أدهم خالد (من نهضة العلماء) وأعلن عن موضوع الجلسة، إذا بالشرفات تهدر هديراً، وإذا باللافتات تخرج من وراء القمصان وتُنشر، وفيها التنديد بالقانون المقترح، وقفزوا فوق حواجز المشرفات لينزلوا إلى حلبة البرلمان وهم يرسلون هتافات صارخة أثارت المخاوف في أعضاء البرلمان ورئيسه، بله وزير الشئون الدينية الحاج الدكتور البروفيسور عبد المعطي على، فغادروا قاعة البرلمان لا يلوون على شيء، بل إن رئيس الجلسة نسي أن يرفعها وهكذا احتل هؤلاء الشبان حلبة البرلمان ولم يمكن إجلاؤهم إلا بعد استقدام فرقة من القوى الضاربة بالمصفحات، ودخل الجنود حلبة البرلمان وناشدوا الشباب أن يغادروها، وانفعل أحدهم حين سمع إحدى الفتيات تستصرخ الضمائر تجاه هذا القانون الذى يريد التلاعب بأقدس مؤسسات المجتمع المسلم، فذرفت عيناه، وناشدها مغادرة البرلمان وخرجوا وحين وصلوا إلى ساحة البرلمان وكان هناك بركة ماء قالوا : نريد أن نتوضأ ونصلى فقد حان وقت الصلاة، فلم يسع الجنود إلا أن يستجيبوا لهم وسمحوا لهم بالصلاة ثم غادروا البرلمان سالمين، واضطرت الحكومة فى النهاية، وبخاصة أولئك الذين يريدون استضعاف المسلمين، إلى سحب القانون المقترح واستبدال آخر به لم يكن صارخاً بتجاهل تعاليم الإسلام . . فلولا وجود رصيد كاف من الوعى الإسلامى الصحيح لما واجهوا كل هذه التعسفات وهم عزل من السلاح، ولما تحركوا تلقائياً لمقاومة ذلك المشروع، علماً بأن النظام القائم، قائم على القوة والحديد والنار، وأنه يُكَمِّمُ كل وسائل الإعلام من إذاعة وتليفزيون وصحافة وكل نأمة معارضة . أرجو أن يكون فى هذا ما يثبت وجود الرصيد الكافى من الوعى الإسلامى الصحيح لدى الأندونيسيين .

س ـــ كيف تتصورون مستقبل الإسلام في أندونيسية على المدى القريب؟

جـ ـ الإسلام في أندونيسية في الوقت الحاضر يعاني الكثير من النكسات، وذلك بعد أن سدد سوكارنو الضربة القاضية إلى حزب ماشومي بتحريض وتأييد الشيوعيين، وكان الحزب مركز قيادة المسلمين الواعية. لم يحل سوكارنو حزب ماشومي ولكنه خيَّره بين أن يحذف أساسه الإسلامي ليؤذن له بالبقاء، أو الحظر، فاحتار قادة الحزب عدم إلغاء الأساس الإسلامي وحل نفسه، ولا يزال الوضع القائم حالياً شبيهاً بالبارحة مع فارق واحد عدم وجود الشيوعية، ولكن جاء بدلها التنصير والنصرانية والعلمانية ومذاهب الجاوية التي تسمي نفسها (اتباع المعتقدات) والباطنية وغيرها، وكلها أسماء لمسمى واحد، وأن ماسوف يحدث على المدى القريب هو الصدام والصراع في المجالات السياسية، وحيث المسلمون ضعفاء جداً وفي الاقتصاد حيث أصبح ٨٠٪ من شئون التجارة والصناعة والأعمال بيد الصينيين، الذين نالوا حظوة لدى العهد الجديد بفضل مايقدمون من إتاوات ورشوات. غير أنه على الرغم من كل ذلك فإننا معشر المسلمين غير يائسين ولا متشائمين، على المسلمين مهما كانوا أن يدافعوا عن دينهم وكيانهم وكيانه ؛ ونجحوا ولله الحمد وقد صمدوا فى الدفاع عن شئون التربية والتعليم ونحن متفائلون أننا سننجح بإذن الله قريباً أو بعيدا، لقد حاول العلمانيون تطبيق علمانيتهم في التربية والتعليم ولكن الله وفق فأبطل كيدهم، ونحن واثقون من أن التطورات السياسية ليس من السهل برمجتها ولا التكهن بساعة حدوثها، وما الذي يمكن تطبيقه وتحقيقه وفي أى ظرف ووقت، ولكننا أحسسنا الكثير من التحقيق لوعد الله القائل ﴿**ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين**﴾ فقد حدث قبل أكثر من ثلاثين عاماً مضي أن تكهن بعض رجال الغرب، قائلاً: قد يكون من الممكن أن تستقل أندونيسية بعد أربعين عاماً أي سنة ١٩٧٠، ولكن خاب فأله واستقلت أندونيسية سنة ١٩٤٥ أي بعد ١٥ عاما من توقعاته، وذلك بعد أن اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ووصل لهيبها إلى الشرق الأقصى، باندلاع حرب آسية الشرقية العظمى، ثم انتهت تلك الحرب بسقوط القنبلة الذرية على ناقازاكي وهيروشيما، التي مهدت لأندونيسية السبيل

للتحرر من ربقة الإستعمار كلياً.

س ــ هل يصح القول بأنكم انصرفتم عن السياسة نهائياً لتتفرغوا لتنظيم الدعوة الإسلامية؟ وما تعليل ذلك وما مردوده؟

جـ ــ عدم قيامي بالتحرك السياسي المباشر، يعني عدم قيامي بقيادة حزب سياسي كما كنت سابقاً، ومعلوم أن الحزب السياسي (ماشومي) الذي شاركت في تأسيسه وقيادته مدة عشر سنوات قد أجبر من قبل سوكارنو على الخيار بين أمرين، إما التخلي عن أساس الإسلام أو الحل، فاختار الثاني كما أسلفت، ولكن هذا لايعني أنني تخليت أصلاً عن التورط في العمل السياسي الوطني والعالمي، ففي الحالات التي تتعرض فيها للخطر مصالح الإسلام والمسلمين في أندونيسية بخاصة أتصدى للعمل ولتحريك الرأى العام لمواجهته واستخدام كل مايمكن استخدامه للذب عن مصالح الإسلام، وإن لم أقد حزباً سياسياً، وكثيراً ماوفقني الله في هذا وله الحمد والشكر، ثم هل في الإسلام تفريق بين السياسة والدين، وهل لديه شيء لقيصر وشيء لله، حتى يعطي مالقيصر لقيصر وما لله لله!.. فالأمر كله لله في الإسلام، والعمل الإسلامي يشمل كل شيء في هذا الدين والحمد لله رب العالمين.

* * *

الشيخ محمد بن ناصر العبودي

إن الحديث عن الشيخ محمد بن ناصر العبودي ـــ مثل ترجمتي للإمام الجليل الشيخ عبد العزيز بن باز ـــ إنما هو حديث القلب عن ذكريات شَغَلَت من حياتي السنين الطوال، وتركت بصماتها عميقة في كياني كله، ذلك أن وجودي في الجامعة الإسلامية، الذي استمر عشرين عاماً متصلات، لم يكن وجود مدرس عادي يقوم بواجبه في تدريس المواد التي تسند إليه مدى العام، فإذا انتهى بدأ عاماً جديداً حتى يقضي الله بانتهاء عقده، فيغادر الجامعة والمدينة لِيُشغلِ عنهما بأعمال جديدة في وطن آخر.. كلا فذلك لايمثل إلا وجها واحداً محدوداً من حياتي خلال هذه السنين العشرين، وقد انقضت بسبب السن فغادرت الجامعة مدرساً ولكني لم أغادر المدينة مقيماً، فحياتي لم تزل متصلة في هذا الجو العابق بالذكريات على تعدد مصادرها وأنواعها، فذكريات الماضي العظيم الذي أستنشق شذاه المحيي في كل نفحة نسيم ومن كل ذرة رمل تحرك في مشاعري الأطياف السعيدة فتجدد صلتي بذلك الماضي، فتعمل في أعماقي عمل الشحنة الكهربائية تجدد الطاقة المدَّخرة لتستأنف فاعليتها من جديد.

ثم ذكريات أخرى متصلة الوشائج بتلك تربط بين الماضي والحاضر، هي ذكريات الجامعة الإسلامية التي تعددت أعمالي فيها، فمن التدريس إلى القبول والتسجيل، إلى دراسة المناهج والمعادلات، إلى تأليف البرامج والمقررات، إلى الإعداد لبعض المؤتمرات.. وذلك غير الإشراف الاجتماعي الذي ألقي على عاتقي على مدى ثمانية عشر شهرا دون مساعد سوى بعض المراقبين من أشباه العامة، يشغلونني ليلاً ونهاراً بأخبار المشاكسين والمتهاونين بحقوق الصلاة من الطلاب، حتى أسلموني بذلك إلى مرض لم أخلص منه إلا بجراحة كبيرة.. ولكن هذه المهام المضنية حفلت بالكثير من الجمال والراحة النفسية لأنها كانت

تربطني بكبار المسئولين في الجامعة، فلا تكاد الصلة بيني وبينهم تنقطع يوماً واحداً.. ثم زادت هذه الصلة قوة بمشاركتي في مجلس الجامعة الأسبوعي التي استمرت عدداً من السنوات فجعلت منا أسرة واحدة نتداول الآراء في كل مايتصل بمصالح الجامعة، ونتدارس المشكلات الطارئة حتى أثناء العشاء المشترك الذي تقرر أن نتناوله في هذه الاجتماعات..

إنها صحبة سنين ليس من السهل زوال آثارها، وبخاصة من مثل نفسي التي كأن المتنبي لم يرد سواها بقوله:

خُلقتُ ألوفا.. لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي موجَعَ القلب باكيا

كثير من ذكرياتي هذه تقترن بشخص الشيخ محمد ناصر العبودي، الذي كان أيامئذ يجمع بين الأمانة العامة للجامعة ووكالتها ونيابة الرئاسة للشيخ عبد العزيز ابن باز، كلما اضطرته المسئولية للغياب عن الجامعة.. ولم تكن صحبتي إياه طوال إحدى عشرة سنة على أتم الصفاء، ولكنها كانت متسعة للخلاف والوفاق، حتى إذا فهم كل منا صاحبه أخذت سبيلها الآمن في غمرة سعيدة من الاحترام والتقدير، وبخاصة أني كنت أكتشف كل حين من مواهبه جديداً يزيد من انسجامنا وتفاهمنا.. فأنا إذ أكتب ترجمته الآن سأحاول أن أجرد قلمي من موحيات الحب الذي أكنه لهذا الصديق، فلا أتجاوز حدود الواقع، الذي آليت أن ألزم به نفسي في كل ماأكتبه من تراجم العلماء والمفكرين على امتداد العالم الإسلامي..

إنه محمد بن ناصر العبودي، ولد في شوال من عام ١٣٤٥ هـ في مدينة بريدة، وهي إحدى حواضر القصيم..

وفي بريدة تلقى دراسته حتى نال الشهادة الثانوية سنة ١٣٧٧ هـ من معهد بريدة العلمي عن طريق الانتساب. ومن ثم أقبل على الدراسة المكثفة في علوم الشريعة الإسلامية والديانات السماوية، ثم اللغة العربية وآدابها على أيدى العلماء من أهل البلاد الذين يعتبرون حججا في اختصاصهم..

ومن أساتذته الذين تلقى عنهم هذه الدراسات المغفور له العلامة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد، الذي تولى رئاسة الشئون الدينية في المسجد الحرام، ثم رئاسة المجلس الأعلى للقضاء، إلى جانب عضويته في هيئة كبار

العلماء بالمملكة العربية السعودية .

ثم الشيخ صالح بن أحمد الخريصي رئيس محاكم القصيم، فالعلامة الكبير الشيخ عبد العزيز بن باز، رئيس الجامعة الإسلامية السابق، ثم رئيس مجلس الدعوة والإرشاد والإفتاء، ورئيس هيئة كبار العلماء في المملكة. ويعد من أساتذته العلامة الشهير شيخ علماء المملكة ومفتيها ورئيس قضاتها الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، رحم الله موتاهم وبارك في حياة الأحياء منهم.

أما الأعمال التي مارسها في المملكة فهي:

١ ــ قوامة المكتبة العامة في مدينة بريدة لمدة سنة، وكانت تدعى من قبل مكتبة المسجد الجامع .

٢ ــ تدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية لمدة سنتين في المدرسة السعودية الرسمية في بريدة .

٣ ــ إدارة المدرسة المنصورية الرسمية في بريدة كذلك مدة خمس سنوات .

٤ ــ إدارة المعهد العلمي الثانوي في بريدة مدى ثمان سنوات .

٥ ــ الأمانة العامة للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ثم وكالتها، مع النيابة عن رئيسها أثناء غيابه، وذلك منذ قيام الجامعة في العام ١٣٨١ هـ وحتى انتقاله عنها في العام ١٣٩٤ .

٦ ــ الأمانة العامة للدعوة الإسلامية ، وكذلك الأمانة العامة للهيئة العليا للدعوة من العام ١٣٩٤ ــ حتى ١٤٠٣ بالرياض .

٧ ــ وأخيراً منصب الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي وقد تولاه منذ العام ١٤٠٤ .

وعندما نعيد النظر في هذا الجدول من أعمال الشيخ العبودي نشعر أن من المتعذر إغفال آثار كل منها في تكوينه الفكري وخبراته التي نواجهها في ماأنتجه حتى الآن من مواقف ومطبوعات ..

فالقيام على المكتبة العامة مطلع حياته قد منحه فرصة صالحة للاتصال بالكتب وتعرف العقول التي أملتها، والموضوعات التي احتوتها، والأذواق التي صاغت عباراتها .. ولم يكن مثل ذلك الاتصال بالأمر الميسور في تلك الأيام، فلا عجب أن تزوده هذه الفرصة بالحوافز التي تدفعه إلى إدمان المطالعة، ثم إلى

مباشرة الانتاج الأدبي، الذي بدأ نشره في مجلة المنهل. ثم الاتصال الشخصي بطائفة من كبار الأدباء كالمرحوم الشيخ عبد القدوس الأنصارى والشاعر اللغوى الكبير المرحوم الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي، والمحقق الشهير الأستاذ حمد الجاسر والشيخ صالح بن عثيمين..

وكان من آثار هذه المرحلة إقدامه على التأليف مبكراً، فأنجز عدة كتب في موضوع الأدب الشعبي وبيان علاقته بالأدب الفني وباللغة الفصحى..

وكذلك الأمر بالنسبة إلى عمله في التدريس، فقد كان لزاما عليه أن يضاعف عنايته بتثقيف نفسه فيضاعف من اتصاله بالكتب، وبخاصة في نطاق المواد التي عهد بها إليه من العربية والعلوم الإسلامية..

وفي إدارته المدرسية أتيح له أن يضيف إلى مطالعاته في المؤلفات ألواناً من المعرفة لأخلاق الناس ومسالكهم المختلفة، وهي معرفة لاتغني عنها الكتب، ولا يمكن تغذيتها إلا من خلال الواقع المتحرك..

ومن هناك، من خلال هذه الخبرات الحية، والتجارب المكثفة، والاستعداد النفسي، والنشاط الدؤوب، كان مترجمنا مؤهلاً للقيام بمهامه في كنف الجامعة الإسلامية..

ولقد كانت نقلة الشيخ من بريدة إلى المدينة قفزة عالية وضعته في صميم العالم الإسلامي كله، إذ أصبحت الجامعة من يومها الأول ملاذا لطلبة العلوم الإسلامية، يفدون إليها من أربعة أنحاء المعمورة، ولكل فريق منهم عاداته وطرائقه في الحياة، وسلوكه الذى يجعله نوعاً متميزاً.. وكان على مسئولي الجامعة ومدرسيها أن يحسنوا التعامل مع كل هؤلاء وأولئك في حكمة وصبر لايتوافران إلا لأولي العزم..

يضاف إلى ذلك كله ظروف المدينة التي جعلها الله مأرز الإيمان، فهي ملتقى المسلمين في مواسم الحج والزيارة، والجامعة ملتقى النخبة من هؤلاء المسلمين، يقصدون إليها للتعارف، وللتزود بالمطبوعات الإسلامية، ولاستطلاع الواقع المتميز لذلك المركز الذي يتطلع إليه العالم الإسلامي من شتى الأنحاء.. فها هنا فرصة نادرة المثيل لابد أن تترك أثرها عميقاً في طبيعة الرجل الذى من طبيعة عمله الاحتكاك بكل زائر للجامعة من رجالات الإسلام .

وكان على هؤلاء المسئولين والمدرسين أن ينهضوا بكل هذه الأعباء فى وقت لم تكن الجامعة قد جاوزت بعد طور التكوين الأوليّ ، فهم يواجهون كل يوم مسئولية جديدة وعبئاً لا عهد لهم بمثله ، ولكن الذى أعانهم على تحقيق مهامهم هو إخلاص المسئولين لتبعاتهم ، وتعاونهم الشامل الرائع لإنجاح مهماتهم ..

ولقد قدر لى الله جلت حكمته أن أدرك عمق هذا الدور فأشارك في أعبائه التي كثيراً ماتسهرني الليالي لصياغة منهج، أو تعديل مقرر، أو المشاركة مع زملاء في عمل كُلفنا به.. وما كان أسعدنا في هذا الجهاد الذي جمعنا كالأسرة المنسجمة في كنف الشيخ عبد العزيز بن باز، الذي كان للجميع بمثابة الولي الحميم، بل الوالد الكريم الرحيم.

والحق لقد أثبت الشيخ العبودي في هذه المرحلة كفاية جديرة بالتقدير، إذ كان يواجه مسئولياته بعزم لايعرف الكلل، ولا تزيده أعباء العمل المتنامي أبداً إلا مزيداً من الحنكة وجديداً من الحذق والخبرة.

وكان على الجامعة أن توثق صلاتها الحديثة بأنحاء العالم الإسلامي، فبعثت بالوفود إلى هنا وهناك، وكان للشيخ نصيب كبير من هذه الرحلات، لأنه كان الوحيد في أسرة الجامعة الذي يحسن الإنجليزية، إلى جانب مرانته الملموسة وقدرته على إحسان التفاهم مع العلماء وكبار المسئولين، الذين سيواجههم في هذه الرحلات.. وتتابعت رحلاته، وتعددت مواطنها، وآتت ثمراتها الطيبة صلات وطيدة مع وجوه البلاد التي زارها، مالبثت أن استحالت صداقات كان لها ولا يزال أثرها الصالح في مسيرة الجامعة حتى الآن..

على أن هذه التحركات لم تقف عند تلك الحدود وحدها، فقد كان من ثمراتها أيضاً عدد من المؤلفات قدمت للراغبين في المعرفة عطاء ثراً من المعلومات الصادقة عن واقع المسلمين في تلك المناطق كما شاهده على الطبيعة.. وفي هذه المؤلفات لم يقتصر على سرد المشاهد، بل أتحف القارىء خلالها بدراسات تحليلية لمشكلات تلك الشعوب بقلم يسيل حناناً وغيرة، ولا يكتفي بالدراسة والتحليل بل يُرْدِفُهُمَا بالعلاج الذي لانختلف معه على وجوبه وضرورته..

ولقد كان من لوازم عمله في الجامعة ثم في رحاب الدعوة بالرياض، ثم في رابطة العالم الإسلامي، مواصلة ذلك التطواف في أقطار الأرض مستطلعاً

أحوال المسلمين ودارساً أوضاعهم وحاجاتهم، فهو من ذلك أبدا بين حل وارتحال، لايئوب من سفر إلا ليستأنف سفراً آخر.. أضف إلى ذلك انتدابه من قبل هذه المؤسسات الثلاثة لحضور المؤتمرات والندوات العالمية التي تعقد في مختلف القارات والدول لدراسة الشئون الإسلامية.

فمن مؤتمر الإعلام الإسلامي في جاكارتا ــ أندونسية ــ إلى المؤتمر الإسلامي الأول في سان باولو ــ البرازيل ــ إلى المؤتمر الإسلامي في دول البحر الكاريبي ــ ترينداد ــ إلى مؤتمر التعليم الإسلامي لعموم الهند ــ حيدر أباد ــ ثم مؤتمر التربية والتعليم بالهند ــ بنارس ــ فمؤتمر جامعة عمر أباد الإسلامية بالهند أيضاً.. إلى مؤتمرات اتحاد الطلبة المسلمين في أنديانا بولس ــ أمريكة ــ إلى مؤتمر الطلبة المسلمين في بريطانية، إلى المؤتمر الشعبي الإسلامي فى بغداد . . إلى العديد من المؤتمرات الأخرى فى جوهانسبرج وكوالا لامبور وموريشيوس وتونس والسنغال ولاهور، ولكناو، والتى كان من أواخرها حضوره مهرجان دولة بروناى الإسلامية بمناسبة استقلالها الحديث . .

والذين يعرفون الشيخ العبودي عن كثب لابد أنهم يتوقعون من وراء هذه الجولات المردود الذي يتناسب مع مواهبه الفطرية ونشاطه الفكري وملاحظاته التي لاتنقصها الدقة ولا العمق، هذا فضلاً عن المردود الآخر الذي ستتركه هذه المناسبات في ذاتية هذا الجوال الحساس، فتوسع محيط معرفته، وتعمق رؤيته في شئون أمته..

كثيرون الذين يجوبون أرجاء العالم في سياحات تكاد تكون متصلة.. ولكن لايعودون من سياحاتهم بغير النصب وإضاعة المال، مقابل بعض المتع العابرة، التي يستشعرونها أثناء تغير المشاهد..

وكثيرون الذين يشهدون المؤتمرات الإسلامية هناك وهنالك، ويشاركون في مناقشاتها ومآدبها، حتى إذا انقضت انفضوا إلى قواعدهم دون محصول ولا مردود..

أما مترجمنا فهو من القلة التي تجد في هذه المناسبات فرصها المنشودة لخدمة الدعوة ولتقييم الأحداث المشاهدة، ثم تصويرها فى كتب قيمة تشدد من

روابط الاخوة بين المسلمين وتحفز ذوى القدرة على التفكير فى قضاياهم والبحث عن أفضل الوسائل لتحسين مستوياتهم.

ومن هنا كان نظري إلى تنقلاته الكثيرة على أنها مناسبات للعطاء النافع إن شاء الله..

وإني لأكتب هذه الأسطر، وأنا في حاجة إلى استيضاحه عن بعض المعلومات، فأسأل به مقر الرابطة هاتفياً فيأتيني الجواب بأنه مسافر.. وقد كنت أعلم بسفره إلى الصين الشيوعية مندوباً من قبل الرابطة، ثم قيل لي إنه عاد من رحلته تلك، والظاهر أنه ماكاد يستقر به المقام حتى استأنف السير، فهو أبدا في رحلة بعد أخرى لمصلحة المسلمين، ولإمداد القارىء المسلم بما يُعْوِزُه من علم بأحوال إخوانه المجهولين.

والآن لنلق نظرة عجلي على بعض الآثار التي قدمها هذا الجواب إلى المكتبة الإسلامية والعربية.. ولن نتوقف عند الجانب الخاص بهذه الرحلات، بل سنختار من مصنفاته مايساعدنا على الإحاطة بشخصيته الفكرية ذات الجوانب المتعددة. وأنا مضطر لإيثار الاختيار، لتعذر الإحاطة بكل مؤلفاته التي بلغت حتى الآن الأربعة والأربعين مابين مطبوع ومعد للطبع.

وإلى القارىء أولاً هذا البيان بالمطبوع من هذه الآثار:

١ ــ (الأمثال العامية في نجد) ظهرت طبعته الأولى في مجلد واحد قبل ربع قرن، ثم عمد المؤلف إلى استيفاء بحوثه حتى بلغ خمسة مجلدات طبعت بمعونة تقديرية من دارة الملك عبد العزيز عام ١٤٠٠.

٢ ــ (كتاب الثقلاء) وهو دراسة أدبية لثلاثة من الكتب القديمة في موضوع الثقلاء، مع إضافة نصوص من الأدب العربي القديم، ظهرت طبعته الأولى عام ١٣٩٩ في ٢٥٠ ص.

٣ ــ (أخبار أبي العيناء اليمامي) وهو من الكتب الأدبية وطبع عام ١٣٩٨.

٤ ــ (معجم بلاد القصيم) تاريخي جغرافي بلغت مجلداته ستة ونشرته دار اليمامة.

٥ ــ (نفحات من السكينة القرآنية) موضوعات تفسيرية في أسلوب أدبي طبع عام ١٣٩٨ في أكثر من مئتي صفحة ثم تكرر طبعه.

٦ ــ (صور ثقيلة) في النقد الاجتماعي..

٧ ــ (مأثورات شعبيه) وهو مجموعة من قصص العامة يجرى الكثير منها على ألسن الحيوان والطير، وقد قصد منشئوها إلى العبرة والموعظة والتوجيه الاجتماعي، عرضها المؤلف في أسلوب فصيح مبسط وتبلغ صفحاته ٣٨٨.

٨ ــ (في أفريقية الخضراء) وهو باكورة ماكتبه في الرحلات بعد انتقاله إلى الجامعة الإسلامية، وقد طبع للمرة الأولى عام ١٣٨٤ ثم تتالت كتبه الآتية في هذا الموضوع.

٩ ــ (مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين) صدر في منشورات نادي أبها وتكرر طبعه.

١٠ ــ (رحلة إلى جزر مالديف).

١١ ــ (جولة في جزر البحر الزنجي).

١٢ ــ (أيام في مسقط آدم ــ سيلان).

١٣ ــ (في نيبال بلاد الجبال).

١٤ ــ (صلة الحديث عن أفريقية).

١٥ ــ (مشاهد في بلاد العنصريين) صدر في منشورات (نادي القصيم الأدبي).

١٦ ــ (اطلالة على نهاية العالم الجنوبي) صدر في منشورات (نادي مكة الأدبي).

١٧ ــ (رحلات في أمريكة الوسطى).

١٨ ــ شهر في غرب أفريقية).

١٩ ــ (زيارة لسلطنة بروناى الإسلامية).

٢٠ ــ (سياحة في كشمير).

وقد أحصيت بين الأربعة والعشرين كتاباً المعدة للطبع أربعة عشر في موضوع الرحلات، وبذلك تبلغ مؤلفات الأستاذ العبودي في هذا الجانب سبعة وعشرين كتاباً. وما أحسب جوالا في الأرض سجل مثل هذا الثبت في هذا الموضوع إلا إياه.. وهي ظاهرة تسترعي الانتباه وتستدعي الدراسة.. وقد كان بودي لو أقف على كل واحد من مصنفاته المطبوعة ــ على الأقل ــ لأعرض مكنوناته، وأستكشف دلالته على عقلية مؤلفه وخصائصة الأدبية، ولكن تلك رغبة تتطلب كتاباً برأسه لافصلا من كتاب.. ومع ذلك فلن

يفوتني أن أقف بعض الحديث على بعض هذه الكتب عملاً بقول القائل: (مالايدرك كله لايترك جله).

ولأبدأ بكتابه الضخم (في أفريقية الخضراء) وحسب القارىء أن يعلم من شأنه أنه طبع أكثر من مرة، وترجم إلى أكثر من لغة، وقبل أيام جاءني أحد الاخوة الهنود يخبرني أن والده، وهو من أهل العلم، والمتضلعين من اللغتين العربية والأوردية، قد بدأ ترجمة هذا الكتاب إلى الأوردية ويوشك أن يفرغ منه.. وقد أصدرت وزارة معارف المملكة طبعة منه خاصة وزعتها على مكتبات المدارس على اختلاف مراحلها، وقررته الأكاديمية العربية العسكرية في القاهرة على طلابها.. وما أراني بعد هذا في حاجة إلى التوكيد على أهمية هذا الكتاب، ومع ذلك فهل يصدق القارىء أني وجدت غير قليل من العَنَتِ إذ كتبتُ عنه بعض ما يستحق من التقدير فى مجلة الجامعة الإسلامية إثر صدوره! ولعلى لاأذيع سرا إذا زعمت أن ذلك المقال قد جر علي خصومة لم تزل تلاحقني بأثارها حتى آخر يوم من وجودي في الجامعة.. إلا أن ذلك لم يمنعني من الإصرار على تقديره بما كتبت عنه ثانية في كتابي (الأدب العربي) الذي درس في الجامعة على مدى عدة سنوات.. وفي نفسي قول جرول بن أوس:

ويعذلني أفناء سعد عليهم وما قلت إلا بالذي علمتْ سعدُ

وأثنى بالإشارة إلى كتابه الآخر عن (مدغشقر ..) التى ألحق بها ذلك النعت المأسوى اللاذع (بلاد المسلمين الضائعين) وحق لمسلمي مدغشقر أن يوسموا بالضياع، فإن واقعهم الذي عرضه الأستاذ مما لانكاد نتصور مثله حتى في منظمة الحاخام كاهان، الذي يعلن تصميمه على استئصال بقايا الجنس العربي في فلسطين الشهيدة، وحتى في أوساط وثنيي الهند الذين يتلذذون بإحراق المسلمين وهم أحياء.. وكم أتمنى لو يتيح الله لهذا الكتاب محسناً يطبع منه مئات الألوف من النسخ. ثم يوزعها بالمجان على حجاج العالم الإسلامي، عسى أن يحرك في أثريائهم غيرة الإيمان على هؤلاء الضائعين المعذبين!

وهكذا يمضي الأستاذ العبودي في تسجيل مرئياته وتصوير انطباعاته عن القارة التي أحبها فأعطاها جزءاً كبيراً من تفكيره واهتمامه، فكلما فرغ من رصد جانب منها استأنف جهوده في الكلام عن الجانب الآخر.. وبذلك أمد

المكتبة العربيه بَلْهَ الإسلامية بخير كثير يدرك أهميته ذوو الاهتمام بأمر هذه القارة وحياة المسلمين في أرجائها..

ولكتاب (الثقلاء) علاقة وثيقة بطبيعة الأستاذ العبودي كما أعرفها، فهو في حديثه عن الثقلاء إنما يعبر عن ضيقه بهذا الضرب من البشر الذين غلظت مشاعرهم، ففقدوا القدرة على تقييم أعمالهم، ففيهم ملامح من أولئك الذين يصفهم البارىء المصور بقوله العميق الدلالة ﴿**ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايشعرون**﴾ (سورة البقرة) والذين يعرفون حساسية الأستاذ يعذرونه إذا هو ضاق بهذا الصنف من الخلق، الذين سبقه إلى الضيق بهم أئمة العلم من أهل الفضل كالأعمش سليمان بن مهران، الذي رويت عنه الطرائف في هذا الباب..

أما (الأمثال العامية في نجد) فقد كان أول ماطلعت عليه من مؤلفاته، إذ كان قد صدر في مجلد واحد، ثم عاد إليه بالتوسعة والاضافات كما أسلفنا حتى صار إلى خمسة مجلدات، ويقول في تعريفه إنه يشتمل على ثلاثة آلاف مثل مرتبة على حروف المعجم، ومشروحة الألفاظ والمعاني، وقد رد عاميها إلى الفصيح، وأورد لها الشواهد من الآثار والأشعار والأقوال القديمة، وقارنها بالأمثال العالمية في بعض الأقطار العربية، وأحدث لها ترتيبا آخر على أساس الموضوعات.. ومما يلحق بهذا الموضوع كتابه الآخر (لهجاتنا العامية وصلتها بالفصحى) وعنه يقول: (إنه بحث في أصول الكلمات المستعملة في اللهجات النجدية، وبيان جذورها الفصيحة، وتطورها عن لهجات قديمة صحيحة كانت معروفة في جزيرة العرب إبان نزول القرآن الكريم، غير أنها مخالفة للهجة قريش..).

ولا جرم أن لهذا النوع من التحقيقات قيمته العلمية المساعدة على استقصاء التطورات التي طرأت على الفصحى فحرفت لهجاتها الشعبية عن الأصالة إلى الأوضاع الملحونة الراهنة. ويعرف قدر هذا الجهد أولئك المعنيون بدارسة الأسس المغيَّبة لهذه اللهجات، وبخاصة في نجد وأعماق اليمن، حيث لاتنفك العامية محتفظة بالكثير الوفير من جذور الكلمات الأصلية كما تداولها الأولون منذ الجاهلية، وقلما نقع عليها خارج نطاق النصوص التراثية. ولا ننسى هنا كتابه ذا المجلدات الستة (معجم القصيم) الذي يقول في وصفه إنه

يحدد أماكن القصيم وما ألحق به، ويحاول جمع المعلومات الجغرافية والأدبية التي وعتها المراجع المطبوعة والمخطوطة عن هذا الموضوع من شعر ونثر وأمثال، مضيفا إلى ذلك مايتعلق به من معارف صحيحة يتناولها شعب المنطقة.. هذا إلى دراسة تحليلية نقدية للمسائل التي اختلف فيها العلماء في هذا الشأن، كما أنه يوضح أموراً غامضة حول هذه الأمكنة وتعتبر من المعلومات الجديدة في هذا الباب.. واستكمالاً للفائدة زود الكتاب بالخرائط اللازمة لمنطقة القصيم وحمى ضَرِية والمواطن التي شهدت حروب الردة في هذه الأرض..).

ولا جرم أن معجما كهذا يستدعي الثناء من كل من يعنيه أمر هذه البقاع، التي كانت ولا تزال مهد العربية، والميدان الذي ازدهر فيه شعر الأولين، فكان مرجع كل دارس للبيان العربي بعد القرآن الكريم.. وفي ظني أنه مع مؤلفات العلامة حمد الجاسر وتحقيقاته الخاصة بهذه الجزيرة، يؤلف رفدا قيّما لقراء الشعر الجاهلي، يريهم على الطبيعة معاني ألفاظه، ومدارج صباه، والرحاب التي نشأ فيها صانعو ذلك التراث الخالد..

وأخيراً لعلي قد حققت بغيتي من هذه النُّبذ اليسيرة عن بعض آثار هذا الأديب المفكر ذى المواهب العديدة، وهي أن تشد بيد القارىء النهم إلى المعرفة للعودة بنفسه إلى مؤلفاته، فيرى ويسمع من خلالها مالاتتسع لاستيعابه هذه الأوراق.. ويومئذ سيعلم بيقين أن ما ناله من تكريم المؤتمر الأول للأدباء السعوديين في البلد الأمين عام ١٣٩٤ لم يكن إلا بعض مايستحقه من تقدير المسئولين والمفكرين.. وحسناً فعل نادي القصيم الأدبي عندما اختاره لعضويته الإدارية، وكذلك نادي الرياض حين استقبله عضواً كاملاً في هيئته التي تضم صفوة خيار أهل العلم..

ولعلي لاأتجاوز حدود الإنصاف إذا توقعت لآثاره الفكرية والأدبية والإسلامية أن ترشحه لجائزة الدولة التقديرية في نطاق الأدب، والله الموفق والمستعان . .

الشيخ مصطفى أحمد الزرقاء

م ــ ننتظر من فضيلة الأستاذ أن يقدم نفسه للقارىء اسماً وبلداً ومولداً ودراسة .

مص ــ اسمي مصطفى ووالدي هو الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الزرقاء وبلدي حلب، وقد ولدت في العام (١٩٠٧م). واضطررت لتغيير ذلك التاريخ فيما بعد عندما أردت الالتحاق بالمرحلة الثانوية من الدراسة الخاصة، إذ كانوا لايقبلون طالبا يتقدم لامتحان البكالورية العامة من ذوى الدراسة الشخصية إلا إذا استوفى الثالثة والعشرين، فأصبح مولدى رسمياً هو (١٩٠٤). أما الدراسة فقد بدأت على طريقة ذلك العهد في كتاتيب القرآن، فكان الكتاب الذي التحقت به هو الذي خَرَّج والدي رحمه الله، ويقوم عليه شيخ مُسِنّ من أمهر وأحفظ مستظهري الكتاب الكريم في حلب، هو الشيخ محمد الحجار الذي سبق أن علَّم والدي وإخوتي قبلي، ففي هذا الكتاب تلقيت القراءة والكتابة وتلاوة القرآن والحساب وما إلى ذلك من مقررات الكتاتيب في ذلك العهد...

والظاهر أن والدى عليه رحمة الله كان بعيد النظر ، فلم يلحقنى بأى من المدارس الأميرية ــ الحكومية ــ المعتادة بل ألحقني بمدرسة الفرير الفرنسية بحلب وأنا دون العاشرة، ومن هذه المدرسة تلقيت مبادىء اللغة الفرنسية..

م ــ لقد تلاقينا على السن فكلانا ولد في العام السابع بعد المائة التاسعة، وكلانا رشح للدراسة في الفرير بعد الكُتاب، ولكني استُبعدت عنها بعد أن أُعدت كل أسباب سفري إليها في طرابلس ــ لبنان ــ إذ غلب الخوف على والدي أن يؤثر ذلك على ديني، فألغى ماعتزمه في اللحظة

الأخيرة، وأمضى والدكم عزيمته فأتم ماأراده من تلك الدراسة بالفرير التي لابد من التساؤل عن سبب اختياره إياها، وهي من المعاهد التبشيرية الخطيرة؟..

مص ــ لاأعلم لذلك تفسيراً إلا بُعدَ نظر الوالد، إذ كان يحس أن التطور السريع الذي يعتري كل شيء في تلك الفترة، التي تمخضت عن انطلاق شرارة الحرب العالمية الأولى، يستدعي تزويد النشء بشيء من الثقافة الحديثة إلى جانب الثقافة الشرعية الأصلية، التي نشأ جيله عليها، وفي طليعتها اللغة الأجنبية، وكانت الفرنسية تعتبر ــ آنذاك ــ لغة الثقافة العالمية.. ومن حيث الخطر التبشيري، الذي تنطوي عليه تلك المدارس، فالذي يظهر لي أن الوالد كان واثقاً من قدرته على تحصيني.

م ــ وصفت والدك بالحكمة، ويبدو ذلك من أثره في ولده، أفلم يكن من الحكمة أن يتذكر أن إدخاله ابنه في مدرسة تبشيرية من هذا النوع مشجع غيره على مثل مسلكه؟!.

مص ــ لابد أنه تذكرَ ذلك ولعله لم يكن يرى بأسا في تشجيع غيره في الحدود التي يتصورها.. أعني تزويد النشء بالوسائل التي تستدعيها حياته المقبلة، وفي مقدمتها اللغة الأجنبية

م ــ يراودني هنا خاطر آخر هو أن المرحوم والدكم وأمثاله إنما أقدموا على ذلك ثقة منهم بأن الجو الإسلامي الذي كان ميزة ذلك المجتمع لايمنح المبشرين من الفرص مايمكنهم من نفث سمومهم في أبناء المسلمين..

مص ــ لاشك أن هذا ملحوظ أيضاً..

م ــ حتى الآن كان كلامكم حول الدراسة الأولية.. ثم..

مص ــ بعد سنتين من دخولي مدرسة الفرير انفجرت الحرب العالمية الأولى، ومنذئذ أُخِذَ القائمون على المدرسة من (الإخوة الفرنسيين) جنوداً إلى فرنسا، وخلفوا عليها بعض الحلبيين من النصارى، فاستمرت على ذلك فترة غير طويلة، ثم أغلقت مع سائر المدارس الأجنبية والوطنية جميعا، وتحولت المدارس الكبرى ثكنات عسكرية.. وكنت قد انتقلت بعد

إغلاق الفرير إلى المدرسة الرشدية، التي سميت بالثانوية فيما بعد، ولكنها لم تستمر سوى أشهر قليلة حتى أُغلِقت أيضاً، واستحالت ثُكنة عسكرية.. وهكذا انتهى الأمر بالدراسة إلى التوقف التام.

م ــ وكيف استأنفتم هذه الدراسة بعد ذلك؟..

مص ــ قبل دخول الفرنسيين سورية استقبلت البلاد عهد الأمير فيصل بن الحسين رحمه الله، الذي لم يستمر سوى سنتين فلم يتح له مجال للاستقرار، وقد انتهى بدخول الجنرال غورو الفرنسي دمشق بعد معركة ميسلون، التي قضت على نواة الجيش السوري بقيادة الشهيد يوسف العظمة، وكان ذلك تنفيذاً لمؤامرة الحلفاء على البلاد العربية، فكانت سورية ولبنان تحت الاحتلال الفرنسي، وشرق الأردن وفلسطين والعراق تحت الكابوس الإنجليزي.

عقب ذلك فكر بعض رجالات حلب من أهل الإيمان والوعي، وأذكر منهم بخاصة مرعي باشا كبير أسرة آل الملاح، وهو من أصحاب الوجاهة الموروثة في حلب، وقد سبق له تسلم مناصب عالية في العهد العثماني، وبعد الاحتلال عين مديراً لأوقاف حلب، ثم أسندت إليه ولاية حلب. ومن مزايا هذا الرجل مخالطته لأهل العلم وتقديره إياهم، وقد فكر في إعادة مؤسسات التعليم التي توقفت كل تلك السنين بسبب الحرب والأحداث التي تلتها، وفاتح جدي ووالدي بأن طبقة العلماء الحلبيين في طريقها إلى الزوال، وهم ركائز العلم والفقه والقضاء الشرعي، فإذا هم ولّوا انقطع حبل العلم ولم يبق من يخلفهم.. وبعد الاتفاق مع الوالد والجد أقدم على افتتاح مدرسة شرعية، وأقامها على أسس مخالفة للطريقة القديمة، التي درجت عليها مدارس الأوقاف، حيث كان الدرس أشبه بحلقات المساجد دون تنسيق ولا توقيت، فجعلها صفوفاً ومراحل، يتعاقب عليها المدرسون في حصص يومية، ومقررات نظامية تشمل مختلف العلوم والفنون. وقد وقع الاختيار على المدرسة الخسروية، لتكون مقراً لهذا المشروع، وهي المدرسة المنسوبة إلى خسرو باشا، والتي تمتاز بسعتها وبنائها، وفيها الجامع والقبة الأثرية المشهورة، وتقع على مقربة من القلعة التاريخية.

وما لبثت المدرسة الجديدة أن افتتحت لاستقبال الطلاب الراغبين في الدراسة الشرعية، ولم يخطر في بالي أول الأمر أن أكون بينهم، لأن رغبتي كانت موجهة إلى التجارة التي سبقني أخي إليها، ولكن جدي أصرَّ على والدي بأن يسجلني في المدرسة الشرعية. وبجهد جهيد جمعوا لها من الطلاب مايشغل السنة الأولى، فكان عدد من الشباب الناشئين، إلى جانب آخرين في الخمسينات، والذين سبقت لهم دراسة شرعية على الشيوخ وفق الطريقة القديمة، وكنت أنا أحد الناشئين المبتدئين..

وقد جُعِلت مدة الدراسة ست سنوات، يقبل في أولها من كان في مستوى نهاية الابتدائي، إذ يكون مؤهلاً لتلقي الدراسة الشرعية، وقد اعتبرت المدرسة بعد تلك الأيام على مستوى الثانوية، وحتى اليوم تحمل اسم (الثانوية الشرعية).

م ـــ وهل كان ثمة امتحانات منتظمة..

مص ـــ بلى هناك امتحانات دورية وسنوية يرتقي فيها الطالب من سنة إلى أخرى حتى ينتهي إلى التخرج، ويحصل على شهادتها النهائية..

م ـــ وما قيمة هذه الشهادة عملياً؟.

مص ـــ لم يكن لها من قيمة رسمية لأن الدولة لم تعترف بها، ولكن إدارة الأوقاف قد أولتها العناية، فهي تفضل خريجيها لوظائف الإمامة والخطابة.. وليس لهم أي اعتبار أو وزن في دوائر الدولة الأخرى، التي تتطلب الشهادات التعليمية الرسمية، اللهم إلا دائرة الإفتاء التي تقبل لوظائفها خريجي هذه المدرسة.

م ـــ وبعد حصولكم على شهادة هذه المدرسة أين اتجهتم؟

مص ـــ خلال وجودي في المدرسة الشرعية لم أكن لأقتصر على دروسها، بل كنت أتابع دروس الوالد في مختلف المساجد علاوة على دروسه التي أتلقاها منه في المدرسة، التي كان يدرسنا فيها مقررات الفقه.. فكنت أحضر عليه في الجامع الأموي ـــ بحلب ـــ دروس الفقه والحديث في يوميه المقررين من كل أسبوع، وفي (جامع الخير) كذلك كنت

أحضر دروسه التي كانت خاصة بأمثالي من الطلاب، وكان له درس يومى في المدرسة الشعبانية ورثه عن والده ففيها كان جدي يقوم بتدريس الفقه والأصول والحديث للرجال الذين بلغوا مستوى عالياً من التلقي، فيقرؤون عليه حاشية ابن عابدين وشرح الزيلعي في الفقه الحنفي وصحيح البخاري، وهي دروس لاأعرف أحداً من القضاة والمفتين في حلب وأقضيتها إلا وهو تلميذ لجدي فيها، ولما تقدم جدي في السن حتى تجاوز الثمانين تخلى عن دروسه لوالدي، فكان هؤلاء ومن في طبقتهم يحضرون عليه، وأحضر أنا معهم، فلا أفوت واحداً من دروسه هذه علاوة على دروس المدرسة الشرعية المذكورة وأريد من هذا إلى القول بأن معظم دراستي الأولى إنما بدأت على الرُكَب والحصير والبساط، على طريقة الأولين من طلاب العلوم الإسلامية.

م ــ ومن هنا بدأنا نحن أيضاً.. فماذا عن دراستكم الجامعية..؟

مص ــ لم تصرفني دراساتي الشرعية والعربية عن متابعة الفرنسية، فقد اتفقت مع بعض الأساتذة النصارى على تدارك مافاتني منها، فكانوا يزورونني في غرفتي بالخسروية وتارة في بيتنا لهذا الغرض لقاء أجر معلوم، وكانت الخسروية ــ كما أسلفت ــ قد أدخلت إلى مناهجها بعض العلوم العصرية كالحساب والحديث والجغرافيا والتاريخ والصحة.. وما إلى ذلك من العلوم التي فرضها التطور على المدارس الإسلامية، بعد أن اقتنع المسئولون فيها أن من الخطأ بقاء الشيوخ بعيدين عن مجرى الثقافة الحديثة العامة.

وكنت كثير التطلع إلى أن يكون لى من تلك الثقافة الحديثة مثل الذى أراه عند خريجي الثانويات العامة، وبخاصة أن لدي من اللغة الفرنسية الأساس الذي لابد منه لهذا الأمر، وأفضيت بذلك إلى صديقي ورفيق صباي الدكتور معروف الدواليبي، فاتفقنا معا على متابعة هذه الدراسة، إلا أن عقبة السن قد صدمتنا، إذا كان علينا أن نبدأ من الصفر بعد مرحلة الابتدائي، ولم تكن سننا تساعد على أن ننتظم في مدرسة تبدأ من الأولى بعد الابتدائية، وهي مايُسمى الآن بالأولى الاعدادية، ومع ذلك لم نلبث أن عقدنا العزم على تحقيق الغاية لإيماننا

بأنها ضرورة لامعدى عنها خلال تلك الظروف، التي اهتزت فيها أوضاع المجتمع تحت وطأة الاحتلال الفرنسي، الذي شجع عناصر الانحلال والإلحاد، وبخاصة بين الدارسين في الغرب، على مهاجمة الدين، واتهام علماء الإسلام بأنهم لايفقهون من الحياة سوى أحكام الصلاة والصوم والطهارة والنجاسة.. وأنهم بعيدون عن الثقافة التي لايجوز لإنسان أن يجهلها.. وكثيراً مايقارنون بينهم وبين القسس ودعاة المسيحية ليبرزوا الفرق بين الفريقين في هذا الجانب، حيث يصورون القسيسين مزودين بكل جديد من العلوم الحديثة، فمنهم الطبيب، ومنهم المهندس، ومنهم الماهر في الرياضيات.. على حين جمد شيوخ المسلمين عند أسفارهم وعلومهم الدينية، فلا يكادون يفقهون في هذه الأمور حديثا. ومن هنا ينطلق أولئك العصريون لبث سمومهم ودعاياتهم الشيطانية ضد الدين كله..

ويقول الشيخ: لقد كنا نحس هذا الواقع الأليم أثناء دراستنا الثانوية، ومنذ ذلك اليوم قدرنا أن السلاح الوحيد الذي يُعوز المؤمنين لمواجهة هذا التهجم الوقح هو أن نجمع بين حقائق الإسلام وحقائق العلوم الكونية، وهكذا جاء قرارنا توكيداً لأفكارنا تلك بعد دراستنا الشرعية فاتخذنا من غرف الإسماعيلية في حي القلعة مقراً، وأتينا بما يلزم من سبورة وكراريس وكتب، واتفقنا مع بعض أساتذة الثانوية العصرية الوحيدة في حلب، فرتبوا لنا جدولا دراسياً وزعت فيه المواد على الساعات كشأن ثانويتهم نفسها.. فحصص للفيزياء وأخرى للرياضيات.. وهكذا في سائر المقررات التي لابد لها من أستاذ، وتولينا نحن دراسة المواد الأخرى التي لاعسر فيها علينا، كالتاريخ والأدب العربي، الذي ولعت به منذ نعومة أظفاري، حتى تفوقت به على أساتذتهم.. حتى الهندسة المسطحة لم نحتج فيها إلى مدرس لأن المقرر منها مبادىء أولية لايتعذر علينا فهمها. وصبرنا أنفسنا في هذه السبيل حتى أنهينا البرنامج كله، وتقدمنا إلى الامتحان على نظام البكالورية الرسمية، وقبله كانت المدارس الثانوية هي التي تمنح الشهادات، فتتعرض امتحاناتها لأنواع من التلاعب، منها بيع

الشهادات نفسها، فكان نظام البكالورية الذي أحدثه الفرنسيون هو الذي قطع دابر الغش والتلاعب..

ودخلنا الامتحان العام أنا والدكتور الدواليبي بعد تصحيح أعمارنا بزيادتها ثلاث سنوات على قيدها الأصلي في دائرة النفوس كما أسلفت حتى أتيح لنا القبول حسب النظام.

وكانت البكالورية ذات شقين الأولى، وتستمر الدراسة فيها إلى السنة الحادية عشرة، ثم الثانية ويتم منهجها في الثانية عشرة. وتقسم الأولى إلى شعبة العلوم وشعبة الآداب، والثانية إلى الرياضيات والفلسفة، وقد دخلت أنا الامتحان في شُعْبَتَي الأولى معاً، وقدر الله لي النجاح بالدرجة الأولى على طلاب سورية جميعاً، على الرغم من دراستهم النظامية طوال سني المنهاج.. ولم يكن للبكالورية الثانية سوى فصل واحد في دمشق، وعلى من نجح في الأولى وأراد المتابعة أن يأتي إلى دمشق لينتظم في هذا الصف، وقد فعلت ذلك، وشجعني على هذه المتابعة تفوقي في العربية وآدابها كما ذكرت، إذ كنت منذ العاشرة أحفظ الآلاف من أبيات الشعر، وأقبل على قراءة القصص، حتى لاستظهر مجموع الأشعار الواردة في قصة عنترة الشعبية، ولما بلغت العشرين كنت أزاحم كبار الشيوخ من أقران والدي على حل المشكلات اللغوية، فيلجئون إليَّ كلما استشكلوا قاعدة أو معنى ليعلموا رأيي فيه.. وهذا مادعا مدير معارف حلب الدكتور كامل أشرفية بعد إحرازي التفوق في امتحان البكالورية الأولى على طلاب سورية، دعاه ليعرض عليَّ أن أكون مدرساً للأدب العربي في أنطاكية التابعة لحلب آنذاك، فاستأنيته ريثما أستشير والدي، وشدَّ مادهش الدكتور أشرفية لترددي في قبول عرضه مثل ذلك العمل الذي يتمناه كبار العلماء، ومن جهة راتبه الذي يعدل واردات والدي بأجمعها.. وبعد تأمل طويل رفع والدي رأسه ليقول لي: يابنيَّ أنا أعلم الناس بك وبموهبتك، ولاشك أن هذه الوظيفة أكبر منك اليوم وهي بالنسبة إلى سواك حلم وغنم، ولكني أراها تحد مسيرتك وتلزمك مكانها أستاذاً في الثانوية فقط.. فيتعذر عليك متابعة دراستك بعدها، فتغلق بوجهك

الفرص التي تنتظر استعداداتك.. والذي أراه لك هو انتهاز فرصة البكالورية الثانية، فإذا أحرزتها تتابعت عليك الفرص حتى ترق أعلى المناصب إن شاء الله.. ومع ذلك فارجع إلى نفسك واختر ماتشاء..

قلت للوالد رحمه الله: بعد أن أبديت رأيك وآثرت لى ما آثرت لم يعد لي مجال للاختيار، ولا شك أن الخير في ماهو أرضى لك..

وفى غداه اليوم التالى قصدت إلى مدير المعارف فأبلغته قرار الوالد وايثاره لي متابعة الدراسة.. فاستغرب ذلك بل دهش ودعا لي بالتوفيق..

ومن ثم توجهت إلى دمشق وتم تسجيلى بين المقبولين داخلياً، ولم يكن الجمع بين فرعي البكالورية الثانية ممكناً، فآثرت قسم الفلسفة، وقدر الله لي نجاحاً كالأول في نهاية السنة، إذ أحرزت الأولية على طلابها جميعاً ولله الحمد.. وكان بين الطلبة الذين تخرجوا معي عدد من الرفاق تسلموا فيما بعد أسمي المناصب فكان منهم وزراء وأساتذة جامعيون.

م ــ ومن ثم أخذتم طريقكم إلى الجامعة..

مص ــ أجل.. لقد التحقت فور تخرجي بالجامعة السورية التي سُميتْ فيما بعد جامعة دمشق بعد إنشاء جامعة حلب، وكانت تحتوي عدة كليات أقدمها كلية الطب، التي انشئت منذ الحرب العالمية الأولى..

م ــ والحقوق هي أولى الكليات التي أنشاها الفرنسيون، وكان غرضهم منها تأمين حاجتهم من الموظفين الصالحين للإدارة..

مص ــ هو كذلك.. وتبعها كلية الصيدلة، وقد أنشئت كلية الآداب قبل التحاقي بالجامعة بعام واحد وسميت مدرسة الآداب العليا..

م ــ أكان عميدها الأستاذ عبد القادر العظم؟.

مص ــ كلا.. بل الأستاذ شفيق جبري، وهو من كبار شعراء الشام وأدبائها، وكان من أساتيذها الشيخ عبد القادر المغربي، والشيخ عبد القادر المبارك، الملقب بالقاموس الحي، والأستاذ سليم الجندي، وهو من كبار أساتذة الجيل وأساطينه أما الأستاذ العظم فكان عميد كلية الحقوق.

وقد جمعت بين الحقوق والآداب ، فكنت أحضر دروس الحقوق قبل الظهر ، ودروس الآداب العليا بعد الظهر ، وكان بين المتسببين إلى الآداب كثير من الموظفين الذين وجدوا في فسحة مابعد الظهر متسعاً لحضورهم .

وفى العام ١٩٣٣ تخرجت فى كلتا الكليتين ، وأحرزت الدرجة الأولى في كلتيهما أيضاً بفضل الله ، ومما يسرني أني لاأزال أحتفظ بخطابيْن يسجلان لي التقدير والثناء على ذلك ، أحدهما من عميد الحقوق الأستاذ عبد القادر العظم ، والآخر من عميد مدرسة الآداب الأستاذ جبرى .

م ــ سؤال بين معترضين : إن بحوثكم القيمة في الثقافة الإسلامية تقتضي أن يكون وراءها ذخر كبير من القرآن الكريم ، فهل قدِر لكم حفظه ؟.

مص ــ لم أوفق إلى ذلك ، ولكني أحفظ منه أقساماً كثيرة بحمد الله ..

م ــ والحديث الشريف ؟..

مص ــ لقد عُنيت بالحديث الشريف كثيراً ، ولكنى لم أحفظ منه إلا ماأتاحته لي الدراسة الشرعية وحاجتي المتجددة إليه ، فأنا كثير الاطلاع ولست بكثير الحفظ .

م ــ هل تشعرون بأن ذاكرتكم تسعفكها بالشواهد اللازمة من الوحيين عندما تقبلون على كتابة البحوث ؟..

مص ــ أشعر دائماً ولله الفضل والمنة ، أن الشواهد تسعفني ، وأن أفكاري يستدعي بعضها بعضا ، عندما أقوم بالكتابة ..

م ــ ولكن المعلوم عند أصدقائكم أنكم أحد المبتلَيْنَ بضعف الذاكرة ..

مص ــ هذا الضعف يكاد ينحصر في ناحية الحوادث والوقائع وتحديد أزمنتها ، ففي هذا الجانب أشعر بأني سيء الحفظ ، وأما في الجوانب العلمية والفقهية وأمور الأحكام وما إليها ، فإن ذاكرتي قوية ولبقة وعالية الضبط ولله الحمد .

م ــ لقد آن لنا أن نعرف بعض الأنباء عن الرجال الذين أثروا في توجهكم ..

مص ــ لعل أعمق الرجال تأثيراً في نفسي هو الرجل الذي لم أدرس عليه. انه جدى رحمه الله، أدركته وأنا شاب وقد حصلت ماحصلت من الدراسة الأولى وهو حي، إذ كانت سنه تقارب الخامسة والثمانين، إلا أني كنت أرى واستشعر مابلغه من العلم حتى لقد استدعي إلى استانبول ليكون أميناً للمشيخة الإسلامية، وقد بلغ بمزاياه الفقهية النادرة منزلة لاحاجة للتحدث عنها، لأنها مشهورة لدى العلماء وكان رجال القانون في حلب يعدونه مرجعاً لاغنى عنه في كل مايريدون استخراجه من الأحكام الشرعية..

وكنت أشهد وقاره وما يتمتع به من احترام مهيب، فقلما ورد حلباً أحد إلا كان أول عمله زيارته وتقبيل يده وطلب الدعاء منه، فكان بمركزه المرموق يُعَد فوق جميع المستويات. وكثيراً ماسألت نفسي، وأنا الحظ هذه المكانة: هل يأمل أحد أن يبلغ مثلها؟.. وهل أطمع مثلا أن أبلغها في حياتي؟..

فأنا أعتقد أن جدى رحمه الله، بهذه المزايا التي كنت ألمسها منه هو أكبر مؤثر وحافز لي.. وقلت إني لم أدرس عليه لأني لما بدأت الدراسة في مطلع شبابي كان هو قد اعتزل التدريس لتقدم سنه، إلا درساً واحداً في الأسبوع يتطوع به لكبار أهل العلم من طبقة والدي.. وأذكر أني حضرت عليه في إحدى المرات فترك في نفسي صورة نموذجية له، ثم لم يلبث بعدها إلا قليلا حتى انتقل إلى جوار ربه، وأنا في السنة الثانية من الثانوية الشرعية، فرثيته بقصيدة سكبت فيها كل مشاعري نحوه رحمات الله عليه، وكانت من بواكير شعري..

م ــ كان هذا الجد غفر الله لنا وله أوّل الرجال أو أعمقهم أثراً في نفوسكم. ثم من؟

مص ــ ثم يأتي الأساتذة الذين أفدت من دروسهم، وفي طليعتهم والدي، وبخاصة من الناحية الفقهية، فقد كان يقضي معي الليالي الطوال، وربما امتد السهر إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ونحن في نقاش فقهي، يبلغ بنا أحيانا إلى التشاد، كل مع دليله وطريقة فهمه، وقد

ينحاز إلى رأيي بعد طويل جدال، وقد يكون الانحياز مني إلى رأيه أخيراً، وعلى كل حال كان معي مثل المدرّب الرياضي الذي يريد تخريج الأبطال يشجعني على النقاش، ويمرنني على استخلاص الأحكام من خلال الأدلة والحجج.. تمرين خبير أوتي صبرا وسعة إطلاع حتى لا يكاد يوجد كتاب فى الفقه ولا من أمهاته الأولى إلا وله فيه لاأقول دراسة، بل حراثة، وكان أحسن من رأيت بعد جدى رحمهما الله ثقافة فى الفهم الفقهي، والتخريج وتنزيل المسائل والحوادث على القواعد، ولاأعلم أحداً بعده له مثل دقة نظره فى هذه الجوانب..

ولقد آنس مني استعداداً للاستزادة من علمه وتدريباته فرأى أن تكون ملازمتي له أطول مايمكن، لذلك استخرج سرير أمي من غرفته ليجعل مكانه سريراً لي فأبيت بجواره، فلا نضيع فرصة دون فائدة أو مذاكرة. وكان ذا ولع بالأدب والشعر وذا بصيرة منقطعة النظير في نقد الشعر، يطربه منه الفحل الجزل فيكاد يرقصه إعجاباً.. إلا أنه لم يجرب قرض الشعر فيما أعلم.

م — ليس ضرورياً أن يكون الفقيه من صاغة الشعر بل المهم أن يتذوقه كي يفيده في دراسة النصوص العالية.

مص— وكذلك كان فهو على مستوى رفيع من هذا الذوق.. ولم تكن مذاكرتنا كلها في حقول الفقه، بل كانت متنوعة الأشكال، وربما أنفقنا الساعات والأيام والليالي في مطالعة الروائع من كتب الأدب، كالأغاني والعقد الفريد وما إليهما.. وقد كان لهذه المشاركات أثرها الفعال في تكويني الأدبي، إلى جانب المناقشات الفقهية التي لم تكد تنقطع.. ثم هناك أساتذة آخرون تركوا بصماتهم على فكري من جهات أخرى..

م — إن نشأة في مثل هذا الجو الرفيع لابد أن تسترعي الانتباه وتستدعي الدراسة.. فقد تبين لي من خلال عرضكم الدقيق للعلاقة التي كانت بينكم وبين والدكم أنه من طراز خاص نادر الوجود بين الآباء. إنه يحترم شخصيتكم وإنسانيتكم، ويثق بعقلكم فهو لكم كالصديق

الممتاز الذي خلت نفسه من آثار العنف، وتحلت بالصبر والدماثة والمرانة.. فكان بذلك خير معوان على تنمية مواهبكم وتوسيع آفاق تفكيركم، فلا عجب والحالة هذه أن يكون الرباط بينكم وبينه رباط أبوة وبنوة وأخوة معا.. وجدير بهذا الضرب من التربية أن يترك آثاره كأعمق ماتكون المؤثرات..

مصـ ولقد ارتفعت الحجب بينه وبيني في نطاق المناقشات العلمية، مع الحفاظ التام على كرامة الأبوة ووقارها:

م ـ بقي أن نسألكم عن علاقتكم مع أبنائكم هل تطبقون معهم المنهج التربوي نفسه؟..

مصـ نعم.. إنه المنهج نفسه، على أن الفرق الذي لايمكن تداركه هو فقدان المناسبات التي أتيحت لي مع الوالد. فالدراسة كما تعلمون قد تطورت اليوم فسلبت البيت الكثير من حرية الحركة مع الأولاد، وهم في مراحل الدراسة، فالأنظمة مرهقة، والالتزامات المدرسية ثقيلة، والساعات محدودة، فلو أخذت من ولدك ساعة لعطلت عليه واجبه، ولعرضته للسقوط في الامتحانات..

م ـ تلك ظروف يستحيل التغلب عليها بعد أن تجاوزت إمكانات البيت، ولكن يبقى الجانب الثاني من التربية وهو نوعية العلاقة بين الوالد والولد.. فهل جريتم مع بنيكم على طريقة أبيكم اللينة الحليمة البعيدة عن الشدة والعنف؟..

مصـ تماماً، فأنا رفيق صغيرهم في ألعابه ورياضاته، وصديق كبيرهم في دراسته ومشكلاته..

م ـ فهنيئاً لذلك البيت السعيد إذن!..

مصـ نعم ولله الحمد إنه لبيت قريب من حدود السعادة إن لم يكن في صميمها.. إذ لم يُبق التطور في الحياة من سبيل إلى استعادة الجو الذي عشناه في ظل الوالد كاملا، فقد أغرقت الدراسة الأولية معظم أوقات الأولاد، ثم جاءت المرحلة الجامعية لتبتلع سائرها.. حتى إذا ماأتم

أحدهم دراسته الجامعية أخذ سبيله إلى أمريكة، وتبعه الآخر إلى كندا.. لاستكمال الدراسات العليا التي أصبحت ضرورة لامندوحة عنها، وما إن يفرغ الواحد من تلك المرحلة حتى ينصرف إلى الجهة المهيأ لها. وهكذا فرقت الحياة شمل الأسرة، ففقدت معظم المقومات التي كانت تحتفظ بها حتى عهد قريب، ولعلي أنا آخر حلقة في هذه السلسة بين القديم والحديث..

م — أشرتم في ماتقدم إلى آخرين كان لهم أثرهم في نشأتكم وفكركم، فلو تفضلتم بشيء من التفصيل عنهم..

مص— أذكر من هؤلاء اثنين تركا أثراً قوياً في تكويني الفكري والاجتماعي، وكان لأسلوبهما العلمي يد لاتنسى في بنائي الذهني. أحدهما الأبلغ أثرا هو الشيخ محمد الحنفي رحمه الله، تتلمذ على جدي، ثم التحق بالأزهر، وتخرج على علمائه، ومنهم الإمام محمد عبده، الذي أخذ عنه رسالة التوحيد وكثيراً من التفسير، ثم عاد إلى حلب ليكون واحداً من رعيل الأساتذة الذين جيء بهم للتدريس في الخسروية أول نشأتها، فكان يدرسنا التفسير والتوحيد والبلاغة.

لقد امتاز هذا الأستاذ الفاضل بحسن البيان وفصاحة اللسان وانطلاق الفكر وتسلسله، إذ كان يُبَسط الأمور المعقدة فيمضي بها من البسيط إلى المركب، حتى ليصور لنا أعقد المشكلات ماثلة بمنتهى الوضوح، فمن هنا كان إيحاؤه عميقاً في ذهني، وطريقة أدائي وفي التزامي البيان الناصع.

ومن مواقف هذا الشيخ معنا أتذكر ساعة كنا بين يديه على الحصير ف المدرسة الخسروية، وذلك قبل إدخال المقاعد إلى قاعات الدرس، وقد شرع في شرح إحدى القضايا العلمية، فعرض لي خاطر يختلف عن مرئياته فيها، فاستأذنته لإبدائه، فأذن وأصغى إلي باهتمام وأنا أعالج المشكلة وكيفية حلها في تقديري، فاستقبل ذلك مني بالرضى والإعجاب، وقال لي تلك الكلمة التي تركت صداها مدويا في نفسي: (يامصطفى.. سيكون منك واحد من رجال العلم إن شاء الله..).

أما الآخر فهو الشيخ محمد راغب الطباخ المؤرخ المشهور وصاحب كتاب (إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء) سبعة مجلدات، وكان ذا ولع كبير بكتب الحديث ومخطوطاته، وله تتبع في مخطوطات التاريخ والسيرة النبوية، ويحرص أن يستخرج لنا العظات من حوادث السيرة فيقف بنا على مواطن العبرة فيها مما يسمى اليوم بفقه السيرة، وكذلك يعمل في درس الحديث الشريف، إذ كان ينبهنا إلى العميق من علومه وكنوزه.. هذا إلى تَنَوُّرٍ في الفكر، وانفتاح على حاجات الزمن، كشأن شيخنا الحنفي، رحمهما الله جميعاً ومن هنا كان أثره في توجيهي إلى حرية التفكير والبحث، وإلى ربط العلم بالحياة.. فلهذين الأستاذين بعد والدي أكبر الأثر في تثبيت خطاي في الطريق العلمي الصحيح..

م — وما أهم الأحداث التي عاصرتموها وانفعلتم بها؟

مص— سأكتفي من هذه الأحداث بواحدة كان انفعالي بها كبيراً جداً، وكان من آثارها أنها علمتني دروساً جديدة في الحياة والسلوك وفي أخلاق الناس.

بعد وفاة والدى حللت مكانه فى المدارس التى كان يعمل فيها .. وتوليت القيام بالدرس الذي كان له في الجامع الأموي بحلب، وكذلك في جامع الخير والمدرسة الشعبانية، والمدرسة الخسروية النظامية، التي سبق ذكرها وسميت فيما بعد بالثانوية الشرعية.

فى هذه الفترة من عام ١٩٣٨ كان قاضى حلب الشرعى رجل من جسر الشغور هو الشيخ محمد الأهدلي، ثم مالبث أن نقل من القضاء إلى إدارة الأوقاف، وكان رجلاً تقدمياً محباً للإصلاح، فتذاكرنا وإياه مع بعض الزملاء من الشباب المتطلعين إلى الاصلاح، وتلاقينا في التفكير على مشروع عظيم الأهمية، هو تجميع المدارس الوقفية القديمة تحت نظام دراسي موحد يجعل منها كلية شرعية ذات مرحلتين ثانوية وعالية..

وقبل المضى فى الحديث أحب أن أذكر بأوضاع المدارس الوقفية إذ

ذاك، ليتضح أكثر الهدف الذى اتفقنا عليه يومئذ..

هذه المدارس كان معظم الطلاب المجاورين فيها ــ المقيمين في غرفها ــ من الكسالى الذين يتخذون من غرفها مأوى لهم باسم الدراسة، وقلما يلقى فيها درس، وإنما هي أشبه بملجأ عجزة، ولا سائل ولا مسئول، مع أن في أوقافها خيراً كثيراً، ولكنها مقصورة النفع على متوليها إذ يأكل المتولي تسعة أعشار غلتها، ويتناول أولئك الكسالى العشر الباقي لطعامهم دون أن يناقشوه بشيء، ولو تجرؤا على مناقشته لاستبعدهم وجاء بغيرهم.

فالجميع والحالة هذه متواطئون على الرضى بالواقع، الطلاب ساكتون عن تصرف المتولي احتفاظا بمنفعتهم القليلة التي لايستحقونها، وهو راض عن كسلهم وبطالتهم لأنهم يتيحون له الذهاب بحصة الأسد دون مناقشة ولا حساب.

كان هذا شأن الكثير من المدارس الوقفية، التى لوضُبِطت وارداتها لأنشأت جامعات.. وقد تم الاتفاق بيننا وبين مدير الأوقاف الجديد على القيام بهذه المهمة بحيث نحقق غايات الواقفين لهذه المدارس فنوحدها في تنظيم دراسي حديث، ونبدأ ذلك في توسيع نطاق المدرسة الخسروية بإحداث مرحلة عالية للدراسة الشرعية، وهي مرحلة لاوجود لها في سورية حتى ذلك العهد، ينتقل إليها خريج الثانوية الشرعية لمتابعة دراسته العالية على مستوى الكلية ضمن أربع سنوات، فيكون المتخرج في هذا القسم مستحقاً صفة العالم، بعد أن كانت الثانوية الشرعية تقف به في منتصف الطريق، فلا هو بالعالم ولا هو بالجاهل، وليس لشهادتها أي قيمة عملية كما أسلفنا.. وتعتبر بقية المدارس الموحدة بمثابة مدرسة ثانوية، وكل واحدة منها يؤلف طلابها واحداً من الفصول الثانوية المتدرجة في الارتقاء.

وطبيعي أن هذا يقتضي إنشاء صندوق موحد تُجبى إليه غلات تلك الأوقاف، وتصرف في تخطيط حسابي دقيق على هذه الإحداثات التي ستكون الدراسة فيها متتابعة في ارتقاء الطالب دون توقف، حتى

يتخرج..وإذا رسب في امتحان إحدى السنين يمنح مهلة سنة أخرى، فإن رسب بعدها دون عذر مقبول فصل لكسله أو لعدم قابليته.

ولما عرضنا هذه الأفكار على مدير الأوقاف طار بها فرحاً، وكلفنا أنا وزميلين السعي لتحقيق هذه الغاية، وقمنا نحن مع بعض فضلاء الشيوخ بوضع البرنامج اللازم، وفي مقدمة هؤلاء الفضلاء الشيخ عبد الحميد الجابري رحمه الله وقد تم ماأردنا فجاء البرنامج على الغاية من التوفيق، وبدأ مدير الأوقاف الشيخ الأهدلي خطواته الأولى في طريق التنفيذ فأصدر قراراً بتوحيد هذه المدارس الوقفية، وطلب إلى المتولين أوقافها أن يقدموا مخصصاتها التالية إلى صندوق خاص أعِد لهذه الغاية في إدارة الأوقاف.. ولكن.. ماهو إلا أن أعلن هذا التخطيط حتى قامت قيامة ذوي العلاقة بالموضوع، من الطلاب المجاورين في تلك المدارس ومن الشيوخ المدرسين فيها، ذلك لأن التنظيم الجديد سيفرض دراسة وتدريسا بصورة جديدة، وسيميز بين الكسالى والجادّين من الطلاب، وبين الأكفاء وغيرهم من الشيوخ المدرسين. فمن كان مستعداً للمتابعة النظامية وكفؤاً لها فالباب مفتوح أمامه، وإلا فنصيبه الفصل والتسريح، فليفتشوا لهم عن عمل آخر خارج هذه المدارس التي إنما وقفت ورصد لها الأموال للتعلم والتعليم الشرعيين، وتخريج العلماء الذين تحتاج إليهم الأمة، ولم توجد للبطالة وشرب الشاي.

وبلغت ثورة الانتفاعيين يومئذ ما لا يتصور، فقد حشدوا كل طاقاتهم لمقاومة ذلك التنظيم الإصلاحي، واشتروا بعض فاسدي الذمم من الصحفيين ليهاجموا المشروع، فراحوا يشنون عليه الغارات، ويسميه بعضهم (خطة إلحاد) لأنه بزعمهم يخالف شروط الواقفين لتلك المدارس، كأن من شروط الواقفين تجميع الكسالى وإشباع البطالين والمرتزقة على حساب العلم والدين!.

ويالها معركة شغلتنا وقتا غير يسير بالرد على أباطيل المرجفين، ومغالطات المشبوهين وافتراءات الكاذبين وكان نصيب مدير الأوقاف منها متاعب كثيرة، وقد زاد من قوة الخصوم دعم السلطات الفرنسية

إياهم .. حتى انتهى الأمر بإعادة مدير الأوقاف إلى القضاء، والإتيان بآخر من دمشق لم يلبث أن انحنى للعاصفة فقد كان امرءاً ملايناً أكثر من اللازم، ولم يجد في نفسه ــ على الرغم من طيبته وحسن خلقه ــ القدرةَ على متابعة خطى سلفه مع يقينه بصحتها، فوقف المشروع ثم دفن في مهده .. وكان ذلك نصراً للباطل الصريح على الحق الصحيح.

ولكن بعض مناوئيه استيقظوا بعد سنوات فأدركوا خطأهم، وندموا على فعلتهم، وبخاصة عندما أنشيء القسم العالي للدراسة الشرعية في دمشق، فاضطر العديد من أبناء حلب للهجرة إليها لمتابعة التحصيل الشرعي العالي، الذي أتاحه ذلك القسم لطلاب العلوم الشرعية .. على أن كثيرين من أولئك المعارضين ظلوا على عنادهم وحقدهم .. وبذلك انطوى مشروع توحيد المدارس الوقفية في حلب نهائياً، ثم أعقبه بعد ذلك توقف القسم العالي للدراسة الشرعية الذي أنشأته الإدارة العليا للأوقاف في دمشق ..

م ــ خلال حياتكم المباركة مررتم بظروف خَضَّت العالم وأحدثت كثيراً من التغيرات في المجتمعات العَربية، فيرجى التفضل بعرض انطباعاتكم في هذا الصدد.

مص ــ في المرحلة الأولى من هذه الظروف كنت في بداية نشأتي، فلم يكن لديَّ الوعي الكافي، ولا قدرة الاستيعاب التي تمكنني من الربط بين الأحداث وبين مسبباتها ونتائجها .. وإنما بدأت أعي هذه الأمور منذ الاحتلال الفرنسي في أول العشرينات، ولاشك أن لهذا الاحتلال تأثيراً كبيراً في نفسي، وفي تكوين مفاهيمي السياسية، وفي إدراكي لمصاير الأمم التي يحتلها الأعداء كما حدث في سورية ولبنان، وقد شهدت وسمعت الكثير من وحشية المحتلين وفقدانهم الإنسانية ومدى مطامعهم في بلادي، وهذا مادعاني إلى الانغماس مبكراً في الأعمال السياسية، وفي النضال الوطني ضد الفرنسيين، وكنت أنا والدكتور الدواليبي وعدد قليل من الشباب في صفوف الكتلة الوطنية، وقد توثقت صلاتنا بقادتها أمثال إبراهيم هنانو وسعد الله الجابرى وإخوانهما، ومن خلال هذه المشاركات الوطنية عرفنا المزيد من نفسية المستعمرين كما وصفها

شوقي بقوله :

وللمستعمرين وان ألانوا　　　قلوب كالحجارة لاترق

م — إن هذا التصوير الحي لأيام النضال ضد الفرنسيين يدفع إلى سؤال آخر نستوضح به رأيك في المقارنة بين عهد المحتلين وعهد الانقلابيين ..

مص— أول مايواجهه المفكر الاختلاف بين العهدين في نطاق الحرية التي تتاح في ظلهما . ومما لاخلاف عليه أننا كنا أيام الفرنسيين نملك القدرة على التعبير عن أفكارنا ومطالبنا المشروعة أما فى ظل الانقلابيين فتحت ستار الوطنية ومصلحة الأمن ومقاومة العدو، يكممون الأفواه، ويخنقون الأفكار ويبلغون من الاعتداء على الحريات الشخصية والفكرية مالم يبلغ بعضه الفرنسيون ذلك لأن الانقلابيين يمارسون هذا الضغط باسم المصلحة العامة، فيخترعون لمعارضيهم مايريدون من التهم، ولا يسمحون لمتَّهم بالدفاع عن نفسه.. وحسبك ماكانت تتمتع به المعارضة أيام الفرنسيين من حق الكلام في صحافة خاصة بها، على حين يقبض الانقلابيون على أزمة الإعلام كلها مسموعة ومنظورة ومقروءة، حتى لايسمع غير صوتهم، ولا يرى سوى وجوههم، ولا يُقرأ إلا كلامهم. فأنا الآن أشعر أن حرية النضال ضد الظلم وضد السياسة الاستعمارية والانحرافات، كان لها مجالها وحريتها في عهد الفرنسيين، والإنسان المعارض لهم يجد القدرة على ابداء رأيه بكل وسائل التعبير. وسأحدثك بمثل من ذلك.

رأى الفرنسيون ذات يوم أن يعلنوا ما يسمونه بقانون الطوائف ، ويريدون به توحيد أحكام الأسرة بين المسلمين والمسيحيين، فما إن علمنا بهذا الأمر حتى خرجنا للاحتجاج عليه بتظاهرة تضم عشرات الآلاف، وعلى درج الحكومة ألقيتُ خطبة نارية ضد الفرنسيين ومفوضيهم وعلى مسمع منهم ومرأى، فألهبت الجماهير حماسة، ولم ينلني من جراء ذلك أي أذى. وبهذه التظاهرة منعنا صدور هذا القانون ونفاذه بالصورة التي كانوا يريدونها.. فأين هذا من العهود

التي سدت المنافذ بوجه كل حر، وجعلت الموت والتعذيب جزاء كل كلمة لا يرتضونها!

م ــ بقي أن تحدثونا عن آثاركم العلمية الأدبية .

مص ــ سأحدثك بآثارى التي انجزتها في كلية الحقوق، إذ لاحاجة إلى إعادة الكلام عما سبق هذه المرحلة. عندما عينتني جامعة دمشق أستاذاً لتدريس الحقوق المدنية والشريعة الإسلامية، كان أساس هذه الحقوق مجلة الأحكام العدلية المستمدة كليا من الفقه الإسلامي، وقد سبق أن تلقيت دراستها في الكلية طالباً، واليوم كلفت تدريسها أستاذا. وكان لديَّ شعور بالحاجة إلى عرض أحكام هذه المجلة ومرتكزاتها من الفقه الإسلامي بأسلوب عصرى جديد، على نسق مانراه من عرض الأحكام في القانون المدني الفرنسي وشروحه، وقد ضاعف من شعوري هذا ولعي الفطري أو الكسبي بعرض الأفكار مرتبة بحيث تتدرج من البسيط إلى المركب، يضاف إلى هذا الولع ذخيرتي من الدراسة القانونية وبحوثها ومناهجها ونظرياتها.. ولهذا رأيت أن أفيد من هذه الفرصة فأستخدم إمكاناتي واختصاصاتي في خدمة الفقه الإسلامي، وبخاصة فقه المجلة، عن طريق عرضه في ذلك الأسلوب الذي اتصوره. وقد أعانني الله على هذه المهمة الجسيمة بمدد من الصبر والجهد واستلذاذ العمل، حتى لقد كنت أقضي فيه الليالي الطوال دون كلل ولا ملل. وأذكر أني في ليالي الشتاء القارسة كنت أصلي العشاء في وقتها، واقعد بجانب المدفأة مكبا على أوراقي ومراجعي، أحرر وأكتب وقد انصرف عني أهل البيت ليأخذوا حقهم من النوم، وانصرفت عنهم إلى المراجعة والكتابة فلا أنتبه من استغراقي إلا وقد كادت تطلع الشمس، فأثب ذاهلا لأدرك صلاة الصبح قبل فوات وقتها..

فى هذه المرحلة وفقنى الله لإخراج سلسلتين من المؤلفات، أولاهما هي السلسلة الفقهية، وعنوانها العام (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد) وقد بلغت أجزاؤها أربعة مجلدات، وقدر الله لها البقاء والذيوع فهي مرجع للتدريس إلى اليوم ــ ١٤٠٠ هـ في جامعة دمشق، وفي الجامعة الأردنية

وغيرهما، وتعتبر من المراجع المعتمدة لدى القانونيين والشرعيين والأساتذة المدرسين لموضوعاتها في جامعة دمشق، ولاسيما النظريات الأساسية في الفقه الإسلامي، وهي مؤممة في جامعة دمشق..

هذه السلسلة بما تنطوى عليه من التجديد فى أسلوب عرض الفقه وتبسيطه قد أوضحت المعقدات من القضايا الفقهية، التي كانت تستعصي على غير طلاب الفقه القارحين، حتى باتت بمتناول أفهام غير ذوي الاختصاص..

أما السلسلة الثانية فتتألف من ثلاثة مجلدات فى شرح القانون المدنى السوري، الذي حل محل مجلة الاحكام الملغاة بالقانون المدني عام ١٩٤٩. عرضت فيها النظريات القانونية الوضعية بصورة مبسطة كذلك، ولم أجر فيها على غرار مايفعله الكثيرون من القانونيين العرب، إذ يأخذون المصادر الأجنبية ويترجمونها حرفياً بل سلكت مسلكا حرا في شرح القانون وفي عرض أحكامه ونقدها.. وقد أودعتها آراء وبحوثا قد تخالف آراء أولئك القانونيين الذين نقلوها بمحض التقليد للأجانب في مصر وغيرها.

وهكذا امتازت السلسلتان بخصائص واضحة من التجديد ، جعلت الكثير من الدارسين يرجعون إليها لتكوين الفهم السليم ، ومن ثم ينصرفون إلى الكتب المقررة عليهم..

م — إن انصرافكم للعلوم الحقوقية لم يخمد ميلكم الأدبي إذا لم يساعد على تعميقه.. فهل ثمة أثر أدبي تحدثوننا عنه؟

مص— لقد درست الأدب العربي في المدرسة الخسروية عقيب دراستي الجامعية، ولكنني لم أؤلف أي كتاب في الأدب وعلى الرغم من ولعي بالشعر وممارسته لم أخرج فيه ديواناً حتى يومي هذا، لأن عملي العلمي وانشغالي بالتأليف القانوني لم يدعا لي مجالا لشيء من ذلك.. بل لقد حافا على ميولي الشعرية فقل إنتاجي منه بإزاء ماسبق لي من المنظوم.. وقد نشرتُ من شعري بعض القصائد أو المقطوعات، وهي قليلة بالنسبة إلى مالم ينشر، والمحفوظ لديَّ منه لايعدو أوراقا مبعثرة يعوزها

التصنيف والتنسيق.. وفي النية أن أنتهز لها بعض الفرص التي تمكنني من جمعها في إطار منظم، وربما فكرت بتقديمها للنشر في ديوان....

م ـ لو تفضلتم ببعض الحديث عن الأعمال التي توليتموها..

مصـ هذه الأعمال تتألف من ثلاثة أقسام ١) التدريس. ٢) النيابة. ٣) الوزارة.

أما القسم الأول فبدأ بانتقالى إلى دمشق للتدريس فى الجامعة السورية. لقد عينت أستاذاً في كلية الحقوق عام ١٩٤٤م. لتدريس القانون المدني والشريعة الإسلامية، وعندما أنشئت كلية شريعة سنة ١٩٥٤م في الجامعة السورية كان لي فيها عدد من المحاضرات، وعلى الرغم من دخولي الانتخابات البرلمانية ونجاحي فيها ممثلا عن مدينة حلب، لم أتخل عن التدريس في الجامعة، لأن النظام السوري كان يسمح بالجمع بين التدريس الجامعي والنيابة، إذ يرون أن في هذا الجمع مزيداً من الخبرة للأساتذة يستفاد منها في ميدان الأعمال العامة..

وفى هذه الفترة النيابية ما بين (٩٥٤ ـ ٩٥٨) كنت مع فريق من الأصدقاء المنسجمين نشكل في مجلس النواب ماسميناه بالجبهة الإسلامية.

م ـ كان الدكتور مصطفى السباعي معكم في هذه الجبهة؟

مصـ بل الذي كان معنا هو الأستاذ محمد المبارك أما الدكتور مصطفى السباعي فقد كان في هذه الجبهة قبلنا بمرحلة سابقة..

وقد أسندت إلى عام (١٩٥٦ م) من هذه الفترة وزارتا العدل والأوقاف إلا أن هذه المرحلة لم تستمر سوى أقل من سنة، تحرك خلالها المكتب الثاني للمخابرات العسكرية برئاسة عبد الحميد السراج، فاستقالت الوزارة، وقامت مكانها وزارة أخرى بتوجيه المخابرات، ثم ألغيت هذه الوزارة بقيام الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ ولم تستمر إلا قليلا حتى حصلت الانتفاضة التي قضت على هذه الوحدة في ٢٩/٩/٩٦١ ووضعت البلاد تحت حكم

عسكري غير دستوري قرابة سنة أعيدت في نهايتها الحياة الدستورية من جديد، وأجريت الانتخابات العامة ونجحت فيها عن حلب أيضاً، وتألفت الوزارة الجديدة برئاسة أخينا الدكتور معروف الدواليبي، وقد أسندت إليَّ فيها وزارتا العدل والأوقاف كرة ثانية، ولكن مالبث العسكريون أن تحركوا وألغوا الحياة النيابية واعتقلوا النواب والوزراء ورئيس الجمهورية الأستاذ ناظم القدسي، وبذلك انتهت أعمالي السياسية في النيابة والوزارة، وعدت إلى قواعدي الأولى في التدريس الذي لم أنقطع عنه خلال ذلك..

م — هناك جانب رابع من أعمالكم لايقل أهمية عن هاتيك الثلاثة هو مشروع الموسوعة الفقهية التي قمتم عليها عدد سنين في الكويت، ثم المجمع الفقهي بمكة المكرمة، ثم عملكم الراهن في الجامعة الاردنية..

مص — بعد إنشاء كلية الشريعة الإسلامية في جامعة دمشق عام ١٩٥٥ فكرنا أنا واخوان من زملائي الأساتذة فيها، هم الدكتور معروف الدواليبي والدكتور مصطفى السباعي والأستاذ محمد المبارك، بمشروع موسوعة للفقه الإسلامي تقوم به كلية الشريعة، يعرض فيه الفقه الإسلامي على مختلف مذاهبه، مرتبة مسائله وفق أسمائها الاصطلاحية حسب الحروف الهجائية ليستطيع غير فقهاء الشريعة من رجال القانون والإدارة، أو القضاة والمحامين وأساتذة الجامعات وشراح القانون في البلاد العربية والأجنبية كالمستشرقين، أن يرجعوا إلى فقهنا الإسلامي فيتبينوا مافيه من ذخائر النظريات القانونية والحلول المنطقية السديدة في مشكلات التعامل وقضاياه، وفي العبادات كذلك لتتضح سعة الآفاق في فقه الشريعة، ولتمكن الاستفادة من مختلف المذاهب والآراء الفقهية. فمن أراد العلم مثلاً بأحكام العدة في الطلاق أو وفاة الزوج يرجع إلى حرف العين من هذه الموسوعة فيستخرج كلمة (عدة) كما يستخرجها من معجم اللغة، فيرى أحكام العدة بمختلف أنواعها وفي مختلف المذاهب، ومن شاء معرفة مافي الفقه الإسلامي عن أحكام الركاز، أو عن تقادم الحقوق المانع لسماع الدعوى رجع إلى كلمة (ركاز) في

حرف الراء أو إلى كلمة (تقادم) في حرف التاء المثناة، فيجد أحكامهما المفصلة.. وهكذا. فهذه الموسوعة أصبحت ضرورة إسلامية حين ندعو إلى تطبيق الفقه الإسلامي واستمداد التقنينات الزمنية منه، ولا سيما القانون المدني العام. فقد بدأت مصر في القرن الماضي بأخذ قانون مدني أجنبي الأصول، ثم انتشرت العدوى في أواخر الأربعينات من القرن الحاضر إلى كثير من البلاد العربية، فأخذت بالقانون المدنى المصرى الأجنبى الأصول، وانقطعت عن تراثها الفقهى العظيم.

وقد كان تفكيرنا بمشروع الموسوعة الفقهية نتيجة لتوصية مؤتمر (أسبوع الفقه الإسلامى) الذى عقد فى كلية الحقوق بالسوربون من العاصمة الفرنسية في تموز ١٩٥١ وشار كنا فيه أنا والدكتور معروف الدواليبي عن الجامعة السورية. فقد أردنا أن تقوم كلية الشريعة الحديثة في جامعة دمشق بتحقيق هذه التوصية. فعملنا على إنشاء لجنة رسمية لمشروع الموسوعة واستصدرنا به مرسوماً تنظيمياً، ورصدت له ميزانية مالية خاصة، وقطعنا فيه مرحلة تحضيرية هامة، وضع فيها الهيكل اللفظي الشامل لجميع الكلمات الاصطلاحية الفقهية في المذاهب الأربعة كما وضع في هذه المرحلة معجم للفقه الظاهري من كتاب (المحلّي) لابن حزم، وفيه خلاصات لأحكام المذهب في كل موضوع ومسائله مرتباً كذلك على حروف الهجاء، ومحالا في كل منها على التفصيل في مكانه من المحلي، ليكون مساعداً لمن يكتبون موضوعات الموسوعة الفقهية في الرجوع إليه، باعتبار أنه من أمهات الكتب في الفقه المقارن.

ولما حصلت الوحدة بين سورية ومصر سنة ١٩٥٨ رغبت وزارة الأوقاف المصرية أن تشارك في هذا العمل وتقوم بتمويله، فألفت لجنة موحدة جمعت بين أعضاء لجنة دمشق وآخرين مصريين، منهم الأستاذان الكبيران الشيخ علي الخفيف والشيخ محمد أبو زهرة، رحمهما الله، وفي هذه المرحلة سرنا في مشروع الموسوعة الفقهية سيرا حثيثا، وخرج منه جزء نموذجي يتضمن عددا من الموضوعات من

حروف شتى غير مقيدة بالتسلسل الهجائي، لتُرى فيه طريقة معالجة الموضوعات وعرض مسائلها في مختلف المذاهب.

ولما وقع الانـفصال بين مصر وسوريـة عام ١٩٦١ على يد الضبـاط السوريين توقف عمل الموسوعة في مصر وسورية.. وفي آخر العام ١٩٦٦ فكرت وزارة الأوقاف في الكويت أن تتبنى هذا المشروع العلمي العظيم، فاستطلعت رأي شخصيات عديدة في البلاد العربية، ثم وقع اختيارها عليَّ، فاستعارتني من جامعة دمشق لاكون خبيراً للموسوعة الفقهية وتنفيذ هذا المشروع لديها، فقمت بتأسيس جديد لسير العمل والاستكتاب فيه مدة خمس سنوات أنجزنا خلالها مايعادل ربع المشروع كتابة.. وكنت قد قدرت لهم أن يخرج في ثلاثين مجلدا، في كل مجلد ألف صفحة، وفي كل صفحة مابين ٢٥٠ و ٣٠٠ كلمة.

وذات صباح من صيف ١٩٧١ فوجئنا بقرار من وزير الأوقاف الجديد، وهو غير الذي بدأنا العمل معه، يقضي بإلغاء المشروع !!.. وعلى أثر ذلك استدعتني الجامعة الأُردنية للتدريس في كلية الشريعة التي أنشأتها في ذلك الحين، فالتحقت بها حيث لاأزال، وكنت قبل هذا قد أُحِلتُ على المعاش من جامعة دمشق لبلوغ السن القانونية خلال وجودي في الكويت.. ثم جرى تبديل وزاري آخر في الكويت، فعرفوا خطأ الوزير السابق في إلغائه مشروع الموسوعة الذي سيكون من المآثر المخلدة لذكر الكويت على الأجيال، فقرروا استئناف العمل فيه، واتصلوا بي، ولكن ارتباطي بالجامعة الأُردنية كان حائلاً دون العودة، فألفوا لجنة للموسوعة، وتابعوا العمل بصدق وجدية، وهو الآن ماض بطريقة تختلف عن طريقتي التي أسستها، وأثناء وجودي في الكويت أنجزنا معجما للفقه الحنبلي من كتاب المغني لابن قدامة المقدسي، على غرار معجم الفقه الظاهري من كتاب المحلّي لابن حزم الذي أنجزناه بدمشق.

م ـــ هذه معلومات هامة عن مشروع الموسوعة الفقهية ودوركم فيها، فماذا عن المجمع الفقهى بمكة المكرمة ؟ ..

مص ــ إن المجلس التأسيسى لرابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة قرر فى سنة ١٣٩٨ هـ إقامة مجمع للفقه الإسلامى بمكة ووضع له نظاماً للنظر فى المشكلات العصرية وقضايا الساعة وتقرير الحلول الشرعية فيها على ضوء نصوص الشريعة ومبادئها العامة واجتهادات الفقهاء وهذه بداية تفتح الطريق للاجتهاد الجماعى الذى نحن بمسيس الحاجة إليه فى ظل هذا التطور السريع للحياة العصرية وقد اختارنى مجلس الرابطة لعضوية المجمع .

م ــ أتذكر أنكم من أول المنادين بفكرة الاجتهاد الجماعى فإلى أين وصلت هذه الفكرة فى مجال التطبيق ؟ .

مص ــ حقاً . كنت فى طليعة الذين فكروا وكتبوا فى هذا الموضوع منذ ثلاثين عاماً وقد وجد القناعة المنشودة ولله الحمد . ومن ذلك أن السيد محمد سرور الصبان رحمه الله قد طلب إلي وضع مشروع ونظام لإنشاء مجمع فقهى فوضعته وقدمته إليه فى بيروت. وللمجمع دورة سنوية فى مكة يتدارس فيها البحوث المقدمة إليه ويقرر فيها ما يرى . وقد قدمت إليه عدة بحوث هى الآن قيد النظر منها بحث ضاف عن المصارف ومعاملاتها والفوائد التى تتعامل على أساسها والحكم الشرعى فيها ومنها أيضاً بحث عن التلقيح الصناعى البشرى وأطفال الأنابيب وهو من أهم قضايا الساعة . . ولهذا كله صلة وثيقة بقضية الاجتهاد الجماعى الذى أصبح هذه الأيام هو الحل الأمثل لحماية العلم الشرعى من فوضى الاجتهادات الفردية .

م ــ بقي أن تحدثونا عن مشروع القانون المدني الموحد في جامعة الدول العربية . .

مص ــ في العام ١٩٧٥ قررت جامعة الدول العربية توحيد القانون المدني، وهو القانون العام لجميع المعاملات ونتائجها المالية في البلاد العربية، وألفت لذلك لجنة تجتمع في دورات سنوية بمقر الجامعة، ولم تكن فكرة الفقه الإسلامي والتراث واردة في الأذهان، بل بدءوا على أساس اختيار النصوص الأنسب من مجموع القوانين المدنية القائمة في البلاد

العربية، وكلها أجنبية الأصول منقطعة عن تراث الفقه الإسلامي، وأساسها القانون المصري الجديد كما أسلفنا، وبعد سير اللجنة عدة سنوات في وضع النصوص الموحدة نُبهت فانتبهت إلى أنه من غير الممكن قبول قانون مدني موحد في جميع البلاد العربية، إذا لم يكن قائماً على أساس التراث، ومستمداً من الفقه الإسلامي، ومؤصلاً على أصوله بمذكرة أيضاحية تربط مواده جميعا واحدة فواحدة بمراجعها الفقهية ووافياً أيضاً بالحاجات الزمنية.. وعندئذ قرروا ـ عام ١٩٧٨ ـ تحويل شراع السفينة، وتأليف لجنة خبراء من فقهاء الشريعة والقانون لتضع النصوص وتؤصلها على أساس الفقه الإسلامي، ولجنة عامة تُعرض عليها أعمال لجنة الخبراء لإقرارها بالصيغة النهائية، وقد اختاروني عضواً خبيراً في لجنة الخبراء هذه، من حيث كوني أجمع الصفتين الشرعية والقانونية، ولكن لم نمارس العمل في هذا الشأن إلا في السنة ١٩٨٠ بعد انتقال الجامعة العربية إلى تونس إثر انفراد مصر بالصلح مع إسرائيل.. ونحن الآن ماضون في هذا العمل، وقد قطعنا في الطريق الصعب منه مرحلة طويلة، مرحلة وضع نصوص النظرية العامة وتأصيلها.

م ـ هذه المعركة الضارية بين الإسلام والجاهلية الحديثة.. كيف تتوقعون نهايتها؟...

مص ـ إنها معركة مؤسفة، وما سميته أنت بالجاهلية الحديثة أسميه أنا جاهلية العلم، وهي أشد خطرا من جاهلية الجهل، ذلك أن أصحاب هذه الجاهلية ركبهم الغرور بما عندهم من العلم، وإلحادهم قائم على أسس فلسفية، فهم أشد عناداً وأشرس عداء للإسلام من أهل الجاهلية الأولى، التي كان علاجها التوعية والتنوير بخلاف هؤلاء الذين يستعصون على الإصلاح. ومهما يكن فأنا لست متشائماً كثيراً، لأننى أشاهد اتجاهات جديدة فى الشباب المسلم وفى الرأى العام نتيجة للكوارث العظيمة التى ألمت بالأمة الإسلامية وبالبلاد العربية على أيدى أولئك المغرورين المبهورين بتقاليع الغرب .. الذين جمعوا فى قلوبهم بين الغرور بمظاهر المدنية والجهل التام بحقائق الإسلام، أجل .. إن هناك

إدراكاً جديداً ووعياً أكيداً فى البيئة الإسلامية نلمسها فى أوساط الشباب وفى أوساط بعض الحكام أيضاً . وقد اتسعت معلومات هؤلاء وأولئك عن الإسلام فازداد إقبالهم عليه وثقتهم به ، فنفضوا أيديهم من الأمل بأولئك الذين لا يزال دم الاستعمار وشهوته يجريان فى عروقهم ، فيدفعانهم إلى الإيقاع بأهل الإسلام ، ولكن بأسلحة غير التى جربها أسلافهم فى عهود الاستعمار العسكرى ، ويتضح ذلك فى أساليبهم الشيطانية التى يريدون بها تسميم أفكار المسلمين ، وإفساد مجتمعاتهم .. غير أن محاولاتهم الهدامة التى سجلت كثيراً من النجاح لهم قد بدأت تنكشف لأعين الغافلين ، فيزدادون كل يوم حذراً منهم واقتراباً من دينهم وأصالتهم الإسلامية .

وإن أملى لكبير إن هذا التفتح الذى نشهده بين المثقفين من الشباب والفتيات وبعض الحكام ، سيؤتى أكله قريباً إن شاء الله ، ومن دواعى التفاؤل هذا الاتجاه الذى نراه اليوم لدى بعض حكام المسلمين نحو تطبيق الشريعة الإلهية فى بعض الدول العربية والإسلامية ، وننتظر أن تتعهم فى ذلك دول أخرى ، وأن تتابع خطوات الخير فى هذا الطريق حتى تشمل البيت والشارع والمصنع ومؤسسات الدولة كلها بفضل الله وتوفيقه .. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

يقول مؤلف الكتاب :

ولقد شاء الله جلت حكمته أن تكون خاتمة هذه الصفحات احدى البشريات التي من حقها أن تبعث الرضى في كل نفس تقدر العلم وأهله، وذلك بمابثته إذاعة الرياض من أن اللجنة الناظرة في جائزة الملك فيصل ــ رحمه الله ــ قد وقع اختيارها على علامتنا هذا فائزاً وحيداً بجائزة هذا العام ــ ١٤٠٤ هــ للدراسات الإسلامية على كتابه (المدخل إلي نظرية الالتزام العامة في الفقه الإسلامي) وهو الحلقة الثالثة من سلسلة (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد) آخذة في الاعتبار ماللاستاذ من جهود متعددة في هذا الميدان ..

فللأستاذ الصديق تهانينا القلبية على هذا التقدير الذي صادف أهله، وللجنة الحكيمة أخلص الثناء على قرارها الذي وافق محلّه ..

القرآن العظيم

كتـاب من العلم المحيط مدادهُ ... به صفحاتُ الكون تتلى وتسمـعُ
فآياته مرآة صدق جليّـة ... يُرى مامضى فيها وما يُتَوقـع
عظاتٌ وأمثال وهدْي وحكمةٌ ... وشرع جليل نيّر الحكم مُبـدع
ألَا إنـه القرآن ، فاعلم ، مَلاذُنا ... فما دونه خير ، ولا عنه منـزَع
به قارعات كالصواعقِ قـوةً ... ونور رفيق بالعيون (مشعشع) !
بلاغ كساه الله ثوبَ بلاغـةٍ ... ترد بليغَ القوم عياً فيُخضـع
علاج لبؤس البائسيـن محقّـقٌ ... وَروْح لروح اليائسين مشجِـع
كفاءٌ لحاجات الحياة جميعها ... فللفرد تقويم وللقوم مَهْيَع
شفاء لأدواء النفوس ورحمةٌ ... وتكراره أحلى لسمع وأمتـع
تـراه جديداً كلما جئت سامعا ... كـأن المعاني من مثانيه تَنبـع

فهرس الكتاب

* * * *

بعض آثار المؤلف المطبوعة

مشكلات الجيل فى ضوء الإسلام .
تأملات فى المرأة والمجتمع .
كلمات من القلب .
كلمات مضيئة .
أضواء على حقائق .
مشاهد من حياة الصديق .
تحفة اللبيب من ثقافة الأديب .
ذكريات لا تنسى « من الفلبين وأندونيسية وتركية وقبرص » .
مشاهداتى فى الهند .
مع المجاهدين والمهاجرين فى باكستان
علماء ومفكرون عرفتهم ج ١ .
دروس من الوحى .
نظرات تحليلية فى القصة القرآنية .
أفكار إسلامية .
همسات قلب « شعر » .
نار ونور « شعر » .

فى القصـــة

صور من حياتنا .
قصتان من الماضى .
القصص الأربع للشباب والطلاب .
قصص من سورية .
قصص من مجتمعنا .
الآيات الثلاث .

بطل من الصعيد .
دماء وأشلاء .
الألغام المتفجرة .
اللقاء السعيد .
من أجل الإسلام .
قصص فى تاريخنا .
بطل إلى النار .

* * * *